① التفسير

المجموعة الكاملة لمؤلفات

الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي

رحمه الله

تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

الجزء السابع

من أول تفسير سورة الدخان إلى آخر تفسير سورة الناس

مركز صالح بن صالح الثقافي

بعنيزة

المملكة العربية السعودية

١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م



تفسير

سورة الدخان

بسم الله الرحمن الرحيم

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾

هذا قسم بالقرآن على القرآن .

فأقسم بالكتاب المبين لكل مايحتاج إلى بيانه أنه أنزله [فى ليلة مباركة] أى : كثيرة الخير والبركة ، وهى ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر .

فأنزل أفضل الكلام ، بأفضل الليالى والأيام ، على أفضل الأنام بلغة العرب الكرام ، لينذر به قوماً ، عمتهم الجهالة ، وغلبت عليهم الشقاوة ، فيستضيئوا بنوره ويقتبسوا من هداه ، ويسيروا وراءه ، فيحصل لهم الخير الدنيوى ، والخير الأخروى ، ولهذا قال :

[إنا كنا منذرين . فيها] أى : فى تلك الليلة الفاضلة التى نزل فيها القرآن [يفرق كل أمر حكيم] أى : يفصل ويميز ، ويكتب كل أمر قدرى وشرعى ، حكم الله به .

أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم

وهذه الكتابة والفرقان ، الذى يكون في ليلة القدر ، إحدى الكتابات ، التي تكتب وتميز ، فتطابق الكتاب الأول ، الذى كتب الله به مقادير الخلائق ، وآجالهم ، وأرزاقهم ، وأعمالهم ، وأموالهم .

ثم إن الله تعالى ، قد وكل ملائكة ، تكتب ما سيجرى على العبد ، وهو فى بطن أمه .

ثم وكلهم بعد خروجه إلى الدنيا ، وكّل به كراما كاتبين ، يكتبون ويحفظون عليه أعماله .

ثم إنه تعالى يقدر فى ليلة القدر ، ما يكون فى السنة .

وكل هذا من تمام علمه وكمال حكمته ، وإتقان حفظه ، واعتنائه تعالى بخلقه [أمرا من عندنا] أى : هذا الأمر الحكيم ، أمر صادر من عندنا .

[إنا كنا مرسلين] للرسل ، ومنزلين للكتب ، والرسل تبلغ أوامر المرسل وتخبر بأقداره .

[رحمة من ربك] أى : إن إرسال الرسل وإنزال الكتب ، التى أفضلها القرآن ، رحمة من رب العباد بالعباد .

فما رحم الله عباده برحمة ، أجل من هدايتهم بالكتب والرسل .

وكل خير ينالونه فى الدنيا والآخرة ، فإنه من أجل ذلك وسببه .

[إنه هو السميع العليم] أى : يسمع جميع الأصوات ، ويعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة ، وقد علم تعالى ، ضرورة العباد إلى رسله وكتبه ،

مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ

فرحمهم بذلك، ومنّ عليهم، فلله تعالى الحمد، والمنة، والإحسان.

[رب السموات والأرض وما بينهما] أى: خالق ذلك ومدبره، والمتصرف فيه بما شاء.

[إن كنتم موقنين] أى: عالمين بذلك علماً مفيداً لليقين، فاعلموا أن الرب للمخلوقات، هو إلهها الحق، ولهذا قال:

[لا إله إلا هو] أى: لا معبود إلا وجهه، [يحيى ويميت] أى: هو المتصرف وحده، بالإحياء والإماتة، وسيجمعكم بعد موتكم فيجزيكم بعملكم، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

[ربكم ورب آبائكم الأولين] أى رب الأولين والآخرين، مربيهم بالنعم، الدافع عنهم النقم.

فلما قرر تعالى ربوبيته وألوهيته، بما يوجب العلم التام، ويدفع الشك، أخبر أن الكافرين مع هذا البيان [فى شك يلعبون] أى: منغمرون فى الشكوك والشبهات، غافلون عما خلقوا له، قد اشتغلوا باللعب الباطل، الذى لايجدى عليهم إلا الضرر.

[فارتقب] أى: انتظر فيهم العذاب، فإنه قد قرب وآن أوانه.

[يوم تأتى السماء بدخان مبين ۞ يغشى الناس] أى: يعمهم ذلك الدخان، ويقال لهم: [هذا عذاب أليم].

أَلِيمٌ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ

واختلف المفسرون فى المراد بهذا الدخان .

فقيل : إنه الدخان ، الذى يغشى الناس ويعمهم ، حين تقرب النار من المجرمين فى يوم القيامة ، وأن الله توعدهم بعذاب يوم القيامة وأمر نبيه أن ينتظر بهم ذلك اليوم .

ويؤيد هذا المعنى ، أن هذه الطريقة ، هى طريقة ، القرآن ، فى توعد الكفار والتأنى بهم ، وترهيبهم بذلك اليوم وعذابه ، وتسلية الرسول والمؤمنين بالانتظار ، بمن آذاهم .

ويؤيده أيضا ، أنه قال فى هذه الآية : [أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين] وهذا يقال يوم القيامة للكفار ، حين يطلبون الرجوع إلى الدنيا ، فيقال : قد ذهب وقت الرجوع .

وقيل : إن المراد بذلك ، ما أصاب كفار قريش ، حين امتنعوا من الإيمان ، واستكبروا على الحق ، فدعا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، فقال : « اللهم أعنى عليهم بسنين كسنى يوسف » .

فأرسل الله عليهم الجوع العظيم ، حتى أكلوا الميتات والعظام ، وصاروا يرون الذى بين السماء والأرض ، كهيئة الدخان ، وليس به . وذلك من شدة الجوع .

فيكون — على هذا — قوله : [يوم تأتى السماء بدخان] أن ذلك ، بالنسبة إلى أبصارهم ، وما يشاهدون ، وليس بدخان حقيقة .

مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾

ولم يزالو بهذه الحالة ، حتى استرحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألوه أن يدعو الله لهم ، أن يكشفه الله عنهم ، فكشفه الله عنهم .

وعلى هذا فيكون قوله : [إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون] إخبار بأن الله سيصرفه عنهم ، وتوعدٌ لهم أن يعودوا إلى الاستكبار والتكذيب ، وإخبار بوقوعه فوقع ، وأن الله سيعاقبهم بالبطشة الكبرى ، قالوا : وهى وقعه « بدر » ، وفى هذا القول نظر ظاهر .

وقيل : إن المراد بذلك ، أن ذلك من أشراط الساعة ، وأنه يكون فى آخر الزمان ، دخان يأخذ بأنفاس الناس ، ويصيب المؤمنين منه كهيئة الدخان .

والقول ، هو الأول .

وفى الآية احتمال أن المراد بقوله [فارتقب يوم تأتى السماء بدخان مبين * يغشى الناس هذا عذاب أليم * ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين * ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون] أن هذا كله يوم القيامة .

وأن قوله تعالى [إنا كاشفو العذاب قليلا إنكم عائدون * يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون] أن هذا ، ما وقع لقريش كما تقدم .

وإذا نزلت هذه الآيات على هذين المعنيين ، لم تجد فى اللفظ ، ما يمنع من ذلك .

﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَآءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾ أَنْ أَدُّوٓاْ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ

بل تجدها مطابقة لهما أتم المطابقة ، وهذا الذى يظهر عندى ، ويترجح والله أعلم .

* لما ذكر تعالى تكذيب من كذب الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ذكر أن لهم سلفا من المكذبين .

فذكر قصتهم مع موسى ، وما أحل الله بهم ليرتدع هؤلاء المكذبون عن ما هم عليه فقال : [ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون] أى : ابتليناهم واختبرناهم بإرسال رسولنا ، موسى بن عمران إليهم ، الرسول الكريم ، الذى فيه من الكرم ومكارم الأخلاق ، ماليس فى غيره .

[أن أدوا إلى عباد الله] أى : قال لفرعون وملإه : أدوا إلىّ عباد الله .

يعني بهم : بنى إسرائيل ، أى : أرسلوهم ، وأطلقوهم من عذابكم وسومكم إياهم سوء العذاب ، فإنهم عشيرتى ، وأفضل العالمين فى زمانهم .

وأنتم قد ظلمتموهم ، واستعبدتموهم بغيرحق ، فأرسلوهم ليعبدوا ربهم .

[إنى لكم رسول أمين] أى : رسول من رب العالمين ، أمين على ما أرسلنى به ، لا أكتمكم منه شيئا ، ولا أزيد فيه ولاأنقص ، وهذا يوجب تمام الانقياد له .

[وأن لاتعلوا على الله] بالاستكبار عن عبادته ، والعلو على عباد الله .

بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنَّ هَٰؤُلَاءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا

[إنى آتيكم بسلطان مبين] أى : بحجة بينة ظاهرة ، وهو ما أتى به من المعجزات الباهرات ، والأدلة القاهرات .

فكذبوه ، وهموا بقتله ، فلجأ إلى الله من شرهم فقال : [وإنى عذت بربى وربكم أن ترجمون] أى : تقتلونى شر القتلات ، بالرجم بالحجارة .

[وإن لم تؤمنوا لى فاعتزلون] أى : لكم ثلاث مراتب .

الإيمان بى وهو : مقصودى منكم ، فإن لم تحصل منكم هذه المرتبة ، فاعتزلونى ، لا علىّ ولا لى ، فاكفونى شركم .

فلم تحصل منهم المرتبة الأولى ولا الثانية ، بل لم يزالو متمردين عاتين على الله ، محاربين لنبيه موسى عليه السلام ، غير ممكنين له من قومه بنى إسرائيل .

[فدعا ربه أن هؤلاء قوم مجرمون] أى : قد أجرموا جرما ، يوجب تعجيل العقوبة .

فأخبر عليه السلام بحالهم ، وهذا دعاء بالحال ، التى هى أبلغ من المقال ، عن نفسه عليه السلام [رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير] .

فأمره الله أن يسرى بعباده ليلا ، وأخبره أن فرعون وقومه ، سيتبعونه .

إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُواْ

[واترك البحر رهوا[1]] ، وذلك أنه لما سرى موسى ببنى إسرائيل كما أمره الله ، ثم تبعهم فرعون ، أمر الله موسى أن يضرب البحر ، فضربه فصار اثنى عشر طريقا ، وصار الماء من بين تلك الطرق ، كالجبال العظيمة فسلكه موسى وقومه .

فلما خرجوا منه ، أمره الله أن يتركه رهوا ، أى : بحاله ، ليسلكه فرعون وجنوده [إنهم جند مغرقون] .

فلما تكامل قوم موسى خارجين منه ، وقوم فرعون داخلين فيه، أمره الله تعالى ، أن يلتطم عليهم ، فغرقوا عن آخرهم ، وتركوا ما متعوا به من الحياة الدنيا ، وأورثه الله بنى إسرائيل ، الذين كانوا مستعبدين لهم ، ولهذا قال :

[كم تركوا من جنات وعيون * وزروع ومقام كريم * ونعمة كانوا فيها فاكهين * كذلك وأورثناها] أى : هذه النعمة المذكورة [قوما آخرين] وفى الآية الأخرى « كذلك وأورثناها بنى إسرائيل » .

---

(١) رهوا . أى : ساكناً منفرجاً حتى يدخله فرعون وجنوده ، وهم القبط .

مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ

[فما بكت عليهم السماء والأرض] أى : لما أتلفهم الله وأهلكهم ، لم تبك عليهم السماء والأرض ، أى : لم يحزن عليهم ، ولم ييأس على فراقهم ، بل كل استبشر بهلاكهم وتلفهم حتى السماء والأرض ، لأنهم ما خلفوا من آثارهم ، إلا ما يسود وجوههم ، ويوجب عليهم اللعنة والمقت من العالمين .

[وما كانوا منظرين] أى : ممهلين عن العقوبة ، بل اصطلمتهم فى الحال .

ثم امتنّ تعالى على بنى إسرائيل فقال : [ولقد نجينا بنى إسرائيل من العذاب المهين] الذى كانوا فيه [من فرعون] إذ يذبح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم .

[إنه كان عاليا] أى : مستكبراً فى الأرض بغير الحق [من المسرفين] المتجاوزين لحدود الله ، المتجرئين على محارمه .

[ولقد اخترناهم] أى : اصطفيناهم وانتقيناهم [على علم] منا بهم ، وباستحقاقهم لذلك الفضل [على العالمين] أى: عالمى زمانهم ومن قبلهم وبعدهم حتى أتى الله بأمة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففضلوا العالمين كلهم ، وجعلهم الله خير أمة أخرجت للناس ، وامتن عليهم ، بما لم يمتن به على غيرهم .

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَـٰهُم مِّنَ ٱلْأَيَـٰتِ مَا فِيهِ بَلَـٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾

إِنَّ هَـٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ

[وآتيناهم] أى : بنى إسرائيل [من الآيات] الباهرة ، والمعجزات الظاهرة .

[ما فيه بلاء مبين] أى : إحسان كثير ، ظاهر منا عليهم ، وحجة عليهم ، على صحة ما جاءهم به نبيهم موسى عليه السلام .

* يخبر تعالى [أن هؤلاء] المكذبين [يقولون] مستبعدين للبعث والنشور :

[إن هى إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين] أى : ما هى إلا الحياة الدنيا ، فلا بعث ، ولا نشور ، ولا جنة ، ولا نار .

ثم قالوا ـ متجرئين على ربهم ، معجزين له ـ : [فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] .

وهذا من اقتراح الجهلة المعاندين ، فى مكان سحيق .

فأى ملازمة بين صدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأنه متوقف على الإتيان بآبائهم ؟

فإن الآيات ، قد قامت على صدق ما جاءهم به ، وتواترت تواترا عظيما من كل وجه .

صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ أَهْلَكْنَٰهُمْ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْلًى عَن مَّوْلًى

قال تعالى : [أهم خير] أى : هؤلاء المخاطبون [أم قوم تبع ، والذين من قبلهم ، أهلكناهم إنهم كانوا مجرمين] .

فإنهم ليسوا خيرا منهم ، وقد اشتركوا فى الإجرام ، فليتوقعوا من الهلاك ، ما أصاب إخوانهم المجرمين .

* يخبر تعالى ، عن كمال قدرته ، وتمام حكمته ، وأنه ما خلق السموات والأرض لعباً ، ولا لهواً ، ولا سدى من غير فائدة ، وأنه ما خلقهما إلا بالحق أى : نفس خلقهما بالحق ، وخلقهما مشتمل على الحق .

وأنه أوجدهما ، ليعبدوه وحده لا شريك له ، وليأمر العباد ، وينهاهم ويثيبهم ، ويعاقبهم .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] ، فلذلك لم يتفكروا فى خلق السموات والأرض .

[إن يوم الفصل] وهو يوم القيامة ، الذى يفصل الله به بين الأولين والآخرين ، وبين كل مختلفين [ميقاتهم] أى : الخلائق [أجمعين] .

شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾

إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعْتِلُوهُ

كلهم ، سيجمعهم الله فيه ، ويحضرهم ويحضر أعمالهم ، ويكون الجزاء عليها .

[يوم لا يغنى مولى عن مولى شيئاً] لا قريب عن قريبه ، ولا صديق عن صديقه .

[ولا هم ينصرون] أى : يمنعون عذاب الله عز وجل ، لأن أحدا من الخلق ، لا يملك من الأمر شيئا .

[إلا من رحم الله ، إنه هو العزيز الرحيم] فإنه هو الذى ينتفع ويرتفع برحمة الله تعالى ، التى تسبب إليها ، وسعى لها سعيها فى الدنيا .

ثم قال تعالى : [إن شجرة الزقوم] إلى تمترون] .

* لما ذكر يوم القيامة ، وأنه يفصل بين عباده فيه ، ذكر افتراقهم إلى فريقين : فريق فى الجنة .

وفريق فى السعير ، وهم : الآثمون بعمل الكفر والمعاصى وأن طعامهم [شجرة الزقوم] شر الأشجار وأفظعها .

وأن طعمها [كالمهل] أى : كالصديد المنتن ، خبيث الريح والطعم ، شديد الحرارة .

[يغلى فى البطون * كغلى الحميم] ويقال للمعذب :

إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوْقَ رَأْسِهِۦ مِنْ عَذَابِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمْتَرُونَ ﴿٥٠﴾

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ فِى جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٢﴾

[ذق] هذا العذاب الأليم ، والعقاب الوخيم [إنك أنت العزيز الكريم] .

أى : بزعمك أنك عزيز ، ستمتنع من عذاب الله ، وأنك كريم على الله لا يصيبك بعذاب .

فاليوم تبين لك ، أنك أنت الذليل المهان الخسيس .

[إن هذا] العذاب العظيم ، هو [ما كنتم به تمترون] أى : تشكون ، فالآن صار عندكم ، حق اليقين .

* هذا جزاء المتقين لله الذين اتقوا سخطه وعذابه ، بتركهم المعاصى ، وفعلهم الطاعات .

فلما انتفى السخط عنهم والعذاب ، ثبت لهم الرضا من الله ، والثواب العظيم ، فى ظل ظليل ، من كثرة الأشجار والفواكه والعيون ، تجرى من تحتهم الأنهار ، يفجرونها تفجيراً فى جنات النعيم .

فأضاف الجنات إلى النعيم ، لأن ما اشتملت عليه كله نعيم وسرور ، كامل من كل وجه ، ما فيه منغص ولا مكدر ، بوجه من الوجوه .

ولباسهم من الحرير الأخضر من السندس والإستبرق ، أي : غليظ الحرير ورقيقه ، مما تشتهيه أنفسهم .

يَلْبَسُونَ مِن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَـٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٥٤﴾ يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَـٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا

[متقابلين] فى قلوبهم ووجوههم ، فى كمال الراحة ، والطمأنينة ، والمحبة والعشرة الحسنة ، والآداب المستحسنة .

[كذلك] النعيم التام والسرور الكامل [وزوجناهم بحور] أى : نساء جميلات من جمالهن وحسنهن ، أنه يحار الطرف فى حسنهن ، وينبهر العقل بجمالهن ، وينخلب اللب لكمالهن [عين] أى : واسعات الأعين ، حسانها .

[يدعون فيها] أى: الجنة [بكل فاكهة] مماله اسم في الدنيا ، ومما لا يوجد له اسم ، ولا نظير فى الدنيا .

فمهما طلبوه ، من أنواع الفاكهة وأجناسها ، أحضر لهم فى الحال ، من غير تعب ولا كلفة .

[آمنين] من انقطاع ذلك ، وآمنين من مضرته ، وآمنين من كل مكدر وآمنين من الخروج منها والموت ، ولهذا قال :

[لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى] أى : ليس فيها موت بالكلية .

ولو كان فيها موت يستثنى ، لم يستثن الموتة الأولى ، التى هى الموتة فى الدنيا ، فتم لهم كل محبوب مطلوب .

[ووقاهم عذاب الجحيم * فضلا من ربك] أى : حصول النعيم واندفاع العذاب عنهم ، من فضل الله عليهم وكرمه ، فإنه تعالى ، هو الذى وفقهم

مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَـٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَـٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

للأعمال الصالحة ، التى بها نالوا خير الآخرة ، وأعطاهم أيضا ، ما لم تبلغه أعمالهم .

[ذلك هو الفوز العظيم] وأى: فوز أعظم من نيل رضوان الله وجنته ، والسلامة من عذابه وسخطه ؟ .

[فإنما يسرناه] أى : القرآن [بلسانك] أى : سهلناه بلسانك ، الذى هو أفصح الألسنة على الإطلاق وأجلها ، فتيسر به لفظه ، وتيسر به معناه .

[لعلهم يتذكرون] ما فيه نفعهم فيفعلونه ، وما فيه ضررهم فيتركونه .

[فارتقب] أى : انتظر ما وعدك ربك ، من الخير والنصر [إنهم مرتقبون] ما يحل بهم من العذاب ، وفرق بين الارتقابين :

رسول الله وأتباعه ، يرتقبون الخير فى الدنيا والآخرة .

وضدهم ، يرتقبون الشر فى الدنيا والآخرة .

تم تفسير سورة الدخان — ولله الحمد والمنة

تفسير

سورة الجاثية

بسم الله الرحمن الرحيم

حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾

---

* يخبر تعالى خبراً ، يتضمن الأمر بتعظيم القرآن ، والاعتناء به ، وأنه [تنزيل من الله] المألوه المعبود ، لما اتصف به من صفات الكمال ، وانفرد به من النعم ، الذى له العزة الكاملة والحكمة التامة .

ثم أيد ذلك ، بما ذكره من الآيات الأفقية والنفسية ، من خلق السموات والأرض ، وما بث فيهما من الدواب ، وما أودع فيهما من المنافع ، وما أنزل الله من الماء ، الذى يحيى به الله البلاد والعباد .

فهذه كلها آيات بينات ، وأدلة واضحات ، على صدق هذا القرآن ، العظيم ، وصحة ما اشتمل عليه ، من الحكم والأحكام .

ودالات أيضا ، على ما لله تعالى من الكمال ، وعلى البعث والنشور .

ثم قسم تعالى الناس ، بالنسبة إلى الانتفاع بآياته وعدمه ، إلى قسمين :

إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَآبَّةٍ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قسم يستدلون بها، ويتفكرون بها ، وينتفعون ، فيرتفعون، وهم المؤمنون بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، إيمانا تاماً ، وصل بهم إلى درجة اليقين .

فزكى منهم العقول ، وازدادت به معارفهم ، وألبابهم ، وعلومهم .

وقسم يسمع آيات الله ، سماعاً تقوم به الحجة عليه ، ثم يعرض عنها ، ويستكبر - كأنه ما سمعها ، لأنها لم تزك قلبه ، ولا طهرته ، بل - بسبب استكباره عنها ، ازداد طغيانه .

وأنه إذا علم من آيات الله شيئاً ، اتخذها هزواً ، فتوعده الله تعالى بالويل فقال :

[ويل لكل أفاك أثيم] أى : كذاب فى مقاله ، أثيم فى فعاله .

وأخبر أن له عذاباً أليما ، وأن [من ورائهم جهنم] تكفى فى عقوبتهم البليغة .

وأنه [لا يغنى عنهم ما كسبوا] من الأموال [شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء] يستنصرون بهم فخذلوهم ، أحوج ما كانوا إليهم لو نفعوا .

وَيْلٌ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٧﴾ يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَٰتِنَا شَيْـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًا أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِى عَنْهُم مَّا كَسَبُوا۟ شَيْـًٔا وَلَا مَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾ هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾

فلما بين آياته القرآنية والعيانية ، وأن الناس فيها على قسمين ، أخبر عن القرآن المشتمل على هذه المطالب العالية ، أنه هدى فقال :

[هذا هدى] وهو وصف عام لجميع القرآن ، فإنه يهدي إلى معرفة الله تعالى ، بصفاته المقدسة ، وأفعاله الحميدة .

ويهدى إلى معرفة رسله ، وأوليائهم ، وأعدائهم ، وأوصافهم .

ويهدى إلى الأعمال الصالحة ويدعو إليها ، ويبين الأعمال السيئة ، وينهى عنها .

ويهدى إلى بيان الجزاء على الأعمال ، ويبين الجزاء الدنيوى والأخروى .

فالمهتدون ، اهتدوا به ، فأفلحوا وسعدوا .

[والذين كفروا بآيات ربهم] الواضحة القاطعة ، التى لا يكفر بها إلا من اشتد ظلمه ، وتضاعف طغيانه [لهم عذاب من رجز أليم] .

۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

---

* يخبر تعالى عن فضله على عباده ، وإحسانه إليهم ، بتسخير البحر ، لسير المراكب والسفن بأمره وتيسيره .

[لتبتغوا من فضله] بأنواع التجارات والمكاسب .

[ولعلكم تشكرون] الله تعالى ، فإنكم إذا شكرتموه ، زادكم من نعمه ، وأثابكم على شكركم ، أجراً جزيلا .

[وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه] أى : من فضله وإحسانه .

وهذا شامل لأجرام السموات والأرض ، ولما أودع الله فيهما ، من الشمس ، والقمر ، والكواكب ، والثوابت ، والسيارات ، وأنواع الحيوانات ، وأصناف الأشجار والثمرات ، وأجناس المعادن ، وغير ذلك ، مما هو معه لمصالح بنى آدم ، ومصالح ما هو من ضروراته .

فهذا يوجب عليهم أن يبذلوا غاية جهدهم ، فى شكر نعمته ، وأن تتغلغل أفكارهم ، فى تدبر آياته وحكمه ، ولهذا قال :

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾

[إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون] .

وجملة ذلك ، أن خلقها وتدبيرها ، وتسخيرها ، دال على نفوذ مشيئة الله ، وكمال قدرته .

وما فيها من الإحكام والإتقان ، وبديع الصنعة ، وحسن الخلقة ، دال على كمال حكمته وعلمه .

ومافيهامن السعة ، والعظمة ، والكثرة ، دال على سعة ملكه وسلطانه.

وما فيها من التخصيصات والأشياء المتضادات ، دليل على أنه الفعال لما يريد .

وما فيها من المنافع ، والمصالح الدينية والدنيوية ، دليل على سعة رحمته ، وشمول فضله وإحسانه ، وبديع لطفه وبره .

وكل ذلك ، دال على أنه وحده ، المألوه المعبود ، الذى لا تنبغى العبادة والذل ، والمحبة ، إلا له ، وأن رسله صادقون فيما جاءوا به .

فهذه أدلة عقلية واضحة ، لا تقبل ريباً ولا شكا .

﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾ ﴾

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بحسن الخلق ، والصبر على أذية المشركين به ، الذين لا يرجون أيام الله ، أى : لا يرجون ثوابه ، ولا يخافون وقائعه فى العاصين ، فإنه تعالى سيجزى كل قوم ، بما يكسبون .

فأنتم -يامعشر- المؤمنين ، يجزيكم على إيمانكم ، وصفحكم ، وصبركم ، ثواباً جزيلا .

وهم — إن استمروا على تكذيبهم — فلا يحل بكم ، ما حل بهم ، من العذاب الشديد ، والخزى ، ولهذا قال : [من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ثم إلى ربكم ترجعون] .

* أى : ولقد أنعمنا على بنى إسرائيل نعماً ، لم تحصل لغيرهم من الناس .

وآتيناهم الكتاب أى : التوراة والإنجيل ، والحكم بين الناس ، والنبوة ، التى امتازوا بها ، وصارت النبوة فى ذرية إبراهيم عليه السلام ، أكثرهم من بنى إسرائيل .

[ورزقناهم من الطيبات] من المآكل والمشارب ، والملابس ، وإنزال المن والسلوى عليهم .

بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ

[وفضلناهم على العالمين] أى : على الخلق[1] بهذه النعم ، ويخرج من هذا العموم اللفظى ، هذه الأمة فإنهم خير أمة أخرجت للناس .

والسياق يدل على أن المراد غيرهذه الأمة ، فإن الله يقص علينا ما امتن به على بنى إسرائيل ، وميزهم على غيرهم .

وأيضا فإن الفضائل التى فاق بها بنو إسرائيل ، من الكتاب ، والحكم ، والنبوة ، وغيرها من النعوت ، قد حصلت كلها لهذه الأمة ، وزادت عليهم هذه الأمة ، فضائل كثيرة ، فهذه الشريعة ، شريعة بنى إسرائيل ، جزء منها .

فإن هذا الكتاب ، مهيمن على سائر الكتب السابقة .

ومحمد صلى الله عليه وسلم ، مصدق لجميع المرسلين .

[وآتيناهم] أى آتينا بنى إسرائيل [بينات] أى : دلالات ، تبين الحق من الباطل [من الأمر] القدرى ، الذى أوصله الله إليهم .

---

(١) قوله « على الخلق » جمهور المفسرين ذهبوا إلى أن المراد بتفضيل بنى إسرائيل على العالمين « عالمى زمانهم فقط » وأما أبو السعود فذهب فى تفسيره إلى أن تفضيل بنى إسرائيل على العالمين مقيد بالنعم التى خصهم الله بها دون غيرهم من الأمم السابقة واللاحقة كما يدل عليه كلامه حيث قال :« حيث آتيناهم ما لم نؤت من عداهم من فلق البحر وإظلال الغمام ونظائرهما . وقيل : عالمى زمانهم» . اهـ وعبر عن القول الثانى: بـ «قيل» ليشعر القارىء بضعف هذا القول .

بَغْيًا بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾

ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ

وتلك الآيات ، هى : المعجزات التى رأوها على يد موسى عليه السلام .

فهذه النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، تقتضى الحال أن يقوموا بها على أكمل الوجوه ، وأن يجتمعوا على الحق ، الذى بينه الله لهم .

ولكن انعكس الأمر ، فعاملوها بعكس ما يجب .

وافترقوا فيما أمروا بالاجتماع به ، ولهذا قال :

[فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم] أى : الموجب لعدم الاختلاف .

وإنما حملهم على الاختلاف ، البغى من بعضهم على بعض ، والظلم .

[إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون] فيميز المحق من المبطل ، والذى حمله على الاختلاف ، الهوى أو غيره .

* أى : ثم شرعنا لك شريعة كاملة ، تدعو إلى كل خير ، وتنهى عن كل شر ، من أمرنا الشرعى [فاتبعها] فإن فى اتباعها ، السعادة الأبدية ، والصلاح والفلاح .

[ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون] أى : الذين تكون أهويتهم ، غير تابعة للعلم ، ولا ماشية خلفه .

وهم كل من خالف شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم ، هواه ، وإرادته ، فإنه ، من أهواء الذين لا يعلمون .

أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾

هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾

[إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئا] أى : لا ينفعونك عند الله ، فيحصلوا لك الخير ، ويدفعوا عنك الشر ، إن اتبعتهم على أهوائهم .

ولا يصلح أن توافقهم وتواليهم ، فإنك وإياهم متباينون .

[وإن الظالمين بعضهم أولياء بعض والله ولى المتقين] يخرجهم من الظلمات إلى النور ، بسبب تقواهم ، وعملهم بطاعته .

* أى : [هذا] القرآن الكريم والذكر الحكيم [بصائر للناس] أى : تحصل به التبصرة فى جميع الأمور للناس ، فيحصل به الانتفاع للمؤمنين.

[وهدى ورحمة لقوم يوقنون] فيهتدون به إلى الصراط المستقيم ، فى أصول الدين وفروعه ، ويحصل به الخير ، والسرور ، والسعادة فى الدنيا والآخرة ، وهى الرحمة .

فتزكو به نفوسهم ، وتزداد به عقولهم ، ويزيد به إيمانهم ويقينهم ، وتقوم به الحجة على من أصر وعاند

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾

---

* أى : أم حسب المسيئون ، المكثرون من الذنوب ، المقصرون فى حقوق ربهم .

[أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات] بأن قاموا بحقوق ربهم ، واجتنبوا مساخطه ، ولم يزالوا مؤثرين رضاه على هوى أنفسهم ؟

أى : أحسبوا أن يكونوا [سواء] فى الدنيا والآخرة ؟

ساء ما ظنوا وحسبوا ، وساء ما حكموا به فإنه حكم يخالف حكمة أحكم الحاكمين ، وخير العادلين ، ويناقض العقول السليمة ، والفطر المستقيمة .

ويضاد ما نزلت به الكتب ، وأخبرت به الرسل .

بل الحكم الواقع القطعى ، أن المؤمنين العاملين الصالحات ، لهم النصر والفلاح ، والسعادة ، والثواب ، فى العاجل والآجل ، كل على قدر إحسانه ، وأن المسيئين ، لهم الغضب والإهانة ، والعذاب ، والشقاء ، فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ

---

* أى : خلق الله السموات والأرض بالحكمة ، وليعبد ، وحده لا شريك له .

ثم يحاسب بعد ذلك من أمرهم بعبادته ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة هل شكروا الله تعالى ، وقاموا بالمأمور ؟ أم كفروا ، فاستحقوا جزاء الكفور ؟

* يقول تعالى [أفرأيت] الرجل الضال الذى [اتخذ إلهه هواه] فما هواه سلكه ، سواء كان يرضى الله ، أم يسخطه .

[وأضله الله على علم[1]] من الله ، أنه لا تليق به الهداية ، ولا يزكو عليها .

---

(١) قوله « وأضله الله على علم » أى : ضلاله لا عن جهل عن الحق ولا عن عدم معرفته بالطريق المستقيم .

بل ضلاله ناشىء عن عناد ، وعن غلبة هواه عليه .

هذا التفسير هو الصواب ، والأحسن ، وذلك لتقوم حجة الله على العبد ، ولا تقوم حجته تعالى على العبد الجاهل بالحق .

يؤيد ما ذهبنا إليه ما قاله أبو السعود فى تفسيره : « على علم » أى : عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله تعالى التى فطر الناس عليها » .

وفى « المنتخب من التفسير » : أنظرت فرأيت أيها الرسول ، من اتخذ إلهه هواه معبوداً له .

=

وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ

وختم على سمعه] فلا يسمع ما ينفعه [وقلبه] فلا يعى الخير [وجعل على بصره غشاوة] تمنعه من نظر الحق [فمن يهديه من بعد الله]أى لا أحد يهديه وقد سد الله عليه أبواب الهداية ، وفتح له أبواب الغواية .

وما ظلمه الله ، ولكن هو الذى ظلم نفسه ، وتسبب لمنع رحمة الله عليه [أفلا تذكرون] ما ينفعكم فتسلكوه ، وما يضركم فتجتنبوه .

[وقالوا] أى : منكرو البعث [ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا

نخضع له وأطاعه وضل عن سبيل الحق على علم منه بهذا السبيل .

وأغلق سمعه فلا يقبل وعظا ، وقلبه فلا يعتقد حقا ، وجعل على بصره غطاء ، فلا يبصر عبرة ، فمن يهديه من بعد إعراض الله عنه أتتركون النظر فلا تتذكرون ؟ !

هذا هو المعنى المعقول فى تفسير هذه الآية ، كما هو واضح من ظاهر عبارتها ، لا كما ذهب إليه مؤلفنا تبعاً للجلالين والنسفى وغيرهما .

وأيضا فما فائدة القول بأنه ضل على علم من الله ؟

فهل هناك من يشك أن ما يحدث فى الكون ، يحدث من غير أن يعلم الله ذلك ؟ اللهم لا ، حتى ، ولا أهل الجاهلية فى زمن الرسول .

لأن عباد الأصنام والجاهلية يعتقدون أن الله يعلم كل شىء وعلمه محيط بجليات الأمور وخفاياها ، وإنما اتخذوا الأصنام آلهة لتكون لهم شفعاء ، ووسطاء فقط .

وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

وما يهلكنا إلا الدهر] إن هى إلا عادات ، وجَرْىٌ على رسوم الليل والنهار ، يموت أناس ، ويحيا أناس ، ومن مات ، فليس براجع إلى الله ، ولا مجازى بعمله .

وقولهم هذا ، صادر عن غير علم [إن هم إلا يظنون] فأنكروا المعاد وكذبوا الرسل الصادقين ، من غير دليل دلهم ، ولا برهان .

إن هى إلا ظنون ، واستبعادات ، خالية عن الحقيقة ، ولهذا قال تعالى:

[وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] وهذا جراءة منهم على الله، حيث اقترحوا هذا الاقتراح وزعموا أن صدق رسل الله ، متوقف على الإتيان بآبائهم .

وأنهم لو جاءوهم بكل آية ، لم يؤمنوا ، إلا إن اتبعتهم الرسل على ما قالوا .

وهم كذبة فيما قالوا ، وإنما قصدهم ، دفع دعوة الرسل ، لا بيان الحق قال تعالى :

[قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لاريب فيه، ولكن أكثر الناس لا يعلمون] وإلا فلو وصل العلم باليوم الآخر إلى قلوبهم ، لعملوا له أعمالا ، وتهيئوا له .

۞ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا

---

* يخبر تعالى عن سعة ملكه ، وانفراده بالتصرف والتدبير ، فى جميع الأوقات .

وأنه [يوم تقوم الساعة] ويجمع الخلائق لموقف القيامة،يحصل الخسار على المبطلين ، الذين أتوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق .

وكانت أعمالهم باطلة ، لأنها متعلقه بالباطل ، فبطلت فى يوم القيامة ، اليوم الذى تستبين فيه الحقائق واضمحلت عنهم ، وفاتهم الثواب ، وحصلوا على أليم العقاب .

ثم وصف تعالى شدة يوم القيامة وهوله ، ليحذره الناس ، ويستعدله العباد فقال :

[وترى] أيها الرائى لذلك اليوم [كل أمة جاثية [1]] على ركبها خوفا ، وذعرا ، وانتظارا لحكم الملك الرحمن .

[كل أمة تدعى إلى كتابها] أى : إلى شريعة نبيهم ، الذى جاءهم من عند الله .

وهل قاموا بها فيحصل الثواب والنجاة ؟ أم ضيعوها ، فيحصل لهم الخسران .

---

(١) أى : ترى أهل كل دين جالسين على الركب من هول الموقف متحفزين لإجابة النداء .

كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ

[اليوم تجزون بما كنتم تعملون] فأمة موسى ، يدعون إلى شريعة موسى ، وأمة عيسى كذلك ، وأمة محمد كذلك .

وهكذا غيرهم ، كل أمة تدعى إلى شرعها الذى كلفت به .

هذا أحد الاحتمالات فى الآية ، وهو معنى صحيح فى نفسه ، غير مشكوك فيه .

ويحتمل أن المراد بقوله [كل أمة تدعى إلى كتابها] أى : إلى كتاب أعمالها ، وما سطر عليها ، من خير وشر ، وأن كل أحد يجازى بما عمله بنفسه ، كقوله تعالى : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها » .

ويحتمل أن المعنيين ، كليهما ، مراد من الآية ، ويدل على هذا قوله : [هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق] أى : هذا كتابنا الذى أنزلنا عليكم ، يفصل بالحق الذى هو العدل .

[إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون] فهذا كتاب الأعمال .

ولهذا فصل ما يفعل الله بالفريقين فقال : [فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات] إيمانا صحيحا وصدقوا إيمانهم بالأعمال الصالحة ، من واجبات ومستحبات [فيدخلهم ربهم فى رحمته] التى محلها الجنة ، وما فيها من النعيم المقيم ، والعيش السليم .

[ذلك هو الفوز المبين] أى : المفاز والنجاة ، والربح ، والفلاح الواضح

تَكُنْ ءَايَٰتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾

المبين الذى إذا حصل للعبد، حصل له كل خير، واندفع عنه كل شر.

[وأما الذين كفروا] بالله، فيقال لهم توبيخا وتقريعا:

[أفلم تكن آياتى تتلى عليكم] وقد دلتكم على ما فيه صلاحكم، ونهتكم عما فيه ضرركم، وهى أكبر نعمة وصلت إليكم، لو وفقتم لها.

[فاستكبرتم] عنها، وأعرضتم، وكفرتم بها، فجنيتم أكبر جناية، وأجرمتم أشد الجرم، فاليوم تجزون ما كنتم تعملون.

ويوبخون أيضا بقوله: [وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها قلتم] منكرين لذلك: [ما ندرى ما الساعة إن نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين][1].

فهذه حالهم فى الدنيا، وحال البعث، الإنكار له، وردوا قول من جاء به. قال تعالى: [وبدا لهم سيئات ما عملوا] أى: وظهر لهم يوم القيامة عقوبات أعمالهم.

[وحاق بهم] أى: نزل [ما كانوا به يستهزئون] أى: نزل بهم العذاب، الذى كانوا فى الدنيا، يستهزئون بوقوعه، وبمن جاء به.

---

(١) بمستيقنين، أي: إمكان إتيان الساعة، فضلا عن إثباتها قطعاً ووقوعها فعلا.

وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ

[وقيل اليوم ننساكم[1]] أى : نتركـكم فى العذاب ، كما نسيتم لقاء يومكم هذا] فإن الجزاء من جنس العمل [ومأواكم النار] أى : هى مقركم ومصيركم .

[وما لكم من ناصرين] ينصرونكم من عذاب الله ، ويدفعون عنكم عقابه .

[ذلكم] الذى حصل لكم من العذاب [بـ] سبب [أنكم اتخذتم آيات الله هزوا] مع أنها موجبة للجد والاجتهاد ، وتلقيها بالسرور والاستبشار ، والفرح .

[وغرتكم الحياة الدنيا ، بزخارفها ، ولذاتها وشهواتها ، فاطمأننتم إليها ، وعملتم لها ، وتركتم العمل للدار الباقية .

---

(١) أى : نتركـكم فى العذاب ترك المنسى . ا هـ . أبو السعود .

وقيل لهؤلاء المشركين — توبيخا — : اليوم نتركـكم فى العذاب كما تركتم الاستعداد للقاء ربكم فى هذا اليوم ، بالطاعة والعمل الصالح .

ومقركم النار ، وليس لكم من ناصرين ينقذونكم من عذابها . ا هـ .

من « المنتخب فى تفسير القرآن الكريم » .

مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

[فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون] أى: ولا يمهلون، ولا يردون إلى الدنيا ليعملوا صالحاً .

[فلله الحمد] كما ينبغى لجلال وجهه وعظيم سلطانه [رب السموات ورب الأرض رب العالمين] أى : له الحمد على ربوبيته لسائر الخلق ، حيث خلقهم ورباهم ، وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة والباطنة .

[وله الكبرياء فى السموات والأرض] أى: له الجلال، والعظمة ، والمجد.

فالحمد ، فيه الثناء على الله ، بصفات الكمال ، ومحبته تعالى ، وإكرامه .

والكبرياء ، فيها عظمته وجلاله ، والعبادة مبنية على ركنين ، محبة الله ، والذل له .

وهما ناشئان عن العلم بمحامد الله ، وجلاله ، وكبريائه .

[وهو العزيز] القاهر لكل شىء .

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فلا يشرع ما يشرعه ، إلا لحكمة ومصلحة ، ولا يخلق ما يخلقه ، إلا لفائدة ومنفعة .

تم تفسير سورة الجاثية ـ ولله الحمد والمنة والفضل

تفســـير

سورة الأحقاف

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ حم ﴿١﴾ تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم ﴿٢﴾

---

* هذا ثناء منه تعالى ، على كتابه العزيز ، وتعظيم له .

وفى ضمن ذلك ، إرشاد العباد إلى الاهتداء بنوره ، والإقبال على تدبر آياته ، واستخراج كنوزه .

ولما بين إنزال كتابه ، المتضمن للأمر والنهى ، ذكر خلقه السموات والأرض ، فجمع بين الخلق والأمر « ألا له الخلق والأمر » كما قال تعالى « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن يتنزل الأمر بينهن » .

وكما قال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده ، أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون * خلق السموات والأرض بالحق » .

فالله تعالى ، هو الذى خلق المكلفين ، وخلق مساكنهم ، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض ، ثم أرسل إليهم رسله ، وأنزل عليهم كتبه وأمرهم ونهاهم ، وأخبرهم أن هذه الدار ، دار أعمال وممر للعمال ، لا دار إقامة ، لا يرحل عنها أهلها .

مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾

وهم سينتقلون منها إلى دار الإقامة والقرار ، وموطن الخلود والدوام .

وإنما أعمالهم ، التى عملوها فى هذه الدار ، سيجدون ثوابها فى تلك الدار كاملاً موفرا .

وأقام تعالى الأدلة على تلك الدار ، وأذاق العباد نموذجا من الثواب والعقاب العاجل ، ليكون أدعى لهم إلى طلب المحبوب ، والهرب من المرهوب .

ولهذا قال هنا : [ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق] .

أى : لا عبثا ، ولا سدى ، بل ليعرف العباد عظمة خالقهما ،ويستدلوا على كماله ، ويعلموا أن الذى خلقهما ، قادر على أن يعيد العباد بعد موتهم للجزاء ، وأن خلقهما وبقاءهما ، مقدر إلى ساعة معينة [وأجل مسمى] .

فلما أخبر بذلك ـ وهو أصدق القائلين ، وأقام الدليل ، وأنار السبيل ـ أخبر ـ مع ذلك ـ أن طائفة من الخلق ، قد أبوا إلا إعراضا عن الحق ، وصدوفا عن دعوة الرسل فقال :

[والذين كفروا عما أنذروا(١) معرضون(٢)] .

---

(١) أنذروا . أى : خُوِّفوا من هول ذلك اليوم ، ومع ذلك التخويف ما زالوا مصرين على كفرهم حتى فارقوا الدنيا وهم كافرون .

(٢) معرضون . أى : غير مقبلين على دعوة الرسل ولا مؤمنين بيوم القيامة ولا بالبعث ، ولا يهتمون بالاستعداد لذلك اليوم الذى يخلقون فيه خلقا جديداً، ثم يبعثهم الله لمحاسبتهم ومجازاتهم .

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ

وأما الذين آمنوا ، فلما علموا حقيقة الحال ، قبلوا وصايا ربهم ، وتلقوها بالقبول والتسليم ، وقابلوها بالانقياد والتعظيم ، ففازوا بكل خير، واندفع عنهم كل شر .

* أى [قل] لهؤلاء الذين أشركوا بالله ، أوثانا وأندادا ، لا تملك نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشورا .

قل لهم ـ مبينا عجز أوثانهم ، وأنها لا تستحق شيئا من العبادة ـ : [أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك فى السموات] .

هل خلقوا من أجرام السموات شيئا ؟ هل خلقوا جبالا ؟ هل أجروا أنهارا ؟ .

هل نشروا حيوانا ؟ هل أنبتوا أشجارا ؟

هل كان منهم معاونة على خلق شىء من ذلك ؟

لا شىء من ذلك ، بإقرارهم على أنفسهم ، فضلا عن غيرهم .

فهذا دليل عقلى قاطع ، على أن كل من سوى الله ، فعبادته باطلة .

ثم ذكر انتفاء الدليل النقلى فقال : [ائتونى بكتاب من قبل هذا] الكتاب يدعو إلى الشرك .

مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ

[أو أثاره[1] من علم] موروث عن الرسل يأمر بذلك .

من المعلوم أنهم عاجزون أن يأتوا عن أحد من الرسل ، بدليل يدل على ذلك .

بل نجزم ونتيقن أن جميع الرسل ، دعوا إلى توحيد ربهم ، ونهوا عن الشرك به .

وهى أعظم ما يؤثر عنهم من العلم ، قال تعالى : « ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

وكل رسول قال لقومه: « اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » .

فعلم أن جدال المشركين فى شركهم ، غير مستندين على برهان ولا دليل ، وإنما اعتمدوا على ظنون كاذبة ، وآراء كاسدة ، وعقول فاسدة .

---

(١) أثارة . أى : بقية من علم ، بقيت عليكم من علوم الأولين شاهدة باستحقاقهم للعبادة .

ومعنى الآية « إيتونى بكتاب من عند الله ، أو أثر من علم الأولين ، تستندون إليه في دعواكم ، أن ما تعبدون من الأوثان وغيرها ، حق وصراط مستقيم ، إن كنتم صادقين .

هيهات هيهات. فَجَمْعُ نجوم السماء وجَعْلُهَا فى حجوركم ، أقرب إليكم ، مما تدعونه .

مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾

يدلك على فسادها ، استقراء أحوالهم ، وتتبع علومهم وأعمالهم ، والنظر فى حال من أفنوا أعمارهم بعبادته ، هل أفادهم شيئا فى الدنيا أو فى الآخرة ؟

ولهذا قال تعالى : [ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة] أى : مدة مقامه فى الدنيا ، لا ينتفع به مثقال ذرة ، [وهم[1] عن دعائهم غافلون] .

لا يسمعون منهم دعاء ، ولا يجيبون لهم نداء ، هذا حالهم فى الدنيا .

ويوم القيامة يكفرون بشركـكم [وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء] يلعن بعضهم بعضا ، ويتبرأ بعضهم من بعض [وكانوا بعبادتهم كافرين] .

---

(١) وهم : أى الأصنام « عن دعائهم » أى : عبادتهم « غافلون » لأنها جمادات لا تعقل . الضمير الأول لمفعول « يدعو » والثانى ، لفاعله ، والجمع فيهما باعتبار معنى « مَنْ » كما أن الإفراد فيما سبق وهو قوله « ومن أضل ممن يدعو » باعتبار لفظها .

وأتى بضمير العقلاء وهو « هم » وفى قوله « لهم » وفى « كانوا » لإجرائهم إياها مجرى العقلاء ، ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة مع ظهور حالها للتهكم بها وبعبدتها ، كقوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم » الآية . اهـ . أبو السعود ، بتصرف .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ

---

* [وإذا تتلى عليهم] أى : على المكذبين [آياتنا بينات] بحيث تكون على وجه ، لا يمترى بها ، ولا يشك فى وقوعها وحقها ، لم تفدهم خيرا ، بل قامت عليهم بذلك الحجة .

ويقولون من إفكهم وافترائهم [للحق لما جاءهم هذا سحر مبين] أى : ظاهر لا شك فيه ، وهذا من باب قلب الحقائق ، الذى لا يروج إلا على ضعفاء العقول .

وإلا فبين الحق الذى جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبين السحر من المنافاة والمخالفة ، أعظم مما بين السماء والأرض .

وكيف يقاس الحق الذى علا وارتفع ارتفاعا على الأفلاك ، وفاق بضوئه ونوره ، نور الشمس ، وقامت الأدلة الأفقية والنفسية عليه ، وأقرت به وأذعنت ، أولو البصائر والعقول الرزينة ، كيف يقاس الحق الذى هذا شأنه ، بالباطل الذى هو السحر ، الذى لا يصدر إلا من ضال ظالم خبيث النفس ، خبيث العمل ؟! فهو مناسب له وموافق لحاله ، وهل هذا ، إلا من البهرجة ؟ .

[أم يقولون افتراه] أى : افترى محمد هذا القرآن من عند نفسه ، فليس هو من عند الله .

[قل] لهم : [إن افتريته] فالله علىّ قادر وبما تفيضون فيه عالم .

كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ

فكيف لم يعاقبنى على افترائى ، الذى زعمتم ؟

[فلا تملكون لى من الله شيئا] إن أرادنى الله بضر ، أو أرادنى برحمة .

[هو أعلم بما تفيضون[1] فيه كفى بهشهيدا بينى وبينكم] فلو كنت متقولا عليه ، لأخذ منى باليمين ، ولعاقبنى عقابا يراه كل أحد ، لأن هذا ، أعظم أنواع الافتراء ، لو كنت متقولا .

ثم دعاهم إلى التوبة مع ما صدر منهم من معاندة الحق ومخاصمته،فقال :

[وهو الغفور الرحيم] أى : فتوبوا إليه ، وأقلعوا عما أنتم فيه ، يغفر لكم ذنوبكم ، ويرحمكم ، فيوفقكم للخير ، ويثيبكم جزيل الأجر .

[قل ما كنت بدعا من الرسل] أى : لست بأول رسول جاءكم ، حتى تستغربوا رسالتى وتستنكروا دعوتى ، فقد تقدم من الرسل والأنبياء ، من وافقت دعوتى دعوتهم ، فلأى شيء تنكرون رسالتى ؟ .

[وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم] أى : لست إلا بشراً ، ليس بيدى من الأمر شيء ، والله تعالى المتصرف بى وبكم ، الحاكم علىّ وعليكم .

---

(١) بما تفيضون فيه . أى : تندفعون فيه من القدح فى وحى الله والطعن فى آياته ، وتسميته « سحراً » تارة ، و « فرية » أخرى . اهـ . أبو السعود والنسفى .

إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾

[إن أتبع إلا ما يوحى إلى] ولست آتي بالشيء من عندى .

[وما أنا إلا نذير مبين] فإن قبلتم رسالتى ، وأجبتم دعوتى ، فهو حظكم ، ونصيبكم فى الدنيا والآخرة .

وإن رددتم ذلك علىّ ، لحسابكم على الله ، وقد أنذرتكم ، ومن أنذر فقد أعذر .

[قل أرأيتم إن كان من عند الله ، وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم] أى : أخبرونى ، لو كان هذا القرآن من عند الله ، وشهد على صحته ، الموفقون من أهل الكتاب ، الذين عندهم من الحق ، ما يعرفون أنه الحق ، فآمنوا به واهتدوا ،فتطابقت أنباء الأنبياء وأتباعهم النبلاء ، واستكبرتم ، أيها الجهلاء الأغبياء ، فهل هذا إلا أعظم الظلم ، وأشد الكفر ؟ .

[إن الله لا يهدى القوم الظالمين] ومن الظلم ، الاستكبار عن الحق بعد التمكن منه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا

---

* أى : قال الكفار بالحق ، معاندين له ، ورادّين لدعوته :

[لو كان خيرا ما سبقونا إليه] أى : ما سبقنا إليه المؤمنون ، وكنا أول مبادر به ، وسابق إليه ، وهذا من البهرجة ، فى مكان .

فأى دليل ، يدل على أن علامة الحق ، سبق المكذبين به ، للمؤمنين ؟

هل هم أزكى نفوسا ؟ أم أكمل عقولا ، أم الهدى بأيديهم ؟

ولكن هذا الكلام الذى صدر منهم ، يعزون به أنفسهم ، بمنزلة من لم يقدر على الشىء ، ثم طفق يذمه ، ولهذا قال :

[وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم] أى : هذا السبب الذى دعاهم إليه ، أنهم لما لم يهتدوا بهذا القرآن ، وفاتهم أعظم المواهب ، وأجل الرغائب ، قدحوا فيه ، بأنه كذب ، وهو الحق الذى لا شك فيه ، ولا امتراء يعتريه .

[و] قد وافق الكتب السماوية [من قبله] خصوصاً ، أكملها ، وأفضلها بعد القرآن ، وهى التوراة [كتاب موسى إماماً ورحمة] .

أى : يقتدى بها بنو إسرائيل ، ويهتدون بها ، ويحصل لهم خير الدنيا والآخرة .

كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[وهذا] القرآن [كتاب مصدق] للكتب السابقة ، شهد بصدقها ، وصدَّقها ، بموافقته لها ، وجعله الله [لسانا عربيا] ليسهل تناوله ، ويتيسر تذَكُّره .

[لينذر الذين ظلموا] أنفسهم بالكفر والفسوق والعصيان ، إن استمروا على ظلمهم بالعذاب الوبيل .

[وبشرى] للمحسنين] فى عبادة الخالق ، وفى نفع المخلوقين ، بالثواب الجزيل ، فى الدنيا والآخرة ، ويذكر الأعمال ، التى ينذر عنها ، والأعمال التى يبشر بها .

* أى : إن الذين أقروا بربهم ، وشهدوا له بالوحدانية ، والتزموا طاعته وداموا على ذلك [ثم استقاموا] مدة حياتهم [فلا خوف عليهم] من كل شر أمامهم .

[ولا هم يحزنون] على ما خلَّفوا وراءهم .

[أولئك أصحاب الجنة] أى : أهلها الملازمون لها ، الذين لا يبغون عنها حولا ، ولا يريدون بها بدلا .

[خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون] من الإيمان بالله ، المقتضى للأعمال الصالحة ، التى استقاموا عليها .

﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَٰلُهُ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ

---

* هذا من لطفه تعالى بعباده، وشكره للوالدين، أن وصَّى الأولاد، وعهد إليهم أن يحسنوا إلى والديهم، بالقول اللطيف، والكلام اللين، وبذل المال والنفقة، وغير ذلك، من وجوه الإحسان.

ثم نبَّه على ذكر السبب الموجب لذلك، فذكر ما تحملته الأم من ولدها وما قاسته من المكاره وقت حملها ثم مشقة ولادتها، المشقة الكبيرة، ثم مشقة الرضاع وخدمة الحضانة.

وليست المذكورات مدة يسيرة، ساعة، أو ساعتين.

وإنما ذلك أي: [حمله وفصاله] مدة طويلة قدرها [ثلاثون شهرا]: الحمل، تسعة أشهر ونحوها، والباقي للرضاع، هذا هو الغالب.

ويستدل بهذه الآية مع قوله: « والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين » أن أقل مدة الحمل، ستة أشهر، لأن مدة الرضاع - وهي سنتان - إذا سقطت من الثلاثين شهرا، بقي ستة أشهر مدة للحمل.

[حتى إذا بلغ أشده] أي: نهاية قوته وشبابه، وكمال عقله.

[وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني] أي: ألهمني ووفقني [أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي] أي: نعم الدين، ونعم الدنيا.

وشكره، بصرف النعم في طاعة مسديها ومُوليها، ومقابلته على مِنَّتِهِ، بالاعتراف والعجز عن الشكر، والاجتهاد في الثناء بها على الله.

أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾

والنعم على الوالدين ، نعم على أولادهم وذريتهم ، أنهم لابد أن ينالهم منها ، ومن أسبابها وآثارها .

خصوصاً ، نعم الدين ، فإن صلاح الوالدين ، بالعلم والعمل ، من أعظم الأسباب ، لصلاح أولادهم .

[وأن أعمل صالحاً ترضاه] بأن يكون جامعاً لما يصلحه ، سالماً مما يفسده .

فهذا العمل الذى يرضاه الله ويقبله ، ويثيب عليه .

[وأصلح لى فى ذريتى] لما دعا لنفسه بالصلاح ، دعا لذريته ، أن يصلح الله أحوالهم .

وذكر ، أن صلاحهم ، يعود نفعه على والديهم ، لقوله « وأصلح لى »

[إنى تبت إليك] من الذنوب والمعاصى ، ورجعت إلى طاعتك [وإنى من المسلمين[1] أولئك] الذين ذكرت أوصافهم [الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا] وهو الطاعات ، لأنهم يعملون أيضا غيرها .

---

(١) أى : الذين أخلصوا لك وأسلموا أنفسهم إليك .

[ونتجاوز عن سيئاتهم فى] جملة [أصحاب الجنة] ، فحصل لهم الخير والمحبوب ، وزال عنهم الشر والمكروه .

[وعد الصدق الذى كانوا يوعدون] أى : هذا الوعد الذى وعدناهم هو وعد من أصدق القائلين ، الذى لا يخلف الميعاد .

* لما ذكر تعالى حال الصالح البار لوالديه ، ذكر حالة العاق ، وأنها شر الحالات فقال :

[والذى قال لوالديه] إذ دعواه إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ، وخوفاه الجزاء .

وهذا أعظم إحسان يصدر من الوالدين لولدهما ، أن يدعواه إلى ما فيه سعادته الأبدية ، وفلاحه السرمدى ، فقابلهما بأقبح مقابلة فقال :

[أف(١) لكما] أى : تبًّا لكما ولما جئتما به .

---

(١) أف : وهو صوت إذا صوّت به الإنسان ، علم أنه متضجر ، كما إذا قال « حَسّ » علم أنه متوجع .

واللام لبيان المؤفف له ، كما فى « هيت لك » أى : هذا التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما ، دون غيركما . اهـ . نسفى وأبو السعود بتصرف يسير .

وفى الجلالين . أف . بكسر الفاء وفتحها بمعنى مصدر . أى : نتناً وقبحا . اهـ .

وفى « غريب القرآن » لمحمد منير الدمشقى . « يقال لكل مستخف به ، استقذاراً . وأصل « الأف » كل مستقذر من وسخ وغيره .

وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾

ثم ذكر استبعاده وإنكاره لذلك فقال :

[أتعداننى أن أخرج] من قبرى إلى يوم القيامة [وقد خلت القرون من قبلى] على التكذيب ، وسلفوا على الكفر ، وهم الأئمة المقتدى بهم لكل كفور ، وجهول ، ومعاند ؟ .

[وهما] أى : والداه [يستغيثان الله] عليه ويقولان له :

[ويلك آمن] أى : يبذلان غاية جهدهما ، ويسعيان فى هدايته ، أشد السعى ، حتى إنهما - من حرصهما عليه - يستغيثان الله له ، استغاثة الغريق ويسألانه ، سؤال الشريق ، ويعذلان ولدهما ، ويتوجعان له ، ويبينان له الحق ، فيقولان :

[إن وعد الله حق] ثم يقيمان عليه من الأدلة ما أمكنهما .

وولدهما ، لا يزداد إلا عتواً ، ونفوراً ، واستكباراً عن الحق ، وقدحاً فيه .

[فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين] أى : إلا منقول من كتب المتقدمين ، ليس من عند الله ، ولا أوحاه الله إلى رسوله .

وكل أحد يعلم أن محمداً صلى الله عليه وسلم ، أُمِّىٌّ ، لا يكتب ، ولا يقرأ ولم يتعلم من أحد .

فمن أين يتعلمه ؟ وأنَّى للخلق ، أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ؟ .

أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَـٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَـٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾

[أولئك الذين] بهذه الحالة الذميمة [حق عليهم القول] أى : حقت عليهم كلمة العذاب [فى] جملة [أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس] على الكفر والتكذيب ، فسيدخل هؤلاء فى غمارهم ، ويغرقون فى تيارهم .

[إنهم كانوا خاسرين] والخسران : فوات رأس مال الإنسان ، وإذا فقد رأس ماله ، فالأرباح من باب أولى وأحرى .

فهم قد فاتهم الإيمان ، ولم يحصلوا شيئا من النعيم ، ولا سلموا من عذاب الجحيم .

[ولكل] من أهل الخير وأهل الشر [درجات مما عملوا] .

أى : كُلٌّ على حسب مرتبته ، من الخير والشر ، ومنازلهم فى الدار الآخرة ، على قدر أعمالهم ، ولهذا قال :

[وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون] بأن لا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ (٢٠)

---

* يذكر تعالى ، حال الكفار عند عرضهم على النار ، حين يوبخون ، ويقرعون ، فيقال لهم :

[أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا] حيث اطمأننتم إلى الدنيا ، واغتررتم بلذاتها ، ورضيتم بشهواتها ، وألهتكم طيباتها عن السعى لآخرتكم [واستمتعتم بها] كما تتمتع الأنعام السارحة ، فهى حظكم من آخرتكم .

[فاليوم تجزون عذاب الهون] أى : العذاب الشديد ، الذى يهينكم ويفضحكم .

[بما كنتم تستكبرون على الله بغير الحق] أى تنسبون الطريق الضالة ، التى أنتم عليها إلى الله ، وإلى حكمه ، وأنتم كذبة فى ذلك .

[وبما كنتم تفسقون] أى : تتكبرون « وتخرجون » عن طاعته .

فجمعوا بين قول الباطل ، والعمل بالباطل ، والكذب على الله ، والقدح فى الحق ، والاستكبار عنه ، فعوقبوا أشد العقوبة .

﴿ وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا

---

* أى [واذكر] بالثناء الجميل [أخا عاد] ، وهو : هود عليه السلام ، حيث كان من الرسل الكرام ، الذين فضلهم الله تعالى بالدعوة إلى دينه ، وإرشاد الخلق إليه .

[إذ أنذر قومه] وهم عاد [بالأحقاف] أى : فى منازلهم المعروفة بالأحقاف ، وهى : الرمال الكثيرة فى أرض اليمن .

[وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه] فلم يكن بدعا منهم ، ولا مخالفا لهم .

قائلا لهم : [أن لا تعبدوا إلا الله إنى أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] .

فأمرهم بعبادة الله ، الجامعة لكل قول سديد ، وعمل حميد .

ونهاهم عن الشرك والتنديد ، وخوفهم - إن لم يطيعوه - العذاب الشديد فلم تفد فيهم تلك الدعوة .

[قالوا أجئتنا لتأفكنا[1] عن آلهتنا] أى . ليس لك من القصد ، ولا معك من الحق ، إلا أنك حسدتنا على آلهتنا ، فأردت أن تصرفنا عنها .

---

(١) لتأفكنا . أى لتصرفنا عن عبادة آلهتنا .

عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ

[فأتنا بما تعدنا[١] إن كنت من الصادقين[٢]] وهذا غاية الجهل والعناد [قال إنما العلم[٣] عند الله] فهو الذى بيده أزمة الأمور ومقاليدها وهو الذى يأتيكم بالعذاب إن شاء .

[وأبلغكم ما أرسلت به] أى ليس علىّ إلا البلاغ المبين .

[ولكنى أراكم قوما تجهلون[٤]] فلذلك صدر منكم ما صدر من هذه الجرأة الشديدة .

فأرسل الله عليهم العذاب العظيم ، وهو الريح التى دمرتهم وأهلكتهم .

ولهذا قال : [فلما رأوه] أى : العذاب [عارضا مستقبل أوديتهم]

---

(١) بما تعدنا . أى : من العذاب العظيم .

(٢) فى وعيدك ، ووعدك ، بنزوله بنا .

(٣) أى : العلم بجميع الأشياء ، التى من جملتها ، وقت نزول عذاب الله بكم .

(٤) أى : ولكنكم تجهلون ما تبعث به الرسل ، لأن الرسل بعثوا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه ، وليس من وظيفتهم الإتيان بالعذاب ، ولا تعيين وقت نزوله .

مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ

أى : معترضا كالسحاب ، قد أقبل على أوديتهم ، التى تسيل ، فتسقى مزارعهم ، ويشربون من آبارها ، وغُدْرانِها .

[قالوا] مستبشرين : [هذا عارض ممطرنا] أى : هذا السحاب سيمطرنا .

قال تعالى : [بل هو ما استعجلتم به] أى : هذا الذى جنيتم به على أنفسكم ، حيث قلتم :

« فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » .

[ريح فيها عذاب أليم تدمر[1] كل شىء] تمر عليه ، من شدتها ونحسها .

فسلطها الله عليهم سبع ليالى ، وثمانية أيام حسوما ، فترى القوم فيها صرعى ، كأنهم أعجاز نخل خاوية [بأمر ربها] أى : بإذنه ومشيئته .

[فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم] قد تلفت مواشيهم ، وأموالهم ، وأنفسهم .

[كذلك نجزى القوم المجرمين] بسبب جرمهم وظلمهم .

---

(١) تدمر . أى : تهلك الريح بأمر ربها من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير .

فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْئِدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْئِدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

هذا مع أن الله قد أدرّ عليهم النعم العظيمة ، فلم يشكروه ، ولا ذكروه ، ولهذا قال :

[ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه] أى : مكناهم فى الأرض ، ينالون طيباتها ، ويتمتعون بشهواتها ، وعمرناهم عمراً ، يتذكر فيه من تذكر ، ويتعظ فيه المهتدى .

أى : ولقد مكنا عادا ، كما مكناكم ياهؤلاء المخاطبون ، أى : فلا تحسبوا أن ما مكناكم فيه ، مختص بكم ، وأنه سيدفع عنكم من عذاب الله شيئاً .

بل غيركم ، أعظم منكم تمكينا ، فلم تغن عنهم أموالهم ، ولا أولادهم ، ولا جنودهم ، من الله شيئاً .

[وجعلنا لهم سمعا وأبصارا وأفئدة] أى : لا قصور فى أسماعهم ، ولا أبصارهم ، ولا أذهانهم ، حتى يقال : إنهم تركوا الحق ، جهلا منهم ، وعدم تمكن من العلم به ، ولا خلل فى عقولهم ، ولكن التوفيق بيد الله .

[فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شىء] لا قليل ولا كثير .

[إذ كانوا يجحدون بآيات الله] الدالة على توحيده ، وإفراده بالعبادة .

[وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون] أى : نزل بهم العذاب ، الذى يكذبون بوقوعه ، ويستهزئون بالرسل ، الذين حذروهم منه .

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ ۖ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾

يحذر تعالى ، مشركى العرب وغيرهم ، بإهلاك الأمم المكذبين ، الذين هم حول ديارهم .

بل كثير منهم فى جزيرة العرب ، كعاد ، وثمود ، ونحوهم ، وأن الله تعالى صرّف لهم الآيات ، أى: نوّعها من كل وجه .

[لعلهم يرجعون] عماهم عليه ، من الكفر والتكذيب .

فلما لم يؤمنوا ، أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر ، ولم تنفعهم آلهتهم التى يدعون من دون الله ، من شىء ، ولهذا قال هنا :

[فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة] أى : يتقربون إليهم ، ويتألهونهم لرجاء نفعهم .

[بل ضلوا[1] عنهم] فلم يجيبوهم ، ولا دفعوا عنهم .

[وذلك إفكهم وما كانوا يفترون] من الكذب ، الذى يمنون به أنفسهم ، حيث يزعمون أنهم على الحق ، وأن أعمالهم ستنفعهم ، فضلت وبطلت .

كان الله تعالى قد أرسل رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم ، إلى الخلق ،

---

(١) أى : غابت عنهم آلهتهم أحوج ما كانوا إلى النصرة .

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾

إنسهم وجنهم ، وكان لا بد من إبلاغ الجميع ، لدعوة النبوة والرسالة .

فالإنس يمكنه ، عليه الصلاة والسلام ، دعوتهم وإنذارهم .

وأما الجن ، فصرفهم الله إليه بقدرته ، وأرسل إليه [نفرا من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا] وصّى بعضهم بعضا بذلك .

[فلما قضى[1]] وقد وعوه ، وأثّر ذلك فيهم [ولوا إلى قومهم منذرين] نصحا منهم لهم ، وإقامة للحجة عليهم ، وقيضهم الله ، معونة لرسوله صلى الله عليه وسلم ، فى نشر دعوته فى الجن .

[قالوا ياقومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى] لأن كتاب موسى أصل . للإنجيل ، وعمدة لبنى إسرائيل ، فى أحكام الشرع .

وإنما الإنجيل ، متمم ، ومكمل ومغير لبعض الأحكام .

[مصدقا لما بين يديه يهدى] هذا الكتاب الذى سمعناه [إلى الحق] وهو : الصواب فى كل مطلوب وخبر [وإلى صراط مستقيم] موصل إلى الله ، وإلى جنته ، من العلم بالله ، وبأحكامه الدينية ، وأحكام الجزاء .

---

(١) أي : فلما فرغ النبي صلى الله عليه وسلم من قراءة القرآن للجن .

يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَآءُ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾

فلما مدحوا القرآن ، وبينوا محله ومرتبته ، دعوهم إلى الإيمان به ، فقالوا :

[ياقومنا أجيبوا داعى الله] أى : الذى لا يدعو إلا إلى ربه ، لا يدعوكم إلى غرض من أغراضه ، ولا هوى ، وإنما يدعوكم إلى ربكم ، ليثيبكم ، ويزيل عنكم كل شر ومكروه .

ولهذا قالوا :

[وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم] وإذا أجارهم من العذاب الأليم ، فما ثَمَّ بعد ذلك ، إلا النعيم ، فهذا جزاء من أجاب داعى الله .

[ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض] فإن الله على كل شيء قدير ، فلا يفوته هارب ، ولا يغالبه مغالب .

[وليس له من دونه أولياء أولئك فى ضلال مبين] وأى : ضلال أبلغ من ضلال من نادته الرسل ، ووصلت إليه النذر ، بالآيات البينات ، والحجج المتواترات ، فأعرض واستكبر ؟ ! ! .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ ﴾

﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ

---

* هذا استدلال منه تعالى على الإعادة بعد الموت ، بما هو أبلغ منها

وهو : أنه الذى خاق السموات والأرض ، على عِظَمِهِمَا وسعتهما ، وإتقان خلقهما ، من دون أن يكترث بذلك ولم يَعْىَ بخلقهن .

فكيف تعجزه إعادتكم بعد موتكم ، وهو على كل شىء قدير ؟!! .

* يخبر تعالى عن حال الكفار الفظيعة ، عند عرضهم على النار ، التى كانوا يكذبون بها ، وأنهم يوبخون ويقال لهم :

[أليس هذا بالحق] فقد حضرتموه وشاهدتموه عياناً ؟

[قالوا : بلى وربنا] .

فاعترفوا بذنبهم ، وتبين كذبهم .

[قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] أى : عذاباً لا زماً دائما ، كما كان كفركم صفة لازمة .

ثم أمر تعالى رسوله ، أن يصبر على أذية المكذبين المعادين له ، وأن

وَلا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً

لا يزال داعيا لهم إلى الله ، وأن يقتدى بصبر أولى العزم من المرسلين ، سادات الخلق ، أولى العزائم ، والهمم العالية ، الذين عظم صبرهم ، وتم يقينهم .

فهم أحق الخلق بالأسوة بهم ، والقفو لآثارهم ، والاهتداء بمنارهم .

فامتثل صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، فصبرصبراً ، لم يصبره نبي قبله ، حتى رماه المعادون له ، عن قوس واحدة .

قاموا جميعاً بصده عن الدعوة إلى الله ، وفعلوا ما يمكنهم من المعاداة والمحاربة .

وهو صلى الله عليه وسلم ، لم يزل صادعا بأمر الله مقيما على جهاد أعداء الله ، صابراً على ما يناله من الأذى .

حتى مكّن الله له فى الأرض ، وأظهر دينه على سائر الأديان ، وأمته على سائر الأمم .

فصلى الله عليه وسلم تسليما .

وقوله : [ولا تستعجل لهم] أى : المكذبين المستعجلين للعذاب فإن هذا من جهلهم وحمقهم . فلا يستخفنك جهلهم ولا يحملك[1] ما ترى من استعجالهم على أن تدعو الله عليهم بذلك ، فإن كل ما هو آت قريب .

[كأنهم حين يرون مايوعدون لم يلبثوا] فى الدنيا [إلا ساعة من نهار] فلا يحزنك تمتعهم القليل وهم صائرون إلى العذاب الوبيل

---

(١) قوله « ولايحملك » هكذا فى الأصل . والصواب « ولا يحملنك » ليتناسب مع ما قبله .

مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

[بلاغ] أى : هذه الدنيا ، متاعها ، وشهوتها ، ولذاتها ، بلغة منغصة ، ودفع وقت حاضر قليل .

وهذا القرآن العظيم ، الذي بيّنًا لكم فيه البيان التام ، بلاغ لكم ، وزاد إلى الدار الآخرة .

ونعم الزاد والبلغة ، زاد يوصل إلى دار النعيم ، ويعصم من العذاب الأليم .

فهو أفضل زاد ، يتزوده الخلائق ، وأجل نعمة ، أنعم الله بها عليهم .

[فهل يهلك] بالعقوبات [إلا القوم الفاسقون] أى : الذين لا خير فيهم ، وقد خرجوا عن طاعة ربهم ، ولم يقبلوا الحق الذى جاءتهم به الرسل .

وأعذر الله لهم ، وأنذرهم ، فاستمروا على تكذيبهم وكفرهم ، نسأل الله العصمة .

تم تفسير سورة الأحقاف - بحول الله وتوفيقه .

تفسير

سورة محمد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ

---

* [هذه الآيات ، مشتملات على ذكر ثواب المؤمنين ، وعقاب العاصين .

والسبب فى ذلك ، دعوة الخلق إلى الاعتبار بذلك ، فقال :

[الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله] وهؤلاء رؤساء الكفر ، وأئمة الضلال ، الذين جمعوا بين الكفر بالله وآياته ، والصد لأنفسهم وغيرهم ، عن سبيل الله ، التى هى الإيمان ، بما دعت إليه الرسل وأتباعه .

فهؤلاء [أضل الله أعمالهم] أى : أبطلها وأشقاهم بسببها .

وهذا يشمل أعمالهم ، التي عملوها ، ليكيدوا بها الحق ، وأولياء الله .

إن الله جعل كيدهم فى نحورهم ، فلم يدركوا مما قصدوا ، شيئاً .

وأعمالهم التي يرجون أن يثابوا عليها ، إن الله سيحبطها عليهم .

والسبب فى ذلك ، أنهم اتبعوا الباطل ، وهو : كل غاية ، لا يراد

عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾

بها وجه الله ، من عبادة الأصنام والأوثان .

والأعمال التي فى نصر الباطل لما كانت باطلة، كانت الأعمال لأجلها باطلة .

[والذين آمنوا] بما أنزل الله على رسله عموما ، وعلى محمد صلى الله عليه وسلم خصوصا ، [وعملوا الصالحات] بأن قاموا بما عليهم من حقوق الله ، وحقوق العباد الواجبة والمستحبة .

[كفر الله عنهم سيئاتهم] صغارها وكبارها .

وإذا كفرت سيئاتهم ، نجوا من عذاب الدنيا والآخرة .

[وأصلح بالهم] أى : أصلح دينهم ودنياهم ، وقلوبهم ، وأعمالهم وأصلح ثوابهم ، بتنميته وتزكيته ، وأصلح جميع أحوالهم .

والسبب فى ذلك ، أنهم اتبعوا [الحق] الذى هو الصدق واليقين ، وما اشتمل عليه هذا القرآن العظيم ، الصادر [من ربهم] الذى رباهم بنعمته ، ودبرهم بلطفه فرباهم تعالى بالحق ، فاتبعوه ، فصلحت أمورهم .

فلما كانت الغاية المقصودة لهم ، متعلقة بالحق المنسوب إلى الله الباقى ، الحق المبين ، كانت الوسيلة صالحة باقية ، باقيا ثوابها .

[كذلك يضرب الله للناس أمثالهم] حيث بيّن لهم تعالى ، أهل الخير وأهل الشر .

۞ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن

وذكر لكل منهم صفة يعرفون بها ويتميزون « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة » .

* يقول تعالى ـ مرشداً عباده إلى ما فيه صلاحهم ، ونصرهم على أعدائهم :

[فإذا لقيتم الذين كفروا] فى الحرب والقتال ، فاصدقوهم القتال ، واضربوا منهم الأعناق .

[حتى إذا أثخنتموهم] وكسرتم شوكتهم ، ورأيتم الأسر أولى وأصلح .

[فشدوا الوثاق] أى : الرباط ، وهذا احتياط لأسرهم ، لئلا يهربوا ، فإذا اشتد منهم الوثاق اطمأن المسلمون من حربهم ، ومن شرهم .

فإذا كانوا تحت أسركم ، فأنتم بالخيار بين المن عليهم ، وإطلاقهم بلا مال .

[فإما منا بعد وإما فداء] بأن لا تطلقوهم ، حتى يشتروا أنفسهم ، أو يشتريهم أصحابهم بمال ، أو بأسير مسلم عندهم .

وهذا الأمر مستمر [حتى تضع الحرب أوزارها] أى : حتى لا يبقى حرب ، وتبقون فى المسالمة والمهادنة ، فإن لكل مقام مقالاً ، ولكل حال حكما .

فالحال المتقدمة ، إنما هى إذا كان قتال وحرب .

لِيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾

فإذا كان فى بعض الأوقات ، لاحرب فيه لسبب من الأسباب ، فلا قتل ولاأسر .

[ذلك] الحكم المذكور فى ابتلاء المؤمنين بالكافرين ، ومداولة الأيام بينهم ، وانتصار بعضهم على بعض [ولو يشاء الله لانتصر منهم] فإنه تعالى على كل شىء قدير ، وقادر على أن لا ينتصر الكفار فى موضع واحد أبدا ، حتى يبيد المسلمون خضراءهم .

[ولكن ليبلو بعضكم ببعض] ليقوم سوق الجهاد ، وتتبين بذلك أحوال العباد ، الصادق من الكاذب، وليؤمن من آمن إيمانا صحيحا ، عن تبصرة ، لا إيمانا مبنيا على متابعة أهل الغلبة ، فإنه إيمان ضعيف جدا ، لا يستمر لصاحبه عند المحن والبلايا .

[والذين قتلوا فى سبيل الله] لهم ثواب جزيل ، وأجر جميل ، وهم الذين قاتلوا من أمروا بقتالهم ، لتكون كلمة الله هى العليا .

[فلن يضل] الله [أعمالهم] أى : لن يحبطها ويبطلها ، بل يتقبلها ، وينميها لهم ، ويظهر من أعمالهم نتائجها ، فى الدنيا والآخرة .

[سيهديهم] إلى سلوك الطريق الموصلة إلى الجنة .

[ويصلح بالهم] أى : حالهم وأمورهم ، وثوابهم يكون صالحا كاملا لا نكد فيه ، ولا تنغيص ، بوجه من الوجوه .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٨﴾

[ويدخلهم الجنة عرفها[1] لهم] أى : عرفها أولا ، بأن شوقهم إليها ، ونعتها لهم ، وذكر لهم الأعمال الموصلة إليها ، التى من جملتها ، الشهادة فى سبيل الله ، ووفقهم للقيام بما أمرهم به ورغبهم فيه .

ثم إذا دخلوا الجنة ، عرفهم منازلهم ، وما احتوت عليه ، من النعيم المقيم ، والعيش السليم .

* هذا أمر منه تعالى للمؤمنين ، أن ينصروا الله ، بالقيام بدينه ، والدعوة إليه ، وجهاد أعدائه ، وأن يقصدوا بذلك وجه الله .

فإنهم إذا فعلوا ذلك ، نصرهم ، وثبت أقدامهم ، أى : يربط على قلوبهم بالصبر ، والطمأنينة ، والثبات ، ويصبر أجسادهم على ذلك ، ويعينهم على أعدائهم .

فهذا وعد ، من كريم صادق الوعد ، أن الذى ينصره بالأقوال والأفعال ، سينصره مولاه ، وييسر له أسباب النصر ، من الثبات وغيره .

---

(١) عن مجاهد : عرفهم مساكنهم فيها حتى لا يحتاجون أن يسألوا عنها ، أو طيّبها لهم من « العرف » (بفتح العين وسكون الراء) وهو : طيب الرائحة . اهـ . نسفى .

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾

وأما الذين كفروا بربهم ، ونصروا الباطل ، « فتعساً[1] لهم » فإنهم فى تعس أى : انتكاس من أمرهم وخذلان .

[وأضل أعمالهم] أى أبطل أعمالهم التى يكيدون بها الحق .

فرجع كيدهم فى نحورهم ، وبطلت أعمالهم،التى يزعمون أنهم يريدون بها وجه الله .

ذلك الإضلال والتعس، للذين كفروا ، بسبب أنهم [كرهوا ما أنزل الله] من القرآن ، الذى أنزله ، صلاحاً للعباد ، وفلاحا لهم ، فلم يقبلوه، بل أبغضوه وكرهوه [فأحبط أعمالهم] .

---

(١) التعس : الهلاك والعثار والسقوط والشر والبعد والانحطاط ورجل تاعس وتعس . وانتصابه بفعله الواجب حذفه سماعاً (أى : مفعول مطلق لفعل محذوف وجوباً تقديره : تعس تعسا) أى : فقال تعساً لهم ، أو فقضى تعسا لهم . اهـ . أبو السعود .

وفى المختار من الصحاح : التعس : الهلاك ، وأصله : الكب وهو ضد الانتعاش ، وقد تعس ، من باب قطع ومن باب تعب ، وأتعسه الله .
ويقال : تعساً لفلان . أى : ألزمه الله هلاكاً .

وفى « مفردات الراغب » التعس : أن لا ينتعش من العثرة وأن ينكسر فى سفال ، وتعس تعساً وتعسة .

وفى الجلالين فتعساً لهم . أى: هلاكا وخيبة من الله لهم .

﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ ﴾

---

* أى : أفلا يسير هؤلاء المكذبون بالرسول صلى الله عليه وسلم، [فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم] فإنهم لا يجدون عاقبتهم ، إلا شر العواقب .

فإنهم لا يلتفون يمنة ولا يسرة ، إلا وجدوا من كان قبلهم، قد بادوا وهلكوا ، واستأصلهم التكذيب والكفر ، فخمدوا ، ودمّر الله عليهم أموالهم وديارهم ، بل دمر أعمالهم ومكرهم .

وللكافرين فى كل زمان ومكان ، أمثال هذه العواقب الوخيمة ، والعقوبات الذميمة .

وأما المؤمنون ، فإن الله تعالى ينجيهم من العذاب ، ويجزل لهم كثير الثواب .

[ذلك بأن الله مولى[1] الذين آمنوا] فتولاهم برحمته ، فأخرجهم من الظلمات إلى النور ، وتولى جزاءهم ، ونصرهم .

[وأن الكافرين] بالله تعالى ، حيث قطعوا عنهم ولاية الله، وسدوا على أنفسهم رحمته [لا مولى لهم] يهديهم إلى سبل السلام ، ولا ينجيهم من عذاب الله وعقابه .

بل أولياؤهم الطاغوت ، يخرجونهم من النور إلى الظلمات ، أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

---

(١) أى : إن الله ولى المؤمنين ، يتولى شئونهم ، ويرعاهم وينصرهم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى أنه ولى المؤمنين ، ذكر ما يفعل بهم فى الآخرة ، من دخول الجنات ، التى تجرى من تحتها الأنهار ، التى تسقى تلك البساتين الزاهرة ، والأشجار الناضرة المثمرة ، بكل زوج بهيج ، وكل فاكهة لذيذة .

ولما ذكر أن الكافرين لا مولى لهم ، ذكر أنهم وُكِلوا إلى أنفسهم فلم يتصفوا بصفات المروءة ، ولا الصفات الإنسانية .

بل نزلوا عنها دركات ، وصاروا كالأنعام ، التى لا عقل لها ولافضل بل جُلُّ همهم ومقصدهم ، التمتع بلذات الدنيا وشهواتها .

فترى حركاتهم الظاهرة والباطنة ، دائرة حولها ، غير متعدية لها إلى ما فيه الخير والسعادة ، ولهذا كانت النار مثوى لهم ، أى : منزلا معدا ، لا يخرجون منها ، ولا يفتر عنهم من عذابها .

* أى : وكم من قرية من قرى المكذبين ، هى أشد قوة من قريتك ، فى الأموال ، والأولاد ، والأعوان ، والأبنية ، والآلات .

أهلكناهم ، حين كذبوا رسلنا ، ولم تفد فيهم المواعظ ، فلا تجد لهم ناصرا ، ولم تغن عنهم قوتهم ، من عذاب الله شيئا .

﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ ﴾

﴿ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ

فكيف حال هؤلاء الضعفاء ، أهل قريتك ، إذا أخرجوك عن وطنك وكذبوك ، وعادوك ، وأنت أفضل المرسلين ، وخير الأولين والآخرين ؟ !

أليسوا بأحق من غيرهم ، بالإهلاك والعقوبة ، لولا أن الله تعالى ، بعث رسوله بالرحمة والتأنى ، بكل كافر وجاحد ؟

* أى : لا يستوى من هو على بصيرة من أمر دينه ، علما ، وعملا ، قد علم الحق واتبعه ، ورجا ما وعده الله لأهل الحق .

كمن هو أعمى القلب ، قد رفض الحق وأضله ، واتبع هواه بغير هدى من الله .

ومع ذلك ، يرى أن ما هو عليه ، هو الحق .

فما أبعد الفرق بين الفريقين ! ، وما أعظم التفاوت بين الطائفتين ، أهل الحق ، وأهل الغىّ !

* [مثل الجنة التى وعد المتقون] أى : التى أعدها الله لعباده ، الذين اتقوا سخطه ، واتبعوا رضوانه ، أنها من نعتها ، وصفتها الجميلة .

[فيها أنهار من ماء غير آسن] أى . غير متغير ، لا بوخم ، ولا بريح منتنة ، ولا بحرارة ، ولا بكدورة بل هو أعذب المياه وأصفاها ، وأطيبها ريحا ، وألذها شربا .

غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

[وأنهار من لبن لم يتغير طعمه] بحموضة ولا غيرها .

[وأنهار من خمرة لذة للشاربين] أى . يلتذ بها ، لذة عظيمة ، لا كخمر الدنيا ، التى يكره مذاقها ، وتصدع الرأس ، وتغول العقل .

[وأنهار من عسل مصفى] من شمعه ، وسائر أوساخه .

[ولهم فيها من كل الثمرات] من نخيل ، وعنب ، وتفاح ، ورمان ، وأترج ، وتين ، وغير ذلك ، مما لا نظير له فى الدنيا ، فهذا المحبوب المطلوب قد حصل لهم .

ثم قال : [ومغفرة من ربهم] يزول بها عنهم المرهوب .

فهؤلاء خير ، أم [كمن هو خالد فى النار] التى اشتد حرها ، وتضاعف عذابها .

[وسقوا] فيها [ماء حميما] أى : حاراً جداً [فقطع أمعاءهم] .

فسبحان من فاوت بين الدارين ، والجزاءين ، والعاملين ، والعملين .

﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : ومن المنافقين [من يستمع إليك] ما تقول ، استماعاً ، لا عن قبول وانقياد ، بل معرضة قلوبهم عنه ، ولهذا قال :

[حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم] مستفهمين عما قلت ، وما سمعوا ، مما لم يكن لهم فيه رغبة [ماذا قال آنفا] أى : قريبا .

وهذا فى غاية الذم لهم ، فإنهم لو كانوا حريصين على الخير ، لألقوا إليه أسماعهم ، ووعته قلوبهم ، وانقادت له جوارحهم ، ولكنهم بعكس هذه الحال ، ولهذا قال :

[أولئك الذين طبع الله على قلوبهم] أى : ختم عليها ، وسد أبواب الخير ، التى تصل إليها ، بسبب اتباعهم أهواءهم ، التى لا يهوون فيها ، إلا الباطل .

ثم بين حال المهتدين فقال : [والذين اهتدوا] بالإيمان والانقياد ، واتباع ما يرضى الله [زادهم هدى] شكراً منه تعالى على ذلك ، [وآتاهم تقواهم] أى : وفقهم للخير ، وحفظهم من الشر .

فذكر للمهتدين جزاءين : العلم النافع ، والعمل الصالح .

﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ (١٨) ﴾

﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ

---

* أى: فهل ينظر هؤلاء المكذبون ، أو ينتظرون [إلا الساعة أن تأتيهم بغتة] أى : فجأة ، وهم لا يشعرون [فقد جاء أشراطها] أى : علاماتها الدالة على قربها .

[فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم] أى : من أين لهم ، إذا جاءتهم الساعة وانقطعت آجالهم ، أن يتذكروا ويستعتبوا ؟

فقد فات ذلك ، وذهب وقت التذكر ، فقد عمروا ، ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءهم النذير .

ففى هذا ، الحث على الاستعداد قبل مفاجأة الموت ،فإن موت الإنسان قيام ساعته .

* العلم ، لابد فيه من إقرار القلب ، ومعرفته ، بمعنى ما طلب منه علمه .

وتمامه ، أن يعمل بمقتضاه .

وهذا العلم ، الذى أمر الله به ـ وهو العلم بتوحيد الله ـ فرض عين على كل إنسان ، لا يسقط عن أحد ، كائنا من كان ، بل كل مضطر إلى ذلك .

والطريق إلى العلم بأنه لا إله إلا الله ، أمور :

أحدها ـ بل أعظمها ـ : تدبر أسمائه وصفاته ، وأفعاله الدالة على كماله ، وعظمته ، وجلاله .

فإنها توجب بذل الجهد فى التأله له ، والتعبد للرب الكامل ، الذى له كل حمد ومجد ، وجلال وجمال .

الثانى : العلم بأنه تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير .

فيعلم بذلك ، أنه المنفرد بالألوهية .

الثالث : العلم بأنه المنفرد بالنعم الظاهرة والباطنة ، الدينية والدنيوية .

فإن ذلك ، يوجب تعلق القلب به ، ومحبته ، والتأله له وحده لا شريك له .

الرابع : ما نراه ونسمعه ، من الثواب لأوليائه القائمين بتوحيده ، من النصر ، والنعم العاجلة ، ومن عقوبته لأعدائه المشركين به ، فإن هذا ، داع إلى العلم ، بأنه تعالى وحده ، المستحق للعبادة كلها .

الخامس : معرفة أوصاف الأوثان والأنداد ، التى عبدت مع الله ، واتخذت آلهة ، وأنها ناقصة من جميع الوجوه ، فقيرة بالذات ، لا تملك لنفسها ولا لعابديها ، نفعاً ولا ضرًا ، ولا موتاً ، ولا حياة ، ولا نشوراً ، ولا ينصرون من عبدهم ، ولا ينفعونهم بمثقال ذرة ، من جلب خير ، أو دفع شر .

فإن العلم بذلك ، يوجب العلم ، بأنه لا إله إلا الله ، وبطلان إلهية ما سواه .

السادس : اتفاق كتب الله على ذلك ، وتواطؤها عايه .

السابع : أز خواص الخلق ، الذين هم أكمل الخليقة أخلاقا وعقولا ،

. . . .

ورأياً ، وصواباً ، وعلماً ـ وهم الرسل والأنبياء والعلماء الربانيون ـ قد شهدوا لله بذلك .

الثامن : ما أقامه الله من الأدلة الأفقية والنفسية ، التى تدل على التوحيد أعظم دلالة .

تنادى عليه بلسان حالها ، بما أودعها من لطف صنعته ، وبديع حكمته، وغرائب خلقه .

فهذه الطرق ، التى أكثر الله من دعوة الخلق بها ، إلى أنه لا إله إلا الله ، وأبداها فى كتابه ، وأعادها ، عند تأمل العبد فى بعضها ، لا بد أن يكون عنده يقين ، وعلم بذلك .

فكيف ، إذا اجتمعت وتواطأت ، واتفقت ، وقامت أدلة للتوحيد من كل جانب .

فهناك يرسخ الإيمان والعلم بذلك ، فى قلب العبد ، بحيث يكون كالجبال الرواسى ، لا تزلزله الشبه والخيالات ، ولا يزداد — على تكرر الباطل والشبه — إلا نمواً وكمالا .

هذا ، وإن نظرت إلى الدليل العظيم ، والأمر الكبير ـ وهو تدبر هذا القرآن العظيم ، والتأمل فى آياته ـ فإنه الباب الأعظم إلى العلم بالتوحيد ويحصل به من تفاصيله وجمله ، ما لا يحصل فى غيره .

. . . .

وقوله [واستغفر لذنبك[1]] أى : اطلب من الله المغفرة لذنبك ، بأن تفعل أسباب المغفرة ، من التوبة ، والدعاء بالمغفرة ، والحسنات الماحية ، وترك الذنوب ، والعفو عن الجرائم .

[و] استغفر أيضاً [للمؤمنين والمؤمنات] فإنهم – بسبب إيمانهم – كان لهم حق على كل مسلم ومسلمة .

ومن جملة حقوقهم ، أن يدعى لهم ، ويستغفر لذنوبهم .

وإذا كان مأموراً بالاستغفار لهم ، المتضمن لإزالة الذنوب وعقوباتها عنهم ، فإن من لوازم ذلك ، النصح لهم ، وأن يحب لهم من الخير ، مايحب لنفسه ، ويكره لهم من الشر ، ما يكره لنفسه ، ويأمرهم بما فيه الخير لهم ، وينهاهم عما فيه ضررهم ، ويعفو عن مساويهم ومعايبهم ، ويحرص على

---

(١) قد علم من علم التوحيد أن الأنبياء – بالإجماع – معصومون بعد النبوة من صغائر الذنوب وكبائرها .

والمراد هنا – كما قال أبو السعود فى تفسيره : « وهو الذى ربما يصدر عنه عليه الصلاة والسلام من ترك الأولى .

عبر عنه بالذنب ، نظراً إلى منصبه الجليل ، وإرشاداً له عليه الصلاة والسلام ، إلى التواضع ، وهضم النفس ، واستقصار العمل » ا هـ . المراد منه .

وفي النسفى « ذنب الأنبياء ، ترك الأفضل ، دون مباشرة القبيح . وذنوبنا مباشرة القبائح ، من الصغائر والكبائر» ا هـ . المراد منه .

۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ

اجتماعهم ، اجتماعاً تتألف به قلوبهم ، ويزول ما بينهم من الأحقاد المفضية للمعاداة والشقاق ، الذى به تكثر ذنوبهم ومعاصيهم .

[والله يعلم متقلبكم] أى : تصرفاتكم وحركاتكم ، وذهابكم ومجيئكم .

[ومثواكم] الذى به تستقرون ، فهو يعلمكم فى الحركات والسكنات فيجازيكم على ذلك ، أتم الجزاء وأوفاه .

* يقول تعالى : [ويقول الذين آمنوا] استعجالا ومبادرة للأوامر الشاقة :

[لولا نزلت سورة] أى : فيها الأمر بالقتال .

[فإذا أنزلت سورة محكمة] أى : ملزم العمل بها [وذكر فيها القتال] الذى هو أشق شىء على النفوس ، لم يثبت ضعفاء الإيمان ، على امتثال هذه الأوامر ، ولهذا قال :

[رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت] من كراهتهم لذلك ، وشدته عليهم .

وهذا كقوله تعالى « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية » .

ثم ندبهم تعالى إلى ما هو الأليق بحالهم فقال :

يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ

[فأولى لهم طاعة وقول معروف] أى : فأولى لهم أن يمتثلوا الأمر الحاضر المحتم عليهم ، ويجمعوا عليه هممهم ، ولا يطلبوا أن يشرع لهم ما هو شاق عليهم ، وليفرحوا بعافية الله تعالى وعفوه .

[فإذا عزم الأمر] أى : جاءهم أمر جد، وأمر محتم [فلو صدقوا الله] فى هذه الحال بالاستعانة به ، وبذل الجهد فى امتثاله [لكان خيرا لهم] من حالهم الأولى ، وذلك من وجوه .

منها : أن العبد ناقص من كل وجه ، لا قدرة له ، إلا إن أعانه الله ، فلا يطلب زيادة على ما هو قائم بصدده .

ومنها : أنه إذا تعلقت نفسه بالمستقبل ، ضعف عن العمل ، بوظيفة وقته الحاضر ، وبوظيفة المستقبل .

أما الحال ، فلأن الهمة انتقلت عنه إلى غيره ، والعمل تبع للهمة .

وأما المستقبل ، فإنه لا يجىء حتى تفتر الهمة عن نشاطها ، فلا يعان عليه .

ومنها : أن العبد المؤمل للآمال المستقبلة ، مع كسله عن عمل الوقت الحاضر ، شبيه بالمتألى الذى يجزم بقدرته ، على ما يستقبل من أموره .

فأحرى به ، أن يخذل ، ولا يقوم بما همّ به ، وتوعّد نفسه عليه .

فالذى ينبغى ، أن يجمع العبد همه ، وفكرته ، ونشاطه ، على وقته الحاضر ، ويؤدى وظيفته بحسب قدرته .

خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾

ثم كلما جاء وقت ، استقبله بنشاط ، وهمة عالية مجتمعة ، غير متفرقة ، مستعينا بربه فى ذلك .

فهذا ، أحرى بالتوفيق والتسديد ، فى جميع أموره .

ثم ذكر تعالى المتولِّى عن طاعة ربه ، وأنه لا يتولى إلى خير ، بل إلى شر فقال :

[فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم] .

أى: فهما أمران ، إما التزام لطاعة الله، وامتثال لأوامره ، فثَمَّ الخير والرشد الفلاح .

وإما الإعراض عن ذلك ، والتولِّى عن طاعة الله ، فما ثَمَّ إلا الفساد فى الأرض ، بالعمل بالمعاصى ، وقطيعة الأرحام .

[أولئك الذين] أفسدوا فى الأرض ، وقطعوا أرحامهم [لعنهم الله] بأن أبعدهم عن رحمته ، وقربوا من سخط الله .

[فأصمهم وأعمى أبصارهم] أى : جعلهم لا يسمعون ما ينفعهم ، ولا يبصرونه .

فلهم آذان ، ولـكن لا تسمع سماع إذعان وقبول ، وإنما تسمع سماعا ، تقوم بها حجة الله عليها .

ولهم أعين ، ولـكن لا يبصرون بها العبر والآيات ، ولا يلتفتون بها ، إلى البراهين والبينات .

﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ٱلشَّيْطَـٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ إِلَى

---

* أى : فهلا يتدبر هؤلاء المعرضون لكتاب الله ، ويتأملونه حق التأمل.

فإنهم لو تدبروه ، لَدلَّهُمْ على كل خير ، ولَحَذَّرَهُمْ من كل شر ، ولَملا قلوبهم من الإيمان ، وأفئدتهم من الإيقان .

ولأوصلهم إلى المطالب العالية ، والمواهب الغالية .

ولبَيَّنَ لهم الطريق الموصلة إلى الله ، وإلى جنته ومكملاتها ومفسداتها ، والطريق الموصلة إلى العذاب ، وبأى شيء يحذر .

ولعرّفهم بربهم ، وأسمائه وصفاته ، وإحسانه .

ولشوّقهم إلى الثواب الجزيل ، ورهَّبهم من العقاب الوبيل .

[أم على قلوب أقفالها] أى : قد أغلق على ما فيها من الإعراض والغفلة ، والاعتراض ، وأقفلت ، فلا يدخلها خير أبداً ؟ هذا هو الواقع .

* يخبر تعالى عن حالة المرتدين عن الهدى والإيمان ، على أعقابهم ، إلى الضلال والكفران .

ذلك لا عن دليل دلهم ، ولا برهان ، وإنما هو تسويل من عدوهم الشيطان وتزيين لهم ، وإملاء منه لهم « يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً » .

لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾

و [ذلك بأنهم] قد تبين لهم الهدى ، فزهدوا فيه ، ورفضوه ، و[قالوا للذين كرهوا ما نزل الله] من المبارزين العداوة لله ، ولرسوله [سنطيعكم فى بعض الأمر] أى : الذى يوافق أهواءهم ، فلذلك عاقبهم الله بالضلال ، والإقامة على ما يوصلهم إلى الشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى .

[والله يعلم إسرارهم] فلذلك فضحهم ، وبينها لعباده المؤمنين ، لئلا يغتروا بها .

[فكيف] ترى حالهم الشنيعة،ورؤيتهم الفظيعة[إذا توفتهم الملائكة] الموكلون بقبض أرواحهم [يضربون وجوههم وأدبارهم] بالمقامع الشديدة ؟ ! .

[ذلك] العذاب الذى استحقوه ونالوه [بـ] سبب [أنهم اتبعوا ما أسخط الله] من كل كفر وفسوق وعصيان .

[وكرهوا رضوانه] فلم يكن لهم رغبة فيما يقربهم إليه ، ولا يدنيهم منه .

[فأحبط أعمالهم] أى : أبطلها وأذهبها .

وهذا ، بخلاف من اتبع ما يرضى الله ، وكره سخطه ، فإنه سيكفر عنه سيئاته ، ويضاعف له أجره وثوابه .

﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ

* يقول تعالى : [أم حسب الذين في قلوبهم مرض] من شبهة أو شهوة بحيث تخرج القلب عن حال صحته واعتداله .

[أن لن يخرج الله] ما فى قلوبهم من [أضغانهم(١)] وعداوتهم للإسلام وأهله ؟ هذا ظن ، لا يليق بحكمة الله ، فإنه لا بد أن يميز الصادق من الكاذب .

وذلك بالابتلاء بالمحن ، التى من ثبت عليها ، ودام إيمانه فيها ، فهو المؤمن حقيقه .

ومن ردته على عقبيه ، فلم يصبر عليها ، وحين أتاه الامتحان ، جزع وضعف إيمانه ، وظهر ما فى قلبه من الضغن ، وتبين نفاقه ، هذا مقتضى الحكمة الإلهية .

مع أنه تعالى قال : [ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم] أى : بعلاماتهم التى هى كالرسم فى وجوههم .

---

(١) قال الراغب فى « مفردات ألفاظ القرآن » : الضَّغن ، والضِّغن . (بفتح الضاد وكسرها) الحقد الشديد .

يعنى : هل ظن هؤلاء المنافقون أن لن يظهر الله أحقادهم لرسوله وللمؤمنين فتبقى أمورهم مستورة ؟

والمعنى : إن ذلك مما لا يكاد يدخل تحت الاحتمال .

أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾

[ولتعرفنهم فى لحن القول[١]] أى : لابد أن يظهر ما قلوبهم ، ويتبين بفلتات ألسنتهم .

فإن الألسن ، مغارف القلوب ، يظهر فيها ما القلوب ، من الخير والشر [والله يعلم أعمالكم] فيجازيكم عليها .

ثم ذكر أعظم امتحان يمتحن به عباده ، وهو : الجهاد فى سبيل الله فقال : [ولنبلونكم] أى : نختبر إيمانكم وصبركم [حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم] فمن امتثل أمر الله وجاهد فى سبيل الله بنصر دينه وإعلاء كلمته فهو المؤمن حقا ، ومن تكاسل عن ذلك ، كان ذلك نقصا فى إيمانه .

---

(١) فى لحن القول أى : معناه ، إذا تكلموا عندك بأن يُعَرِّضوا بما فيه تهجين (تقبيح) أمر المسلمين اهـ جلالين .

وفي أبى السعود « ولحن القول : نحوه وأسلوبه ، أو إمالته إلى جهة تعريض وتورية . ومنه قيل للمخطىء « لاحن » لعدله بالكلام عن سمت الصواب » . اهـ .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّوا۟ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ ﴾

---

* هذا وعيد شديد لمن جمع أنواع الشر كلها ، من الكفر بالله ، وصد الخلق عن سبيل الله ، الذى نصبه ، موصلا إليه .

[وشاقوا[1] الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى] أى : عاندوه ، وخالفوه عن عمد وعناد ، لا عن جهل ، وغىّ وضلال .

فإنهم [لن يضروا الله شيئا] فلا ينقص به ملكه .

[وسيحبط أعمالهم] أى : مساعيهم التى بذلوها فى نصر الباطل ، بأن لا تثمر لهم إلا الخيبة والخسران ، وأعمالهم التى يرجون بها الثواب ،لاتقبل لعدم وجود شرطها .

---

(١) هذه الآية نزلت فى المشركين الذين كانوا يطعمون إخوانهم المشركين يوم « بدر » أو غزوة بنى قريظة أو بنى النضير فى رواية أخرى .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓا۟ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ ﴾

---

* يأمر تعالى المؤمنين ، بأمر به تتم وتحصل سعادتهم الدينية والدنيوية ، وهو : طاعته ، وطاعة رسوله ، فى أصول الدين وفروعه .

والطاعة هى: امتثال الأوامر، واجتناب النهى[1] على الوجه المأمور به، بالإخلاص ، وتمام المتابعة .

وقوله : [ولا تبطلوا أعمالكم] يشمل النهى عن إبطالها بعد عملها ، بما يفسدها ، من مَنٍّ بها ، وإعجاب ، وفخر ، وسمعة ، ومن عمل بالمعاصى ، التى تضمحل معها الأعمال ، ويحبط أجرها .

ويشمل النهى عن إفسادها ، حال وقوعها ، بقطعها ، أو الإتيان بمفسد من مفسداتها .

فمبطلات الصلاة ، والصيام ، والحج ، ونحوها ، كلها داخلة فى هذا ، ومنهى عنها .

ويستدل الفقهاء بهذه الآية ، على تحريم قطع الفرض ، وكراهة قطع النفل ، من غير موجب لذلك .

وإذا كان الله ، قد نهى عن إبطال الأعمال ، فهو أمر بإصلاحها ، وإكمالها ، وإتمامها ، والإتيان بها ، على الوجه الذى تصلح به، علماً وعملا .

---

(١) قوله « النهى » هكذا في الأصل ، والصحيح أن يقال « المناهى » ليتناسب مع ما قبله وهى كلمة « الأوامر » .

۞ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ

---

* هذه الآية ، والتى فى البقرة وهى قوله تعالى « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة » مقيدتان ، لكل نص مطلق ، فيه إحباط العمل بالكفر ، فإنه مقيد بالموت عليه .

فقال هنا : [إن الذين كفروا] بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر [وصدوا] الخلق [عن سبيل الله] بتزهيدهم إياهم بالحق ، ودعوتهم إلى الباطل ، وتزيينه .

[ثم ماتوا وهم كفار] لم يتوبوا منه [فلن يغفر الله لهم] لا بشفاعة ولا بغيرها .

لأنه قد تحتم عليهم العقاب ، وفاتهم الثواب ، ووجب عليهم الخلود فى النار وسدت عليهم رحمة الرحيم الغفار .

ومفهوم الآية الكريمة ، أنهم ، إن تابوا من ذلك قبل موتهم ، فإن الله يغفر لهم ، ويرحمهم ، ويدخلهم الجنة ، ولو كانوا مفنين أعمارهم فى الكفر به والصد عن سبيله ، والإقدام على معاصيه .

فسبحان ، من فتح لعباده أبواب الرحمة ، ولم يغلقها عن أحد ، ما دام حيا ، متمكناً من التوبة .

وسبحان الحليم ، الذى لا يعاجل العاصين بالعقوبة ، بل يعاقبهم ، ويرزقهم ، كأنهم ما عصوه ، مع قدرته عليهم .

ثم قال تعالى [فلا تهنوا] أى : لا تضعفوا عن قتال عدوكم ، ويستولى

وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾

عليكم الخوف ، بل اصبروا واثبتوا ، ووطّنوا أنفسكم على القتال والجلاد ، طلبا لمرضاة ربكم ، ونصحاً للإسلام ، وإغضاباً للشيطان .

[و] لا [تدعوا إلى السلم] والمتاركة بينكم وبين أعدائكم ، طلباً للراحة .

[و] الحال أنكم [أنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم] أى: ينقصكم [أعمالكم] .

فهذه الأمور الثلاثة ، كل منها ، مقتض للصبر ، وعدم الوهن .

كونهم الأعلين ، أى : قد توفرت لهم أسباب النصر ، ووعدوا من الله بالوعد الصادق :

فإن الإنسان ، لا يهن ، إلا إذا كان أذل من غيره ، وأضعف عددا ، أو عُدَدًا وقوة داخلية وخارجية .

الثانى : أن الله معهم ، فإنهم مؤمنون ، والله مع المؤمنين ، بالعون ، والنصر ، والتأييد .

وذلك موجب لقوة قلوبهم ، وإقدامهم على عدوهم .

الثالث : أن الله لا ينقصهم من أعمالهم شيئاً ، بل سيوفيهم أجورهم ، ويزيدهم من فضله .

خصوصا عبادة الجهاد ، فإن النفقة تضاعف فيه ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

« ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ، ولا نصب ، ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطأون موطئاً يغيظ الكفار ، ولا ينالون من عدو نيلا ، إلا كتب

﴿ إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟

لهم به عمل صالح ، إن الله لا يضيع أجر المحسنين * ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ، ولا يقطعون واديا، إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » .

فإذا عرف الإنسان أن الله تعالى ، لا يضيع عمله وجهاده ، أوجب له ذلك النشاط ، وبذل الجهاد ، فيما يترتب عليه الأجر والثواب .

فكيف ، إذا اجتمعت هذه الأمور الثلاثة ؟! فإن ذلك يوجب النشاط التام .

فهذا من ترغيب الله لعباده ، وتنشيطهم ، وتقوية أنفسهم ، على ما فيه صلاحهم وفلاحهم

* هذا تزهيد منه تعالى لعباده ، فى الحياة الدنيا ، بإخبارهم عن حقيقة أمرها ، بأنها لعب ولهو ، لعب فى الأبدان ، ولهو فى القلوب .

فلا يزال العبد لاهيا فى ماله ، وأولاده ، وزينته ، ولذاته ، من النساء ، والمآكل ، والمشارب ، والمساكن ، والمجالس ، والمناظر ، والرياسات ، لاعباً فى كل عمل لا فائدة فيه ، بل هو دائر بين البطالة والغفلة والمعاصى ، حتى يستكمل دنياه ، ويحضره أجله .

فإذا هذه الأمور ، قد ولَّتْ ، وفارقت ، ولم يحصل العبد منها على طائل .

بل قد تبين له خسرانه وحرمانه ، وحضر عذابه .

فهذا موجب للعاقل ، الزهد فيها ، وعدم الرغبة فيها ، والاهتمام بشأنها .

يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ

وإنما الذى ينبغى أن يهتم به ، ما ذكره بقوله [وإن تؤمنوا وتتقوا] بأن تؤمنوا بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، وتقوموا بتقواه ، التى هى من لوازم الإيمان ومقتضياته ، وهى : العمل بمرضاته على الدوام ، مع ترك معاصيه ، فهذا الذي ينفع العبد ، وهو الذى ينبغى أن يتنافس فيه ، وتبذل الهمم والأعمال فى طلبه .

وهو مقصود الله من عباده ، رحمة بهم ، ولطفاً ، ليثيبهم الثواب الجزيل ، ولهذا قال :

[وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم] أى : لا يريد تعالى ، أن يكلفكم ما يشق عليكم ويعنتكم ، من أخذ أموالكم ، وبقائكم بلا مال ، أو ينقصكم نقصا يضركم .

ولهذا قال : [إن يسألكموها فيحفكم[1] تبخلوا ويخرج أضغانكم]

أى : ما فى قلوبكم من الضغن ، إذا طلب منكم ، ما تكرهون بذله .

الدليل على أن الله لو طلب منكم أموالكم وأحفاكم بسؤالها ، أنكم

---

(١) فيحفكم . أي : يجهدكم ، ويشق عليكم ، ويطلبه كله .

والإحفاء والإلحاف : المبالغة وبلوغ الغاية فى كل شىء .

يقال : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، وأحفى شاربه : إذا استأصله عن آخره .

تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾

تمنعون منها أنكم [تدعون لتنفقوا فى سبيل الله] على هذ الوجه ، الذى فيه مصلحتكم الدينية والدنيوية .

[فمنكم من يبخل] أى : فكيف لو سألكم ، وطلب منكم ، أموالكم ، فى غير أمر ترونه مصلحة عاجلة ؟ أليس من باب أولى وأحرى ، امتناعكم من ذلك .

[ثم قال : [ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه] لأنه حرم نفسه ثواب الله تعالى ، وفاته خير كثير ، ولن يضر الله وبترك الإنفاق شيئاً .

[والله] هو [الغنى وأنتم الفقراء] تحتاجون إليه فى جميع أوقاتكم ، لجميع أموركم .

[وإن تتولوا] عن الإيمان بالله ، وامتثال ما يأمركم به [يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم] فى التولّى « عن أمر الله » .

بل يطيعون الله ورسوله ، ويحبون الله ورسوله ، كما قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » .

تم تفسير سورة محمد (القتال) ـ والحمد لله رب العالمين .

تفســـير

سُورَةُ الفتح

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ

---

* هذا الفتح المذكور ، هو صلح الحديبية ، حين صد المشركون رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لما جاء معتمراً ، فى قصة طويلة ، صار آخر أمرها ، أن صالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على وضع الحرب ، بينه وبينهم ، عشر سنين ، وعلى أن يعتمر من العام المقبل .

وعلى أن من أراد أن يدخل فى عهد قريش وحلفهم دخل .

ومن أحب أن يدخل فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعقده ، فعل .

وسبب ذلك ، أنه لما أمن الناس بعضهم بعضاً ، اتسعت دائرة الدعوة لدين الله عز وجل .

وصار كل مؤمن ، بأى محل كان من تلك الأقطار ، يتمكن من ذلك .

مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾

وأمكن ذلك للحريص على الوقوف على حقيقة الإسلام .

فدخل الناس فى تلك المدة ، فى دين الله أفواجا ، فلذلك سماه الله فتحا ، ووصفه ، بأنه فتح مبين ، أي : ظاهر جلى .

وذلك ، لأن المقصود من فتح بلدان المشركين ، إعزاز دين الله ، وانتصار المسلمين ، وهذا حصل به الفتح ، ورتب الله على هذا الفتح عدة أمور فقال :

[ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر] وذلك — والله أعلم — بسبب ما حصل بسببه من الطاعات الكثيرة ، والدخول فى الدين بكثرة .

وبما تحمل صلى الله عليه وسلم ، من تلك الشروط التى لا يصبر عليها ، إلا أولو العزم من المرسلين .

وهذا من أعظم مناقبه ، وكراماته صلى الله عليه وسلم ، أن غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر .

[ويتم نعمته عليك] بإعزاز دينك ، ونصرك على أعدائك ، واتساع كلمتك [ويهديك صراطاً مستقيما] تنال به السعادة الأبدية ، والفلاح السرمدى .

[وينصرك الله نصراً عزيزاً] أى: قويا ، لا يتضعضع فيه الإسلام ، بل يحصل الانتصار التام ، وقمع الكافرين ، وذلهم ، ونقصهم ، مع توفر المسلمين ، ونموهم ، ونمو أموالهم .

ثم ذكر آثار هذا الفتح على المؤمنين فقال :

[هو الذى أنزل السكينة] إلى [وساءت مصيراً] .

۞ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن

---

* يخبر تعالى عن مِنَّتِهِ على المؤمنين بإنزال السكينة فى قلوبهم .

وهى: السكون والطمأنينة ، والثبات عند نزول المحن المقلقة ، والأمور الصعبة ، التى تشوش القلوب ، وتزعج الألباب ، وتضعف النفوس .

فمن نعمة الله على عبده فى هذه الحال ، أن يثبته ، ويربط على قلبه ، وينزل عليه السكينة ، ليتلقى هذه المشقات ، بقلب ثابت ، ونفس مطمئنة ، فيستعد بذلك ، لإقامة أمر الله فى هذه الحال ، فيزداد بذلك إيمانه ، ويتم إيقانه .

فالصحابة رضى الله عنهم ، لما جرى بين رسول الله صلى الله عليه وسلم والمشركين ، من تلك الشروط ، التى ظاهرها ، أنها غضاضة عليهم ، وحط من أقدارهم ، وتلك لا تكاد تصبر عليها النفوس .

فلما صبروا عليها ، ووطَّنوا أنفسهم لها ، ازدادوا بذلك ، إيماناً مع إيمانهم . وقوله : [ولله جنود السموات والأرض] أى : جميعها فى ملكه ، وتحت تدبيره وقهره .

فلا يظن المشركون ، أن الله لا ينصر دينه ونبيه ، ولكنه تعالى عليم حكيم . فتقتضى حكمته ، المداولة بين الناس فى الأيام ، وتأخير نصر المؤمنين إلى وقت آخر .

[ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِنـدَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٥﴾ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَـٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

فيها ويكفر عنهم سيئاتهم] فهذا أعظم ما يحصل للمؤمنين ، أى : يحصل لهم المرغوب المطلوب ، بدخول الجنات ، ويزيل عنهم المحذور . بتكفير السيئات .

[وكان ذلك] الجزاء المذكور للمؤمنين [عند الله فوزا عظيما] فهذا ما يفعل بالمؤمنين فى ذلك الفتح المبين .

وأما المنافقون والمنافقات ، والمشركون والمشركات ، فإن الله يعذبهم بذلك ، ويريهم مايسوؤهم ، حيث كان مقصودهم خذلان المؤمنين ، وظنوا بالله ظن السوء ، أنه لا ينصر دينه ، ولا يُعلِى كلمته ، وأن أهل الباطل ، ستكون لهم الدائرة على أهل الحق .

فأدار الله عليهم ظنهم ، وكانت دائرة السوء عليهم فى الدنيا .

[وغضب الله عليهم] بما اقترفوه من المحادّة لله ولرسوله .

[ولعنهم] أى : أبعدهم وأقصاهم عن رحمته [وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا[1] .

---

(١) أى : ساءت وقبحت جهنم مرجعاً ونهاية يخلدون فى عذابها .

﴿ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ ﴾

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾

---

* كرر الإخبار ، بأن له ملك السموات والأرض ومافيهما من الجنود ، ليعلم العباد أنه تعالى ، هو المعز المذل ، وأنه سينصر جنوده المنسوبة إليه ، كما قال تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » .

[وكان الله عزيزاً حكيما] أى : قويا غالباً ، قاهراً لـكل شىء .

ومع عزته وقوته ، حكيم فى خلقه وتدبيره ، يجرى على ما تقتضيه حكمته وإتقانه .

* أى : [إنا أرسلناك] أيها الرسول الكريم [شاهداً] لأمتك بما فعلوه ، من خير وشر .

وشاهدا على المقالات والمسائل ، حقها وباطلها .

وشاهدا لله تعالى بالوحدانية ، والانفراد بالـكمال ، من كل وجه .

[ومبشرا] من أطاعك ، وأطاع الله بالثواب الدنيوى والدينى ، والأخروى .

[ونذيرا] لمن عصى الله ، بالعقاب العاجل والآجل .

ومن تمام البشارة والنذارة ، بيان الأعمال والأخلاق ، التى يبشر بها وينذر .

فهو المبين للخير والشر ، والسعادة والشقاة والشقاوة ، والحق من الباطل .

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾

ولهذا رتب على ذلك قوله : [لتؤمنوا بالله ورسوله] أى :بسبب دعوة الرسول لكم ، وتعليمه لكم ما ينفعكم ، أرسلناه لتقوموا بالإيمان بالله ورسوله ، المستلزم ذلك لطاعتهما ، فى جميع الأمور .

[وتعزروه[1] وتوقروه] أى : تعزروا الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتوقروه ، أى : تعظموه وتجلوه ، وتقوموا بحقوقه ، كما كانت له المنة العظيمة فى رقابكم .

[وتسبحوه] أى تسبحوا لله [بكرة وأصيلا] أول النهار وآخره .

فذكر الله فى هذه الآية ، الحق المشترك بين الله ، وبين رسوله ، وهو : الإيمان بهما .

والمختص بالرسول ، وهو : التعزير والتوقير .

والمختص بالله ، وهو : التسبيح له والتقديس ، بصلاة ، أو غيرها .

---

(١) تعزروه . التعزير : النصرة مع التعظيم . ا هـ . مفردات الراغب وفى « أبو السعود » وتعزروه بتقوية دينه ورسوله . ا هـ . والمراد : تنصروا الله تعالى بالجهاد الصادق مع نبيه محمد عليه الصلاة والسلام .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ ﴾

---

* هذه المبايعة ، التى أشار الله إليها هى « بيعة الرضوان » التى بايع الصحابة رضى الله عنهم فيها ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، على أن لا يفروا عنه .

فهى عقد خاص ، من لوازمه : أن لا يفروا ، ولو لم يبق منهم إلا القليل ، ولو كانوا فى حال يجوز الفرار فيها .

فأخبر تعالى [إن الذين يبايعونك] حقيقة الأمر أنهم [إنما يبايعون الله] ويعقدون العقد معه ، حتى إنه من شدة تأكده أنه قال :

[يد الله فوق أيديهم] أى : كأنهم بايعوا الله ، وصافحوه بتلك المبايعة .

وكل هذا ، لزيادة التأكيد والتقوية ، وحملهم على الوفاء بها .

ولهذا قال : [فمن نكث[1]] فلم يف بما عاهد الله عليه [فإنما ينكث على نفسه] لأن وبال ذلك راجع إليه ، وعقوبته واصلة له .

[ومن أوفى بما عاهد عليه الله] أي . أتى به كاملا موفراً

[فسيؤتيه أجراً عظيما] لا يعلم عظمه وقدره ، إلا الذى آتاه إياه .

---

(١) أى : فمن نقض عهده الذى عاهدك عليه وهو الثبات على الإيمان الصادق ، فإنما يعود ضرر نقض العهد المذكور على نفسه ولا يضر إلا نفسه .

سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا

يذم تعالى المتخلفين عن رسول الله، فى الجهاد فى سبيله، من الأعراب، الذين ضعف إيمانهم، وكان فى قلوبهم مرض، وسوء ظن بالله تعالى، وأنهم سيعتذرون، بأن أموالهم وأهليهم، شغلتهم عن الخروج فى سبيله.

وأنهم طلبوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، أن يستغفر لهم، قال الله تعالى: «يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم» فإن طلبهم الاستغفار من رسول الله صلى الله عليه وسلم، يدل على ندمهم، وإقرارهم على أنفسهم بالذنب، وأنهم تخلفوا تخلفاً، يحتاج إلى توبة واستغفار.

فلولا هذا الذى فى قلوبهم، لكان استغفار الرسول نافعاً لهم، لأنهم قد تابوا وأنابوا.

ولكن الذى فى قلوبهم، أنهم إنما تخلفوا، لأنهم ظنوا بالله ظن السوء.

فظنوا [أن لن ينقلب الرسول والمؤمنين إلى أهليهم أبدا] أى: إنهم سيقتلون ويستأصلون.

ولم يزل هذا الظن يزيد فى قلوبهم، ويطمئنون إليه، حتى استحكم.

وسبب ذلك أمران:

بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾

أحدهما : أنهم كانوا [قوما بورا] أى : هلكى ، لا خير فيهم فلو كان فيهم خير ، لم يكن هذا فى قلوبهم .

الثانى : ضعف إيمانهم ويقينهم بوعد الله ، ونصر دينه ، وإعلاء كلمته ، ولهذا قال :

[ومن لم يؤمن بالله ورسوله] أى : فإنه كافر مستحق للعقاب .

[فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا] .

* أى: هو تعالى المنفرد بملك السماوات والأرض ، يتصرف فيهما بما يشاء من الأحكام القدرية ، والأحكام الشرعية ، والأحكام الجزائية .

ولهذا ذكر حكم الجزاء ، المرتب على الأحكام الشرعية فقال :

[يغفر لمن يشاء] وهو : من قام بما أمره الله به [ويعذب من يشاء] ممن تهاون بأمر الله .

[وكان الله غفوراً رحيما] أى : وصفه اللازم ، الذى لا ينفك عنه المغفرة والرحمة .

﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ ﴾

فلا يزال فى جميع الأوقات ، يغفر للمذنبين ، ويتجاوز عن الخطائين ، ويتقبل توبة التائبين ، وينزل خيره المدرار ، آناء الليل والنهار .

* لما ذكر تعالى المخلفين وذمهم ، ذكر أن من عقوبتهم الدنيوية ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، إذا انطلقوا إلى غنائم لا قتال فيها ليأخذوها ، طلبوا منهم الصحبة والمشاركة ، ويقولون :

[ذرونا نتبعكم ، يريدون] بذلك [أن يبدلوا كلام الله] حيث حكم بعقوبتهم ، واختصاص الصحابة المؤمنين بتلك الغنائم ، شرعا وقدرا .

[قل] لهم [لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل] إنكم محرومون منها ، بما جنيتم على أنفسكم ، وبما تركتم القتال أول مرة .

[فسيقولون] مجيبين لهذا الكلام ، الذى منعوا به عن الخروج :

[بل تحسدونا] على الغنائم ، هذا منتهى علمهم فى هذا الموضع .

ولو فهموا رشدهم ، لعلموا أن حرمانهم ، بسبب عصيانهم ، وأن المعاصى ، لها عقوبات دنيوية ودينية ، ولهذا قال :

[بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا[1]] .

---

(١) أى : لا يفهمون إلا فهما قليلا ، وهو فطنتهم لأمور الدنيا . وهذا ردٌّ لقولهم الباطل ووصف لهم بما هو أعظم من الحسد وأطم من الجهل المفرط وسوء الفهم فى أمور الدين ، اهـ . من أبى السعود .

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾

---

* لما ذكر تعالى ، أن المخلفين من الأعراب ، يتخلفون عن الجهاد فى سبيله ، ويعتذرون بغير عذر ، وأنهم يطلبون الخروج معهم ، إذا لم يكن شوكة ولا قتال ، بل لمجرد الغنيمة ، قال تعالى ، ممتحناً لهم :

[قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد] أى: سيدعوكم الرسول ، ومن ناب منابه ، من الخلفاء الراشدين ، والأئمة.

وهؤلاء القوم ، هم فارس والروم ، ومن نحا نحوهم ، وأشبههم .

[تقاتلونهم أو يسلمون] أى : إما هذا ، وإما هذا .

وهذا هو الأمر الواقع ، فإنهم فى حال قتالهم ، ومقاتلتهم لأولئك الأقوام ، إذا كانت شدتهم وبأسهم معهم ، فإنهم فى تلك الحال ، لا يقبلون أن يبذلوا الجزية .

بل إما أن يدخلوا فى الإسلام ، وإما أن يقاتلوا على ما هم عليه .

فلما أثخنهم المسلمون ، وضعفوا ، وذلوا ، ذهب بأسهم ، فصاروا ، إما أن يسلموا ، وإما أن يبذلوا الجزية .

[فإن تطيعوا] الداعى إلى قتال هؤلاء [يؤتكم الله أجراً حسناً] وهو : الأجر الذى رتبه الله ورسوله ، على الجهاد فى سبيل الله .

[وإن تتولوا كما توليتم من قبل] عن قتال من دعاكم الرسول إلى قتاله .

لَيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾

لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ

[يعذبكم عذاباً أليما] ودلت هذه الآية على فضيلة الخلفاء الراشدين ، الداعين لجهاد أهل البأس من الناس . وأنه تجب طاعتهم فى ذلك .

ثم ذكر الأعذار التى يعذر بها العبد ، عن الخروج إلى الجهاد ، فقال :

[ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج] أى : فى التخلف عن الجهاد لعذرهم المانع .

[ومن يطع الله ورسوله] فى امتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

[يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار] فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

[ومن يتول] عن طاعة الله ورسوله [يعذبه عذاباً أليما] .

فالسعادة كلها ، فى طاعة الله ، والشقاوة ، فى معصيته ، ومخالفته .

* يخبر تعالى ، بفضله ورحمته ، برضاه عن المؤمنين ، إذ يبايعون الرسول صلى الله عليه وسلم ، تلك المبايعة التى بيضت وجوههم ، واكتسبوا بها سعادة الدنيا والآخرة .

وكان سبب هذه البيعة — التى يقال لها « بيعة الرضوان » لرضا الله

ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَـٰبَهُمْ فَتْحًا

عن المؤمنين فيها ، ويقال لها « بيعة أهل الشجرة » — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دار الكلام بينه وبين المشركين يوم الحديبية ، فى شأن مجيئه ، وأنه لم يجىء لقتال أحد ، وإنما جاء زائراً هذا البيت ، معظماً له .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه لمكة فى ذلك .

فجاء خبر غير صادق ، أن عثمان قتله المشركون .

فجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم من معه من المؤمنين ، وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة ، فبايعوه تحت شجرة ، على قتال المشركين ، وأن لا يفروا ، حتى يموتوا .

فأخبر تعالى ، أنه رضى عن المؤمنين فى تلك الحال ، التى هى من أكبر الطاعات ، وأجل القربات .

[فعلم ما فى قلوبهم] من الإيمان [فأنزل السكينة عليهم] شكراً لهم على ما فى قلوبهم ، وزادهم هدى .

وعلم ما فى قلوبهم من الجزع ، من تلك الشروط ، التى شرطها المشركون على رسوله .

فأنزل عليهم السكينة ، تثبتهم ، وتطمئن بها قلوبهم .

[وأثابهم فتحاً قريباً] وهو : فتح خيبر ، لم يحضره سوى أهل الحديبية .

قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا

فاختصوا بخيبر وغنائمها ، جزاءاً لهم ، وشكراً على ما فعلوه من طاعة الله تعالى ، والقيام بمرضاته .

[ومغانم كثيرة يأخذونها ، وكان الله عزيزاً حكيما] أى : له العزة والقدرة ، التى قهر بها الأشياء ، فلو شاء ، لانتصر من الكفار فى كل وقعة تكون بينهم وبين المؤمنين .

ولكنه حكيم ، يبتلى بعضهم ببعض ، ويمتحن المؤمن بالكافر .

[وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها] وهذا يشمل كل غنيمة غنمها المسلمون إلى يوم القيامة .

[فعجل لكم هذه] أى : غنيمة خيبر ، أى : فلا تحسبوها وحدها ، بل ثمّ شىء كثير من الغنائم سيتبعها .

[و] احمدوا الله ، إذ [كف أيدى الناس] القادرين على قتالكم ، الحريصين عليه [عنكم] فهى نعمة ، وتخفيف عنكم .

[ولتكون] هذه الغنيمة [آية للمؤمنين] يستدلون بها على خبر الله الصادق ، ووعده الحق ، وثوابه للمؤمنين ، وأن الذى قدرها ، سيقدر غيرها .

[ويهديكم] بما يقيض لكم من الأسباب [صراطاً مستقيما] من العلم والإيمان والعمل .

مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾

وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

[وأخرى] أى : وعدكم أيضاً غنيمة أخرى [لم تقدروا عليها] وقت هذا الخطاب .

[قد أحاط الله بها] أى : هو قادر عليها ، وتحت تدبيره وملكه ، وقد وعدكموها ، فلابد من وقوع ما وعد به ، لكمال اقتدار الله تعالى ، ولهذا قال : [وكان الله على كل شىء قديرا] .

* هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين ، ينصرهم على أعدائهم الكافرين ، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم [لولوا الأدبار ، ثم لا يجدون ولياً] يتولى أمرهم .

[ولا نصيراً] ينصرهم ، ويعينهم على قتالكم ، بل هم مخذولون مغلوبون .

وهذه سنة الله فى الأمم السابقة ، أن جند الله هم الغالبون « ولن تجد لسنة الله تبديلا » .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ

---

* يقول تعالى ، ممتنا على عباده بالعافية ، من شر الكفار ومن قتالهم ، فقال :

[وهو الذى كف أيديهم] أى : أهل مكة [عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم] أى : من بعد ما قدرتم عليهم ، وصاروا تحت ولايتكم ، بلا عقد ، ولا عهد ، وهم نحو ثمانين رجلا ، انحدروا على المسلمين ، ليصيبوا منهم غرة .

فوجدوا المسلمين منتبهين ، فأمسكوهم ، فتركوهم ، ولم يقتلوهم ، رحمة من الله بالمؤمنين إذ لم يقتلوهم .

[وكان الله بما تعملون بصيرا] فيجازى كل عامل بعمله ، ويدبركم ، أيها المؤمنون ، بتدبيره الحسن .

ثم ذكر تعالى ، الأمور المهيجة على قتال المشركين ، وهى : كفرهم بالله ورسوله ، وصدهم رسول الله ، ومن معه من المؤمنين،أن يأتوا للبيت الحرام زائرين معظمين له ، بالحج والعمرة .

وهم الذين أيضا صدوا [الهدى معكوفا] أى : محبوسا [أن يبلغ محله] وهو محل ذبحه فى مكة ، حيث تذبح هدايا العمرة ، فمنعوه من الوصول إليه ظلماً وعدوانا .

وكل هذه ، أمور موجبة ، وداعية إلى قتالهم .

وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾

ولكن ثَمَّ مانع وهو : وجود رجال ونساء من أهل الإيمان ، بين أظهر المشركين ، وليسوا بمتميزين بمحلة ، أو مكان يمكن أن لا ينالهم أذى .

فلولا هؤلاء الرجال المؤمنون ، والنساء المؤمنات ، الذين لا يعلمهم المسلمون ، أن تطأوهم ، أى : خشية أن تطأوهم [فتصيبكم منهم معرة بغير علم] .

والمعرة : ما يدخل تحت قتالهم ، من نيلهم بالأذى والمكروه .

وفائدة أخروية ، وهو : أنه [ليدخل الله فى رحمته من يشاء] فيَمُنُّ عليهم بالإيمان بعد الكفر ، وبالهدى بعد الضلال ، فيمنعكم من قتالهم لهذا السبب .

[لو تزيلوا] أى لو زالوا من بين أظهرهم [لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما] .

بأن نبيح لكم قتالهم ، ونأذن فيه ، وننصركم عليهم .

﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ ﴾

---

* يقول تعالى [إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية] حيث أنفوا من كتابة « بسم الله الرحمن الرحيم » وأنفوا من دخول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمؤمنين إليهم فى تلك السنة ، لئلا يقول الناس : « دخلوا مكة قاهرين لقريش » .

وهذه الأمور ونحوها ، من أمور الجاهلية ، لم تزل فى قلوبهم ، حتى أوجبت لهم ما أوجبت ، من كثير من المعاصى .

[فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين] فلم يحملهم الغضب على مقابلة المشركين بما قابلوهم به ، بل صبروا لحكم الله ، والتزموا الشروط ، التى فيها تعظيم حرمات الله ولو كانت ما كانت ، ولم يبالوا بقول القائلين ، ولا بلوم اللائمين .

[وألزمهم كلمة التقوى] وهى « لا إله إلا الله » وحقوقها ، ألزمهم القيام بها ، فالتزموها ، وقاموا بها .

[وكانوا أحق بها] من غيرهم [و] كانوا [أهلها] الذين استأهلوا لما يعلم الله عندهم ، وفى قلوبهم من الخير ، ولهذا قال : [وكان الله بكل شىء عليما] .

﴿ لَقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا۟ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

---

* يقول تعالى : [لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق] وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، رأى فى المدينة رؤيا ، أخبر بها أصحابه ، أنهم سيدخلون مكة ، ويطوفون بالبيت .

فلما جرى يوم الحديبية ما جرى ، ورجعوا من غير دخول لمكة ، كثر فى ذلك ، الكلام منهم، حتى إنهم قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ألم تخبرنا أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟ فقال: « أخبرتكم أنه العام ؟» قالوا : لا .

قال : « فإنكم ستأتونه وتطوفون به » .

قال الله تعالى هنا : [لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق] أى : لابد من وقوعها وصدقها ، ولا يقدح فى ذلك تأويلها .

[لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين] أى : فى هذه الحال ، المقتضية لتعظيم هذا البيت الحرام ، وأدائكم للنسك ، وتكميله بالحلق والتقصير ، وعدم الخوف .

[فعلم] من المصلحة والمنافع [ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك] الدخول بتلك الصفة [فتحاً قريبا] .

ولما كانت هذه الواقعة، مما تشوشت به قلوب بعض المؤمنين ، وخفيت

هُوَ الَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِۦ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾

مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى الْكُفَّارِ

عليهم حكمتها فبين تعالى حكمتها ومنفعتها ، وهكذا سائر أحكامه الشرعية ، فإنها كلها ، هدى ورحمة .

أخبر بحكم عام فقال : [هو الذى أرسل رسوله بالهدى] الذى هو العلم النافع ، الذى يهدى من الضلالة ، ويبين طرق الخير والشر .

[ودين الحق] أى : الدين الموصوف بالحق ، وهو : العدل ، والإحسان ، والرحمة .

وهو : كل عمل مُزَكٍّ للقلوب ، مطهر للنفوس ، مُرَبٍّ للأخلاق ، مُعْلٍ للأقدار .

[ليظهره[1]] بما بعثه الله به [على الدين كله] بالحجة والبرهان ، ويكون داعياً لإخضاعهم بالسيف والسنان .

* يخبر تعالى عن نبيه [محمد رسول الله]صلى الله عليه وسلم [والذين معه] من أصحابه من المهاجرين والأنصار ، أنهم بأكمل الصفات ، وأجل الأحوال .

وأنهم [أشداء على الكفار] أى : جادون ومجتهدون فى نصرتهم ، وساعون فى ذلك بغاية جهدهم ، فلم ير الكفار منهم إلا الغلظة والشدة .

---

(١) ليظهره . أى : ليعليه على الأديان كلها .

رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ

فلذلك ذل أعداؤهم لهم ، وانكسروا ، وقهرهم المسلمون .

[رحماء بينهم] أى : متحابون ، متراحمون ، متعاطفون ، كالجسد الواحد .

يحب أحدهم لأخيه ، ما يحب لنفسه ، هذه معاملتهم مع الخلق .

وأما معاملتهم مع الخالق فإنك [تراهم ركعا سجدا] أى : وصفهم كثرة الصلاة ، التى أجل أركانها ، الركوع ، والسجود .

[يبتغون] بتلك العبادة [فضلا من الله ورضوانا] أى: هذا مقصودهم بلوغ رضا ربهم ، والوصول إلى ثوابه .

[سيماهم فى وجوههم من أثر السجود] أى : قد أثرت العبادة ـ من كثرتها وحسنها ـ فى وجوههم ، حتى استنارت .

لما استنارت بالصلاة بواطنهم ، استنارت بالجلال ، ظواهرهم .

[ذلك] المذكور [مثلهم فى التوراة] أى : هذا وصفهم ، الذى وصفهم الله به ، مذكور بالتوراة هكذا .

[ومثلهم فى الإنجيل] بوصف آخر ، وأنهم فى كمالهم وتعاونهم [كزرع أخرج شطئه فآزره] أى : أخرج أفرخه فوازرته فراخه ، فى الثبات والاستواء .

فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾

[فاستغلظ] ذلك الزرع ، أى : قوى وغلظ [فاستوى] « أى : قوى واستقام » [على سوقه] جمع ساق ، « أى : أصوله . والمراد : أنه قوى وقام على قضبانه » .

[يعجب الزراع] من كماله واستوائه ، وحسنه واعتداله .

كذلك الصحابة رضى الله عنهم ، هم كالزرع ، فى نفعهم للخلق ، واحتياج الناس إليهم .

فقوة إيمانهم وأعمالهم ، بمنزلة قوة عروق الزرع ، وسوقه .

وكون الصغير والمتأخر إسلامه ، قد لحق الكبير السابق ، ووازره ، وعاونه على ما هو عليه ، من إقامة دين الله والدعوة إليه ، كالزرع الذى أخرج شطئه ، فآزره فاستغلظ .

ولهذا قال : [ليغيظ بهم الكفار] حين يرون اجتماعهم ، وشدتهم على أعداء دينهم ، وحين يتصادمون معهم فى معارك النزال ، ومعامع القتال .

[وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما] .

فالصحابة رضى الله عنهم ، الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، قد جمع الله لهم بين المغفرة ، التى من لوازمها ، وقاية شرور الدنيا والآخرة ، والأجر العظيم ، في الدنيا والآخرة .

. . . .

ولنسق قصة الحديبية بطولها ، كما ساقها الإمام شمس الدين بن القيم فى الهدى النبوى ، فإن فيها إعانة على فهم هذه السورة ، وقد تكلم على معانيها وأسرارها .

فصل فى قصة الحديبية

قال رحمه الله تعالى :

قال نافع : كانت سنة ست فى ذى القعدة .

وهذا هو الصحيح ، وهو قول الزهرى ، وقتادة ، وموسى بن عقبة ، ومحمد بن إسحق وغيرهم .

وقال هشام بن عروة ، عن أبيه : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية فى رمضان ، وكانت فى شوال .

وهذا وهم ، وإنما كانت غزاة الفتح فى رمضان .

قال أبو الأسود عن عروة : إنها كانت فى ذى القعدة على الصواب .

وفى الصحيحين ، عن أنس أن النبى صلى الله عليه وسلم ، اعتمر أربع عمر ، كلهن فى ذى القعدة .

فذكر منهن ، عمرة الحديبية . وكان معه ألف وخمسمائة ، هكذا فى الصحيحين ، عن جابر ، وعنه فيهما ، كانوا ألفا وأربعمائة .

وفيهما ، عن عبد الله بن أبى أوفى : كنا ألفا وثلثمائة .

قال قتادة : قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الجماعة الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ .

. . . .

قال . خمس عشرة مائة .

قال قلت : فإن جابر بن عبد الله قال : كانوا أربع عشرة مائة .

قال : يرحمه الله ، وَهِم ، وهو حدثنى أنهم كانوا خمس عشرة مائة .

قلت : صح عن جابر القولان ، وصح عنه أنهم نحروا عام الحديبية ، سبعين بدنة ، البدنة عن سبعة .

فقيل له : كم كنتم ؟ قال : ألفاً وأربعمائة ، بخيلنا ورجلنا .

يعنى : فارسهم وراجلهم .

والقلب إلى هذا أمْيَل ، وهو قول البراء بن عازب ، ومعقل بن يسار، وسلمة بن الأكوع ، فى أصح الروايتين ، وقول المسيب بن حزن .

قال شعبة ، عن قتادة ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبيه : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، تحت الشجرة ألفاً وأربعمائة .

وغلط غلطاً بيناً ، من قال : كانوا سبعمائة .

وعذرهم ، أنهم نحروا يومئذ ، سبعين بدنة ، والبدنة قد جاء إجزاؤها عن سبعة ، أو عشرة .

وهذا لا يدل على ما قاله هذا القائل ، فإنه قد صرح بأن البدنة ، كانت فى هذه الغزوة عن سبعة .

فلو كانت السبعون عن جميعهم ، لكانوا أربعمائة ، وتسعين رجلا ، وقد قال بتمام الحديث بعينه ، أنهم كانوا ألفاً وأربعمائة .

. . . .

فصل

فلما كان بذى الحليفة ، قلد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الْهَدْىَ وأشعره ، وأحرم بالعمرة ، وبعث عيناً له بين يديه من خزاعة ، يخبره عن قريش .

حتى إذا كانوا قريباً من عُسْفان ، أتاه عينه فقال :

إنى قد تركت كعب بن لؤى ، قد جمعوا لك الأحابيش ، وجمعوا لك جموعاً ، وهم مقاتلوك ، وصادُّوك عن البيت .

واستشار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أصحابه أن نميل إلى ذرارى هؤلاء ، الذين أعانوهم فنصيبهم .

فإن قعدوا ، قعدوا موتورين محزونين ، وإن نجوا ، يكن عنق قطعه الله .

أم ترون أن نؤم البيت ؟ فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

قال أبو بكر : الله ورسوله أعلم ، إنما جئنا معتمرين ، ولم نجىء لقتال أحد ، ولكن من حال بيننا وبين البيت ، قاتلناه .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : فروحوا إذاً .

فراحوا ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق ، قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن خالد بن الوليد بالغميم فى خيل لقريش ، فخذوا ذات اليمين »

فوالله ما شعر بهم خالد ، حتى إذا هو نفيرة الجيش ، فانطلق يركض نذيراً لقريش .

. . . .

وسار النبي صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان بالثنية ، التي يهبط عليهم منها ، بركت راحلته .

فقال الناس : حل حل ، فألحت فقالوا : خلأت القصواء .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ما خلأت القصواء ، وما ذاك لها بخلق ولكن حبسها حابس الفيل .

ثم قال : « والذى نفسي بيده ، لا يسألونى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتموها .

ثم زجرها ، فوثبت به ، فعدل حتى نزل بأقصى الحديبية ، على ثمد قليل الماء ، إنما يتبرضه الناس تبرضاً ، فلم يلبث الناس أن نزحوه ، فشكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، العطش .

فانتزع سهماً من كنانته ، ثم أمرهم أن يجعلوها فيه .

قال : فوالله ، ما زال يجيش لهم بالرى ، حتى صدروا عنها .

وفزعت قريش ، لنزوله عليهم .

فأحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن يبعث إليهم رجلا من أصحابه .

فدعا عمر بن الخطاب ليبعثه إليهم ، فقال : يا رسول الله ، ليس بمكة من بنى كعب ، أحد يغضب لى ، إن أوذيت ، فأرسل عثمان بن عفان ، فإن عشيرته بها ، وإنه مبلغ ما أردت .

فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عثمان بن عفان ، فأرسله إلى قريش وقال :

« أخبرهم أنا لم نأت لقتال ، إنما جئنا عمّاراً ، وادعهم إلى الإسلام ».

. . . .

وأمره أن يأتى رجالا بمكة مؤمنين ، ونساء مؤمنات ، فيدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ، ويخبرهم أن الله عز وجل مظهر دينه بمكة ، حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

فانطلق عثمان ، فمر على قريش ببلدح ، فقالوا : أين تريد ؟

فقال : بعثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أدعوكم إلى الله ، وإلى الإسلام ، ونخبركم أنا لم نأت لقتال ، وإنما جئنا عماراً .

قالوا : قد سمعنا ما تقول ، فانفذ لحاجتك .

وقام إليه أبان بن سعيد ، فرحب به ، وأسرج فرسه ، فحمل عثمان على الفرس ، فأجاره ، وأردفه أبان ، حتى جاء مكة .

وقال المسلمون قبل أن يرجع عثمان : خلص عثمان قبلنا إلى البيت ، وطاف به .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما أظنه طاف بالبيت ، ونحن محصورون » .

فقالوا : وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص ؟

قال « ذاك ظنى به ، أن لا يطوف بالكعبة ، حتى نطوف معه » .

واختلط المسلمون بالمشركين فى أمر الصلح .

فرمى رجل من أحد الفريقين رجلا من الفريق الآخر ، وكانت معركة .

وتراموا بالنبل والحجارة ، وصاح الفريقان ، كلاهما ، وارتضى كل واحد من الفريقين بمن فيهم ، وبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أن عثمان قد قتل . فدعا إلى البيعة .

. . . .

فثار المسلمون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو تحت الشجرة ، فبايعوه على أن لا يفروا

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيد نفسه، وقال: « هذه عن عثمان » .

ولما تمت البيعة ، رجع عثمان ، فقال له المسلمون :

اشتفيت يا أبا عبد الله ، من الطواف بالبيت .

فقال : بئسما ظننتم بى ، والذى نفسى بيده ، لو مكثت بها سنة ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، مقيم بالحديبية ، ما طفت بها ، حتى يطوف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد دعتنى قريش إلى الطواف بالبيت فأبيت .

فقال المسلمون : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان أعلمنا بالله ، وأحسننا ظناً .

وكان عمر أخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، للبيعة تحت الشجرة فبايعه المسلمون كلهم إلا الجد بن قيس .

وكان معقل بن يسار ، أخذ بغصنها ، يرفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وكان أول من بايعه ، أبو سنان الأسدي ، وبايعه سلمة بن الأكوع ، ثلاث مرات ، فى أول الناس ، وأوسطهم ، وآخرهم .

فبينما هم كذلك ، إذ جاء بديل بن ورقاء الخزاعى ، فى نفر من خزاعة ، وكانوا عيبة نصح لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أهل تهامة فقال : إنى تركت كعب بن لؤى ، وعامر بن لؤى ، نزلوا أعداد مياه

. . . .

الحديبية ، معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك ، وصادوك عن البيت .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إنا لم نجيء لقتال أحد ، ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشاً قد نهكتهم الحرب ، وأضرت بهم ، فإن شاءوا ماددتهم ويخلوا بيني وبين الناس ، وإن شاءوا ، أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس ، فعلوا ، وإلا فقد جموا .

وإن أبوا إلا القتال ، فوالذى نفسي بيده ، لأقاتلنهم على أمرى هذا ، حتى تنفرد سالفتى ، أو لينفذن الله أمره » .

قال بديل : سأبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشاً فقال : إنى قد جئتكم من عند هذا الرجل ، وسمعته يقول قولا ، فإن شئتم عرضته عليكم .

فقال سفهاؤهم : لا حاجة لنا أن تحدثنا عنه بشيء .

وقال ذوو الرأى منهم : هات ما سمعته .

قال : سمعته يقول كذا وكذا .

فقال عروة بن مسعود الثقفى : إن هذا قد عرض عليكم خطة رشد ، فاقبلوها ، ودعونى آته . فقالوا : ائته .

فأتاه ، فجعل يكلمه ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ، نحواً من قوله لبديل .

فقال له عروة عند ذلك : أى محمد ، أرأيت لو استأصلت قومك ، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك ؟

. . . .

وإن تكن الأخرى ، فوالله إني لأرى وجوهاً ، وأرى أوشاباً من الناس، خليقاً أن يفروا ، ويدعوك .

فقال له أبو بكر : امصص بظر اللات ، أنحن نفر عنه وندعه ؟

قال : من ذا ؟ قال : أبو بكر .

قال : أما والذى نفسى بيده ، لولا يد كانت لك عندى ، لم أجزك بها ، لأجبتك .

وجعل يكلم النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلما كلمه أخذ بلحيته ، والمغيرة ابن شعبة على رأس النبي صلى الله عليه وسلم ، ومعه السيف ، وعليه المغفر .

فكلما أهوى عروة إلى لحية النبي صلى الله عليه وسلم ، ضرب يده بنعل السيف وقال : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فرفع عروة رأسه وقال : من ذا ؟ قال : المغيرة بن شعبة .

فقالو : أى غُدَر ، أو لست أسعى فى غدرتك ؟

وكان المغيرة صحب قوماً ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم ، ثم جاء فأسلم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما الإسلام فأقبل ، وأما المال ، فلست منه فى شيء » .

ثم إن عروة جعل يرمق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله ما تنخم النبي صلى الله عليه وسلم نخامة ، إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها جلده ووجهه .

. . . .

وإذا أمرهم ، ابتدروا إلى أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وَضُوئِه .

وإذا تكلم ، خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر ، تعظيماً له .

فرجع عروة إلى أصحابه فقال : أى قوم ، والله ، لقد وفدت على الملوك : على كسرى ، وقيصر ، والنجاشى . والله ، ما رأيت ملكاً يعظمه أصحابه ، ما يعظم أصحاب محمد محمداً .

والله ما تنخم نخامة ، إلا وقعت فى كف رجل منهم ، فدلك بها وجهه وجلده .

وإذا أمرهم ، ابتدروا أمره ، وإذا توضأ ، كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلم ، خفضوا أصواتهم عنده ، وما يُحِدُّون إليه النظر ، تعظيماً له . وقد عرض عليكم خطة وشد فاقبلوها .

فقال رجل من بنى كنانة : دعونى آته . فقالوا : ائته .

فلما أشرف على النبى صلى الله عليه وسلم ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هذا فلان ، وهو من قوم يعظمون البدن ، فابعثوها له » فبعثوها فاستقبله القوم يلبون .

فلما رأى ذلك قال : سبحان الله ، لا ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت .

فرجع إلى أصحابه فقال :

رأيت البدن قد قلدت ، وأشعرت ، وما أرى يصدون عن البيت .

. . . .

فقام مكرز بن حفص وقال : دعونى آته . فقالوا : ائته .

فلما أشرف عليهم ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : « هذا مكرز بن حفص وهو رجل فاجر » .

فجعل يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فبينما هو يكلمه ، إذ جاء سهيل بن عمرو ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قد سهل لكم من أمركم » فقال : هات ، اكتب بيننا وبينك كتاباً . فدعا الكاتب فقال : « اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم » .

فقال سهيل : أما الرحمن ، فوالله ما ندرى ما هو ، ولكن اكتب : « باسمك اللهم » كما كنت تكتب .

فقال المسلمون : والله ما نكتبها ، إلا بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم « اكتب باسمك اللهم » .

ثم قال « اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله » .

فقال سهيل : فوالله لو نعلم أنك رسول الله ، ما صددناك عن البيت ، ولا قاتلناك ، ولكن اكتب : محمد بن عبد الله .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم :« إنى رسول الله ، وإن كذبتمونى ، اكتب : محمد بن عبد الله » .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « على أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به » .

فقال سهيل : والله لا تتحدث العرب ، أنا أخذنا ضغطة . ولكن لك من العام المقبل . فكتب .

. . . .

فقال سهيل : على أن لا يأتيك منا رجل ، وإن كان على دينك ، إلا رددته علينا .

فقال المسلمون : سبحان الله ، كيف يرد إلى المشركين ، وقد جاء مسلماً ؟

فبينما هم كذلك إذ جاء أبو جندل بن سهيل ، يرسف فى قيوده ، قد خرج من أسفل مكة ، حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين .

فقال سهيل : هذا يا محمد ، أول ما قاضيتك عليه ، أن ترده .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم « إنا لم نقض الكتاب بعد » .

فقال : فوالله إذاً ، لا أصالحك على شىء أبداً .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « فأجزه لى » .

فقال : ماأنا بمجيزه . فقال: « بلى ، فافعل » .

قال : ما أنا بفاعل .

قال مكرز : قد أجزناه .

فقال أبو جندل : يامعشر المسلمين ، أرد إلى المشركين ، وقد جئت مسلما ! ألا ترون ما لقيت ؟

وكان قد عذب فى الله عذابا شديدا .

قال عمر بن الخطاب : والله ما شككت منذ أسلمت إلا يومئذ .

فأتيت النبى صلى الله عليه وسلم ، فقلت :يارسول الله ألست نبى الله ؟ .

قال : بلى . قال :قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال : بلى

. . . .

فقلت : على م نعطى الدنية فى ديننا ، ونرجع ، ولما يحكم الله بيننا وبين أعدائنا ؟

فقال : إنى رسول الله ، وهو ناصرى ، ولست أعصيه .

قلت : أو لست كنت تحدثنا ، أنا سنأتى البيت ونطوف به ؟

قال: بلى ، أفأخبرتك أنك تأتيه العام ؟ قلت : لا .

قال : فإنك آتيه ومطوف به .

قال : فأتيت أبابكر ، فقلت له كما قلت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورد عليه أبوبكر كما رد عليه رسول الله ، سواء ، وزاد : فاستمسك بغرزه حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

قال : عمر فعملت لذلك أعمالا .

فلما فرغ من قضية الكتاب قال : رسول الله صلى الله عليه وسلم « قوموا وانحروا . ثم احلقوا » .

فوالله ما قام منهم رجل حتى قال ثلاث مرات .

فلما لم يقم منهم أحد ، قام فدخل على أم سلمة فذكرلها مالقى من الناس .

فقالت : يارسول الله أتحب ذلك ؟ اخرج ، ثم لا تكلم أحداً كلمة ، حتى تنحر بدنك، وتدعو حالقك ، فيحلق لك .

فقام فخرج ، فلم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

نحر بدنه ، ودعا حالقه فحلقه .

فلما رأى الناس ذلك ، قاموا فنحروا ، وجعل بعضهم يحلق بعضا .

حتى كاد بعضهم ، يقتل بعضا غما .

. . . .

ثم جاءت نسوة مؤمنات ، فأنزل الله عز وجل [إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات] حتى بلغ [بعصم الكوافر] .

فطلق عمر يومئذ امرأتين ، كانتا عنده فى الشرك .

فتزوج إحداهما معاوية ، والأخرى صفوان بن أمية ، ثم رجع إلى المدينة .

وفى مرجعه أنزل الله عليه [إنا فتحنا لك فتحا مبينا] إلى آخرها .

فقال عمر : أفتح هو يارسول الله ؟ فقال : نعم .

فقال الصحابة : هنيئا لك يارسول الله ، فما لنا ؟

فأنزل الله عز وجل [هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين] الآية . انتهى

وهذا آخر تفسير سورة الفتح ، ولله الحمد

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه

نقلته من خط المفسر رحمه الله وعفا عنه . وكان الفراغ من كتابته فى ١٣ ذى الحجة سنة ١٣٤٥ وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين آمين .

بقلم الفقير إلى ربه ، سليمان بن حمد العبد الله البسام ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين آمين .

وصلى الله على محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلم تسليما كثيرا إلى يوم الدين .

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات .

تفسير

سورة الحجرات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

---

* هذا متضمن الأدب ، مع الله تعالى ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والتعظيم ، والاحترام له ، وإكرامه .

فأمر الله عباده المؤمنين ، بما يقتضيه الإيمان ، بالله ورسوله ، من امتثال أوامر الله ، واجتناب نواهيه ، وأن يكونوا ماشين ، خلف أوامر الله ، متبعين لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فى جميع أمورهم .

وأن لا يتقدموا بين يدى الله ورسوله ، فلا يقولوا ، حتى يقول ، ولا يأمروا ، حتى يأمر .

فإن هذا ، حقيقة الأدب الواجب ، مع الله ورسوله ، وهو : عنوان سعادة العبد وفلاحه .

وبفواته ، تفوته السعادة الأبدية ، والنعيم السرمدى .

وفى هذا ، النهى الشديد عن تقديم قول غير الرسول صلى الله عليه وسلم ، على قوله .

فإنه متى استبانت سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجب اتباعها ، وتقديمها على غيرها ، كائنا من كان .

ثم أمر الله بتقواه عموماً ، وهى كما قال طلق بن حبيب : أن تعمل بطاعة الله ، ترجو ثواب الله .

وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، تخشى عقاب الله .

وقوله [إن الله سميع] أى : لجميع الأصوات، فى جميع الأوقات ، فى خفى المواضع والجهات .

[عليم] بالظواهر والبواطن ، والسوابق ، واللواحق ، والواجبات ، والمستحيلات ،والجائزات .

وفى ذكر الاسمين الكريمين — بعد النهى عن التقدم بين يدى الله ورسوله ، والأمر بتقواه — حث على امتثال تلك الأوامر الحسنة، والآداب المستحسنة ، وترهيب عن ضده .

ثم قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول] وهذا أدب مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فى خطابه .

أى : لا يرفع المخاطب له ، صوته معه ، فوق صوته ، ولا يجهر له بالقول ، بل يغض الصوت ، ويخاطبه بأدب ولين ، وتعظيم وتكريم ، وإجلال وإعظام .

كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾

ولا يكون الرسول كأحدهم ، بل يميزونه فى خطابهم ، كما تميز عن غيره ، فى وجوب حقه على الأمة ، ووجوب الإيمان به ، والحب الذى لا يتم الإيمان إلا به .

فإن فى عدم القيام بذلك ، محذوراً ، خشية أن يحبط عمل العبد ، وهو لا يشعر .

كما أن الأدب معه ، من أسباب حصول الثواب ، وقبول الأعمال .

ثم مدح من غض صوته عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بأن الله امتحن قلوبهم للتقوى ، أى : ابتلاها واختبرها ، فظهرت نتيجة ذلك ، بأن صلحت قلوبهم للتقوى .

ثم وعدهم المغفرة لذنوبهم ، المتضمنة لزوال الشر والمكروه ، وحصول الأجر العظيم ، الذى لا يعلم وصفه إلا الله تعالى ، وفيه حصول كل محبوب .

وفى هذا ، دليل على أن الله يمتحن القلوب ، بالأمر ، والنهى ، والمحن .

فمن لازم أمر الله ، واتبع رضاه ، وسارع إلى ذلك ، وقدمه على هواه ، تمحض وتمحص للتقوي ، وصار قلبه صالحا .

ومن لم يكن كذلك ، علم أنه لا يصلح للتقوى .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

نزلت هذه الآيات الكريمة ، فى ناس من الأعراب ، الذين وصفهم الله بالجفاء ، وأنهم أجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله .

قدموا وافدين على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوجدوه فى بيته وحجرات نسائه .

فلم يصبروا ويتأدبوا حتى يخرج ، بل نادوه : يا محمد يا محمد ، أى : اخرج إلينا .

فذمهم الله بعدم العقل ، حيث لم يعقلوا عن الله الأدب مع رسوله واحترامه .

كما أن من العقل ، استعمال الأدب .

فأدب العبد ، عنوان عقله ، وأن الله مريد به الخير ، ولهذا قال : [ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفور رحيم] .

أي : غفور لما صدر عن عباده من الذنوب ، والإخلال بالآداب .

رحيم بهم ، حيث لم يعاجلهم بذنوبهم بالعقوبات والمثلات .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴿٦﴾ ﴾

---

* وهذا أيضا ، من الآداب التى على أولى الألباب ، التأدب بها واستعمالها .

وهو : أنه إذا أخبرهم فاسق بنبأ ، أى : خبر ، أن يتثبتوا فى خبره ، ولا يأخذوه مجردا .

فإن فى ذلك خطرا كبيرا ، ووقوعا فى الإثم .

فإن خبره إذا جعل بمنزلة خبر الصادق العدل ، حكم بموجب ذلك ومقتضاه ، فحصل من تلف النفوس والأموال ، بغير حق، بسبب ذلك الخبر ما يكون سببا للندامة .

بل الواجب عند سماع خبر الفاسق ، التثبت والتبين .

فإن دلت الدلائل والقرائن على صدقه ، عمل به وصدق .

وإن دلت على كذبه ، كذب ، ولم يعمل به .

ففيه دليل ، على أن خبر الصادق مقبول ، وخبر الكاذب ، مردود ، وخبر الفاسق ، متوقف فيه .

ولهذا كان السلف يقبلون روايات كثير من الخوارج ، المعروفين بالصدق ، ولو كانوا فساقا .

﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُوْلَـٰٓئِكَ

---

* أى : وليكن لديكم معلوما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بين أظهركم ، وهو الرسول الكريم ، البار ، الراشد ، الذى يريد بكم الخير ، وينصح لكم ، وتريدون لأنفسكم من الشر والمضرة ، مالا يوافقكم الرسول عليه .

ولو يطيعكم فى كثير من الأمر ، لشق عليكم ، وأعنتكم ولكن الرسول يرشدكم .

والله تعالى يحبب إليكم الإيمان ، ويزينه فى قلوبكم ، بما أودع فى قلوبكم من محبة الحق وإيثاره ، وبما نصب على الحق من الشواهد ، والأدلة الدالة على صحته ، وقبول القلوب والفطر له ، وبما يفعله تعالى بكم ، من توفيقه للإنابة إليه .

ويكره إليكم الكفر والفسوق ، أى : الذنوب الصغار ـ بما أودع فى قلوبكم من كراهة الشر ، وعدم إرادة فعله ، وبما نصبه من الأدلة والشواهد على فساده ومضرته ، وعدم قبول الفطر له ، وبما يجعل الله فى القلوب من الكراهة له .

[أولئك] الذين زين الله الإيمان فى قلوبهم ، وحببه إليهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان [هم الراشدون] أى : الذين صلحت علومهم وأعمالهم ، واستقاموا على الدين القويم ، والصراط المستقيم .

هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾

وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ

وضدهم الغاوون ، الذين حبب إليهم الكفر ، والفسوق ، والعصيان ، وكره إليهم الإيمان .

والذنب ذنبهم ، فإنهم لما فسقوا طبع الله على قلوبهم ، « ولما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » ، ولما لم يؤمنوا بالحق لما جاءهم أول مرة ، قلب أفئدتهم .

وقوله [فضلا من الله ونعمة] أى : ذلك الخير الذى حصل لهم ، هو بفضل الله عليهم وإحسانه ، لا بحولهم وقوتهم .

[والله عليم حكيم] أى : عليم بمن يشكر النعمة ، فيوفقه لها ، ممن لا يشكرها ، ولا تليق به ، فيضع فضله ، حيث تقتضيه حكمته .

* هذا متضمن لنهى المؤمنين ، عن أن يبغى بعضهم على بعض ، ويقتل بعضهم بعضا .

وأنه إذا اقتتلت طائفتان من المؤمنين ، فإن على غيرهم من المؤمنين ، أن يتلافوا هذا الشر الكبير ، بالإصلاح بينهم ، والتوسط على أكمل وجه يقع به الصلح ، ويسلكوا الطرق الموصلة إلى ذلك .

فإن صلحتا ، فبها ونعمت [فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى

أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ

تبغى حتىٰ تفىء إلى أمر الله] أى : ترجع إلى ما حد الله ورسوله ، من فعل الخير وترك الشر ، الذى من أعظمه ، الاقتتال .

وقوله : [فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل] هذا أمر بالصلح ، وبالعدل فى الصلح .

فإن الصلح ، قد يوجد ، ولـكن لا يكون بالعدل ، بل بالظلم والحيف على أحد الخصمين ، فهذا ليس هو الصلح المأمور به .

فيجب أن لا يراعى أحدهما ، لقرابة ، أو وطن ، أو غير ذلك من المقاصد والأغراض ، التى توجب العدول عن العدل .

[وأقسطوا إن الله يحب المقسطين] أى : العادلين فى حكمهم بين الناس وفى جميع الولايات ، التى تولوها .

حتى إنه ، قد يدخل فى ذلك ، عدل الرجل فى أهله ، وعياله ، فى أداء حقوقهم .

وفى الحديث الصحيح « المقسطون عند الله ، على منابر من نور : الذين يعدلون فى حكمهم وأهليهم ، وما ولوا » .

[إنما المؤمنون إخوة] هذا عقد ، عقده الله بين المؤمنين ، أنه إذا وجد من أى شخص كان ، فى مشرق الأرض ومغربها ، الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، فإنه أخ للمؤمنين ، أخوة توجب أن يحب له المؤمنون ، ما يحبون لأنفسهم ، ويكرهوا له ، ما يكرهون لأنفسهم .

أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم آمرا بالأخوة الإيمانية : « لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، وكونوا عباد الله إخوانا * المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه » متفق عليه .

وفيهما عن النبي صلى الله عليه وسلم ، « المؤمن للمؤمن ، كالبنيان يشد بعضه بعضا » وشبك صلى الله عليه وسلم بين أصابعه .

ولقد أمر الله ورسوله ، بالقيام بحقوق المؤمنين ، بعضهم لبعض ، ومما يحصل به التآلف والتوادد ، والتواصل بينهم ، كل هذا ، تأييد لحقوق بعضهم على بعض .

فمن ذلك ، إذا وقع الاقتتال بينهم ، الموجب لتفرق القلوب وتباغضها وتدابرها ، فليصلح المؤمنون بين إخوانهم ، وليسعوا فيما به يزول شنآنهم .

ثم أمر بالتقوى عموما ، ورتب على القيام بالتقوى وبحقوق المؤمنين ، الرحمة فقال :

[لعلكم ترحمون] ، وإذا حصلت الرحمة ، حصل خير الدنيا والآخرة .

ودل ذلك ، على أن عدم القيام بحقوق المؤمنين ، من أعظم حواجب الرحمة .

وفى هاتين الآيتين من الفوائد، غير ما تقدم : أن الاقتتال بين المؤمنين مناف للأخوة الإيمانية ، ولهذا ، كان من أكبر الكبائر .

وأن الإيمان ، والأخوة الإيمانية ، لا يزولان مع وجود الاقتتال ،

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ

كغيره من الذنوب الكبائر ، التي دون الشرك ، وعلى ذلك مذهب أهل السنة والجماعة .

وعلى وجوب الإصلاح ، بين المؤمنين بالعدل .

وعلى وجوب قتال البغاة ، حتى يرجعوا إلى أمر الله .

وعلى أنهم لو رجعوا ، لغير أمر الله ، بأن رجعوا على وجه لا يجوز الإقرار عليه والتزامه ، أنه لا يجوز ذلك ، وأن أموالهم معصومة ، لأن الله أباح دماءهم وقت استمرارهم على بغيهم خاصة ، دون أموالهم .

* وهذا أيضا ، من حقوق المؤمنين ، بعضهم على بعض ، أن [لا يسخر قوم من قوم] بكل كلام ، وقول ، وفعل دال على تحقير الأخ المسلم ، فإن ذلك حرام ، لا يجوز وهو دال على إعجاب الساخر بنفسه .

وعسى أن يكون المسخور به خيرا من الساخر ، وهو الغالب والواقع.

فإن السخرية ، لا تقع إلا من قلب ممتلىء من مساوىء الأخلاق ، مُتَحلٍّ بكل خلق ذميم ، مُتَخَلٍّ من كل خلق كريم ، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم « بحسب امرىء من الشر ، أن يحقر أخاه المسلم » .

ثم قال : [ولا تلمزوا أنفسكم] أى : لا يعب بعضكم على بعض .

ٱلِاسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

واللمز : بالقول ، والهمز : بالفعل ، وكلاهما منهىٌّ عنه حرام ، متوعد عليه بالنار .

كما قال تعالى : « ويل لكل همزة لمزة » الآية .

وسمى الأخ المسلم نفسا لأخيه ، لأن المؤمنين ينبغى أن يكون هذا حالهم كالجسد الواحد .

ولأنه إذا همز غيره ، أوجب للغير أن يهمزه ، فيكون هو المتسبب لذلك .

[ولا تنابزوا بالألقاب] أى : لا يعير أحدكم أخاه ، ويلقبه بلقب يكره أن يقال فيه ، وهذا هو التنابز .

وأما الألقاب غير المذمومة ، فلا تدخل فى هذا .

[بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان] أى : بئسما تبدلتم عن الإيمان والعمل بشرائعه ، وما يقتضيه ، بالإعراض عن أوامره ونواهيه ، باسم الفسوق والعصيان ، الذى هو التنابز بالألقاب .

[ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] وهذا هو الواجب على العبد ، أن يتوب إلى الله تعالى ، ويخرج من حق أخيه المسلم ، باستحلاله ، والاستغفار، والمدح مقابلة على ذمه .

[ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون] فالناس قسمان : ظالم لنفسه غير تائب وتائب مفلح ، ولا ثَمَّ غيرهما .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* نهى الله عز وجل عن كثير من الظن السيء بالمؤمنين ، حيث قال : [إن بعض الظن إثم] .

وذلك ، كالظن الخالى من الحقيقة والقرينة ، وكظن السوء ، الذى يقترن به كثير من الأقوال ، والأفعال المحرمة .

فإن بقاء ظن السوء بالقلب ، لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك ، بل لا يزال به ، حتى يقول ما لا ينبغى ، ويفعل مالا ينبغى .

وفى ذلك أيضاً ، إساءة الظن بالمسلم ، وبغضه ، وعداوته المأمور بخلافها منه .

[ولا تجسسوا] أى : لا تفتشوا عن عورات المسلمين ، ولا تتبعوها .

ودعوا المسلم على حاله ، واستعملوا التغافل عن زلاته ، التى إذا فتشت ، ظهر منها ما لا ينبغى .

[ولا يغتب بعضكم بعضا] والغيبة ، كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : « ذكرك أخاك بما يكره ولو كان فيه » .

ثم ذكر مثلا منفرا عن الغيبة فقال : [أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه] .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ

شبه أكل لحمه ميتا ، المكروه للنفوس غاية الكراهة ، باغتيابه ، فكما أنكم تكرهون أكل لحمه ، خصوصا إذا كان ميتا ، فاقد الروح ، فكذلك ، فلتكرهوا غيبته ، وأكل لحمه حيًّا .

[واتقوا الله إن الله تواب رحيم] والتواب ، الذى يأذن بتوبة عبده ، فيوفقه لها ، ثم يتوب عليه ، بقبول توبته ، رحيم بعباده ، حيث دعاهم إلى ما ينفعهم ، وقبل منهم التوبة .

وفى هذه الآية ، دليل على التحذير الشديد من الغيبة ، وأنها من الكبائر ، لأن الله شبهها بأكل لحم الميت ، وذلك من الكبائر .

* يخبر تعالى أنه خلق بنى آدم ، من أصل واحد ، وجنس واحد ، وكلهم من ذكر وأنثى .

ويرجعون جميعهم إلى آدم وحواء ، ولكن الله تعالى بث منهما رجالا كثيراً ونساء ، وفرقهم ، وجعلهم شعوبا وقبائل ، أى : قبائل صغاراً وكبارا ، وذلك ، لأجل أن يتعارفوا .

فإنه لو استقل كل واحد منهم بنفسه ، لم يحصل بذلك ، التعارف الذى يترتب عليه التناصر والتعاون ، والتوارث ، والقيام بحقوق الأقارب .

ولكن الله جعلهم شعوبا وقبائل ، لأجل أن تحصل هذه الأمور وغيرها ، مما يتوقف على التعارف ، ولحوق الأنساب ، ولكن الكرم ، بالتقوى .

أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

فأكرمهم عند الله ، أتقاهم ، وهو أكثرهم طاعة ، وانكفافا عن المعاصى ، لا أكثرهم قرابة وقوما ، ولا أشرفهم نسبا .

ولكن الله تعالى عليم خبير ، يعلم منهم ، من يقوم بتقوى الله ، ظاهراً وباطنا ، ممن لا يقوم بذلك ، ظاهراً ولا باطنا ، فيجازى كلا ، بما يستحق .

وفى هذه الآية دليل على أن معرفة الأنساب ، مطلوبة مشروعة ، لأن الله جعلهم شعوبا وقبائل ، لأجل ذلك .

* يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب ، الذين دخلوا فى الإسلام على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، دخولا من غير بصيرة ، ولا قيام بما يجب ، ويقتضيه الإيمان ، أنهم مع هذا ادعو وقالوا : آمنا ، أي : إيمانا كاملا ، مستوفيا لجميع أموره .

فأمر الله رسوله ، أن يرد عليهم فقال : [قل لم تؤمنوا] أى: لا تدّعوا لأنفسكم مقام الإيمان ، ظاهراً ، وباطنا ، كاملا .

[ولكن قولوا أسلمنا] أى : دخلنا فى الإسلام واقتصروا على ذلك .

[و] السبب فى ذلك ، أنه [لما يدخل الإيمان فى قلوبكم] وإنما أسلمتم خوفا ، أو رجاء ، أو نحو ذلك ، مما هو السبب فى إيمانكم ، فلذلك لم تدخل بشاشة الإيمان فى قلوبكم .

لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾

وفى قوله [ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم] أى : وقت هذا الكلام ، الذى صدر منكم فكان فيه إشارة إلى أحوالهم بعد ذلك .

فإن كثيراً منهم ، مَنَّ الله عليهم بالإيمان الحقيقى ، والجهاد سبيل الله .

[وإن تطيعوا الله ورسوله] بفعل خير ، أو ترك شر [لا يلتكم من أعمالكم شيئاً] .

أى : لا ينقصكم منها ، مثقال ذرة ، بل يوفيكم إياها ، أكمل ما تكون لا تفقدون منها ، صغيراً ، ولا كبيراً .

[إن الله غفور رحيم] أى : غفور لمن تاب إليه وأناب ، رحيم به ، حيث قبل توبته .

[إنما المؤمنون] أى : على الحقيقة [الذين آمنوا بالله ورسوله وجاهدوا فى سبيل الله] أى : من جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والجهاد فى سبيله .

فإن من جاهد الكفار ، دل ذلك ، على الإيمان التام فى قلبه .

لأن من جاهد غيره على الإسلام ، والإيمان ، والقيام بشرائعه ، فجهاده لنفسه على ذلك ، من باب أولى وأحرى

ولأن من لم يقو على الجهاد ، فإن ذلك ، دليل على ضعف إيمانه .

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟

وشرط تعالى ، فى الإيمان ، عدم الريب ، أى : الشك ، لأن الإيمان النافع ، هو : الجزم اليقينى ، بما أمر الله بالإيمان به ، الذى لا يعتريه شك ، بوجه من الوجوه .

وقوله : [أولئك هم الصادقون] أى : الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الجميلة .

فإن الصدق ، دعوى عظيمة فى كل شىء يحتاج صاحبه إلى حجة وبرهان .

وأعظم ذلك ، دعوى الإيمان ، الذى هو مدار السعادة ، والفوز الأبدى ، والفلاح السرمدى .

فمن ادعاه ، وقام بواجباته ، ولوازمه ، فهو الصادق المؤمن حقا .

ومن لم يكن كذلك علم أنه ليس بصادق في دعواه ، وليس لدعواه فائدة .

فإن الإيمان فى القلب لا يطلع عليه إلا الله تعالى .

فإثباته ونفيه ، من باب تعليم الله بما فى القلب ، وهو سوء أدب ، وظن بالله ، ولهذا قال :

[قل أتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض، والله بكل شىء عليم] وهذا شامل للأشياء كلها ، التى من جملتها ، ما فى القلوب من الإيمان والكفران ، والبر والفجور ، فإنه تعالى ، يعلم ذلك كله ،

عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌ

ويجازى عليه ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

هذه حالة من أحوال من ادّعى لنفسه الإيمان ، وليس به .

فإنه إما أن يكون ذلك تعليما لله ، وقد علم أنه عالم بكل شىء .

وإما أن يكون قصدهم بهذا الكلام ، المِنَّة على رسوله ، وأنهم قد بذلوا ، وتبرعوا بما ليس من مصالحهم ، بل هو من حظوظه الدنيوية .

وهذا تجمل بما لا يجمل ، وفخر بما لا ينبغى لهم الفخر به ، على رسوله ، فإن المنة لله تعالى عليهم .

فكما أنه تعالى هو المانُّ عليهم ، بالخلق والرزق ، والنعم الظاهرة والباطنة ، فمنته عليهم بهدايتهم إلى الإسلام ومنته عليهم بالإيمان ، أفضل من كل شىء ، ولهذا قال :

[يمنون عليك أن أسلموا قل لا تمنوا على إسلامكم ، بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين * إن الله يعلم غيب السموات والأرض] .

أى : الأمور الخفية فيها ، التى تخفى على الخلق ، كالذى فى لجج البحار ، ومهامه القفار . وماجنه الليل أو واراه النهار ، يعلم قطرات الأمطار ، وحبّات الرمال ، ومكنونات الصدور ، وخبايا الأمور .

بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

« وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين » .

[والله بصير بما تعملون] يحصى عليكم أعمالكم ، ويوفيكم إياها ، ويجازيكم عليها بما تقتضيه رحمته الواسعة ، وحكمته البالغة .

تم تفسير سورة الحجرات

بعون الله ومنه وجوده وكرمه ، والحمد لله

تفسـير

سُورَةُ قٓ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ

يقسم تعالى بالقرآن المجيد ، أى : وسيع المعانى عظيمها ، كثير الوجوه ، كثير البركات ، جزيل المبرات ، والمجد : سعة الأوصاف ، وعظمتها .

وأحق كلام يوصف بذلك ، هذا القرآن ، الذى قد احتوى على علوم الأولين والآخرين، الذى حوى من الفصاحة أكملها ، ومن الألفاظ أجزلها ، ومن المعانى أعمها وأحسنها .

وهذا موجب لكمال اتباعه ، وسرعة الانقياد له ، وشكر الله على المنة به .

ولكن أكثر الناس ، لا يقدر نعم الله قدرها ، ولهذا قال تعالى:

[بل عجبوا] أى : المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، [أن جاءهم منذر] منهم أى : ينذرهم ما يضرهم ، ويأمرهم بما ينفعهم ، وهو من جنسهم ، يمكنهم التلقى عنه ، ومعرفة أحواله وصدقه .

مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَـٰفِرُونَ هَـٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا

فتعجبوا من أمر ، لا ينبغى لهم التعجب منه ، بل يتعجب من عقل ، من تعجب منه .

[فقال الكافرون] أى : الذى حملهم كفرهم وتكذيبهم ، لا نقص بذكائهم وآرائهم .

[هذا شىء عجيب] أى : مستغرب ، وهم فى هذا الاستغراب ، بين أمرين :

إما صادقون فى استغرابهم وتعجبهم ، فهذا يدل على غاية جهلهم ، وضعف عقولهم .

بمنزلة المجنون ، الذى يستغرب كلام العاقل .

وبمنزلة الجبان الذى يتعجب من لقاء الفارس للفرسان .

وبمنزلة البخيل ، الذى يستغرب سخاء أهل السخاء .

فأى ضرر يلحق من تعجب من هذه حاله ؟ .

وهل تعجبه ، إلا دليل على زيادة جهله وظلمه ؟.

وإما أن يكونوا متعجبين ، على وجه يعلمون خطأهم فيه ، فهذا من أعظم الظلم وأشنعه .

ثم ذكر وجه تعجبهم فقال : [أإذا متنا وكنا ترابا ، ذلك رجع بعيد] فقاسوا قدرة من هو على كل شىء قدير ، الكامل من كل وجه ، بقدرة العبد الفقير العاجز ، من جميع الوجوه .

ذَٰلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌ ﴿٤﴾

بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

وقاسوا الجاهل ، الذى لا علم له ، بمن هو بكل شىء عليم .

[قد علمنا ما تنقص الأرض منهم] أى : من أجسادهم مدة مقامهم فى البرزخ ، وقد أحصى فى كتابه .

[وعندنا كتاب حفيظ] أى : محفوظ عن التغيير والتبديل ، بكل ما يجرى عليهم فى حياتهم ، أو مماتهم ، وهذا الاستدلال ، بكمال سعة علمه ، التى لا يحيط بها إلا هو – على قدرته على إحياء الموتى .

* أى : [بل] كلامهم الذى صدر منهم ، إنما هو عناد وتكذيب .

فقد [كذبوا بالحق] الذى هو أعلى أنواع الصدق [لما جاءهم فهم فى أمر مريج] أى : مختلط مشتبه ، لا يثبتون على شىء ، ولا يستقر لهم قرار .

فتارة يقولون عنك : إنك ساحر ، وتارة ، مجنون ، وتارة ، شاعر .

وكذلك جعلوا القرآن عضين ، كل قال فيه ، ما اقتضاه رأيه الفاسد .

وهكذا ، كل من كذب بالحق ، فإنه فى أمر مختلط ، لا يدرى له وجه ولا قرار .

فترى أموره متناقضة مؤتفكة .

كما أن من اتبع الحق وصدق به ، قد استقام أمره ، واعتدل سبيله ، وصدق فعله قيله .

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ

---

* لما ذكر تعالى حالة المكذبين ، وما ذمهم به ، دعاهم إلى النظر في آياته الأفقية ، كى يعتبروا ، ويستدلوا بها ، على ما جعلت أدلة عليه فقال :

[أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم] أى : لايحتاج ذلك النظر ، إلى كلفة وشد رحل ، بل هو فى غاية السهولة .

فينظروا [كيف بنيناها] قبة مستويه الأرجاء ، ثابتة البناء ، مزينة بالنجوم الخنس ، والجوارى الكنس ، التى ضربت من الأفق إلى الأفق فى غاية الحسن والملاحة ، لا ترى فيها عينا ، ولا فروجا ، ولا خللا ، ولا إخلالا .

قد جعلها الله سقفا لأهل الأرض ، وأودع فيها من مصالحهم الضرورية ما أودع .

[و] إلى [الأرض كيف مددناها] ووسعناها ، حتى أمكن كل حيوان السكون فيها والاستقرار ، والاستعداد لجميع مصالحه .

وأرساها بالجبال ، لتستقر من التزلزل ، والتموج .

[وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج] أى ، من كل صنف من أصناف النبات ، التي تسر ناظريها ، وتعجب مبصريها ، وتقرعين رامقيها ، لأكل بنى آدم ، وأكل بهائمهم ، ومنافعهم .

مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ

وخص من تلك المنافع ، الجنات المشتملة على الفواكه اللذيذة ، من العنب ، والرمان ، والأترج ، والتفاح وغير ذلك ، من أصناف الفواكه .

ومن النخيل الباسقات ، أى : الطوال ، التى يطول نفعها ، وترتفع إلى السماء ، حتى تبلغ مبلغا ، لا يبلغه كثير من الأشجار .

فتخرج من الطلع النضيد ، فى قنوانها ، ما هو رزق للعباد ، قوتا ، وأدما ، وفاكهة يأكلون منه ويدخرون ، هم ومواشيهم .

وكذلك ما يخرج الله بالمطر ، وما هو أثره من الأنهار ، التى على وجه الأرض ، وتحتها من [حب الحصيد] أى : من الزرع المحصود ، من بر ، وشعير ، وذرة ، وأرز ، ودخن وغيره .

فإن فى النظر فى هذه الأشياء [تبصرة] يتبصر بها ، من عمى الجهل .

[وذكرى] يتذكر بها ، ما ينفع فى الدين والدنيا ، ويتذكر بها ، ما أخبر الله به ، وأخبرت به رسله .

وليس ذلك لكل أحد ، بل [لكل عبد منيب] إلى الله أى : مقبل عليه ، بالحق ، والخوف ، والرجاء ، وإجابة داعيه .

وأما المكذب والمعرض ، فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون

وحاصل هذا ، أن ما فيها من الخلق الباهر ، والقوة والشدة ، دليل على كمال قدرة الله تعالى .

وما فيها من الحسن والإتقان ، وبديع الصنعة ، وبديع الخلقة ، دليل على أن الله أحكم الحاكمين ، وأنه بكل شىء عليم .

ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ

وما فيها من المنافع والمصالح للعباد ، دليل على رحمة الله ، التى وسعت كل شىء ، وجوده ، الذى عم كل حى .

وما فيها من عظمة الخلقة ، وبديع النظام ، دليل على أن الله تعالى ، هو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يتخذ صاحبة ولا ولداً ، ولم يكن له كفوا أحد ، وأنه الذى لا تنبغى العبادة ، والذل ، والحب ، إلا له .

وما فيها من إحياء الأرض بعد موتها ، دليل على إحياء الله الموتى ، ليجازيهم بأعمالهم .

ولهذا قال : [وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج] .

ولما ذكرهم بهذه الآيات السماوية والأرضية ، خوفهم أخذات الأمم ، وألا يستمروا على ما هم عليه ، من التكذيب ، فيصيبهم ما أصاب إخوانهم من المكذبين ، فقال : [كذبت قبلهم قوم نوح] إلى [من خلق جديد].

* أى : كذب الذين من قبلهم من الأمم ، رسلهم الكرام ، وأنبياءهم العظام .

ك « نوح » كذبه قومه ، و « ثمود » كذبوا « صالحا » وعاد ، كذبوا « هودا » وإخوان لوط كذبوا « لوطا » وأصحاب الأيكة كذبوا « شعيبا »

وقوم تبع - « وتبع » كل ملك ، ملك اليمن فى الزمان السابق قبل

وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ

الإسلام - فقوم تبع كذبوا الرسول ، الذى أرسله الله إليهم ، ولم يخبرنا الله من هو ذلك الرسول ، وأى تبع من التبابعة ، لأنه - والله أعلم - كان مشهورا عند العرب العرباء ، الذين لا تخفى ماجرياتهم على العرب ، خصوصا مثل هذه الحادثة العظيمة .

فهؤلاء كلهم كذبوا الرسل ، الذين أرسلهم الله إليهم ، فحق عليهم وعيد الله وعقوبته .

ولستم أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، خيراً منهم ، ولا رسلهم أكرم على الله من رسولكم ، فاحذروا جرمهم ، لئلا يصيبكم ما أصابهم .

ثم استدل تعالى بالخلق الأول - وهو النشأة الأولى - على الخلق الآخر ، وهو : النشأة الآخرة .

فكما أنه الذى أوجدهم بعد العدم ، كذلك يعيدهم بعد موتهم وصيروتهم إلى الرفات والرمم فقال :

[أفعيينا] أى : أفعجزنا وضعفت قدرتنا [بالخلق الأول] ؟ ليس الأمر كذلك .

فلم نعجز ونعىَ عن ذلك ، وليسوا فى شك من ذلك .

ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ

[بل هم فى لبس من خلق جديد] هذا الذى شكوا فيه، والتبس عليهم أمره، مع أنه لا محل للبس فيه، لأن الإعادة، أهون من الابتداء كما قال تعالى: « وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ».

* يخبر تعالى، أنه المتفرد بخلق جنس الإنسان، ذكورهم وإناثهم، وأنه يعلم أحواله، وما يسره وتوسوس به نفسه.

وأنه [أقرب إليه من حبل الوريد] الذى هو أقرب شىء إلى الإنسان وهو: العظم المكتنف لثغرة النحر.

وهذا مما يدعو الإنسان إلى مراقبة خالقه، المطلع على ضميره وباطنه، القريب إليه فى جميع أحواله.

فيستحيي منه أن يراه، حيث نهاه، أو يفقده، حيث أمره.

وكذلك ينبغى له أن يجعل الملائكة الكرام الكاتبين منه على بال، فيجلهم ويوقرهم، ويحذر أن يفعل أو يقول ما يكتب عنه، مما لا يرضى رب العالمين.

ولهذا قال: [إذ يتلقى المتلقيان] أى: يتلقيان عن العبد أعماله كلها واحد [عن اليمين] يكتب الحسنات [و] الآخر [عن الشمال يكتب السيئات، وكل منهما [مقيد]بذلك متهيىء لعمله الذى أعد له، ملازم لذلك.

عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾

وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا

[ما يلفظ من قول] خير أو شر [إلا لديه رقيب عتيد] أى : مراقب له ، حاضر لحاله ، كما قال تعالى : « وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين يعلمون ما تفعلون » .

* أى [وجاءت] هذا الغافل المكذب بآيات الله [سكرة الموت بالحق] الذى لا مرد له ولا مناص [ذلك ما كنت منه تحيد] أى : تتأخر وتنكص عنه .

[ونفخ فى الصور ذلك يوم الوعيد] أى : اليوم الذى يلحق الظالمين ما أوعدهم الله به من العقاب ، والمؤمنين ما وعدهم به من الثواب .

[وجاءت كل نفس معها سائق] يسوقها إلى موقف القيامة ، فلا يمكنها أن تتأخر عنه [وشهيد] يشهد عليها بأعمالها خيرها وشرها .

وهذا يدل على اعتناء الله بالعباد ، وحفظه لأعمالهم ومجازاته لهم بالعدل.

فهذا الأمر ، مما يجب أن يجعله العبد منه على بال .

ولكن أكثر الناس غافلون ، ولهذا قال : [لقد كنت فى غفلة من هذا] .

فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُ هَٰذَا مَا لَدَىَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِى جَهَنَّمَ

أى : يقال للمعرض المكذب يوم القيامة هذا الكلام ، توبيخا ، ولوما وتعنيفا .

أى : لقد كنت مكذبا بهذا ، تاركا للعمل له [فـ] الآن [كشفنا عنك غطاءك] الذى غطى قلبك ، فكثر نومك ، واستمر إعراضك [فبصرك اليوم حديد] ينظر ما يزعجه ويروعه ، من أنواع العذاب والنكال .

أو هذا خطاب من الله للعبد ، فإنه فى الدنيا ، فى غفلة عما خلق له ، ولكنه يوم القيامة ، ينتبه ويزول عنه وسنه ، فى وقت لا يمكنه أن يتدارك الفارط ، ولا يستدرك الفائت .

وهذا كله تخويف من الله للعباد ، وترهيب ، بذكر ما يكون على المكذبين ، فى ذلك اليوم العظيم .

* يقول تعالى : [وقال قرينه] أى : قرين هذا المكذب المعرض ، من الملائكة ، الذين وكلهم الله على حفظه ، وحفظ أعماله ، فيحضره يوم القيامة ويحضر أعماله ويقول :

[هذا ما لدى عتيد] أى : قد أحضرت ما جعلت عليه ، من حفظه ، وحفظ عمله ، فيجازى بعمله .

ويقال لمن استحق النار : [ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد] أى : كثير الكفر والعناد لآيات الله ، المكثر من المعاصى ، المجترىء على المحارم والمآثم.

كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَـٰكِن كَانَ فِى ضَلَـٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ

[مناع للخير] أى : يمنع الخير الذى قبله ، الذى أعظمه ، الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، مناع ، لنفع ماله وبدنه .

[معتد] على عباد الله ، وعلى حدوده [مريب] أى : شاك فى وعد الله ووعيده .

فلا إيمان ولا إحسان ولكن وصفه الكفر والعدوان ، والشك ، والريب ، والشح ، واتخاذ الآلهة من دون الرحمن ، ولهذا قال :

[الذى جعل مع الله إلها آخر] أى : عبد معه غيره، ممن لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا ، ولا موتا ولا حياة ، ولا نشوراً .

[فألقياه] أيها الملكان القرينان [فى العذاب الشديد] الذى هو معظمها وأشدها ، وأشنعها .

[قال قرينه] الشيطان ، متبرئا منه ، حاملا عليه إثمه: [ربنا ما أطغيته] لأنى لم يكن لى عليه سلطان ، ولا حجة ولا برهان .

[ولكن كان فى ضلال بعيد] فهو الذى ضل وبعد عن الحق، باختياره كما قال فى الآية الأخرى : « وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم » الآية .

قال الله تعالى مجيبا لاختصامهم : [لا تختصموا لدى] أى : لا فائدة

وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ

فى اختصامكم عندى [و] الحال أنى [قد قدمت إليكم بالوعيد] أى: جاءتكم رسلى بالآيات البينات ، والحجج الواضحات ، والبراهين الساطعات ، فقامت عليكم حجتى ، وانقطعت حجتكم ، وقدمتم إلىّ بما أسلفتم من الأعمال التى وجب جزاؤها .

[ما يبدل القول لدى] أى : لا يمكن أن يخلف ما قاله الله وأخبر به ، لأنه لا أصدق من الله قيلا ، ولا أصدق حديثا .

[وما أنا بظلام للعبيد] بل أجزيهم بما عملوا من خير وشر .

فلا يزاد فى سيئاتهم ، ولا ينقص من حسناتهم .

* يقول تعالى ، مخوفا لعباده :

[يوم نقول لجهنم هل امتلأت] وذلك من كثرة ما ألقى فيها .

[وتقول هل من مزيد] أى : لا تزال تطلب الزيادة ، من المجرمين العاصين ، غضبا لربها ، وغيظا على الكافرين .

وقد وعدها الله مَلْأَها ، كما قال تعالى «لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين » حتى يضع رب العزة عليها قدمه الكريمة المنزهة عن التشبيه ، فينزوي بعضها على بعض ، وتقول : قط قط ، قد اكتفيت وامتلأت .

لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ

[وأزلفت الجنة] أى : قربت [للمتقين غير بعيد] بحيث تشاهدو ينظر ما فيها ، من النعيم المقيم ، والحبرة والسرور .

وإنما أزلفت وقربت ، لأجل المتقين لربهم ، التاركين للشرك ، كبيره وصغيره ، الممتثلين لأوامر ربهم ، المنقادين له .

ويقال لهم على وجه التهنئة : [هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ] أى : هذه الجنة وما فيها ، مما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، هى التى وعد الله كل أواب ، أى : رجّاع إلى الله ، فى جميع الأوقات ، بذكره ، وحبه ، والاستعانة به ، ودعائه ، وخوفه ، ورجائه .

[حفيظ] أى : محافظ على ما أمر الله به ، بامتثاله على وجه الإخلاص والإكمال له ، على أتم الوجوه ، حفيظ لحدوده .

[من خشى الرحمن] أى : خافه على وجه المعرفة بربه ، والرجاء لرحمته ولازم على خشية الله فى حال غيبه ، أى مغيبه عن أعين الناس ، وهذه هى الخشية الحقيقية .

وأما خشيته فى حال نظر الناس وحضورهم ، فقد تكون رياء وسمعة ، فلا تدل على الخشية ، وإنما الخشية النافعة ، خشيته فى الغيب والشهادة .

[وجاء بقلب منيب] أى:وصفه الإنابة إلى مولاه، وانجذاب دواعيه إلى مراضيه .

ويقال لهؤلاء الأتقياء الأبرار : [ادخلوها بسلام] أى دخولا مقرونا بالسلامة من الآفات والشرور ، مأمونا فيه جميع مكاره الأمور ، فلاانقطاع لنعيمهم ، ولا كدر ، ولا تنغيص .

مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن

[ذلك يوم الخلود] الذى لا زوال له ولا موت ، ولا شيء من المكدرات .

[لهم ما يشاءون فيها] أى : كل ما تعلقت به مشيئتهم ، فهو حاصل فيها .

[ولدينا] فوق ذلك [مزيد] أى : ثواب يمدهم به الرحمن الرحيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

وأعظم ذلك ، وأجله ، وأفضله ، النظر إلى وجهه الكريم ، والتمتع بسماع كلامه ، والتنعم بقربه ، فنسأله ذلك من فضله .

* يقول تعالى - مخوفا للمشركين المكذبين للرسول : [وكم أهلكنا قبلهم من قرن] .

أى : أمما كثيرة [هم أشد منهم بطشا] أى : قوة وآثارا فى فى الأرض .

ولهذا قال : [فنقبوا فى البلاد] أى : بنو الحصون المنيعة والمنازل الرفيعة ، وغرسوا الأشجار ، وأجروا الأنهار ، وزرعوا ، وعمروا ، ودمروا .

كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾

وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ

فلما كذبوا رسل الله ، وجحدوا آياته ، أخذهم الله بالعقاب الأليم ، والعذاب الشديد .

[هل من محيص] أى : لا مفر لهم من عذاب الله ، حين نزل بهم ، ولا منقذ .

فلم تغن عنهم قوتهم ، ولا أموالهم ، ولا أولادهم .

[إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب] أى : قلب عظيم حىٌّ ، ذَكِىٌّ ، زَكِىٌّ ، فهذا إذا ورد عليه شىء من آيات الله ، تذكر بها ، وانتفع ، فارتفع .

وكذلك من ألقى سمعه إلى آيات الله ، واستمعها ، استماعا يسترشد به ، وقلبه [شهيد] أى : حاضر ، فهذا أيضا ، له ذكرى وموعظة ، وشفاء وهدى .

وأما المعرض ، الذى لم يصغ سمعه إلى الآيات ، فهذا لا تفيده شيئا ، لأنه لا قبول عنده ، ولا تقتضى حكمة الله هداية من هذا نعته .

* وهذا إخبار منه تعالى عن قدرته العظيمة ، ومشيئته النافذة ، التى أوجد بها أعظم المخلوقات [السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام] .

أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة ، من غير تعب ، ولا نصب ، ولا لغوب ، ولا إعياء .

بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾

وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ

فالذى أوجدها - على كبرها وعظمها - قادر على إحياء الموتى ، من باب أولى وأحرى .

[فاصبر على ما يقولون] من الذم لك والتكذيب بما جئت به،واشتغل عنهم بطاعة ربك وتسبيحه ، أول النهار وآخره ، فى أوقات الليل ، وأدبار الصلوات .

فإن ذكر الله تعالى ، مُسَلٍّ للنفس ، مؤنس لها ، مُهَوِّنٌ للصبر .

* أى : [واستمع] بقلبك [يوم ينادى المنادى] وهو إسرافيل عليه السلام .

أى : حين ينفخ فى الصور [من مكان قريب] من الأرض .

[يوم يسمعون] تلك [الصيحة] المزعجة المهولة [بالحق] الذى لاشك فيه ولا امتراء .

[ذلك يوم الخروج] من القبور ، الذى انفرد به القادر على كل شىء ولهذا قال :

[إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير * يوم تشقق الأرض عنهم] أى : عن الخلائق .

نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

[سراعا] أى : يسرعون لإجابة الداعى لهم ، إلى موقف القيامة .

[ذلك حشر علينا يسير] أى : سهل على الله ، لا تعب فيه ، ولا كلفة .

[نحن أعلم بما يقولون] لك ، مما يحزنك ، من الأذى .

وإذا كنا أعلم بذلك ، فقد علمت كيف اعتناؤنا بك ، وتيسيرنا لأمورك ، ونصرنا لك على أعدائك . فليفرح قلبك ، ولتطمئن نفسك ، ولتعلم أننا أرحم بك وأرأف ، من نفسك .

فلم يبق لك إلا انتظار وعد الله والتأسى بأولى العزم ، من رسل الله .

[وما أنت عليهم بجبار] أى : مسلط عليهم [إنما أنت منذر ولكل قوم هاد] .

ولهذا قال : [فذكر بالقرآن من يخاف وعيد] والتذكير ، هو تذكير بما تقرر فى العقول والفطر ، من محبة الخير وإيثاره ، وفعله ، ومن بغض الشر ومجانبته .

وإنما يتذكر بالتذكير ، من يخاف وعيد الله .

وأما من لم يخف الوعيد ، ولم يؤمن به ، فهذا فائدة تذكيره ، إقامة الحجة عليه ، لئلا يقول « ما جاءنا من بشير ولا نذير » .

آخر تفسير سورة (قٓ) والحمد لله أولا وآخراً وظاهراً وباطناً

تفسير

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا ﴿١﴾ فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا ﴿٢﴾ فَالْجَارِيَاتِ

هذا قسم من الله الصادق فى قيله ، بهذه المخلوقات العظيمة التى جعل الله فيها من المصالح والمنافع ، ما جعل على أن وعده صدق ، وأن الدين الذى هو يوم الجزاء والمحاسبة على الأعمال ، لواقع لا محالة ، ما له من دافع .

فإذا أخبر به الصادق العظيم وأقسم عليه ، وأقام الأدلة والبراهين عليه فلم يكذب به المكذبون ، ويعرض عن العمل له العاملون .

[والذاريات] هى : الرياح التى تذرو ، فى هبوبها [ذروا] بلينها ، ولطفها ، وقوتها ، وإزعاجها .

[فالحاملات وقرا] هى : السحاب ، تحمل الماء الكثير ، الذى ينفع الله به العباد والبلاد .

[فالجاريات يسرا] النجوم ، التى تجرى على وجه اليسر والسهولة ، فتتزين بها السموات ، ويهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ، وينتفع بالاعتبار بها .

يُسْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا ﴿٤﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ﴿٥﴾ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴿٦﴾

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾

[فالمقسمات أمرا] الملائكة التي تقسم الأمر وتدبره بإذن الله .

فكل منهم ، قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة ، لا يتعدى ما حُدّ له وقدر ، ورسم ، ولا ينقص منه .

* [والسماء ذات الحبك] أى : ذات الطرائق الحسنة ، التي تشبه حبك الرمال ، ومياه الغدران ، حين يحركها النسيم .

[إنكم] أيها المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم ، [لفى قول مختلف] منكم ، من يقول ساحر ، ومنكم من يقول كاهن ، ومنكم من يقول : مجنـون ، إلى غير ذلك من الأقوال المختلفة ، الدالة على حيرتهم وشكهم ، وأن ما هم عليه باطل .

[يؤفك عنه من أفك] أى : يصرف عنه من صرف عن الإيمان ، وانصرف عن أدلة الله اليقينية وبراهينه ، واختلاف قولهم ، دليل على فساده وبطلانه .

كما أن الحق الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، متفق ، يصدق بعضه بعضاً ، لا تناقض فيه ، ولا اختلاف .

وذلك ، دليل على صحته ، وأنه من عند الله « فلو كان من عند الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً »

﴿ قُتِلَ ٱلْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾ ﴾

---

* يقول تعالى : [قتل الخراصون] أى : قاتل الله الذين كذبوا على الله ، وجحدوا آياته ، وخاضوا بالباطل ، ليدحضوا به الحق ، الذين يقولون على الله ما لا يعلمون .

[الذين هم فى غمرة] أى : فى لجة من الكفر ، والجهل ، والضلال [ساهون] [1] .

[يسألون] على وجه الشك والتكذيب [أيان يبعثون] أى : متى يبعثون ، مستبعدين لذلك .

فلا تسأل عن حالهم وسوء مآلهم [يوم هم على النار يفتنون] .

أى : يعذبون بسبب ما انطووا عليه من خبث الباطن والظاهر ، ويقال لهم :

[ذوقوا فتنتكم] أى : العذاب والنار ، الذى هو أثر ما افتتنوا به ، من الابتلاء الذى صيرهم إلى الكفر ، والضلال .

[هذا] العذاب ، الذى وصلتم إليه ، هو [الذى كنتم به تستعجلون] .

فالآن ، تمتعوا بأنواع العقاب والنكال والسلاسل والأغلال ، والسخط والوبال .

---

(١) ساهون . أى : غافلون عما أمروا به .

۞ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ

---

* يقول تعالى - فى ذكر ثواب المتقين وأعمالهم ، التى وصلوا بها إلى ذلك الجزء :-

[إن المتقين] أى : الذين كانت التقوى شعارهم ، وطاعة الله دثارهم .

[فى جنات] مشتملات على جميع أصناف الأشجار ، والفواكه ، التى يوجد لها نظير فى الدنيا ، والتى لا يوجد لها نظير ، مما لم تنظر العيون إلى مثله ، ولم يخطر على قلب بشر .

[وعيون] سارحة ، تشرب منها تلك البساتين ، ويشرب بها عباد الله ، يفجرونها تفجيرا .

[آخذين ما آتاهم ربهم] يحتمل أن المعنى أن أهل الجنة قد أعطاهم مولاهم جميع مناهم ، من جميع أصناف النعيم ، فأخذوا ذاك ، راضين به ، قد قرت به أعينهم ، وفرحت به نفوسهم ، ولم يطلبوا منه بدلا ، ولا يبغون عنه حولا ، وكل قد ناله من النعيم ، ما لا يطلب عليه المزيد .

ويحتمل أن هذا وصف المتقين في الدنيا ، وأنهم آخذون ما آتاهم الله ، من الأوامر والنواهى ، أى : قد تلقوها بالرحب ، وانشراح الصدر ، منقادين لما أمر الله به ، بالامتثال على أكمل الوجوه .

ولما نهى عنه ، بالانزجار عنه لله ، على أكمل وجه ،

فإن الذين أعطاهم الله من الأوامر والنواهى ، هو أفضل العطايا ، التى حقها ، أن تتلقى بالشكر لله عليها ، والانقياد .

مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ

والمعنى الأول ، ألصق بسياق الكلام ، لأنه ذكر وصفهم فى الدنيا ، وأعمالهم بقوله : [إنهم كانوا قبل ذلك] الوقت الذى وصلوا به إلى النعيم [محسنين(١)] .

وهذا شامل لإحسانهم بعبادة ربهم ، أن يعبدوه كأنهم يرونه ، فإن لم يكونوا يرونه ، فإنه يراهم . وللإحسان إلى عباده الله ببذل النفع ، والإحسان ، من مال ، أو علم ، أو جاه أو نصيحة ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو غير ذلك من وجوه البر ، وطرق الخيرات .

حتى إنه يدخل فى ذلك ، الإحسان بالقول ، والكلام اللين والإحسان إلى المماليك ، والبهائم المملوكة ، وغير المملوكة .

ومن أفضل أنواع الإحسان فى عبادة الخالق ، صلاة الليل ، الدالة على الإخلاص ، وتواطؤ القلب واللسان .

ولهذا قال : [كانوا] أى : المحسنون [قليلا من الليل ما يهجعون] أى : كان هجوعهم أى : نومهم بالليل ، قليلا .

وأما أكثر الليل ، فإنهم قانتون لربهم ، ما بين صلاة ، وقراءة ، وذكر ، ودعاء ، وتضرع .

[وبالأسحار] التى هى قبيل الفجر [هم يستغفرون] الله تعالى .

---

(١) محسنين . أى الأعمال الصالحة ، آتين بها على ما ينبغى ، فلذلك نالوا ما نالو من الفوز العظيم . اهـ . أبو السعود .

حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾

وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ

فمدوا صلاتهم إلى السحر، ثم جلسوا فى خاتمة قيامهم بالليل، يستغفرون الله تعالى، استغفار المذنب لذنبه.

وللاستغفار بالأسحار، فضيلة وخصيصة، ليست لغيره، كما قال تعالى فى وصف أهل الإيمان والطاعة: « والمستغفرين بالأسحار ».

[وفى أموالهم حق] واجب ومستحب [للسائل والمحروم] أى: للمحتاجين الذين يطلبون من الناس، والذين لا يسألونهم.

* يقول تعالى ـ داعياً عباده إلى التفكر والاعتبار ـ :

[وفى الأرض آيات للموقنين].

وذلك شامل لنفس الأرض، وما فيها، من جبال وبحار، وأنهار، وأشجار، ونبات تدل المتفكر فيها، المتأمل لمعانيها، على عظمة خالقها، وسعة سلطانه، وعميم إحسانه، وإحاطة علمه، بالظواهر والبواطن.

وكذلك فى نفس العبد من العبر، والحكمة، والرحمة، ما يدل على أن الله واحد، صمد، وأنه لم يخلق الخلق سدى.

وقوله: [وفى السماء رزقكم] أى مادة رزقكم، من الأمطار، وصنوف الأقدار، الرزق الدينى، والدنيوى.

[وما توعدون] من الجزاء فى الدنيا والآخرة، فإنه ينزل من عند الله، كسائر الأقدار.

ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾

فلما بين الآيات ونبه عليها تنبيها ، ينتبه به الذكى اللبيب ، أقسم تعالى على أن وعده وجزاءه حق .

وشبه ذلك ، بأظهر الأشياء لنا ، وهو النطق فقال :

[فورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون[1]] .

---

(١) وعن الأصمعى انه قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود[1] (الذكر الشاب من الإبل)

فقال : من الرجل ؟ قلت من بنى أصمع . قال : من أين أقبلت ؟

قلت : من موضع يتلى فيه كلام الله .

قال : أتل علىّ . فتلوت (والذاريات) .

فلما بلغت قوله تعالى : (وفى السماء رزقكم) قال : حسبك . =

---

(١) قال فى المختار من الصحاح : القعود ـ بالفتح ـ البعير من الإبل وهو البكر حين يركب أى : يمكن ظهر الركوب . فأقله سنتان إلى أن يثني فإذا أثنى ، سمى جملا ، ولا تكون البكرة قعوداً ، بل قلوصا .

وقال أبو عبيد : القعود من الإبل ، هو الذى يقتعده الراعى فى كل حاجة .

فى المصباح « والقعود ذكر القلاص ، وهو الشاب . قيل سُمِّيَ بذلك لأن ظهره اقْتُعِدَ أى : ركب » اهـ .

. . . .

فكما أنكم ، لا تشكون فى نطقكم ، فكذلك ينبغى أن لا يعتريكم الشك ، فى البعث والجزاء .

= فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولّى .

فلما حججت مع الرشيد ، طفقت أطوف .

فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت رقيق .

فالتفتُ ، فإذا أنا بالأعرابى ، وقد نحل ، واصفر ، فسلم علىّ ، واستقرأ السورة .

فلما بلغت الآية ، صاح وقال :

« قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقاً » .

ثم قال : وهل غير هذا ؟ .

فقرأت .

[فورب السماء والأرض إنه لحق]

فصاح وقال : يا سبحان الله . من ذا الذى أغضب الجليل حتى حلف ؟

لم يصدقوه بقوله حتى حلف ؟

قالها ثلاثاً ، وخرجت معها نفسه . اهـ . نسفى .

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَـٰمًا قَالَ سَلَـٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَـٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾

---

* يقول تعالى : [هل أتاك] أى : أما جاءك [حديث ضيف إبراهيم المكرمين] ونبأهم الغريب العجيب ، وهم : الملائكة ، الذين أرسلهم الله ، لإهلاك قوم لوط ، وأمرهم بالمرور على إبراهيم ، فجاءوه فى صورة أضياف .

[إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً ، قال] مجيباً لهم [سلام] أى : عليكم [قوم منكرون] أي : أنتم قوم منكرون ، فأحب أن تعرفونى بأنفسكم ولم يعرفهم إلا بعد ذلك .

[فراغ إلى أهله] أى : ذهب سريعاً فى خيفة ، ليحضر لهم قراهم .

[فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم] وعرض عليهم الأكل .

[قال ألا تأكلون . فأوجس[1] منهم خفية] حين رأى أيديهم لا تصل إليه

[قالوا لا تخف] وأخبروه بما جاءوا له [وبشروه بغلام عليم] وهو : إسحق عليه السلام .

[و] لما سمعت المرأة البشارة [أقبلت] فرحة مستبشرة [فى صرة]

---

(١) أوجس . أى : أضمر فى نفسه خيفة لتوهم أنهم جاءوا للشر . وقيل : وقع فى قلبه أنهم ملائكة جاءوا للعذاب . اهـ . أبو السعود.

فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ

أى: صيحة [فصكت[1] وجهها] وهذا من جنس ما يجرى للنساء عند السرور ونحوه ، من الأقوال والأفعال المخالفة للطبيعة والعادة .

[وقالت عجوز عقيم] أى : أنَّى لى الولد ، وأنا عجوز ، قد بلغت من السن ، ما لا تلد معه النساء ، ومع ذلك ، فأنا عقيم ، غير صالح رحمى للولادة أصلا ، فَثَمَّ مانعان ، كل منهما مانع من الولد .

وقد ذكرت المانع الثالث فى سورة هود فى قولها : « وهذا بعلى شيخاً إن هذا لشىء عجيب » .

[قالوا كذلك قال ربك] أى : الله الذى قدر ذلك وأمضاه ، فلا عجب فى قدرة الله .

[إنه هو الحكيم العليم] أى : الذى وضع الأشياء مواضعها ، وقد وسع كل شىء علماً فسلموا لحكمه ، واشكروه على نعمته .

[قال فما خطبكم أيها المرسلون] أى : قال لهم إبراهيم عليه السلام : ما شأنكم أيها المرسلون ؟ وماذا تريدون ؟ لأنه استشعر أنهم رسل ، أرسلهم الله لبعض الشئون المهمة .

---

(١) فصكت وجهها أى : لطمته من الحياء لما أنها وجدت حرارة دم الطمث . وقيل : ضربت بأطراف أصابعها جبينها كما يفعله المتعجب . اهـ . أبو السعود .

مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾

[قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين] وهم قوم لوط ، قد أجرموا بإشراكهم بالله ، وتكذيبهم لرسولهم ، وإتيانهم الفاحشة ، التى لم يسبقهم إليها أحد من العالمين .

[لنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين] أى : معلمة ، على كل حجر اسم صاحبه ، لأنهم أسرفوا ، وتجاوزوا الحد .

فجعل إبراهيم يجادلهم فى قوم لوط ، لعل الله يدفع عنهم العذاب .

فقيل له : « يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود » .

[فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين * فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين] وهم بيت لوط عليه السلام ، إلا امرأته ، فإنها من المهلكين .

[وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الأليم] يعتبرون بها ويعلمون ، أن الله شديد العقاب ، وأن رسله صادقون ، مصدقون .

. . . .

فصـــل

فى ذكر بعض ما تضمنته هذه القصة من الحكم والأحكام

منها : أن من الحكمة ، أن قص الله على عباده ، نبأ الأخيار والفجار ، ليعتبروا بهم ، وأين وصلت بهم الأحوال .

ومنها : فضيلة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، حيث ابتدأ الله قصته ، بما يدل على الاهتمام بشأنها ، والاعتناء بها .

ومنها : مشروعية الضيافة ، وأنها من سنن إبراهيم الخليل ، الذى أمر الله محمدا وأمته ، أن يتبعوا ملته ، وساقها الله فى هذا الموضع ، على وجه المدح له والثناء .

ومنها : أن الضيف يكرم بأنواع الإكرام ، بالقول ، والفعل ، لأن الله وصف أضياف إبراهيم ، بأنهم مكرمون ، أي : أكرمهم إبراهيم . ووصف الله ما صنع بهم من الضيافة ، قولا وفعلا ، ومكرمون أيضاً عند الله .

ومنها : أن إبراهيم عليه السلام ، قد كان بيته ، مأوى للطارقين والأضياف ، لأنهم دخلوا عليه من غير استئذان ، وإنما سلكوا طريق الأدب ، فى ابتداء السلام ، فرد عليهم إبراهيم سلاما ، أكمل من سلامهم وأتم ، لأنه أتى به جملة اسمية ، دالة على الثبوت والاستمرار .

. . . .

ومنها : مشروعية تعرف من جاء إلى الإنسان ، أو صار له فيه نوع اتصال ، لأن فى ذلك ، فوائد كثيرة .

ومنها : أدب إبراهيم ولطفه فى الكلام ، حيث قال : [قوم منكرون] ولم يقل « أنكرتكم » ، وبين اللفظين من الفرق ، مالا يخفى .

ومنها : المبادرة إلى الضيافة والإسراع بها ، لأن خير البر عاجله ، ولهذا بادر إبراهيم بإحضار قِرَى أضيافه .

ومنها : أن الذبيحة الحاضرة ، التى قد أعدت لغير الضيف الحاضر ، إذا جعلت له ، ليس فيها أقل إهانة ، بل ذلك من الإكرام ، كما فعل إبراهيم عليه السلام ، وأخبر الله أن ضيفه مكرمون .

ومنها : ما منّ الله به على خليله إبراهيم ، من الكرم الكثير ، وكون ذلك حاضرا لديه ، وفى بيته معداً ، لا يحتاج إلى أن يأتى به من السوق ، أو الجيران ، أو غير ذلك .

ومنها : أن إبراهيم ، هو الذى خدم أضيافه ، وهو خليل الرحمن ، وسيد من ضيّف الضيفان .

ومنها : أنه قرّبه إليهم فى المكان الذى هم فيه .

فلم يجعله فى موضع ويقول لهم : « تفضلوا ، أو ائتوا عليه » لأن هذا أيسر وأحسن .

ومنها : حسن ملاطفة الضيف فى الكلام اللين ، خصوصا ، عند تقديم الطعام إليه .

. . . .

فإن إبراهيم ، عرض عليهم عرضا لطيفا فقال : [ألا تأكلون] ولم يقل « كلوا » ونحوه من الألفاظ ، التي غيرها أولى منها ، بل أتى بأداة العرض فقال : [ألا تأكلون .

فينبغي للمقتدى به أن يستعمل من الألفاظ الحسنة ، ما هو المناسب واللائق بالحال ، كقوله لأضيافه « ألا تأكلون » أو « ألا تتفضلون » أو « تشرفوننا وتحسنون إلينا » ونحو ذلك .

ومنها : أن من خاف من أحد ، لسبب من الأسباب ، فإن عليه أن يزيل عنه الخوف ، ويذكر له ما يؤمن روعه ، ويسكن جأشه .

كما قالت الملائكة لإبراهيم لما خافهم : [لاتخف] وأخبروه بتلك البشارة ، السارة ، بعد الخوف منهم .

ومنها : شدة فرح سارة ، امرأة إبراهيم ، حتى جرى منها ما جرى ، من صك وجهها وصَرَّتها غير المعهود .

ومنها : ما أكرم الله به إبراهيم وزوجته سارة ، من البشارة ، بغلام عليم .

وَفِي مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾

---

* أى : [وفى موسى] وما أرسله الله به إلى فرعون وملأه ، بالآيات البينات ، والمعجزات الظاهرات ، آية للذين يخافون العذاب الأليم .

فلما أتى موسى بذلك السلطان المبين ، تولى فرعون [بركنه] .

أى : أعرض بجانبه عن الحق ، ولم يلتفت إليه ، وقدحوا فيه أعظم القدح فقالوا :

[ساحر أو مجنون] أى : إن موسى ، لا يخلو ، إما أن يكون ما أتى به سحرا وشعبذة ، ليس من الحق فى شىء .

وإما أن يكون مجنونا ، لا يؤخذ بما صدر منه ، لعدم عقله .

هذا ، وقد علموا ، خصوصا فرعون ، أن موسى صادق ، كما قال تعالى : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعُلُوًّا » .

وقال موسى لفرعون : « لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر » الآية .

[فأخذناه وجنوده فنبذناهم فى اليمّ وهو مليم] أى : مذنب طاغ ، عاتٍ على الله ، فأخذه عزيز مقتدر .

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾ ﴾

﴿ وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

---

* أى [و] آية لهم [فى عاد] القبيلة المعروفة [إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم] أى : التى لا خير فيها ، حين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام .

[ما تذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم] أى كالرمم البالية .

فالذى أهلكهم على قوتهم وبطشهم ، دليل على كمال قوته واقتداره ، الذى لا يعجزه شىء ، المنتقم ممن عصاه

* أى [وفى ثمود] آية عظيمة ، حين أرسل الله إليهم صالحا عليه السلام ، فكذبوه وعاندوه ، وبعث الله له الناقة ، آية مبصرة ، فلم يزدهم ذلك إلا عتوا ونفورا .

[قيل لهم تمتعوا حتى حين * فعتوا[١] عن أمر ربهم ، فأخذتهم الصاعقة] أى : الصيحة العظيمة المهلكة [وهم ينظرون] إلى عقوبتهم بأعينهم .

[فما استطاعوا من قيام] ينجون به من العذاب [وما كانوا منتصرين] لأنفسهم .

---

(١) فعتوا . أى : فاستكبروا عن امتثال أمر ربهم .

﴿ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ

---

* أى وكذلك ما فعل الله بقوم نوح ، حين كذبوا نوحا عليه السلام ، وفسقوا عن أمر الله .

فأرسل عليهم السماء والأرض بماء منهمر ، فأغرقهم عن آخرهم ، ولم يبق من الكافرين ديارا ، وهذه عادة الله وسنته ، فيمن عصاه .

* يقول تعالى مبينا لقدرته العظيمة : [والسماء بنيناها] أى : خلقناها وأتقناها ، وجعلناها سقفا للأرض وما عليها .

[بأيد] أى : بقوة وقدرة عظيمة [وإنا لموسعون] لأرجائها وأنحائها .

وإنا لموسعون أيضا على عبادنا ، بالرزق الذى ما ترك دابة فى مهامه القفار ، ولجج البحار ، وأقطار العالم العلوى والسفلى ، إلا وأوصل إليها من الرزق ، ما يكفيها ، وساق إليها من الإحسان ما يغنيها .

فسبحان من عم بجوده جميع المخلوقات ، وتبارك الذى وسعت رحمته جميع البريات .

[والأرض فرشناها] أى : جعلناها فراشا للخلق ، يتمكنون فيها من كل ما تتعلق به مصالحهم ، من مساكن ، وغراس ، وزرع ، وحرث ، وجلوس ، وسلوك للسبل الموصلة إلى مقاصدهم ومآربهم .

تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾

ولما كان الفراش ، قد يكون صالحا للانتفاع من كل وجه ، وقد يكون من وجه دون وجه ، أخبر تعالى أنه مهدها أحسن مهاد ، على أكمل الوجوه وأحسنها .

وأثنى على نفسه بذلك فقال : [فنعم الماهدون] الذى مهد لعباده ما اقتضته وحكمته ورحمته .

[ومن كل شىء خلقنا زوجين] أى : صنفين ، ذكر وأنثى ، من كل نوع من أنواع الحيوانات .

[لعلكم تذكرون] لنعم الله التى أنعم بها عليكم فى تقدير ذلك وحكمته حيث جعل ما هو السبب لبقاء نوع الحيوانات كلها ، لتقوموا بتنميتها وخدمتها وتربيتها فيحصل من ذلك ما يحصل من المنافع .

فلما دعا العباد إلى النظر إلى آياته الموجبة لخشيته ، والإنابة إليه ، أمر بما هو المقصود من ذلك ، وهو الفرار إليه مما أى : الفرار مما يكرهه الله ظاهرا وباطنا ، إلى ما يحبه ، ظاهرا وباطنا ، فرار من الجهل إلى العلم ، ومن الكفر إلى الإيمان ، ومن المعصية إلى الطاعة ، ومن الغفلة إلى الذكر .

فمن استكمل هذه الأمور ، فقد استكمل الدين كله ، وزال عنه المرهوب ، وحصل له ، غاية المراد والمطلوب .

وسمى الله الرجوع إليه ، فرارا ، لأن فى الرجوع إلى غيره ، أنواع المخاوف والمكاره .

وفى الرجوع إليه ، أنواع المحاب والأمن ، والسرور والسعادة الفوز .

وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾

فيفر العبد من قضائه وقدره ، إلى قضائه وقدره ، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى ، فإنه بحسب الخوف منه ، يكون الفرار إليه .

[إنى لكم منه نذير مبين] أى : منذر لكم من عذاب الله ، ومخوف بَيِّنُ النذارة .

[ولا تجعلوا مع الله إلها آخر] هذا من الفرار إلى الله ، بل هذا أصل الفرار إليه أن يفر العبد من اتخاذ آلهة غير الله ، من الأوثان ، والأنداد ، والقبور وغيرها ، مما عبد من دون الله ، ويخلص لربه العبادة والخوف ، والرجاء والدعاء ، والإنابة .

* يقول الله ـ مسليا لرسوله صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين بالله ، المكذبين له ، القائلين فيه من الأقوال الشنيعة ، ما هو منزه عنه ، وأن هذه الأقوال ، ما زالت دأبا وعادة للمجرمين المكذبين للرسل فما أرسل الله من رسول ، إلا رماه قومه بالسحر أو الجنون .

يقول الله تعالى : هذه الأقوال التى صدرت منهم ـ الأولين والآخرين هل هى أقوال تواصوا بها ، ولقن بعضهم بعضا ؟ .

فلا يستغرب ـ بسبب ذلك ـ اتفاقهم عليها :

[أم هم قوم طاغون] تشابهت قلوبهم وأعمالهم بالكفر والطغيان ، فتشابهت أقوالهم الناشئة عن طغيانهم ؟ .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

وهـذا هو الواقع ، كما قال تعالى : « وقال الذين كفروا لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم » وكذلك المؤمنون ، لما تشابهت قلوبهم بالإذعان للحق وطلبه ، والسعى فيه بادروا إلى الإيمان برسلهم وتعظيمهم ، وتوقيرهم ، وخطابهم بالخطاب اللائق بهم .

* يقول تعالى آمرا رسوله بالإعراض عن المعرضين المكذبين .

[فتول عنهم] أى : لا تبال بهم ولا تؤاخذهم ، وأقبل على شأنك .

[فما أنت بملوم] فى ذنبهم ، وإنما عليك البلاغ ، وقد أديت ما حملت وبلغت ما أرسلت به .

[وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين] والتذكير نوعان .

تذكير بما لم يعرف تفصيله ، مما عرف مجمله بالفطر والعقول .

فإن الله فطر العقول على محبة الخير وإيثاره ، وكراهة الشر والزهد فيه ، وشرعه موافق لذلك .

فكل أمر ونهى من الشرع ، فهو من التذكير .

وتمام التذكير ، أن يذكر ما فى المأمور ، من الخير والحسن والمصالح وما فى المنهى عنه ، من المضار .

والنوع الثانى من التذكير : تذكير بما هو معلوم للمؤمنين ، ولكن انسحبت عليه الغفلة والذهول .

فَيُذَكَّرُونَ بذلك ، ويكرر عليهم ليرسخ فى أذهانهم ، وينتبهوا ويعملوا بما تذكروه ، من ذلك ، وليحدث لهم نشاطا وهمة ، توجب لهم الانتفاع والارتفاع .

وأخبر الله أن الذكرى تنفع المؤمنين ، لأن ما معهم من الإيمان والخشية والإنابة ، واتباع رضوان الله ، يوجب لهم أن تنفع فيهم الذكرى وتقع الموعظة منهم موقعها كما قال تعالى : « فذكر إن نفعت الذكرى * سيذكر من يخشى * ويتجنبها الأشقى » .

وأما من ليس له معه إيمان ولا استعداد لقبول التذكير ، فهذا لا ينفع تذكيره .

بمنزلة الأرض السبخة ، التى لا يفيدها المطر شيئا . وهؤلاء الصنف ، لو جاءتهم كل آية ، لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

* هذه الغاية ، التى خلق الله الجن والإنس لها ، وبعث جميع الرسل يدعون إليها .

وهى عبادته ، المتضمنة لمعرفته ومحبته ، والإنابة إليه والإقبال عليه والإعراض عما سواه .

وذلك متوقف على معرفة الله تعالى ، فإن تمام العبادة ، متوقف على المعرفة بالله .

بل كلما ازداد العبد معرفة بربه ، كانت عبادته أكمل ، فهذا الذى خلق الله المكلفين لأجله ، فما خلقهم لحاجة منه إليهم .

مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾

[ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون] تعالى الله الغنى عن الحاجة إلى أحد بوجه من الوجوه ، وإنما جميع الخلق ، فقراء إليه ، فى جميع حوائجهم ومطالبهم ، الضرورية وغيرها ولهذا قال :

[إن الله هو الرزاق] أى : كثير الرزق ، الذى ما من دابة فى الأرض ولا فى السماء إلا على الله رزقها ، ويعلم مستقرها ومستودعها .

[ذو القوة المتين] أى : الذى له القوة والقـدرة كلها ، الذى أوجد بها الأجرام العظيمة، السفلية والعلوية ، وبها تصرف فى الظواهر والبواطن ونفذت مشيئته فى جميع البريات ، .

فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن ، ولا يعجزه هارب ، ولا يخرج سلطانه أحد ، ومن قوته ، أنه أوصل رزقه إلى جميع العالم .

ومن قدرته وقوته ، أنه يبعث الأموات بعد ما مزقهم البلى وعصفت بهم الرياح وابتلعتهم الطيور والسباع وتمزقوا وتفرقوا فى مهامه القفار ولجج البحار .

فلا يفوته منهم أحد ، ويعلم ما تنقص الأرض منهم ، فسبحان القوى المتين .

﴿ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾ ﴾

---

* أى : [فإن للذين ظلموا] بتكذيبهم محمداً صلى الله عليه وسلم ، من العذاب والنكال [ذنوبا] أى : نصيباً وقسطاً ، مثل ما فعل بأصحابهم من أهل الظلم والتكذيب .

[فلا يستعجلون] بالعذاب فإن سنة الله فى الأمم واحدة .

فكل مكذب يدوم على تكذيبه من غير توبة وإنابة ، فإنه لابد أن يقع عليه العذاب ، ولو تأخر عنه مدة ، ولهذا توعدهم الله بيوم القيامة فقال : [فويل للذين كفروا من[1] يومهم الذى يوعدون] وهو يوم القيامة ، الذى قد وعدوا فيه بأنواع العذاب والنكال والأغلال ، فلا مغيث ، ولا منقذ لهم من عذاب الله . نعوذ بالله منه .

تم تفسير سورة الذاريات

---

(١) و « من » فى قوله تعالى : [من يومهم الذى يوعدون] للتعليل . أى : يوعدونه من يوم « بدر » .

وقيل : يوم القيامة ، وهو الأنسب ، بما فى صدر السورة الكريمة الآتية :

والأول (يوم القيامة) هو الأوفق لما قبله من حيث إنهما من العذاب الدنيوى . اهـ . أبو السعود .

تفسير

سورة الطور

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾

---

* يقسم تعالى بهذه الأمور العظيمة ، المشتملة على الحكم الجليلة ، على البعث ، والجزاء للمتقين ، والمكذبين .

فأقسم بالطور ، وهو : الجبل الذى كلم الله عليه موسى بن عمران ، عليه الصلاة والسلام ، وأوحى إليه ، ما أوحى من الأحكام .

وفى ذلك من المنة عليه وعلى أمته ، ما هو من آيات الله العظيمة ، ونعمه التى لا يقدر العباد لها على عدٍّ ولا ثمن .

[وكتاب مسطور] يحتمل أن المراد به : اللوح المحفوظ ، الذى كتب الله به كل شىء .

ويحتمل أن المراد به : القرآن الكريم ، الذى هو أفضل الكتب .

أنزله الله محتويا ، على نبأ الأولين والآخرين ، وعلوم السابقين واللاحقين .

وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴿٤﴾وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴿٦﴾

وقوله [فى رق] أى ورق [منشور] أى : مكتوب مسطر ، ظاهر غير خفى ، لا تخفى حاله على كل عاقل بصير .

[والبيت المعمور] وهو : البيت الذى فوق السماء السابعة ، المعمور مدى الأوقات ، بالملائكة الكرام ، يدخله كل يوم سبعون ألف ملك يتعبدون فيه لربهم ، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وقيل : إن البيت المعمور هو : بيت الله الحرام ، والمعمور بالطائفين ، والمصلين ، والذاكرين كل وقت ، وبالوفود إليه بالحج والعمرة .

كما أقسم الله به فى قوله « وهذا البلد الأمين » .

وحقيق ببيت ، هو أفضل بيوت الأرض ، الذى يقصده الناس بالحج والعمرة ، أحد أركان الإسلام ، ومبانيه العظام ، التى لا يتم إلا بها ، وهو الذى بناه إبراهيم وإسمعيل وجعله الله مثابة للناس وأمنا ، أن يقسم الله به ، ويبين من عظمته ما هو اللائق به وبحرمته .

[والسقف المرفوع] أى السماء ، التى جعلها الله سقفا للمخلوقات ، وبناء للأرض ، تستمد منها أنوارها ، ويقتدى بعلاماتها ومنارها ، وينزل الله منها المطر والرحمة ، وأنواع الرزق .

[والبحر المسجور] أى : المملوء ماء ، قد سجره الله ، ومنعه من أن يفيض على وجه الأرض ، مع أن مقتضى الطبيعة ، أن يغمر وجه الأرض .

ولكن حكمته ، اقتضت أن يمنعه عن الجريان والفيضان ، ليعيش من من على وجه الأرض ، من أنواع الحيوان .

إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

وقيل : إن المراد بالمسجور : الموقد الذى يوقد ناراً يوم القيامة ، نارا تلظى ، ممتلئا ـ على سعته ـ من أصناف العذاب .

هذه الأشياء التى أقسم الله بها ، مما يدل على أنها من آيات الله وأدلة توحيده ، وبراهين قدرته ، وبعثه الأموات ، ولهذا قال :

[إن عذاب ربك لواقع] أى : لابد أن يقع ، ولا يخلف الله وعده وقيله .

[ما له من دافع] يدفعه ، ولا مانع يمنعه ، لأن قدرة الله ، لا يغالبها مغالب ، ولا يفوتها هارب .

ثم ذكر وصف ذلك اليوم ، الذى يقع فيه العذاب فقال :

[يوم تمور السماء مورا] أى : تدور السماء وتضطرب ، وتدوم حركتها ، بانزعاج ، وعدم سكون

[وتسير الجبال سيرا] أى تزول عن أماكنها ، وتسير كسير السحاب وتتلوون كالعهن المنفوش ، وتبث بعد ذلك ، حتى تصير مثل الهباء ، وذلك كله ، لعظم هول يوم القيامة فكيف بالآدمىّ الضعيف !؟ .

[فويل يومئذ للمكذبين] والويل : كلمة جامعة لكل عقوبة وحزن وعذاب وخوف .

ثم ذكر وصف المكذبين الذين استحقوا به الويل فقال :

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ

[الذين هم فى خوض يلعبون] أى : خوض بالباطل ولعب به .

فعلومهم وبحوثهم ، بالعلوم الضارة ، المتضمنة للتكذيب بالحق ، والتصديق بالباطل .

وأعمالهم ، أعمال أهل الجهل والسفه ، واللعب .

بخلاف ما عليه أهل التصديق والإيمان ، من العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة .

[يوم يدعون إلى نار جهنم دعا] أى : يدفعون إليها دفعا ، ويساقون إليها سوقا عنيفا ، ويجرون على وجوههم ويقال لهم توبيخا ولوما :

[هذه النار التى كنتم بها تكذبون] فاليوم ذوقوا عذاب الخلد الذى لا يبلغ قدره ، ولا يوصف أمره .

[أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون] يحتمل أن الإشارة إلى النار والعذاب ، كما يدل عليه سياق الآيات .

أى : لما رأوا النار والعذاب قيل لهم من باب التقريع « أهذا سحر لا حقيقة له ، فقد رأيتموه ، أم أنتم فى الدنيا لا تبصرون ، أى : لا بصيرة لكم ولا علم عندكم ، بل كنتم جاهلين بهذا الأمر لم تقم عليكم الحجة ؟ .

والجواب انتفاء الأمرين .

أما كونه سحراً ، فقد ظهر لهم أنه أحق الحق ، وأصدق الصدق ، المنافى للسحر من جميع الوجوه .

أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اُصْلَوْهَا فَاصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

وأما كونهم لا يبصرون ، فإن الأمر بخلاف ذلك ، بل حجة الله قد قامت عليهم ، ودعتهم الرسل إلى الإيمان بذلك ، وأقامت من الأدلة والبراهين على ذلك ، ما يجعله من أعظم الأمور المبرهنة الواضحة الجليلة .

ويحتمل أن الإشارة بقوله [أفسحر هذا أم أنتم لا تبصرون] إلى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الحق المبين ، والصراط المستقيم .

أي : أفيتصور من له عقل ، أن يقول عنه : إنه سحر ، وهو أعظم الحق وأجله ؟ .

ولكن لعدم بصيرتهم ، قالوا فيه ما قالوا .

[اصلوها] أي : ادخلوا على وجه تحيط بكم ، وتشمل أبدانكم ، وتطلع على أفئدتكم .

[فاصبروا أو لا تصبروا سواء عليكم] أي : لا يفيدكم الصبر على النار شيئا ، ولا يتأسى بعضكم ببعض ، ولا يخفف عنكم العذاب .

وليست من الأمور ، التي إذا صبر العبد عليها ، هانت مشقتها وزالت شدتها .

وإنما فعل بهم ذلك ، بسبب أعمالهم الخبيثة ، وكسبهم ولهذا قال :

[إنما تجزون ما كنتم ما تعملون]

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَـٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ

---

* لما ذكر تعالى عقوبة المكذبين ، ذكر نعيم المتقين ليجمع بين الترغيب والترهيب ، فتكون القلوب بين الخوف والرجاء ، فقال :

[إن المتقين] لربهم ، الذين اتقوا سخطه وعذابه ، بفعل أسبابه من امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى .

[فى جنات] أى : بساتين ، قد اكتست رياضها من الأشجار الملتفة ، والأنهار المتدفقة ، والقصور المحدقة ، والمنازل المزخرفة .

[ونعيم] وهذا شامل لنعيم القلب ، والروح ، والبدن .

[فاكهين بما آتاهم ربهم] أى : معجبين به ، متمتعين على وجه الفرح والسرور ، بما أعطاهم الله من النعيم الذى لا يمكن وصفه ، ولا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين .

[ووقاهم ربهم عذاب الجحيم] فرزقهم المحبوب ، ونجاهم من المرهوب لما فعلوا ما أحبه ، وجانبوا ما يسخطه .

[كلوا واشربوا] أى : مما تشتهيه أنفسكم ، من أصناف المآكل والمشارب اللذيذة .

[هنيئا] أى : متهنئين بذلك على وجه البهجة والفرح ، والسرور والحبور .

[بما كنتم تعملون] أى : نلتم ما نلتم بسبب أعمالكم الحسنة ، وأقوالكم المستحسنة .

وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾

[متكئين على سرر مصفوفة] الاتكاء هو : الجلوس على وجه التمكن والراحة والاستقرار .

والسرر هى : الأرائك المزينة بأنواع الزينة من اللباس الفاخر والفرش الزاهية .

ووصف الله السرر بأنها مصفوفة ، ليدل ذلك على كثرتها ، وحسن تنظيمها ، واجتماع أهلها وسرورهم ، بحسن معاشرتهم وملاطفة بعضهم بعضا .

فلما اجتمع لهم من نعيم القلب والروح والبدن ، ما لا يخطر بالبال ولا يدور فى الخيال من المآكل ، والمشارب اللذيذة ، والمجالس الحسنة الأنيقة لم يبق إلا التمتع بالنساء اللاتى لا يتم سرور إلا بهن .

فذكر تعالى ، أن لهم من الأزواج ، أكمل النساء أوصافا وخلقا وأخلاقا ولهذا قال :

[وزوجناهم بحور عين] وهن النساء اللواتى قد جمعن جمال الصور الظاهرة وبهاءها ، ومن الأخلاق الفاضلة ، ما يوجب أن يحيرن بحسنهن الناظرين ، ويسلبن عقول العالمين ، وتكاد الأفئدة أن تطير شوقا إليهن ورغبة فى وصالهن .

والعين : حسان الأعين مليحاتها ، التى صفا بياضها وسوادها .

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾

---

* وهذا من تمام نعيم الجنة ، أن ألحق الله بهم ذريتهم ، الذين اتبعوهم بإيمان .

أى : لحقوهم بالإيمان الصادر من آبائهم فصارت الذرية تبعا لهم بالإيمان ومن باب أولى إذا تبعتهم ذريتهم بإيمانهم الصادر منهم أنفسهم .

فهؤلاء المذكورون ، يلحقهم الله بمنازل آبائهم فى الجنة ، وأن لم يبلغوها جزاء لآبائهم ، وزيادة فى ثوابهم .

ومع ذلك ، لا ينقص الله الآباء من أعمالهم شيئا .

ولما كان ربما توهم متوهم أن أهل النار كذلك ، يلحق الله بهم ذريتهم ، أخبر أنه ليس حكم الدارين حكما واحدا .

فإن النار دار العدل ، ومن عدله تعالى ، أن لا يعذب أحداً إلا بذنب ، ولهذا قال :

[كل امرىء بما كسب رهين] أى : مرتهن بعمله ، فلا تزر وازرة وزر أخرى ، ولا يحمل على أحد ذنب أحد .

فهذا اعتراض، من فوائده ، إزالة هذا الوهم المذكور .

وقوله : [وأمددناهم] أي : أمددنا أهل الجنة من فضلنا الواسع ، ورزقنا العميم [بفاكهة] من العنب والرمان والتفاح ، وأصناف الفواكه اللذيذة الزائدة على ما به يتقوتون .

يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾

[ولحم مما يشتهون] من كل ما طلبوه واشتهته أنفسهم ، من لحوم الطير وغيرها .

[يتنازعون فيها كأسا] أى : تدور كاسات الرحيق والخمر عليهم ، ويتعاطونها فيما بينهم .

وتطوف عليهم الولدان المخلدون بأكواب ، وأباريق .

[لا لغو فيها ولا تأثيم] أى : ليس فى الجنة كلام لغو ، وهو : الذى لا فائدة فيه .

ولا تأثيم وهو : الذى فيه إثم ومعصية ، وإذا انتفى الأمران ، ثبت الأمر الثالث .

وهو أن كلامهم فيها ، سلام طيب طاهر ، مسر للنفوس ، مفرح للقلوب ، يتعاشرون أحسن عشرة ، ويتنادمون أطيب المنادمة ، ولا يسمعون من ربهم ، إلا ما يقر أعينهم ، ويدل على رضاه عنهم ومحبته لهم .

[ويطوف عليهم غلمان لهم] أى : خدم شباب [كأنهم لؤلؤ مكنون] من حسنهم وبهائهم ، يدورون عليهم بالخدمة ، وقضاء أشغالهم .

وهذا يدل على كثرة نعيمهم ، وسعته ، وكمال راحتهم .

[وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] عن أمور الدنيا وأحوالها .

[قالوا] فى ذكر بيان الذى أوصلهم إلى ما هم فيه من الحبرة والسرور .

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾

فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ

[إنا كنا قبل] أى : فى دار الدنيا [فى أهلنا مشفقين] أى : خائفين وجلين، فتركنا من خوفه، الذنوب، وأصلحنا لذلك، العيوب.

[فمن الله علينا] بالهداية والتوفيق [ووقانا عذاب السموم].

أى : العذاب الحار الشديد حره.

[إنا كنا من قبل ندعوه] أن يقينا عذاب السموم، ويوصلنا إلى النعيم، وهذا شامل لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

أى : لم نزل نتقرب إليه بأنواع العبادات، وندعوه فى سائر الأوقات.

[إنه هو البر الرحيم] فمن بره ورحمته إيانا، أنالنا رضاه والجنة، ووقانا سخطه والنار.

* يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم، أن يذكر الناس، مسلمهم وكافرهم، لتقوم حجة الله على الظالمين، ويهتدى بتذكيره الموفقون.

وأن لا يبالى بقول المشركين المكذبين، وأذيتهم، وأقوالهم، التى يصدون بها الناس عن اتباعه، مع علمهم أنه أبعد الناس عنها، ولهذا نفى عنه كل نقص رموه به فقال :

[فما أنت بنعمة ربك] أى : منه ولطفه [بكاهن] أى : له رَئِىٌّ من

وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل

الجن ، يأتيه بخبر بعض الغيوب ، التي يضم إليها مائة كذبة .

[ولا مجنون] فاقد للعقل ، بل أنت أكمل الناس عقلا ، وأبعدهم عن الشياطين ، وأعظمهم صدقا ، وأجلهم وأكملهم .

وتارة [يقولون] فيه : إنه [شاعر] يقول الشعر ، والذى جاء به شعر والله يقول « وما علمناه الشعر وما ينبغى له » .

[نتربص به ريب المنون] أى : ننتظر به الموت ، فيبطل أمره ، ونستريح منه .

[قل] لهم جوابا لهذا الكلام السخيف : [تربصوا] أى : انتظروا بى الموت .

[فإنى معكم من المتربصين] نتربص بكم ، أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا .

[أم تأمرهم أحلامهم بهذا أم هم قوم طاغون] أى : أهذا التكذيب لك ، والأقوال التي قالوها ؟ هل صدرت عن عقولهم وأحلامهم ؟

فبئس العقول والأحلام ، التي هذه نتائجها ، وهذه ثمراتها .

فإن عقولا جعلت أكمل الخلق عقلا مجنونا ، وجعلت أصدق الصدق ، وأحق الحق ، كذبا وباطلا ، لَهِىَ العقول ، التي ينزه المجانين عنها .

لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

أم الذى حملهم على ذلك ، ظلمهم ، وطغيانهم ؟ وهو الواقع ،فالطغيان ليس له حد يقف عليه .

فلا يستغرب من الطاغى المتجاوز الحد ، كل قول وفعل صدر منه .

[أم يقولون تقوله] أى : تقول محمد القرآن ، وقاله من تلقاء نفسه ؟

[بل لا يؤمنون] فلو آمنوا ، لم يقولوا ما قالوا .

[فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين] أنه تقوله ، فإنكم العرب الفصحاء ، والفحول البلغاء ، وقد تحداكم أن تأتوا بمثله ،فتصدق معارضتكم أو تقروا بصدقه ، وأنكم لو اجتمعتم ، أنتم والإنس والجن ، لم تقدروا على معارضته والإتيان بمثله ، فحينئذ أنتم بين أمرين .

إما مؤمنون به ، مقتدون بهديه ، وإما معاندون متبعون ، لما علمتم من الباطل .

[أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون] وهذا استدلال عليهم ، بأمر لا يمكنهم فيه إلا التسليم للحق ، أو الخروج عن موجب العقل والدين .

وبيان ذلك : أنهم منكرون لتوحيد الله ، مكذبون لرسوله ، وذلك مستلزم لإنكار أن الله خلقهم .

وقد تقرر فى العقل مع الشرع ، أن ذلك لا يخلو من أحد ثلاثة أمور .

إما أنهم خلقوا من غير شىء ، أى : لا خالق خلقهم ، بل وجدوا من

وَٱلْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ

غير إيجاد ولا موجد ، وهذا عين المحال .

أم هم الخالقون لأنفسهم ، وهذا أيضا محال ، فإنه لا يتصور ،أن يوجد أحد نفسه .

فإذا بطل هذان الأمران ، وبان استحالتهما ، تعين القسم الثالث وهو : أن الله ، هو الذى خلقهم .

وإذا تعين ذلك ، علم أن الله تعالى هو المعبود وحده ، الذى لا تنبغى العبادة ولا تصلح ، إلا له تعالى .

وقوله : [أم خلقوا السموات والأرض] وهذا استفهام يدل على تقرير النفى .

أى : ما خلقوا السموات والأرض، فيكونوا شركاء لله ، وهذا أمر واضح جدا .

[بل] المكذبون [لا يوقنون] أى : ليس عندهم يقين ، يوجب لهم الانتفاع بالأدلة الشرعية والعقلية .

[أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون] أى : أعند هؤلاء المكذبين خزائن رحمة ربك ، فيعطوا من يشاءون ، ويمنعوا من يشاءون ؟ .

أى : فلذلك حجروا على الله ، أن يعطى النبوة عبده ورسوله ، محمدا صلى الله عليه وسلم .

وكأنهم الوكلاء المفوضون على خزائن رحمة الله ، وهم أحقر ، وأذل من ذلك .

ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ

فليس فى أيديهم لأنفسهم ، نفع ولا ضر ، ولا موت ولا حياة ، ولا نشور .

« أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معشيتهم فى الحياة الدنيا » .

[أم هم المسيطرون] أى : المتسلطون على خلق الله وملكه ، بالقهر والغلبة ؟ .

ليس الأمر كذلك ، بل هم العاجزون الفقراء .

[أم لهم سلم يستمعون فيه] أى : ألهم اطلاع على الغيب ، واستماعه بين الملأ ، فيخبرون عن أمور لا يعلمها غيرهم ؟

[فليأت مستمعهم] المدعى لذلك [بسلطان[1] مبين] .
وأنّى : له ذلك ؟ .

والله تعالى عالم الغيب والشهادة ، فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول يخبره بما أراد من علمه .

وإذا كان محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو أفضل الرسل ، وأعلمهم وإمامهم ، وهو المخبر بما أخبر به ، من توحيد الله ، ووعيده ، وغير ذلك من أخباره الصادقة ، والمكذبون ، هم أهل الجهل ، والضلال ، والغى والعناد .

---

(١) بسلطان . أى : بحجة واضحة تصدق دعواه .

أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ

فأيُّ المخبرين أحق بقبول خبره ؟

خصوصا والرسول صلى الله عليه وسلم قد أقام من الأدلة والبراهين، على ما أخبر به ، ما يوجب أن يكون ذلك عين اليقين ، وأكمل الصدق ، وهم لم يقيموا على ما ادعوه شبهة ، فضلا عن إقامة حجة .

وقوله : [أم له البنات] كما زعمتم [ولكم البنون] فتجمعون بين المحذورين ؟ .

جعلكم له الولد ، واختياركم له أنقص الصنفين ؟ .

فهل بعد هذا التنقص لرب العالمين ، غاية ، أو دونه نهاية ؟

[أم تسألهم] يا أيها الرسول [أجرا] على تبليغ الرسالة .

[فهم من مغرم(٢) مثقلون] .

ليس الأمر كذلك ، بل أنت الحريص على تعليمهم ، تبرعا من غير شيء .

بل تبذل لهم الأموال الجزيلة ، على قبول رسالتك ، والاستجابة لأمرك ودعوتك ، وتعطى المؤلفة قلوبهم ، ليتمكن العلم والإيمان من قلوبهم .

---

(٢) المغرم . أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، يعنى يفرض عليه جبراً أن يدفع مبلغاً من المال .

والمعنى . أألزمتهم وأجبرتهم على دفع مبلغ يثقل عليهم ويعجزون عن أدائه مقابل تأديتك رسالة الله إليهم ، فزهدهم ذلك ، فى أن يتبعوك ؟

﴿يَكْتُبُونَ﴾﴿٤١﴾﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ﴾﴿٤٢﴾

[أم عندهم الغيب فهم يكتبون] ما كانوا يعلمونه من الغيوب ، فيكونون قد اطلعوا على ما لم يطلع عليه رسول الله ، فعارضوه ، وعاندوه بما عندهم من الغيب ؟ .

وقد علم أنهم هم الأمة الأمية ،الجهال الضالون .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ، هو الذى عنده من العلم أعظم من غيره وأنبأه الله من علم الغيب على ما لم يطلع عليه أحد من الخلق

وهذا كله إلزام لهم ، بالطرق العقلية والنقلية ،على فساد قولهم ، وتصوير بطلانه بأحسن الطرق وأوضحها ، وأسلمها من الاعتراض .

وقوله: [أم يريدون] بقدحهم فيك ، وفيما جئت به [كيدا] يبطلون به دينك ، ويفسدون به أمرك ؟

[فالذين كفروا هم المكيدون] أي : كيدهم فى نحورهم ، ومضرته عائدة إليهم .

وقد فعل الله ذلك ـ ولله الحمد ، فلم يُبْقِ الكفار من مقدورهم من المكر شيئا ، إلا فعلوه ، فنصر الله نبيه عليهم ، وأظهر دينه ، وخذلهم ، وانتصر عليهم .

[أم لهم إله غير الله] أى : ألهم إله يدعى ويرجى نفعه ، ويخاف من ضره ، غير الله تعالى ؟

[سبحان الله عما يشركون] فليس له شريك فى الملك ، ولا شريك فى الوحدانية والعبادة .

وهذا هو المقصود من الكلام الذى سيق لأجله ، وهو بطلان عبادة ما سوى الله ، وبيان فسادها ، بتلك الأدلة القاطعة .

أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

وأن ما عليه المشركون ، هو الباطل ، وأن الذى ينبغى أن يعبد ، ويصلى له ويسجد ، ويخلص له دعاء العبادة ، ودعاء المسألة ، هو الله المألوه المعبود ، كامل الأسماء والصفات ، كثير النعوت الحسنة ، والأفعال الجميلة ، ذو الجلال والإكرام ، والعز الذى لا يرام ، الواحد الأحد ، الفرد الصمد الكبير الحميد المجيد .

* يقول تعالى ، فى ذكر بيان أن المشركين المكذبين بالحق الواضح ، قد عتوا عن الحق ، وعسوا[1] على الباطل ، وأنه لو قام على الحق كل دليل لما اتبعوه ، ولخالفوه وعاندوا .

[وإن يروا كسفا من السماء ساقطا] أى : لو سقط عليهم من السماء من الآيات الباهرة ، كسف أى : قطع كبار من العذاب [يقولوا سحاب مركوم] أى : هذا سحاب متراكم على العادة .

[أى : فلا يبالون بما رأوا من الآيات ، ولا يعتبرون بها .

وهؤلاء لا دواء لهم ، إلا العذاب والنكال ، ولهذا قال :

[فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون] وهو يوم القيامة الذى يصيبهم فيه من العذاب ، ما لا يقادر قدره ، ولا يوصف أمره .

---

(١) قال المختار من الصحاح : عسا الشيء من باب « سما » وعساءً بالمد . أى : يبس وصلب . اهـ . والمراد هنا : جمدوا على الباطل وتمسكوا به بيبوسة وصلابة .

يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ

[يوم لا يغنى عنهم كيدهم شيئا] أى : لا قليلا ولا كثيرا .

وإن كان فى الدنيا ، قد يوجد منهم كيد يعيشون به زمنا قليلا فيوم القيامة ، يضمحل كيدهم ، وتبطل مساعيهم ، ولا ينتصرون من عذاب الله [ولا هم ينصرون(1)] .

* لما ذكر الله عذاب الظالمين فى الآخرة ، أخبر أن لهم عذابا قبل عذاب يوم القيامة وذلك شامل لعذاب الدنيا ، بالقتل ، والسبى ، والإخراج من الديار ، ولعذاب البرزخ والقبر .

[ولكن أكثرهم لا يعلمون] أى : فلذلك أقاموا على ما يوجب العذاب ، وشدة العقاب .

ولما بين تعالى ، الحجج والبراهين، على بطلان أقوال المكذبين ، أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، أن لا يعبأ بهم شيئا ، وأن يصبر لحكم ربه القدرى ، والشرعى ، بلزومه ، والاستقامة عليه ، ووعده الله الكفاية بقوله :

[فإنك بأعيننا] أى بمرأى منا ، وحفظ ، واعتناء بأمرك .

وأمره أن يستعين على الصبر بالذكر والعبادةفقال : [وسبح بحمدربك حين تقوم] من الليل .

---

(١) ولاهم ينصرون أى : من جهة الغير فى دفع العذاب عنهم .

بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾

ففيه الأمر بقيام الليل ، أو حين تقوم إلى الصلوات الخمس ، بدليل قوله :

[ومن الليل فسبحه وأدبار النجوم] أى : آخر الليل ، ويدخل فيه صلاة الفجر . والله أعلم .

تم تفسير سورة والطور ـ والحمد لله

تفسير

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾

---

* يقسم تعالى بالنجم عند هُوِيِّه ، أى : سقوطه فى الأفق ، فى آخر الليل عند إدبار الليل ، وإقبال النهار ، لأن فى ذلك ، من الآيات العظيمة ، ما أوجب أن أقسم به .

والصحيح أن النجم ، اسم جنس شامل للنجوم كلها .

وأقسم بالنجوم على صحة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم ، من الوحى الإلهى ، لأن فى ذلك مناسبة عجيبة .

فإن الله تعالى جعل النجوم زينة للسماء ، فكذلك الوحى وآثاره ، زينة للأرض .

فلولا العلم الموروث عن الأنبياء ، لكان الناس فى ظلمة أشد من ظلمة الليل البهيم .

والمقسم عليه ، تنزيه الرسول عن الضلال فى علمه ، والغىِّ فى قصده .

ويلزم من ذلك ، أن يكون مهتديا فى علمه ، هاديا ، حسن القصد ، ناصحا للخلق .

وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾

وبعكس ما عليه أهل الضلال ، من فساد العلم ، وسوء القصد .

وقال [صاحبكم] لينبههم على ما يعرفونه منه ، من الصدق والهداية ، وأنه لا يخفى عليهم أمره .

[وما ينطق عن الهوى] أى : ليس نطقه صادرا عن هوى نفسه .

[إن هو إلا وحى يوحى] أى : لا يتبع إلا ما أوحى إليه،من الهدى والتقوى ، فى نفسه ، وفى غيره .

ودل هذا ، على أن السنة وحى من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم ، كما قال تعالى « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة » .

وأنه معصوم فيما يخبر به عن الله تعالى وعن شرعه،لأن كلامه لا يصدر عن هوى ، وإنما يصدر عن وحى يوحى .

ثم ذكر المعلم للرسول ، وهو جبريل عليه السلام ، أفضل الملائكة الكرام ، وأقواهم ، وأكملهم فقال :

[علمه شديد القوى] أى : نزل بالوحى على الرسول صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام ، شديد القوى الظاهرة والباطنة .

قوى على تنفيذ ما أمره الله بتنفيذه ، قوى على إيصال الوحى إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنعه من اختلاس الشياطين له ، أو إدخالهم فيه ما ليس منه .

ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُ

وهذا من حفظ الله لوحيه ، أن أرسله مع هذا الرسول القوى الأمين .

[ذو مرة] أى : قوة ، وخلق حسن ، وجمال ظاهر وباطن .

[فاستوى] جبريل عليه السلام [وهو بالأفق الأعلى] أى: أفق السماء الذى هو أعلى من الأرض فهو من الأرواح العلوية، التى لا تنالها الشياطين ولا يتمكنون من الوصول إليها .

[ثم دنا] جبريل من النبى صلى الله عليه وسلم ، لإيصال الوحى إليه .

[فتدلى] عليه من الأفق الأعلى [فكان] فى قربه منه [قاب قوسين] أى : قدر قوسين ، والقوس معروف .

[أو أدنى] أى : أقرب من القوسين .

وهذا يدل على كمال مباشرته للرسول صلى الله عليه وسلم ، بالرسالة ، وأنه لا واسطة بينه وبين جبريل عليه السلام .

[فأوحى] الله بواسطة جبريل عليه السلام [إلى عبده ما أوحى] .

أى : الذى أوحاه إليه من الشرع العظيم ، والنبأ المستقيم .

[ما كذب الفؤاد ما رأى] أى: اتفق فؤاد الرسول صلى الله عليه وسلم ورؤيته على الوحى الذي أوحاه الله إليه ، وتواطأ عليه سمعه وبصره وقلبه .

وهذا دليل على كمال الوحى ، الذى أوحاه الله إليه ، وأنه تلقاه منه تلقيا لا شك فيه ولا شبهة ، ولا ريب .

عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ

فلم يكذب فؤاده ، ما رأى بصره ، ولم يشك فى ذلك .

ويحتمل أن المراد بذلك:ما رأى صلى الله عليه وسلم ليلة أسرى به ، من آيات الله العظيمة ، وأنه تيقنه حقا ، بقلبه ورؤيته ، وهذا هو الصحيح فى تأويل الآية الكريمة .

وقيل : إن المراد بذلك ، رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ، لربه ليلة الإسراء ، وتكليمه إياه ، وهذا اختيار كثير من العلماء ، رحمهم الله ، فأثبتوا بهذا ، رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم ، لربه فى الدنيا .

ولكن الصحيح ، القول الأول ، وأن المراد به جبريل عليه السلام ، كما يدل عليه السياق .

وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ، رأى جبريل فى صورته الأصلية ، التى هو عليها مرتين : مرة فى الأفق الأعلى ، تحت السماء الدنيا كما تقدم ، والمرة الثانية ، فوق السماء السابعة ، ليلة أسرى برسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال :

[ولقد رآه نزلة أخرى] أى : رأى محمد جبريل مرة أخرى ، نازلا إليه .

[عند سدرة المنتهى] وهى شجرة عظيمة جدا ، فوق السماء السابعة ، سميت سدرة المنتهى ، لأنه ينتهى إليها ما يعرج من الأرض ، وينزل إليها ما ينزل من الله ، من الوحى وغيره .

أو لانتهاء علم المخلوقات إليها، أي : لـكونها فوق السموات والأرض فهى المنتهى فى علوها ، أو لغير ذلك ، والله أعلم .

فرأى محمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل فى ذلك المـكان ، الذى هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة التى لا يقربها شيطان ولا غيره ، من الأرواح الخبيثة .

[عندها] أى : عند تلك الشجرة [جنة المأوى] أى : الجنة الجامعة ، لـكل نعيم ، بحيث كانت محلا ، تنتهى إليه الأمانى ، وترغب فيه الإرادات وتأوى إليها الرغبات ، وهذا دليل على أن الجنة فى أعلى الأماكن ، وفوق السماء السابعة .

[إذ يغشى السدرة ما يغشى] أى : يغشاها من أمر الله ، شىء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل .

[ما زاغ البصر] أى : ما زاغ يمنة ولا يسرة،عن مقصوده [وماطغى] أى : وما تجاوز البصر .

وهذا كمال الأدب منه ، صلوات الله وسلامه عليه ، أن قام مقاما ، أقامه الله فيه ، ولم يقصر عنه ، ولا تجاوزه ، ولا حاد عنه .

وهذا ، أكمل ما يكون من الأدب العظيم ، الذى فاق فيه الأولين والآخرين .

فإن الإخلال يكون بأحد هذه الأمور .

رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾

أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ

إما أن لا يقوم العبد بما أمر به .

أو يقوم به على وجه التفريط .

أو على وجه الإفراط ، أو على وجه الحيدة ، يمينا وشمالا وهذه الأمور كلها منتفية عنه صلى الله عليه وسلم .

[لقد رأى من آيات ربه الكبري] من الجنة والنار ، وغير ذلك ، من التى رآها صلى الله عليه وسلم ، ليلة أسرى به .

* لما ذكر تعالى ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ، ودين الحق ، والأمر بعبادة الله ، وتوحيده ، ذكر بطلان ما عليه المشركون ، من عبادة من ليس له من أوصاف الكمال شيء ، ولا تنفع ، ولا تضر ، وإنما هى أسماء فارغة من المعنى ، سماها المشركون ، هم وآباؤهم الجهال الضلال ابتدعوا لها من الأسماء الباطلة ، التى لا تستحقها ، فخدعوا بها أنفسهم وغيرهم من الضلال .

فالآلهة التى بهذه الحال ، لا تستحق مثقال ذرة من العبادة .

وهذه الأنداد التى سموها بهذه الأسماء ، زعموا أنها مشتقة من أوصاف هى متصفة بها .

فسموا « اللات » من « الإله » المستحق للعبادة ، و « العزى » من « العزيز » ، و « مناة » من « المنان » إلحادا فى أسماء الله وتجريا على الشرك به ، وهذه أسماء متجردة من المعانى .

ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى

فكل من له أدنى مسكة من عقل ، يعلم بطلان هذه الأوصاف فيها .

[ألكم الذكر وله الأنثى] أى : أتجعلون لله البنات بزعمكم ، ولكم البنون ؟ .

[تلك إذا قسمة ضيزى] أي ظالمة جائرة .

وأى ظلم ، أعظم من قسمة ، تقتضى تفضيل العبد المخلوق على الخالق ؟!

تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً .

وقوله : [إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان] أى : من حجة وبرهان ، على صحة مذهبكم .

وكل أمر ، ما أنزل الله فيه من سلطان ، فهو باطل ، فاسد ، لا يتخذ دينا .

وهم - فى أنفسهم ، ليسوا بمتبعين لبرهان ، يتيقنون به ما ذهبوا إليه .

وإنما دلهم على قولهم ، الظن الفاسد ، والجهل الكاسد ، وما تهواه أنفسهم ، من الشرك ، والبدع الموافقة لأهويتهم ، والحال ، أنه لا موجب لهم يقتضى ذلك ، إلا اتباعهم للظن ، من فقد العلم والهدى ، ولهذا قال تعالى :

ٱلْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْأَخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾

[ولقد جاءهم من ربهم الهدى] أى : الذى يرشدهم فى باب التوحيد والنبوة ، وجميع المطالب ، التى يحتاج إليها العباد .

فكلها قد بينها الله أكمل بيان ، وأوضحه ، وأدله على المقصود .

وأقام عليه من الأدلة والبراهين ، ما يوجب لهم ولغيرهم ، اتباعه .

فلم يبق لأحد حجة ، ولا عذر ، من بعد البيان والبرهان .

وإذا كان ما هم عليه ، غايته اتباع الظن ، ونهايته الشقاء الأبدى والعذاب السرمدى ، فالبقاء على هذه الحال ، من أسفه السفه ، وأظلم الظلم ، ومع ذلك ، يتمنون الأمانى ، ويغترون بأنفسهم .

ولهذا أنكر تعالى على من زعم ، أنه يحصل له ما تمنى ، وهو كاذب فى ذلك فقال :

[أم للإنسان ما تمنى * فلله الآخرة والأولى] فيعطى منها من يشاء ، ويمنع من يشاء .

فليس الأمر تابعا لأمانيهم ، ولا موافقا لأهوائهم .

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ﴾

* يقول تعالى ، منكراً على من عبد غيره من الملائكة وغيرهم ، وزعم أنها تنفعه وتشفع له عند الله يوم القيامة :

[وكم من ملك فى السموات] من الملائكة المقربين ، وكرام الملائكة .

[لاتغنى شفاعتهم شيئا] أى : لاتفيد من ادعاها[1] وتعلق بها ورجاها .

[إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى] أى : لابد من اجتماع الشرطين : إذنه تعالى فى الشفاعة ، ورضاه عن المشفوع له .

ومن المعلوم المتقرر ، أنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا لوجه الله ، موافقا فيه صاحبه ، الشريعة .

فالمشركون إذاً ، لا نصيب لهم من شفاعة الشافعين ، لأنهم سدوا على أنفسهم ، رحمة أرحم الراحمين .

---

(١) قوله : من ادعا . أى : اتخذها آلهة بمجرد الدعوى فأخذ يدعوها . والأنسب أن يقال [دعاها] ليتناسب مع ما بعدها .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْأَخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ

---

* يعنى : أن المشركين بالله المكذبين لرسله ، الذين لا يؤمنون بالآخرة ، بسبب عدم إيمانهم بالله تعالى ، تجرأوا على ما تجرأوا عليه ، من الأقوال ، والأفعال المحادة لله ولرسوله ، من قولهم : « الملائكة بنات الله » .

فلم ينزهوا ربهم عن الولادة ، ولم يكرموا الملائكة ، ويجلوهم عن تسميتهم إياهم إناثا .

والحال أنه ليس لهم بذلك علم ، لا عن الله ، ولا عن رسوله ، ولا دلت على ذلك ، الفطر والعقول .

بل العلم كله ، دال على نقيض قولهم ، وأن الله منزه عن الأولاد ، والصاحبة ، لأنه الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

وأن الملائكة ، كرام مقربون إلى الله ، قائمون بخدمته « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » .

والمشركون إنما يتبعون فى ذلك ، القول القبيح ، وهو : الظن الذى لا يغنى من الحق شيئا ، فإن الحق لا بد فيه من اليقين ، المستفاد من الأدلة والبراهين الساطعة .

ولما كان هذا ، دأب هؤلاء المذكورين ، أنهم لا غرض لهم فى اتباع

عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

الحق ، وإنما غرضهم ومقصودهم ، ما تهواه نفوسهم ، أمر الله رسوله بالإعراض على من تولى عن ذكره ، الذى هو الذكر الحكيم ، والقرآن العظيم ، فأعرض عن العلوم النافعة ، ولم يرد إلا الحياة الدنيا ، فهذا منتهى إرادته .

ومن المعلوم أن العبد ، لا يعمل إلا للشى الذى يريده .

فَسَعْىُ هؤلاء مقصور على الدنيا ولذاتها ، وشهواتها ، كيف حصلت حصلوها ، وبأى طريق سنحت ، ابتدروها .

[ذلك مبلغهم من العلم] أى : هذا منتهى علمهم وغايته .

وأما المؤمنون بالآخرة ، المصدقون بها ، أولو الألباب والعقول ، فهمهم وإرادتهم ، للدار الآخرة ، وعلومهم أفضل العلوم وأجلها ، وهو المأخوذ من كتاب الله ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

والله تعالى ، أعلم بمن يستحق الهداية فيهديه ، ممن لا يستحق ذلك ، فيكله إلى نفسه ، ويخذله ، فيضل عن سبيل الله ، ولهذا قال تعالى :

[إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى] فيضع فضله ، حيث يعلم المحل اللائق به .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ

---

* يخبر تعالى ، أنه مالك الملك ، المنفرد بملك الدنيا والآخرة ، وأن جميع ما فيهما ، ملك لله ، يتصرف فيهم ، تصرف الملك العظيم ، فى عبيده ومماليكه ، ينفذ فيهم قدره ، ويجري عليهم شرعه ، ويأمرهم ، وينهاهم ، ويجزيهم على ما أمرهم به ونهاهم عنه ، فيثيب المطيع ، ويعاقب العاصى .

[ليجزى الذين أساءوا بما عملوا] من سيئات الكفر ، فما دونه ، من المعاصى ، وبما عملوه من أعمال الشر ، بالعقوبة الفظيعة .

[ويجزى الذين أحسنوا] فى عبادة الله تعالى ، وأحسنوا إلى خلق الله ، بأنواع المنافع [بالحسنى] أى : بالحالة الحسنة ، فى الدنيا والآخرة .

وأكبر ذلك وأجله ، رضا ربهم ، والفوز بالجنة ، وما فيها من النعيم .

ثم ذكر وصفهم فقال : [الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش] أى : يفعلون ما أمرهم الله به ، من الواجبات ، التى يكون تركها من كبائر الذنوب ، ويتركون المحرمات الكبار ، من الزنا ، وشرب الخمر ، وأكل الربا ، والقتل ، ونحو ذلك ، من الذنوب العظيمة .

[إلا اللمم] وهى الذنوب الصغار ، التى لا يصر صاحبها عليها ، أو التى يلم العبد بها ، المرة بعد المرة ، على وجه الندرة والقلة ، فهذه ، ليس مجرد الإقدام عليها ، مخرجا للعبد من أن يكون من المحسنين ، فإن هذه ، مع

ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ

الإتيان بالواجبات ، وترك المحرمات ، تدخل تحت مغفرة الله ، التى وسعت كل شىء ، ولهذا قال :

[إن ربك واسع المغفرة] فلولا مغفرته ، لهلكت البلاد والعباد ، ولولا عفوه وحلمه ، لسقطت السماء على الأرض ، ولما ترك على ظهرها من دابة .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان ، مكفرات لما بينهن ، ما اجتنبت الكبائر » .

وقوله [هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض ، وإذ أنتم أجنة فى بطون أمهاتكم] أى : هو تعالى أعلم بأحوالكم كلها ، وما جبلكم عليه ، من الضعف والخور ، عن كثير مما أمركم الله به ، ومن كثرة الدواعى إلى فعل المحرمات ، وكثرة الجواذب إليها ، وعدم الموانع القوية .

والضعف موجود مشاهد منكم ، حين أخرجكم الله من الأرض ، وإذ كنتم فى بطون أمهاتكم ، ولم يزل موجودا فيكم .

وإن كان الله تعالى ، قد أوجد فيكم قوة على ما أمركم به ، ولكن الضعف لم يزل .

فلعلمه تعالى بأحوالكم هذه ، ناسبت الحكمة الإلهية ، والجود الربانى ، أن يتغمدكم برحمته ، ومغفرته ، وعفوه ، ويغمركم بإحسانه ، ويزيل عنكم الجرائم والمآثم .

فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ

خصوصا إذا كان العبد مقصوده ، مرضاة ربه ، فى جميع الأوقات ، وسعيه فيما يقرب إليه فى أكثر الآنات ، وفراره من الذنوب ، التى يمقت بها عند مولاه ، ثم تقع منه الفلتة بعد الفلتة ، فإن الله تعالى أكرم الأكرمين وأجود الأجودين ، أرحم بعباده من الوالدة بولدها .

فلا بد لمثل هذا أن يكون من مغفرة ربه قريبا ، وأن يكون الله له ، فى جميع أحواله مجيبا ، ولهذا قال تعالى :

[فلا تزكوا أنفسكم] أى : تخبرون الناس بطهارتها ، على وجه التمدح عندهم .

[هو أعلم بمن اتقى] فإن التقوى ، محلها القلب ، والله هو المطلع عليه ، المجازى على ما فيه ، من بر ، وتقوى وأما الناس ، فلا يغنون عنكم من الله شيئا .

* يقول تعالى : [أفرأيت] قبح حالة من أمر بعبادة ربه وتوحيده ، فتولى عن ذلك ، وأعرض عنه ؟.

فإن سمحت نفسه ببعض الشىء القليل ، فإنه لا يستمر عليه ، بل يبخل

بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ

ويكدى[1] ويمنع .

فإن الإحسان ليس سجية له وطبعا ، بل طبعه التولىّ عن الطاعة وعدم الثبوب على فعل المعروف .

ومع هذا ، فهو يزكىّ نفسه ، وينزلها غير منزلتها ، التى أنزلها الله بها .

[أعنده علم الغيب فهو يرى] الغيب ، فيخبر به ، أم هو متقول على الله ، متجرىء عليه ، جامع بين المحذورين ، الإساءة ، والتزكية ، كما هو الواقع ، لأنه قد علم ، أنه ليس عنده علم من الغيب ، وأنه لو قدر أنه ادعى ذلك ، فالإخبارات القاطعة عن علم الغيب ، التى على يد النبىالمعصوم ، تدل على نقيض قوله ، وذلك دليل على بطلانه .

[أم لم ينبأ] هذا المدعى [بما فى صحف موسى . وإبراهيم الذى وفى].

أى : قام بجميع ما ابتلاه الله به ، وأمره به ، من الشرائع ، وأصول الدين وفروعه .

---

(١) قوله « ويكدى » فعل مضارع وماضيه « أكدى » أى : قطع عطيته وأمسك . وعلى هذا فيكون عطف « يمنع » على « يكدى » من باب عطف المرادف .

وأصله أكدى الحافر ، إذا بلغ الكدية . أى : الصلابة كالصخرة فلا يمكنه أن يحفر فيمسك عنه . اهـ . من أبى السعود والنسفى بتصرف يسير .

وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ وَأَنَّ

وفى تلك الصحف ، أحكام كثيرة ، من أهمها ما ذكره الله بقوله « أن لا تزر وازرة وزر أخرى * وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » .

أى : كل عامل ، له عمله الحسن والسيء .

فليس له من عمل غيره وسعيه ، شيء ، ولا يتحمل أحد عن أحد ذنبا .

[وأن سعيه سوف يرى] فى الآخرة فيميز حسنه من سيئه .

[ثم يجزاه الجزاء الأوفى] أى : المستكمل لجميع العمل .

الحسن الخالص ، بالحسنى ، والسيء الخالص ، بالسُّوأى ، والمشوب ، بحسبه .

جزاء تقر بعدله وإحسانه ، الخليقة كلها ، وتحمد الله عليه .

حتى إن أهل النار ، ليدخلون النار ، وإن قلوبهم ، مملوءة من حمد ربهم ، والإقرار له ، بكمال الحكمة ، ومقت أنفسهم ، وأنهم الذين أوصلوا أنفسهم ، وأوردوها شر الموارد .

وقد استدل بقوله [وأن ليس للإنسان إلا ما سعى] فوصول[1] سعى

---

(١) قوله « فوصول سعى غير ومناف لذلك » هكذا فى الأصل وهو تعبير غير قويم .

والصواب أن يقال : « وقد استدل البعض بالآية على عدم وصول سعى غيره ، إذا أهداه ذلك الغير إليه » .

يعنى بذلك إهداء قراءة القرآن والصدقات وغيرها إلى الأموات .

إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾

غيره إليه ، مناف لذلك ، وفى هذا الاستدلال نظر ، فإن الآية ، إنما تدل على أنه ليس للإنسان إلا ما سعى بنفسه ، وهذا حق ، لا خلاف فيه .

وليس فيها ما يدل على أنه لا ينتفع بسعى غيره ، إذا أهداه ذلك الغير إليه .

كما أنه ليس للإنسان من المال ، إلا ما هو فى ملكه وتحت يده ، ولا يلزم من ذلك ، أن لا يملك ما وهبه الغير له ، من ماله الذى يملكه .

وقوله [وأن إلى ربك المنتهى] أى : إليه تنتهى الأمور : وإليه تصير الأشياء والخلائق ، بالبعث والنشور .

وإلى الله المنتهى فى كل حال ، فإليه ينتهى العلم ، والحكم ، والرحمة ، وسائر الكمالات .

[وأنه هو أضحك وأبكى] أى : هو الذى أوجد أسباب الضحك والبكاء ، وهو الخير ، والشر ، والفرح ، والسرور ، والهم ، والحزن ، وهو سبحانه ، له الحكمة البالغة فى ذلك .

[وأنه هو أمات وأحيا] أى : هو المنفرد بالإيجاد والإعدام .

والذى أوجد الخلق ، وأمرهم ، ونهاهم ، سيعيدهم بعد موتهم ، ويجازيهم بتلك الأعمال ، التى عملوها فى دار الدنيا .

[وأنه خلق الزوجين] فسرهما بقوله [الذكر والأنثى] وهذا اسم جنس ، شامل لجميع الحيوانات ، ناطقها ، وبهيمها ، فهو المنفرد بخلقها .

مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ

[من نطفة إذا تمنى] وهذا من أعظم الأدلة على كمال قدرته ، وانفراده بالعزة العظيمة ، حيث أوجد تلك الحيوانات ، صغيرها ، وكبيرها ، من نطفة ضعيفة ، من ماء مهين ، ثم نماها ، وكملها ، حتى بلغت ما بلغت .

ثم صار الآدمى منها ، إما إلى أرفع المقامات ، فى أعلى عليين .

وإما إلى أدنى الحالات ، فى أسفل سافلين .

ولهذا استدل بالبداءة ، على الإعادة فقال : [وأن عليه النشأة الأخرى] فيعيد العباد من الأجداث ، ويجمعهم ليوم الميقات ، ويجازيهم على الحسنات والسيئات .

[وأنه هو أغنى وأقنى] أى : أغنى العباد ، بتيسير أمر معاشهم ، من التجارات ، وأنواع المكاسب ، من الحرف وغيرها .

وأقنى أى : أفاد عباده من الأموال ، بجميع أنواعها ، ما يصيرون به مقتنين لها ، ومالكين لكثير من الأعيان ، وهذا من نعمه تعالى ، أن أخبرهم أن جميع النعم منه .

وهذا يوجب على العباد ، أن يشكروه ويعبدوه وحده لا شريك له .

[وأنه هو رب الشعرى] وهو ، النجم المعروف بالشعرى العبور ، المسماة بالمرزم .

وخصها الله بالذكر ، وإن كان هو رب كل شىء ، لأن هذا النجم مما عبد فى الجاهلية .

عَادًا ٱلْأُولَىٰ ﴿٥٠﴾ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴿٥١﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُواْ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ﴿٥٢﴾ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ﴿٥٣﴾

فأخبر تعالى أن جنس ما يعبد المشركون ، مربوب مدبر مخلوق ، فكيف يتخذ مع الله آلهة .

[وأنه أهلك عادا الأولى] وهم : قوم هود عليه السلام ، حين كذبوا هودا ، فأهلكهم الله بريح صرصر عاتية .

[وثمود] قوم صالح عليه السلام ، أرسله الله إلى ثمود ، فكذبوه .

فبعث الله إليهم الناقة ، آية ، فعقروها ، وكذبوه ، فأهلكهم الله .

[فما أبقى] منهم أحداً ، بل أبادهم عن آخرهم .

[وقوم نوح من قبل إنهم كانوا هم أظلم وأطغى] من هؤلاء الأمم . فأهلكهم الله وأغرقهم .

[والمؤتفكة] وهم : قوم لوط عليه السلام [أهوى[1]] أى أصابهم الله بعذاب ، ما عذب به أحداً من العالمين ، قلب أسفل ديارهم أعلاها ، وأمطر عليهم حجارة من سجيل .

ولهذا قال : [فغشاها ما غشى] أى : غشيها من العذاب الأليم الوخيم ، ما غشى .

أى : شىء عظيم ، لا يمكن وصفه .

---

(١) أهوى . أى : أسقطها ـ بعد رفعها إلى السماء ـ مقلوبة إلى الأرض بأمره تعالى جبريل أن يرفع ديار قوم لوط على جناحه إلى السماء .

فَغَشَّـٰهَا مَا غَشَّىٰ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ

[فبأى آلاء ربك تتمارى] أى : فبأى نعم الله وفضله ، تشك أيها الإنسان ؟ فإن نعم الله ظاهرة ، لا تقبل الشك ، بوجه من الوجوه .

فما بالعباد من نعمة ، إلا منه تعالى ، ولا يدفع النقم ، إلا هو .

[هذا نذير من النذر الأولى] أى : هذا الرسول القرشى الهاشمى ، محمد بن عبد الله ، ليس ببدع من الرسل ، بل قد تقدمه من الرسل السابقين ، ودعوا إلى ما دعا إليه .

فلأى شىء تنكر رسالته ؟ وبأى حجة تبطل دعوته ؟

أليست أخلاقه أعلى أخلاق الرسل الكرام ؟

أليس يدعو إلى كل خير ، وينهى عن كل شر ؟

ألم يأت بالقرآن الكريم ، الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد ؟

ألم يهلك الله من كذب من قبله من الرسل الكرام ؟

فما الذى يمنع العذاب عن المكذبين لمحمد ، سيد المرسلين ، وإمام المتقين وقائد الغر المحجلين ؟

[أزفت الآزفة] أى قربت القيامة ، ودنا وقتها ، وبانت علاماتها .

[ليس لها من دون الله كاشفة] أى : إذا أتت القيامة ، وجاءهم العذاب الموعود به .

كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا لِلَّهِ

ثم توعد المنكرين لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، المكذبين لما جاء به من القرآن الكريم فقال :

[أفمن هذا الحديث تعجبون] ؟ أى : أفمن هذا الحديث ، الذى هو خير الكلام وأفضله ، وأشرفه ، تتعجبون ، وتجعلونه من الأمور المخالفة للعادة ، الخارقة للأمور والحقائق المعروفة ؟

هذا من جهلهم ، وضلالهم ، وعنادهم .

وإلا فهو الحديث ، الذى إذا حدث صدق ، وإذا قال قولا ، فهو القول الفصل ، ليس بالهزل ، وهو القرآن العظيم ، الذى لو أنزل على جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

الذى يزيد ذوى الإصلاح ، رأياً وعقلا ، وتسديداً ، وثباتاً ، وإيقانا ، وإيمانا .

بل الذى ينبغى العجب ، من عقل من تعجب منه ، وسفهه وضلاله .

[وتضحكون ولا تبكون] أى : تستعجلون الضحك والاستهزاء به ، مع أنه الذى ينبغى أن تتأثر منه النفوس ، وتلين له القلوب ، وتبكى له العيون ، سماعا لأمره ونهيه ، وإصغاء لوعده ووعيده ، والتفاتا لأخباره الصادقة الحسنة .

[وأنتم سامدون] أى : غافلون ، لاهون عنه وعن تدبره ، وهذا من قلة عقولكم وزيف أديانكم .

وَٱعْبُدُوا ﴿٦٢﴾

فلو عبدتم الله وطلبتم رضاه فى جميع الأحوال ، لما كنتم بهذه المثابة ، التى يأنف منها أولو الألباب ، ولهذا قال تعالى :

[فاسجدوا لله واعبدوا] الأمر بالسجود لله خصوصا ، يدل على فضله ، وأنه سر العبادة ولبها .

فإن روحها ، الخشوع لله ، والخضوع له .

والسجود ، أعظم حالة يخضع بها العبد ، فإنه يخضع قلبه وبدنه ، ويجعل أشرف أعضائه على الأرض المهينة ، موضع وطء الأقدام .

ثم أمر بالعبادة عموماً ، الشاملة لجميع ما يحبه الله ويرضاه ، من الأعمال ، والأقوال الظاهرة ، والباطنة .

تم تفسير سورة النجم — والحمد لله

تفسير

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا آيَةً

---

* يخبر تعالى ، أن الساعة وهى : القيامة ، اقتربت ، وآن أوانها ، وحان وقت مجيئها .

ومع هذا ، فهؤلاء المكذبون ، لم يزالوا مكذبين بها ، غير مستعدين لنزولها .

ويريهم الله ، من الآيات العظيمة ، الدالة على وقوعها ، ما يؤمن على مثله ، البشر .

فمن أعظم الآيات الدالة على صحة ما جاء به محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، أنه لما طلب منه المكذبون أن يريهم من خوارق العادات ، ما يدل على صحة ما جاء به وصدقه ، أشار صلى الله عليه وسلم ، إلى القمر ، فانشق بإذن الله ، فلقتين ، فلقة على جبل أبى قبيس ، وفلقة على جبل قعيقعان .

يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ

والمشركون وغيرهم ، يشاهدون هذه الآية العظيمة ، الكائنة فى العالم العلوى ، التى لا يقدر الخلق على التمويه بها ، والتخييل .

فشاهدوا أمراً ، ما رأوا مثله ، بل ولم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله ، نظيره .

فانبهروا لذلك ، ولم يدخل الإيمان فى قلوبهم ، ولم يرد الله بهم خيرا .

ففزعوا إلى بهتهم وطغيانهم وقالوا : سحرنا محمد .

ولكن علامة ذلك ، أنكم تسألون من ورد عليكم من السفر ، فإنه إن قدر على سحركم ، لم يقدر أن يسحر من ليس مشاهدا مثلكم .

فسألوا كل من قدم ، فأخبروهم بوقوع ذلك فقالوا : (سحر مستمر] .

سحرنا محمد ، وسحر غيرنا .

وهذا من البهت ، الذى لا يروج إلا على أسفه الخلق وأضلهم عن الهدى والعقل .

وهذا ليس إنكاراً منهم لهذه الآية وحدها ، بل كل آية تأتيهم ، فإنهم مستعدون لمقابلتها بالتكذيب والرد لها ، ولهذا قال :

[وإن يروا آية يعرضوا] فليس قصدهم اتباع الحق والهدى ، وإنما مقصودهم ، اتباع الهوى ولهذا قال :

[وكذبوا واتبعوا أهواءهم] كقوله تعالى « فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم » .

وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌ بَٰلِغَةٌ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾

فإنه لو كان قصدهم اتباع الهدى ، لآمنوا قطعا ، واتبعوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، لأن الله أراهم على يديه ، من البينات والبراهين ، والحجج القواطع ، ما دل على جميع المطالب الإلهية ، والمقاصد الشرعية .

[وكل أمر مستقر] أى : إلى الآن ، لم يبلغ الأمر غايته ومنتهاه ، وسيصير الأمر إلى آخره .

فالمصدق ، يتقلب فى جنات النعيم ، ومغفرة الله ورضوانه ، والمكذب يتقلب فى سخط الله وعذابه ، خالداً مخلداً أبداً .

وقال تعالى — مبيناً أنهم ليس لهم قصد صحيح ، واتباع للهدى :

[ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر] أى : زاجر يزجرهم عن غيهم وضلالهم .

وذلك [حكمة] منه تعالى [بالغة] أى : لتقوم حجته على العالمين ، ولا يبقى لأحد على الله حجة بعد الرسل .

[فما تغنى النذر] لقوله تعالى : « ولو جاءتهم كل آية لا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم » .

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾
خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾
مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾

---

* يقول تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم : قد بان أن المكذبين ، لا حيلة فى هداهم ، فلم يبق ، إلا الإعراض عنهم فقال : [فتول عنهم] وانتظر بهم يوما عظيما وَهَوْلًا جسيما .

وذلك [يوم يدع الداع] وهو إسرافيل عليه السلام [إلى شىء نكر] أى : إلى أمر فظيع ، تنكره الخليقة ، فلم تر منظراً أفظع ولا أوجع منه .

فينفخ إسرافيل ، نفخة ، يخرج بها الأموات من قبورهم لموقف القيامة .

[خشعا أبصارهم] أى : من الهول والفزع ، الذى وصل إلى قلوبهم فخضعت ، وذلت ، وخشعت لذلك أبصارهم .

[يخرجون من الأجداث] وهى : القبور [كأنهم] من كثرتهم ، وروجان[1] بعضهم ببعض [جراد منتشر] أى : مبثوث فى الأرض ، متكاثر جداً ،

[مهطعين إلى الداع] أى : مسرعين لإجابة نداء الداعى .

وهذا يدل ، على أن الداعى ، يدعوهم ، ويأمرهم بالحضور ، لموقف القيامة ، فيلبون دعوته ، ويسرعون إلى إجابته .

[يقول الكافرون] الذين قد حضر عذابهم : [هذا يوم عسر]

---

(١) قوله « وروجان » هكذا فى الأصل . والصواب أن يقال « وموجان » .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُواْ عَبْدَنَا وَقَالُواْ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ

---

* لما ذكر تبارك وتعالى حال المكذبين لرسوله ، وأن الآيات لا تنفع فيهم ، ولا تجدى عليهم شيئاً ، أنذرهم ، وخوفهم بعقوبات الأمم الماضية المكذبة للرسل ، وكيف أهلكهم الله ، وأحل بهم عقابه .

فذكر قوم نوح ، أول رسول بعثه الله إلى قوم يعبدون الأصنام .

فدعاهم إلى توحيد الله ، وعبادته وحده لا شريك له ، فامتنعوا من من ترك الشرك وقالوا :

« لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودا ولا سواعا * ولا يغوث ويعوق ونسرا »

ولم يزل نوح يدعوهم إلى الله ، ليلا ونهارا ، سرا وجهارا ، فلم يزدهم ذلك ، إلا عنادا وطغيانا ، وقدحا فى نبيهم .

ولهذا قال هنا : [فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون] لزعمهم أن ما هم عليه وآباؤهم ، من الشرك والضلال ، هو الذي يدل عليه العقل ، وأن ما جاء به نوح عليه السلام ، جهل وضلال ، لا يصدر إلا من المجانين .

وكذبوا فى ذلك ، وقلبوا الحقائق الثابتة ، شرعا وعقلا .

فإن ما جاء به ، هو الحق الثابت ، الذى يرشد العقول النيرة المستقيمة ، إلى الهدى والنور ، والرشد ، وما هم عليه جهل وضلال مبين .

وقوله : [وازدجر] أى : زجره قومه ، وعنفوه لما دعاهم إلى الله تعالى .

أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَـٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾

فلم يكفهم - قبحهم الله - عدم الإيمان به ، ولاتكذيبهم إياه حتى أوصلوا إليه من أذيتهم ، ما قدروا عليه .

وهكذا جميع أعداء الرسل ، هذه حالهم مع أنبيائهم .

فعند ذلك دعا نوح ربه فقال : [إنى مغلوب] لا قدرة لى على الانتصار منهم ، لأنه لم يؤمن من قومه ، إلا القليل النادر ، ولا قدرة لهم على مقاومة قومهم .

[فانتصر] اللهم لى منهم ، وقال فى الآية الأخرى : « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا » الآيات .

فأجاب الله سؤاله ، فانتصر له من قومه قال تعالى :

[ففتحنا أبواب السماء بماء منهمر] أى : كثير جداً متتابع .

[وفجرنا الأرض عيونا] فجعلت السماء ، ينزل منها من الماء شىء خارق للعادة ، وتفجرت الأرض كلها ، حتى التنور الذى لم تجر العادة ، بوجود الماء فيه ، فضلا عن كونه منبعا للماء ، لأنه موضع النار .

[فالتقى الماء] أى : ماء السماء والأرض [على أمر] من الله له بذلك .

[قد قدر] أى : قد كتبه الله فى الأزل ، وقضاه ، عقوبة لهؤلاء الظالمين الطاغين .

تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَٰهَآ ءَايَةً

[وحملناه على ذات ألواح ودسر] أى : ونجينا عبدنا نوحا ، على السفينة ، ذات الألواح والدسر ، أى : المسامير التى قد سمرت بها ألواحها وشد بها أسرها .

[تجرى بأعيننا] أى : تجرى بنوح ومن آمن معه ، ومن حمله ، من أصناف المخلوقات .

برعاية من الله ، وحفظ منه لها عن الغرق ، ونظر وكلاءة منه تعالى ، وهو نعم الحافظ والوكيل .

[جزاء لمن كان كفر] أى : فعلنا بنوح مافعلنا من النجاة من الغرق العام ، جزاء له ، حيث كذبه قومه ، وكفروا ، فصبر على دعوتهم ، واستمر على أمر الله .

فلم يرده عنه راد ، ولا صده عن ذلك صاد ، كما قال تعالى فى الآية الآخرى : « قيل يا نوح اهبط بسلام منا وبركات عليك وعلى أمم ممن معك » الآية .

ويحتمل أن المراد : إنا أهلكنا قوم نوح ، وفعلنا بهم ما فعلنا ، من العذاب والخزى ، جزاء لهم على كفرهم وعنادهم .

وهذا متوجه على قراءة من قرأها ، بفتح الكاف .

[ولقد تركناها آية فهل من مدكر] أى : ولقد تركنا قصة نوح مع قومه ، آية يتذكر بها المتذكرون ، على أن من عصى الرسل وعاندهم ، أهلكه الله بعقاب عام شديد .

فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾

أو أن الضمير ، يعود إلى السفينة وجنسها ، وأن أصل صنعتها تعليم من الله لرسوله نوح عليه السلام ، ثم أبقى الله صنعتها ، وجنسها بين الناس ليدل ذلك ، على رحمته بخلقه ، وعنايته ، وكمال قدرته ، وبديع صنعته .

[فهل من مدكر] ؟ أى : فهل من متذكر للآيات ، مُلْقٍ ذهنه وفكرته ، لما يأتيه منها ، فإنها فى غاية البيان واليسر؟ .

[فكيف كان عذابى ونذر] أى : فكيف رأيت ، أيها المخاطب عذاب الله الأليم وإنذاره الذى لا يُبْقِى لأحد عليه ، حجة .

[ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] أى : ولقد يسرنا وسهلنا هذا القرآن الكريم ، ألفاظه للحفظ والأداء ، ومعانيه للفهم والعلم ، لأنه أحسن الكلام لفظا ، وأصدقه معنى ، وأبينه تفسيرا .

فكل من أقبل عليه ، يسر الله عليه مطلوبه غاية التيسير ، وسهله عليه.

والذكر ، شامل لكل ما يتذكر به العاملون ، من الحلال ، والحرام وأحكام الأمر والنهى ، وأحكام الجزاء والمواعظ ، والعبر ، والعقائد النافعة ، والأخبار الصادقة .

ولهذا كان علم القرآن ، حفظا وتفسيراً ، أسهل العلوم ، وأجلها على الإطلاق .

وهو العلم النافع ، الذى إذا طلبه العبد ، أُعِينَ عليه .

وقال بعض السلف عند هذه الآية : هل من طالب علم فَيُعَانَ عليه ؟ .

ولهذا يدعو الله عباده إلى الإقبال عليه والتذكر بقوله « فهل من مدكر» .

۞ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾
إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾
تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ

---

* «وعاد» هي: القبيله المعروفة باليمن، أرسل الله إليهم هوداً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته، فكذبوه، فأرسل الله عليهم [ريحا صرصرا] أي: شديدة جدا.

[في يوم نحس] أي: شديد العذاب والشقاء عليهم.

[مستمر] عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما.

[تنزع الناس[1]] من شدتها، فترفعهم إلى جو السماء ثم تدفعهم بالأرض[2] فتهلكهم، فيصبحون [كأنهم أعجاز نخل منقعر] أي: كأن جثثهم بعد هلاكهم، مثل جذوع النخل الخاوى الذى اقتلعته الريح فسقط على الأرض.

فما أهون الخلق على الله، إذا عصوا أمره!.

---

(١) تنزع الناس. أى: تقلعهم من حفر الأرض المندسين فيها وتصرعهم على رءوسهم فتدق رقابهم فتفصل الرأس من الجسد. اهـ. جلالين. وذكر النسفى فى تفسيره أنهم كانوا يصطفون، آخذا بعضهم أيدى بعض، ويتداخلون فى الشعاب ويحفرون الحفر فيدسون فيها فتقتلعهم الريح وتكبهم وتدق رقابهم.

(٢) قوله «ثم تدفعهم بالأرض» تعبير غير قويم. والصواب أن يقال «ثم ترمى بهم - منكبين على وجوههم - على الأرض صرعى».

عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِي ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِيَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا

[فكيف كان عذابى ونذر] كان ، والله ، العذاب الأليم ، والنذارة التى ما أبقت لأحد عليه حجة .

[ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] كرر تعالى ذلك ، رحمة بعباده ، وعناية بهم ، حيث دعاهم إلى ما يصلح دنياهم وأخراهم .

* [كذبت ثمود] وهم القبيلة المعروفة المشهورة فى أرض الحجر ، نبيهم صالحا صلى الله عليه وسلم ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وأنذرهم العقاب ، إن هم خالفوه .

فكذبوه واستكبروا عليه ، وقالوا ـ كبراً وتيهاً ـ : [أبشرا منا واحدا نتبعه] أى : كيف نتبع بشرا ، لا مَلَكاً ، منا ، لا من غيرنا ، ممن هو أكبر عند الناس منا .

ومع ذلك فهو شخص واحد [إنا إذا] أى : إن اتبعناه وهو فى هذه الحالة .

[لفى ضلال وسعر [1]] أى : لضالون أشقياء .

---

(١) سعر . أى : جنون . كما فى الجلالين وأبى السعود .

وذكر النسفى أن معنى « سعر » نيران . جمع « سعير » فعكسوا عليه =

بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾

وهذا الكلام من ضلالهم وشقائهم ، فإنهم أنفوا أن يتبعوا رسولا من البشر ، ولم يأنفوا أن يكونوا عابدين للشجر ، والحجر ، والصور .

[أألقى الذكر عليه من بيننا] أى : كيف يخصه الله من بيننا وينزل عليه الذكر ؟ ، فأى مزية خصه من بيننا ؟ .

وهذا اعتراض من المكذبين على الله ، لم يزالوا يدلون به ، ويصولون ويردون به دعوة الرسل .

وقد أجاب الله عن هذه الشبهة بقول الرسل لأممهم : « قالت رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » .

فالرسل مَنَّ الله عليهم بصفات وأخلاق وكمالات ، بها صلحوا الرسالات ربهم ، والاختصاص بوحيه .

ومن رحمته وحكمته ، أن كانوا من البشر .

فلو كانوا من الملائكة ، لم يمكن البشر أن يتلقوا عنهم .

ولو جعلهم من الملائكة ، لعَاجَل المكذبين لهم بالعقاب العاجل .

والمقصود من هذا الكلام الصادر من ثمود لنبيهم صالح ، تكذيبه ، ولهذا حكموا عليه بهذا الحكم الجائر فقالوا :

[بل هو كذاب أشر] أى : كثير الكذب والشر .

= فقالوا : إن اتبعناك كنا إذاً كما تقول [يعنى أنهم إذا تركوا دينهم يكونون من أصحاب النار] .

وقيل : أى : إن معنى « السعر » الضلال والخطأ والبعد عن الصواب.

و « السعر » الجنون . اهـ .

إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْاْ صَاحِبَهُمْ

فقبحهم الله ، ما أسفه أحلامهم ، وأظلمهم ، وأشدهم مقابلة للصادقين الناصحين ، بالخطاب الشنيع .

لا جرم ، عاقبهم الله حين أشتد طغيانهم .

فأرسل الله الناقة التى هى من أكبر النعم عليهم ، آية من آيات الله ، ونعمة ، يحلبون من درِّها ، ما يكفيهم أجمعين .

[فتنة لهم] أى : اختباراً منه لهم وامتحانا .

[فارتقبهم واصطبر] أى : اصبر على دعوتك إياهم ، وارتقب ما يحل بهم .

أو ارتقب ، هل يؤمنون أو يكفرون ؟

[ونبئهم أن المـاء قسمة بينهم] أى : وأخبرهم أن المـاء .

أى : موردهم الذى يستعذبونه ، قسمة بينهم وبين الناقة ، لها شرب يوم ، ولهم شرب يوم آخر معلوم .

[كل شرب محتضر] أى : يحضره من كان قسمته ، ويحظر على من ليس بقسمة له .

[فنادوا صاحبهم] الذى باشر عقرها ، الذى هو أشقى القبيلة

فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾

[فتعاطى] أى : انقاد لما أمروه به من عقرها [فعقر][1]

[فكيف كان عذابى ونذر] كان أشد عذاب ، أرسل الله عليهم صيحة ورجفة ، أهلكتهم عن آخرهم ، ونجى الله صالحا ومن آمن معه

[إنا أرسلنا عليهم] فى اليوم الرابع من عقرها [صيحة واحدة] صاح بها جبريل عليه السلام .

[فكانوا] أى : فصاروا [كهشيم المحتظر] .

والهشيم : الشجر اليابس المتهشم المتكسر ، أو كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لماشيته فى الشتاء . أى : كهشيم الحظيرة أو الشجر المتخذ لها .

والمعنى الإجمالى « إنا سلطنا عليهم صيحة واحدة ، فصاروا بها كشجر يابس يجمعه من يريد اتخاذ حظيرة لبهائمه » [ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر] .

---

(١) فعقر . أى : قتلها . وقال فى آية أخرى

[فكذبوه فعقروها] لرضاهم بفعل الفاعل الواحد ، أو لأنه عقرت بمعرفتهم وموافقتهم على ذلك .

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾

---

* أى : [كذبت قوم لوط] لوطا عليه السلام ، حين دعاهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، ونهاهم عن الشرك والفاحشة ، التى ما سبقهم بها أحد من العالمين .

فكذبوه ، واستمروا على شركهم وقبائحهم ، حتى إن الملائكة الذين جاءوه بصورة أضياف ، حين سمع بهم قومه ، جاءوا مسرعين ، يريدون إيقاع الفاحشة فيهم ، لعنهم الله وقبحهم ، وراودوه عنهم .

فأمر الله جبريل عليه السلام ، فطمس أعينهم ، وأنذرهم نبيهم بطشة الله وعقوبته .

[فتماروا [٢] بالنذر]

[ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر] قلب الله عليهم ديارهم ، وجعل أسفلها أعلاها ، وتتبعهم بحجارة من سجيل منضود ، مسومة عند ربك للمسرفين

ونجى الله لوطا وأهله ، من الكرب العظيم ، جزاء لهم على شكرهم لربهم ، وعبادته وحده لا شريك له .

---

(٢) فتماورا أى : تجادلوا وكذبوا

۞ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَـٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَـٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ

قال تعالى : « على الكافرين غير يسير » .

مفهوم ذلك ، أنه يسير سهل على المؤمنين .

* أى : [ولقد جاء آل فرعون] أى : فرعون وقومه [النذر] فأرسل الله إليهم موسى الكليم ، وأيده بالآيات البينات ، والمعجزات الباهرات ، وأشهدهم من العبر ، ما لم يشهد غيرهم .

فكذبوا بآيات الله كلها ، فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، فأغرقه وجنوده فى اليم .

والمراد من ذكر هذه القصص: تحذير الناس والمكذبين لمحمد صلى الله عليه وسلم ، ولهذا قال :

[أكفاركم خير من أولئكم] أى: هؤلاء الذين كذبوا أفضل الرسل، خير من أولئك المكذبين ، الذين ذكر الله هلاكهم ، وما جرى عليهم ؟.

فإن كانوا خيراً منهم ، أمكن أن ينجوا من العذاب ، ولم يصبهم ما أصاب أولئك الأشرار

وليس الأمر كذلك ، فإنهم ، إن لم يكونوا شراً منهم ، فليسوا بخير منهم

[أم لكم براءة فى الزبر] أى : أم أعطاكم الله عهداً وميثاقا ، فى الكتب التى أنزلها على الأنبياء، فتعتقدون حينئذ ، أنكم الناجون بأخبار الله ووعده ؟

مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ

وهذا غير واقع ، بل غير ممكن ، عقلا وشرعا ، أن تكتب براءتهم فى الكتب الإلهية ، المتضمنة للعدل والحكمة .

فليس من الحكمة ، نجاة أمثال هؤلاء المعاندين المكذبين ، لأفضل الرسل وأكرمهم على الله ، فلم يبق إلا أن يكون بهم قوة ينتصرون بها فأخبر تعالى ، أنهم يقولون : [نحن جميع منتصر[1]]

قال تعالى مبينا لضعفهم ، وأنهم مهزومون : [سيهزم الجمع ويولون الدبر] فوقع كما أخبر ، هزم الله جمعهم الأكبر يوم « بدر » وقتل صناديدهم وكبراؤهم ، فأذلوا ، ونصر الله دينه ونبيه ، وحزبه المؤمنين .

ومع ذلك ، فلهم موعد يجمع به أولهم وآخرهم ، ومن أصيب فى الدنيا منهم ، ومن متع بلذاته ، ولهذا قال : [بل الساعة موعدهم] الذى يجازون به ويؤخذ منهم الحق بالقسط .

[والساعة أدهى وأمر] أى : أعظم وأشق ، وأكبر من كل ما يتوهم ، أو يدور فى الخيال

---

(١) [نحن جميع منتصر] أى : نحن أولو حزم ورأى ، أمرنا مجتمع لا يغلبنا أحد ولا نضام وسننتصر على الأعداء ولا سيما محمد وأصحابه وكلمة [منتصر] مفرد ، أفرده مراعاة للفظ الجميع ، كما فى أبى السعود :

يعني أن كلمة « الجميع » مفرد بمعنى « الجماعة » التى تجمع على جماعات .
فهذا الذى سوغ أن يخبر عنه بالمفرد وهو « منتصر » باعتبار لفظ «الجميع»

وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ

[إن المجرمين] أى : الذين أكثروا من فعل الجرائم ، وهى الذنوب العظيمة ، من الشرك وغيره ، من المعاصى [فى ضلال وسعر] أى : هم ضالون فى الدنيا ، ضلال عن العلم ، وضلال عن العمل ، الذى ينجيهم من العذاب ، ويوم القيامة فى العذاب الأليم ، والنار التى يستعر بهم ، وتشتعل فى أجسامهم ، حتى تبلغ أفئدتهم .

[يوم يسحبون فى النار على وجوههم] التى هى أشرف ما بهم من الأعضاء ، وألمها أشد من غيرها ، فيهانون بذلك ، ويخزون ويقال لهم :

[ذوقوا مس سقر] أى : ذوقوا ألم النار وأسفها ، وغيظها ولهبها .

[إنا كل شىء خلقناه بقدر] وهذا شامل للمخلوقات ، والعوالم العلوية والسفلية ، إن الله تعالى وحده ، خلقها لا خالق لها سواه ، ولا مشاركة فى خلقه .

وخلقها بقضاء ، سبق به علمه ، وجرى به قلمه ، بوقتها ومقدارها ، وجميع ما اشتملت عليه من الأوصاف ، وذلك على الله يسير ، فلهذا قال :

[وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر] فإذا أراد شيئا قال له ، كن فيكون ، كما أراد ، كلمح البصر ، من غير ممانعة ولا صعوبة .

[ولقد أهلكنا أشياعكم] من الأمم السابقين الذين عملوا كما عملتم

مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ

وكذبوا كما كذبتم [فهل من مدكر] أى : متذكر ، يعلم أن سنة الله الأولين والآخرين واحدة .

وأن حكمته كما اقتضت إهلاك أولئك الأشرار فإن هؤلاء مثلهم ، ولا فرق بين الفريقين .

[وكل شىء فعلوه فى الزبر] أى : كل ما فعلوه ، من خير وشر مكتوب عليهم فى الكتب القدرية [وكل صغير وكبير مستطر] أى : مسطر مكتوب .

وهذه حقيقة القضاء والقدر ، وأن جميع الأشياء كلها ، قد علمها الله تعالى وسطرها عنده فى اللوح المحفوظ ، فما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

فما أصاب الإنسان ، لم يكن ليخطئه ، وما أخطأه لم يكن ليصيبه .

[إن المتقين] لله ، بفعل أوامره ، وترك نواهيه ، الذين اتقوا الشرك والكبائر والصغائر .

[فى جنات ونهر] أي : فى جنات النعيم ، التى فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من الأشجار اليانعة ، والأنهار الجارية ، والقصور الرفيعة ، والمنازل الأنيقة ، والمآكل والمشارب اللذيذة والحور الحسان ، والروضات البهية فى الجنان ورضا الملك الديان ، والفوز بقربه ، ولهذا قال :

[فى مقعدصدق عند مليك مقتدر] فلا تسأل بعد هذا ، عما يعطيهم

صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٥٥﴾

ربهم من كرامته وجوده ، ويمدهم به من إحسانه ومنته .

جعلنا الله منهم ، ولا حرمنا خير ما عنده ، بشر ما عندنا .

تم تفسير سورة القمر ـ والحمد لله

تفسير

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ ﴿٣﴾

هذه السورة الكريمة الجليلة ، افتتحها باسمه « الرحمن » الدال على سعة رحمته ، وعموم إحسانه ، وجزيل بره وواسع فضله .

ثم ذكر ، ما يدل على رحمته وأثرها ، الذى أوصله الله إلى عباده ، من النعم الدينية والدنيوية والأخروية .

وبعد كل جنس ونوع ، من نعمه ، ينبه الثقلين ، لشكره ويقول : [فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

فذكر أنه [علم القرآن] أى : علم عباده ، ألفاظه ومعانيه ، ويسرها على عباده .

وهذا أعظم منة ورحمة ، رحم بها العباد ، حيث أنزل عليهم قرآنا عربيا ، بأحسن الألفاظ ، وأوضح المعانى ، مشتمل على كل خير زاجر عن كل شر .

[خلق الإنسان] فى أحسن تقويم كامل الأعضاء ، مستوفى الأجزاء ،

عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا

محكم البناء ، قد أتقن البارىء تعالى البديع خلقه أى إتقان ، وميزه على سائر الحيوانات .

بأن [علمه البيان] أى : التبين عما فى ضميره . وهذا شامل للتعليم النطقى ،والتعليم الخطى .

فالبيان الذى ميز الله به الآدمى على غيره ، من أجل نعمه ، وأكبرها عليه .

[الشمس والقمر بحسبان] أى : خلق الله الشمس والقمر ، وسخرهما يجريان ، بحساب مقنن ، وتقدير مقدر ، رحمة بالعباد ، وعناية بهم ، وليقوم بذلك من مصالحهم ، ما يقوم ، وليعرفوا عدد السنين والحساب .

[والنجم والشجر يسجدان] أى : نجوم السماء ، وأشجار الأرض ، تعرف ربها ، وتسجد له ، وتطيع ، وتخضع ، وتنقاد لما سخرها له ، من مصالح عباده ومنافعهم .

[والسماء رفعها] سقفها للمخلوقات الأرضية .

[ووضع الميزان] أى : العدل بين العباد ، فى الأقوال والأفعال .

وليس المراد به ، الميزان المعروف وحده ، بل هو كما ذكرنا ، يدخل فيه الميزان المعروف ، والمكيال الذى تكال به الأشياء ، والمقادير ، والمساحات التي تضبط بها المجهولات ، والحقائق التى يفصل بها بين المخلوقات ويقام بها العدل بينهم ، ولهذا قال :

فِي ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُواْ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَـٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ

[ألا تطغوا فى الميزان] أى : أنزل الله الميزان ، لئلا تتجاوزوا الحد فى الحقوق والأمور .

فإن الأمر لو كان يرجع إلى عقولكم وآرائكم ، لحصل من الخلل ، ما الله به عليم .

ولفسدت السموات والأرض ومن فيهن .

[وأقيموا الوزن بالقسط] أى : اجعلوه قائما بالعدل ، الذى تصل إليه مقدرتكم وإمكانكم .

[ولا تخسروا الميزان] أى : لا تنقصوه ، وتعملوا بضده ، وهو الجور ، والظلم ، والطغيان .

[والأرض وضعها] الله على ما كانت عليه ، من الكثافة والاستقرار واختلاف أوصافها وأحوالها [للأنام] أى للخلق ، لكى يستقروا عليها ، وتكون لهم مهادا ، وفراشا يبنون بها ، ويحرثون ويغرسون ، ويحفرون ويسلكون سبلها فجاجا ، وينتفعون بمعادنها ، وجميع ما فيها ، مما تدعو إليه حاجتهم بل ضرورتهم .

ثم ذكر ما من الأقوات الضرورية فقال : [فيها فاكهة] وهى جميع الأشجار ، التى تثمر الثمرات التى يتفكه بها العباد ، من العنب ، والتين ، والرمان ، والتفاح وغير ذلك .

[والنخل ذات الأكمام] أى : أى ذات الوعاء ، الذى ينفلق عن

ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾

القنوان، التى تخرج شيئا فشيئا حتى تتم، فتكون قوتا يدخر ويؤكل، ويتزود منه المقيم والمسافر، وفاكهة لذيذة من أحسن الفواكه.

[والحب ذو العصف] أى : ذو الساق الذي يداس، فينتفع بتبنه للأنعام وغيرها.

ويدخل فى ذلك، حب البر، والشعير، والذرة، والأرز، والدخن وغير ذلك.

[والريحان] يحتمل أن المراد به، جميع الأرزاق التى يأكلها الآدميون.

فيكون هذا، من باب عطف العام على الخاص، ويكون الله، قد امتن على عباده بالقوت والرزق، عموما وخصوصا.

ويحتمل أن المراد بالريحان، المعروف، وأن الله امتن على عباده، بما يسره فى الأرض من أنواع الروائح الطيبة، والمشام الفاخرة، التى تسر الأرواح، وتنشرح لها النفوس.

ولما ذكر جملة كثيرة من نعمه، التى تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين، الجن والإنس، قررهم تعالى بنعمه فقال : [فبأي آلاء ربكما تكذبان].

أى : فبأى نعم الله الدينية والدنيوية، تكذبان ؟.

وما أحسن جواب الجن حين تلا عليهم النبى صلى الله عليه وسلم هذه

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾ ﴾

السورة ، فكلما مر بقوله [فبأى آلاء ربكما تكذبان] قالوا : ولا بشىء من آلائك ربنا نكذب ، فلك الحمد .

فهكذا ينبغى للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه ، أن يقربها ويشكر ويحمد الله عليها .

ثم قال تعالى : [خلق الإنسان]إلى [تكذبان] .

* وهذا من نعمه تعالى على عباده ، حيث أراهم من آثار قدرته وبديع صنعته .

أن [خلق] أبا [الإنسان] وهو آدم عليه السلام [من صلصال كالفخار] أى : من طين مبلول ، قد أحكم بله ، وأتقن ، حتى جف ، فصار له صلصلة وصوت ، يشبه صوت الفخار ، وهو الطين المشوى .

[وخلق الجان] أى : أبا الجن ، وهو : إبليس لعنه الله .

[من مارج من نار] أى : من لهب النار الصافى ، أو الذى قد خالطه الدخان .

وهذا يدل على شرف عنصر الآدمى المخلوق من الطين والتراب ، الذى هو محل الرزانة والثقل والمنافع .

بخلاف عنصر الجان ، وهو النار ، التى هى محل الخفة والطيش ، والشر والفساد .

﴿ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ ﴾

﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ ﴾

ولما بين خلق الثقلين ، ومادة ذلك ، وكان منة منه تعالى عليهم قال : [فبأى آلاء ربكما تكذبان]

* أى : هو تعالى رب كل ما أشرقت عليه الشمس والقمر، والكواكب النيرة ، وكل ما غربت عليه ، وكل ما كانا فيه فالجميع تحت تدبيره وربوبته .

وثناهما هنا ، باعتبار مشارقها ، شتاء وصيفا . والله اعلم .

* المراد بالبحرين : البحر العذب ، والبحر المالح ، فهما يلتقيان .

فيصب العذب فى البحر المالح ، ويختلطان ويمتزجان .

ولكن الله تعالى ، جعل بينهما برزخا من الأرض ، حتى لا يبغى أحدهما على الآخر ، ويحصل النفع بكل منهما .

فالعذب ، منه يشربون ، وتشرب أشجارهم وزروعهم وحروثهم .

والملح ، به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك ، واللؤلؤ والمرجان ، ويكون مستقرا مسخرا للسفن والمراكب ، ولهذا قال :

[وله الجوار] إلى [تكذبان] .

﴿ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ ﴾

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ ﴾

---

* أى : وسخر تعالى لعباده ، السفن الجوارى ، التى تمخر البحر ، وتشقه بإذن الله ، التى ينشئها الآدميون .

فتكون من عظمها وكبرها ، كالأعلام وهى : الجبال العظيمة .

فيركبها الناس ويحملون عليها أمتعتهم ، وأنواع تجاراتهم وغير ذلك ، مما تدعوا إليه حاجتهم وضرورتهم ، وقد حفظها حافظ السموات والأرض .

وهذه من نعم الله الجليلة ، ولهذا قال [فبأي آلاء ربكما تكذبان] .

* أى : كل من على الأرض ، من إنس ، وجن ، ودواب ، وسائر المخلوقات ، يفنى ويبيد .

ويبقى الحى الذى لا يموت [ذو الجلال والإكرام] أى : ذو العظمة والكبرياء ، والمجد الذى يعظم ويبجل ، ويجل لأجله .

والإكرام ، الذى هو سعة الفضل ، والجود ، الذى يكرم أولياءه ، وخواص خلقه بأنواع الإكرام ، الذى يكرمه أولياؤه ويجلونه ، ويعظمونه ويحبونه ، وينيبون إليه ويعبدونه .

[فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

﴿ يَسْئَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كل يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾ ﴾

---

* أى : هو الغنى بذاته ، عن جميع مخلوقاته ، وهو واسع الجود والكرم .

فكل الخلق مفتقرون إليه ، يسألونه جميع حوائجهم ، بحالهم ومقالهم ، ولا يستغنون عنه طرفة عين ، ولا أقل من ذلك .

وهو تعالى [كل يوم هو فى شأن] يغنى فقيرا ، ويجبر كسيرا ، ويعطى قوما ، ويمنع آخرين ، ويميت ويحيي ، ويخفض ويرفع ، لا يشغله شأن عن شأن ، ولا تغلطه المسائل ، ولا يبرمه إلحاح الملحين ، ولا طول مسألة السائلين .

فسبحان الكريم الوهاب ، الذى عمت مواهبه أهل الأرض والسموات .

وعم لطفه ، جميع الخلق ، فى كل الآنات واللحظات .

وتعالى ، الذي لا يمنعه من الإعطاء ، معصية العاصين ، ولا استغناء الفقراء ، الجاهلين به ، وبكرمه .

وهذه الشئون التى أخبر أنه كل يوم هو فى شأن ، هى تقاديره وتدابيره التى قدرها فى الأزل وقضاها ، لا يزال تعالى ، يمضيها وينفذها فى أوقاتها ، التى اقتضتها حكمته .

وهى أحكامه الدينية ، التى هى الأمر والنهى .

والقدرية ، التى يجريها على عباده مدة مقامهم فى هذه الدار .

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾

يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾

حتى إذا تمت هذه الخليقة وأفناهم الله تعالى، وأراد أن ينفذ فيهم أحكام الجزاء، ويريهم من عدله وفضله، وكثرة إحسانه، ما به يعرفونه، ويوحدونه، نقل المكلفين من دار الابتلاء والامتحان، إلى دار الحيوان.

وفرغ حينئذ، لتنفيذ هذه الأحكام، التى جاء وقتها، وهو المراد بقوله: [سنفرغ] إلى [تكذبان].

* أى : سنفرغ لحسابكم ومجازاتكم بأعمالكم، التى عملتموها فى دار الدنيا.

* أى : إذا جمعهم الله فى موقف القيامة، أخبرهم بعجزهم وضعفهم، وكمال سلطانه، ونفوذ مشيئته وقدرته، فقال معجزا لهم :

[يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض] أى : تجدون مسلكا ومنفذا، تخرجون به عن ملك الله وسلطانه.

[فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان] أى : لا تخرجون منه إلا بقوة، وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنَّى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا، ولا موتا ولا حياة، ولا نشورا ؟!.

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾ ﴾

فنى ذلك الموقف ، لا يتكلم أحد إلا بإذنه ، ولا تسمع إلا همسا .

وفى ذلك الموقف ، يستوى الملوك والمماليك ، والرؤساء والمرءوسون ، والأغنياء والفقراء .

ثم ذكر ما أعد لهم فى ذلك اليوم فقال : [يرسل عليكما] إلى [تكذبان] .

* أى : يرسل عليكما لهب صاف ، من النار ، ونحاس وهو : اللهب ، الذى قد خالطه الدخان .

والمعنى : أن هذين الأمرين الفظيعين ، يرسلان عليكما ، ويحيطان بكما .

فلا تنتصران ، لا بناصر من أنفسكم ، ولا بأحد ينصركم من دون الله .

ولما كان تخويفه لعباده ، نعمة منه عليهم ، وسوطا يسوقهم به إلى أعلى المطالب ، وأشرف المواهب ، ذكر منته بذلك فقال : [فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾

---

* [فإذا انشقت السماء] أى : يوم القيامة من الأهوال ، وكثرة البلبال وترادف الأوجال ، فانخسفت شمسها وقمرها ، وانتثرت نجومها .

[فكانت] من شدة الخوف والانزعاج [وردة كالدهان] أى: كانت كالمهل والرصاص ، المذاب ونحوه [فبأى آلاء ربكما تكذبان * فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان] أى : سؤال استعلام بما وقع ، لأنه تعالى عالم الغيب والشهادة ، والماضى ، والمستقبل ، ويريد أن يجازى العباد ، بما علمه من أحوالهم .

وقد جعل لأهل الخير والشر يوم القيامة ، علامات يعرفون بها ، كما قال تعالى : « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

وقال هنا [يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصى والأقدام * فبأى آلاء ربكما تكذبان] أى : فيخذ بنواصى المجرمين وأقدامهم ، فليقون فى النار ، ويسحبون إليها .

وإنما يسألهم تعالى سؤال توبيخ ، وتقرير بما وقع منهم ، وهو أعلم به منهم .

ولكنه تعالى ، يريد أن تظهر للخلق حجته البالغة وحكمته الجليلة .

هَٰذِهِ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾

وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا

---

* أى : يقال للمكذبين بالوعد والوعيد ، حين تسعر الجحيم :[هذه جهنم التى يكذب بها المجرمون] فليهنهم تكذيبهم بها ، وليذوقوا من عذابها ، ونكالها وسعيرها ، وأغلالها ، ما هو جزاء لهم على تكذيبهم .

[يطوفون بينها] أى : بين أطباق الجحيم ولهبها [وبين حميم آن] أى : ماء حار جدا ، قد انتهى حره ، وزمهرير، قد اشتد برده ، وقره [فبأى آلاء ربكما تكذبان] .

ولما ذكر ما يفعل بالمجرمين ، ذكر جزاء المتقين الخائفين فقال :

[ولمن خاف] إلى [والإكرام] .

* أى : والذى خاف ربه ، وقيامه عليه ، فترك ما نهى عنه،وفعل ما أمر به ، له جنتان ، من ذهب آنيتهما ، وحليتهما ، وبنيانهما ، وما فيهما .

إحدى الجنتين ، جزاء على ترك المنهيات ، والأخرى على فعل الطاعات.

ومن أوصاف تلك الجنتين ، أنهما [ذواتا أفنان] أى : فيهما من ألوان النعيم المتنوعة ، نعيم الظاهر والباطن ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ

أن فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ، ذوات الغصون الناعمة ، التى فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة .

وفى تلك الجنتين [عينان تجريان] يفجرونهما على ما يريدون ويشتهون .

[فيهما من كل فاكهة] من جميع أصناف الفواكه [زوجان] .

أى : صنفان ، كل صنف له لذة ولون ، ليس للنوع الآخر .

[متكئين على فرش بطائنها من إستبرق] هذه صفة فرش أهل الجنة وجلوسهم عليها ، وأنهم متكئون عليها ، أى : جلوس تمكن واستقرار وراحة ، كجلوس من الملوك على الأسرة .

وتلك الفرش ، لا يعلم وصفها وحسنها إلا الله تعالى ، حتى إن بطائنها التى تلى الأرض منها ، من إستبرق وهو أحسن الحرير وأفخره .

فكيف بظواهرها التى يباشرون ؟ ! .

[وجنى الجنتين دان] الجنى هو الثمر المستوى ، أى: وثمر هاتين الجنتين قريب التناول ، يناله القائم والقاعد ، والمضطجع .

[فيهن قاصرات الطرف] أى : قد قصرن طرفهن على أزواجهن ، من

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾

حسنهم وجمالهم ، وكمال محبتهن لهم .

وقصرن أيضا طرف أزواجهن عليهن ، من حسنهن وجمالهن ، ولذة وصالهن ، وشدة محبتهن .

[لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان] أى : لم ينلهن أحد قبلهم ، من الإنس والجن .

بل هن أبكار عرب ، متحببات إلى أزواجهن ، بحسن التبعل والتغنج والملاحة ، والدلال .

ولهذا قال : [كأنهن الياقوت والمرجان] وذلك لصفائهن وجمال منظرهن ، وبهائهن .

[هل جزاء الإحسان إلا الإحسان] أى : هل جزاء من أحسن فى عبادة الخالق ، ونفع عبيده ، إلا أن يحسن إليه بالثواب الجزيل ، والفوز الكبير ، والنعيم ، والعيش السليم .

فهاتان الجنتان العاليتان ، للمقربين .

[ومن دونهما جنتان] من فضة بنيانهما ، وحليتهما ، وما فيهما لأصحاب اليمين .

وتلك الجنتان [مدهامتان] أى : سوداوان من شدة الخضرة والرى .

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾

[فيهما عينان نضاختان] أى : فوارتان ، [فيهما فاكهة] من جميع أصناف الفواكه ، وأخصها : النخل ، والرمان ، اللذان فيهما من المنافع ، ما فيهما .

[فيهن] أى : فى الجنات كلها [خيرات حسان] أى : خيرات الأخلاق حسان الأوجه ، فجمعن بين جمال الظاهر والباطن ، وحسن الخَلق والخُلق .

[حور مقصورات فى الخيام] أى : محبوسات فى خيام اللؤلؤ ، قد تهيأن وأعددن أنفسهن لأزواجهن .

ولا ينفى ذلك خروجهن فى البساتين ، ورياض الجنة ، كما جرت العادة لبنات الملوك المخدرات الخفرات .

[لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان * فبأى آلاء ربكما تكذبان * متكئين على رفرف خضر] أى : أصحاب هاتين الجنتين ، متكأهم على الرفرف الأخضر ، وهى : الفرش التى تحت المجالس العالية ، التى قد زادت على

مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ

مجالسهم ، فصار لها رفرفة ، من وراء مجالسهم ، لزيادة البهاء ، وحسن المنظر .

[وعبقرى حسان] العبقرى : نسبة لكل منسوج نسجا حسنا فاخرا .

ولهذا وصفها بالحسن الشامل ، لحسن الصفة والمنظر ، ونعومة الملمس .

وهاتان الجنتان ، دون الجنتين الأولبين ، كما نص الله على ذلك بقوله [ومن دونهما جنتان] وكما وصف الأولبين بعدة أوصاف ، لم يصف بها الأخريين .

فقال فى الأولبين : [فيهما عينان تجريان] وفى الأخريين [عينان نضاختان] .

ومن المعلوم ، الفرق بين الجارية والنضاخة .

وقال فى الأولبين [ذواتا أفنان] ولم يقل ذلك فى الأخريين .

وقال فى الأولبين [فيهما من كل فاكهة زوجان] .

وفى الأخريين [فيهما فاكهة ونخل ورمان] وقد علم ما بين الوصفين من التفاوت .

وقال فى الأولبين [متكئين على فرش بطائنها من إستبرق وجنى الجنتين دان] .

ولم يقل ذلك فى الأخريين ، بل قال : [متكئين على رفرف خضر وعبقرى حسان] .

ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

وقال فى الأولين ، فى وصف نسائهم وأزواجهم [فيهن قاصرات الطرف] .

وفى الأخريين [مقصورات فى الخيام] وقد علم التفاوت بين ذلك .

وقال فى الأوليين [هل جزاء الإحسان إلا الإحسان] فدل ذلك أن الأوليين جزاء المحسنين ، ولم يقل ذلك فى الأخيرتين .

ومجرد تقديم الأوليين على الأخريين ، يدل على فضلهما .

فبهذه الأوجه ، يعرف فضل الأوليين على الأخريين ، وأنهما معدتان للمقربين ، من الأنبياء ، والصديقين ، وخواص عباد الله الصالحين .

وأن الأخريين معدتان لعموم المؤمنين .

وفى كل من الجنات المذكورات ، مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وفيهن ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين .

وأهلهن فى غاية الراحة والرضا والطمأنينة ، وحسن المأوى .

حتى إن كل واحد منهم ، لا يرى أحداً أحسن حالا منه ، ولا أعلى من نعيمه ، الذى هو فيه .

ولما ذكر سعة فضله وإحسانه قال : [تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام] .

أي : تعاظم وكثر خيره ، الذى له الجلال الباهر ، والمجد الكامل ، والإكرام لأوليائه .

تم تفسير سورة الرحمن — ولله الحمد والشكر والثناء الحسن

تفســـير

سُورَةُ الواقعة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ

---

* يخبر تعالى بحال الواقعة ، التي لا بد من وقوعها ، وهى : القيامة التى [ليس لوقعتها كاذبة]

أى : لا شك فيها ، لأنها قد تظاهرت عليها الأدلة العقلية والسمعية ، ودلت عليها حكمته تعالى

[خافضة رافعة] أى : خافضة لأناس فى أسفل سافلين ، رافعة لأناس فى أعلى عليين .

أو خفضت بصوتها فأسمعت القريب ، ورفعت ، فأسمعت البعيد .

[إذا رجت الأرض رجا] أى : حركت واضطربت .

[وبست الجبال بسا] أى : فتتت [فكانت هباء منبثا] فأصبحت

بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ

ليس عليها جبل ولا معلم ، قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

[وكنتم] أيها الخلق [أزواجا ثلاثة] أى : انقسمتم ثلاث فرق بحسب أعمالكم الحسنة والسيئة .

ثم فصل أحوال الأزواج الثلاثة فقال : [فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة] تعظيم لشأنهم ، وتفخيم لأحوالهم .

[وأصحاب المشئمة] أى : الشمال [ما أصحاب المشئمة] تهويل لحالهم

[والسابقون السابقون * أولئك المقربون] أى : السابقون فى الدنيا إلى الخيرات ، هم السابقون فى الآخرة لدخول الجنات .

أولئك الذين هذا وصفهم ، المقربون عند الله ، فى جنات النعيم ، فى أعلى عليين ، فى المنازل العاليات ، التى لا منزلة فوقها .

وهؤلاء المذكورون [ثلة من الأولين] أى : جماعة كثيرون من المتقدمين ، من هذه الأمة وغيرهم .

[وقليل من الآخرين] وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة فى الجملة ، على متأخريها لكون المقربين من الأولين ، أكثر من المتأخرين .

عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾

والمقربون هم : خواص الخلق [على سرر موضونة] أى : مرمولة بالذهب والفضة ، واللؤلؤ ، والجوهر ، وغير ذلك ، من الحُلِىّ ، والزينة ، التى لا يعلمها إلا الله تعالى .

[متكئين عليها] أى : على تلك السرر ، جلوس تمكن وطمأنينة ، وراحة واستقرار .

[متقابلين] وجه كل منهم إلى وجه صاحبه ، من صفاء قلوبهم ، وتقابلها بالمحبة وحسن أدبهم .

[يطوف عليهم ولدان مخلدون] أى : يدور على أهل الجنة لخدمتهم ، وقضاء حوائجهم ، ولدان صغار الأسنان ، فى غاية الحسن والبهاء .

[كأنهم لؤلؤ مكنون] أى مستور ، لا يناله ما يغيره .

مخلوقون للبقاء والخلد ، لا يهرمون ، ولا يتغيرون ، ولا يزيدون على أسنانهم .

ويدورون عليهم بآنية شرابهم [بأكواب] وهى : التى لا عرى لها [وأباريق] الأوانى التى لها عرى .

[وكأس من معين] أى : من خمر لذيذ المشرب ، لا آفة فيه .

[لا يصدعون عنها] أى : لا تصدع رءوسهم ، كما تصدع خمرة الدنيا ، رأس شاربها .

وَفَـٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَـٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءً بِمَا

[ولا هم عنها ينزفون] أى : لا تنزف عقولهم ، ولا تذهب أحلامهم منها ، كما يكون لخمر الدنيا .

والحاصل : أن كل ما فى الجنة من النعيم الموجود جنسه فى الدنيا ، لا يوجد فى الجنة فيه آفة كما قال تعالى : « فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنها من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى » .

وذكر هنا خمر الجنة ، ونفى عنه كل آفة توجد فى الدنيا .

[وفاكهة مما يتخيرون] أى : مهما تخيروا ، وراق فى أعينهم ، واشتهته نفوسهم ، من أنواع الفواكه الشهية ، والجنى اللذيذ ، حصل لهم ، على أكمل وجه وأحسنه .

[ولحم طير مما يشتهون] أى : من كل صنف من الطيور يشتهونه ، ومن أى جنس من لحمه أرادوا ، إن شاءوا مشويا ، أو طبيخاً ، أوغيرذلك.

[وحور عين] أى : ولهم حور عين ، والحوراء : التى فى عينها كحل وملاحة ، وحسن وبهاء

والعين : واسعات الأعين حسانها .

وحسن عين الأنثى ، من أعظم الأدلة ، على حسنها وجمالها .

[كأمثال اللؤلؤ المكنون] أى . كأنهن اللؤلؤ الرطب الصافى البهى ، المستور عن الأعين والريح ، والشمس ، الذى يكون لونه ، من أحسن الألوان ، الذى لا عيب فيه ، بوجه من الوجوه .

كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾

فكذلك الحور العين ، لا عيب فيهن بوجه من الوجوه ، بل هن كاملات الأوصاف ، جميلات النعوت .

فكل ما تأملته منها ، لم تجد فيه إلا ما يسر القلب ويروق الناظر .

وذلك النعيم المعد لهم [جزاء بما كانوا يعملون] فكما حسنت منهم الأعمال ، أحسن الله لهم الجزاء ، ووفر لهم الفوز والنعيم .

[لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما] أى : لا يسمعون فى جنات النعيم ، كلاما يلغى ، ولا يكون فيه فائدة ، ولا كلاما يؤثم صاحبه .

[إلا قيلا سلاما سلاما] أى : إلا كلاما طيباً ، وذلك لأنها دار الطيبين ، ولا يكون فيها إلا كل طيب .

وهذا دليل ، على حسن أدب أهل الجنة فى خطابهم ، فيما بينهم ، وأنه أطيب كلام ، وأسره للقلوب ، وأسلمه من كل لغو وإثم ، نسأل الله من فضله « أن يجعلنا من أهل الجنة » .

ثم ذكر ما أعد لأصحاب اليمين فقال :

[وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين] أى: شأنهم عظيم ، وحالهم جسيم.

[فى سدر[1] مخضود] أى : مقطوع ما فيه من الشوك والأغصان الرديئة المضرة ، مجعول مكان ذلك ، الثمر الطيب .

وللسدر من الخواص ، الظل الظليل ، وراحة الجسم فيه .

---

(١) السدر : شجر النبق .

وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾

[وطلح منضود [1]] والطلح معروف ، وهو شجر كبار ، يكون بالبادية، تنضد أغصانه من الثمر اللذيذ الشهى .

[وماء مسكوب] أى كثير من العيون والأنهار السارحة ، والمياه المتدفقة .

[وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة] أى : ليست بمنزلة فاكهة الدنيا تنقطع ، فى وقت من الأوقات ، وتكون ممتنعة ، أى : متعسرة على مبتغيها .

بل هى على الدوام ، موجودة ، وجناها قريب يتناوله العبد على أى حال يكون .

[وفرش مرفوعة] أى : مرفوعة فوق الأسرة ، ارتفاعا عظيما .

وتلك الفرش من الحرير ، والذهب ، واللؤلؤ ، وما لا يعلمه إلا الله .

[إنا أنشأناهن إنشاء] أى : إنا أنشأنا نساء أهل الجنة ، نشأة غير النشأة ، التي كانت فى الدنيا ، نشأة كاملة ، لا تقبل الفناء .

[فجعلناهن أبكاراً] صغارهن وكبارهن .

---

(١) الطلح : شجر الموز ، والمنضود : الذى نضد بالحمل من أسفله إلى أعلاه . فليست له ساق بارزة . اهـ نسفى .

والمعنى : في شجر من النبق مقطوع شوكه ، وشجر من الموز متراكب ثمره ، بعضه فوق بعض .

وعموم ذلك ، يشمل الحور العين ، ونساء أهل الدنيا ، وأن هذا الوصف — وهو البكارة — ملازم لهن فى جميع الأحوال .

كما أن كونهن [عربا أترابا] ملازم لهن فى كل حال .

والعروب هى : المرأة المتحببة إلى بعلها ، وحسن هيئتها ودلالها ، وجمالها ومحبتها ، فهى التي إن تكلمت ، سبت العقول ، وود السامع أن كلامها لا ينقضى .

خصوصاً عند غنائهن بتلك الأصوات الرخيمة ، والنغمات المطربة .

وإن نظر إلى أدبها وسمتها ، ودلها ، ملأت قلب بعلها فرحا وسروراً.

وإن انتقلت من محل إلى آخر ، امتلأ ذلك الموضع منها ريحا طيبا ونوراً .

ويدخل فى ذلك ، الغنجة عند الجماع .

والأتراب : اللاتى على سن واحدة ، ثلاث وثلاثين سنة ، التى هى غاية ما يتمنى أكمل سن الشباب .

فنساؤهم عرب أتراب ، متفقات مؤتلفات ، راضيات مرضيات ، لا يَحزَنَّ ولا يُحزِنَّ .

بل هن أفراح النفوس ، وقرة العيون ، وجلاء الأبصار .

[لأصحاب اليمين] أى : معدات لهم مهيئات .

[ثلة من الأولين ، وثلة من الآخرين] أى هذا القسم ، وهم أصحاب اليمين ، عدد كثير من الأولين ، وعدد كثير من الآخرين .

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾

المراد بأصحاب الشمال ، هم أصحاب النار ، والأعمال المشئومة .

فذكر الله لهم من العقاب ، ماهم حقيقون به ، فأخبر أنهم [فى سموم] أى : ريح حارة من حر نار جهنم ، تأخذ بأنفاسهم ، وتقلقهم أشد القلق .

[وحميم] أى : ماء حار ، يقطع أمعاءهم .

[وظل من يحموم] أى : لهب نار ، يختلط بدخان .

[لا بارد ولا كريم] أى : لا برد فيه ولا كرم .

والمقصود : أن هناك الهم والغم ، والحزن ، والشر الذى لا خير فيه ، لأن نفى الضد ، إثبات لضده .

ثم ذكر أعمالهم التى أوصلتهم إلى هذا الجزاء فقال :

[إنهم كانوا قبل ذلك مترفين] أى : قد ألهتهم دنياهم ، وعملوا لها ، وتنعموا ، وتمتعوا بها ، فألهاهم الأمل عن إحسان العمل .

فهذا هو الترف الذى ذمهم الله عليه .

[وكانوا يصرون على الحنث العظيم] أى : وكانوا يفعلون الذنوب الكبار ، ولا يتوبون منها ، ولا يندمون عليها .

بل يصرون على ما يسخط مولاهم ، فقدموا عليه بأوزار كثيرة ، غير مغفورة .

قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾

ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ

وكانوا ينكرون البعث، فيقولون استبعادا لوقوعه: [أإذا متنا وكنا ترابا وعظاما أإنا لمبعوثون أو آباؤنا الأولون] أى: كيف نبعث بعد موتنا وقد بلينا، فكنا ترابا وعظاما ؟! هذا من المحال، قال تعالى فى جوابهم: [قل إن الأولين] إلى [يوم معلوم].

* أى: قل إن متقدم الخلق ومتأخرهم، الجميع سيبعثهم الله ويجمعهم لميقات يوم معلوم، قدره الله لعباده، حين تنقضى الخليقة، ويريد الله جزاءهم على أعمالهم التى عملوها فى دار التكليف.

* [ثم إنكم أيها الضالون] عن طريق الهدى، التابعون لطريق الردي.

[المكذبون] بالرسول صلى الله عليه وسلم وما جاء به من الحق والوعد والوعيد [لآكلون من شجر من زقوم] وهو أقبح الأشجار، وأخسها، وأنتنها ريحا، وأبشعها منظرا. [فمالئون منها البطون].

والذى أوجب لهم أكلها - مع ماهى عليه من الشناعة - الجوع المفرط، الذى يلتهب فى أكبادهم وتكاد تتقطع منه أفئدتهم.

هذا الطعام، هو الذى يدفعون به الجوع، وهو لا يسمن ولا يغنى من جوع.

وأما شرابهم، فهو بئس الشراب، وهو أنهم يشربون على هذا

عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ[1] ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ

الطعام ، من الماء الحميم الذى يغلى فى البطون [شراب الهيم] وهى: الإبل العطاش ، التى قد اشتد عطشها .

أو أن الهيم : داء يصيب الإبل لا تروى معه من شراب الماء .

[هذا] الطعام والشراب [نزلهم] أى : ضيافتهم [يوم الدين[2]] وهى الضيافة التى قدموها لأنفسهم ، وآثروها على ضيافة الله لأوليائه .

قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا * خالدين فيها لا يبغون عنها حولا » .

ثم ذكر الدليل العقلى على البعث فقال : [نحن خلقناكم فلولا تصدقون] .

أى : نحن الذى أوجدناكم ، بعد أن لم تكونوا شيئا مذكورا ، من غير عجز ولا تعب .

أفليس القادر على ذلك ، بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير .

ولهذا وبخهم على عدم تصديقهم بالبعث ، وهم يشاهدون ما هو أعظم منه وأبلغ .

* أى : أفرأيتم ابتداء خلقكم من المنى ، الذى تمنون ، فهل أنتم خالقون ذلك المنى وما ينشأ منه ؟ أم الله تعالى الخالق الذى خلق فيكم الشهوة فى

---

(١) ما تمنون أى : تقذفون فى الأرحام من النطف .

(٢) أى : يوم الجزاء ، وهو يوم القيامة .

ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾

أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ

الذكر والأنثى ، وهدى كلا منهما لما هنالك ، وحبب بين الزوجين ، وجعل بينهما من المودة والرحمة ، ما هو سبب التناسل .

ولهذا أحالهم الله تعالى بالاستدلال بالنشأه الأولى ، على النشأة الأخرى فقال :

[ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون] أن القادر على ابتداء خلقكم ، قادر على إعادتكم .

* وهذا امتنان منه على عباده ، يدعوهم به ، إلى توحيده وعبادته ، والإنابة إليه ، حيث أنعم عليهم بما يسره لهم من الحرث للزروع والثمار .

فتخرج من ذلك ، من الأقوات ، والأرزاق ، والفواكه ، ما هو من من ضروراتهم ، وحاجاتهم ، ومصالحهم ، التى لا يقدرون أن يحصوها ، فضلا عن شكرها ، وأداء حقها ، فقررهم بمنته فقال :

[أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون] أى : أنتم أخرجتموه نباتا من الأرض ؟ أم أنتم الذى نميتموه ؟ أم أنتم الذين أخرجتم سنبله وثمره ، حتى صار حبا حصيدا ، وثمرا نضيجا ؟ .

أم الله الذى انفرد بذلك وحده ، وأنعم به عليكم ؟ .

وأنتم غاية ما تفعلون ، أن تحرثوا الأرض وتشقوها ، وتلقوا فيها البذر .

ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾
إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾

ثم لا علم عندكم بما يكون بعد ذلك ، ولا قدرة لكم على أكثر من ذلك .

ومع ذلك ، فنبههم على أن ذلك الحرث معرض للأخطار ، لولا حفظ الله وإبقاؤه بلغة لكم ، ومتاعا إلى حين .

[لو نشاء لجعلناه] أى : الزرع المحروث ، وما فيه من الثمار [حطاما] أى : فتاتاً متحطماً ، لا نفع فيه ولا رزق .

[فظلتم] أى : فصرتم بسبب جعله حطاما ، بعد أن تعبتم فيه ، وأنفقتم النفقات الكثيرة .

[تفكهون] أى: تندمون ، وتتحسرون على ما أصابكم ويزول بذلك ، فرحكم وسروركم وتفكهكم فتقولون :

[إنا لمغرمون [1]] أى إنا قد نقصنا ، وأصابتنا مصيبة اجتاحتنا .

ثم تعرفون بعد ذلك ، من أين أتيتم ، وبأى سبب دهيتم فتقولون :

[بل نحن محرومون [2]] .

فاحمدوا الله تعالى حيث زرعه لكم ، ثم أبقاه وكمله لكم ، ولم يرسل عليه من الآفات ، ما به تحرمون نفعه وخيره .

---

(١) لمغرمون أى : لملزمون غرامة ما أنفقنا . أو . مهلكون بهلاك رزقنا . من الغرام وهو : الهلاك . اهـ . أبو السعود .

(٢) محرومون . أى : سيئو الحظ ، لا بخت لنا ، ومحرومون من الرزق .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَءَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾

---

* لما ذكر تعالى نعمته على عباده بالطعام ، ذكر نعمته عليهم ، بالشراب العذب ، الذى منه يشربون ، وأنه لولا أن الله يسره وسهله ، لما كان لكم إليه سبيل .

وأنه الذى أنزله من المزن ، وهو السحاب والمطر ، ينزله الذى الله تعالى .

فتكون منه الأنهار الجارية على وجه الأرض، وفى بطنها .

وتكون منه الغدران المتدفقة .

ومن نعمته تعالى ، أن جعله عذبا فراتا ، تسيغه النفوس ، ولو شاء لجعله ملحا أجاجا ، لا ينتفع به .

[فلو لا تشكرون] الله تعالى على ما أنعم به عليكم .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ﴾

---

* وهذه نعمة ، تدخل فى الضروريات ، التى لا غنى للخلق عنها .

فإن الناس محتاجون إليها فى كثير من أمورهم وحوائجهم .

فقررهم تعالى بالنار ، أتى أوجدها فى الأشجار ، وأن الخلق لا يقدرون أن ينشئوا شجرها ، وإنما الله تعالى قد أنشأها من الشجر الأخضر ، فإذا هى نار توقد ، بقدر حاجة العباد ، فإذا فرغوا من حاجتهم ، أطفأوها وأخمدوها .

[نحن جعلناها تذكرة] للعباد بنعمة ربهم ، وتذكرة بنار جهنم ، التى أعدها الله للعاصين ، وجعلها سوطا ، يسوق به عباده إلى دار النعيم .

[ومتاعا للمقوين] أى : المنتفعين أو المسافرين ، وخص الله المسافرين لأن نفع المسافر أعظم من غيره .

ولعل السبب فى ذلك ، لأن الدنيا كلها دار سفر .

والعبد من حين ولد ، فهو مسافر إلى ربه .

فهذه النار ، جعلها الله متاعا للمسافرين فى هذه الدار ، وتذكرة لهم بدار القرار .

فلما بين من نعمه ما يوجب الثناء عليه من عباده ، وشكره ، وعبادته أمر بتسبيحه وتعظيمه فقال :

[فسبح باسم ربك العظيم] أى نزه ربك العظيم كامل الأسماء والصفات كثير الإحسان والخيرات .

۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ

واحمده ، بقلبك ، ولسانك ، وجوارحك ، لأنه أهل لذلك ، وهو المستحق لأن يشكر فلا يكفر ، ويذكر فلا ينسى ، ويطاع فلا يعصى .

* أقسم تعالى بالنجوم ومواقعها ، أى : مساقطها فى مغاربها ، وما يحدث الله فى تلك الأوقات ، من الحوادث الدالة على عظمته ، وكبريائه ، وتوحيده

ثم عظم هذا المقسم به فقال : [وإنه لقسم لو تعلمون عظيم] .

وإنما كان القسم عظيما ، لأن فى النجوم وجريانها ، وسقوطها عند مغاربها ، آيات وعبرا ، لا يمكن حصرها .

وأما المقسم عليه ، فهو إثبات القرآن ، وأنه حق لا ريب فيه ، ولا شك يعتريه .

وأنه كريم أي : كثير الخير ، غزير العلم ، وكل خير وعلم ، فإنما يستفاد من كتاب الله ويستنبط منه .

[فى كتاب مكنون] أي : مستور عن أعين الخلق .

وهذا الكتاب المكنون ، هو : اللوح المحفوظ .

أى : إن هذا القرآن ، مكتوب فى اللوح المحفوظ ، معظم عند الله ، وعند ملائكته فى الملأ الأعلى .

ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون ، هو الكتاب الذى بأيدى

ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ

الملائكة ، الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته ، وأن المراد بذلك : أنه مستور عن الشياطين ، لا قدرة لهم على تغيره ، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه .

[لا يمسه إلا المطهرون] أى : لا يمس القرآن ، إلا الملائكة الكرام، الذين طهرهم الله تعالى من الآفات ، والذنوب ، والعيوب .

وإذا كان لا يمسه إلا المطهرون . وأن أهل الخبث والشياطين ، لا استطاعة لهم ، ولا يدان إلى مسه ، دلت الآية — تنبيها ، على أنه لا يجوز أن يمس القرآن إلا طاهر[1] .

[تنزيل من رب العالمين] أى : إن هـذا القرآن الموصوف بتلك الصفات الجليلة ، هو تنزيل رب العالمين ، الذى يربى عباده ، بنعمه الدينية والدنيوية .

وأجل تربية ربى بها عباده ، إنزاله هذا القرآن ، الذى قد اشتمل على مصالح الدارين ، ورحم الله به العباد رحمة ، لا يقدرون لها شكورا .

---

(١) قوله « لا يمس القرآن إلا طاهر » هـذا من باب الأدب فقط ، لا من باب وجوب الوضوء لمس المصحف . فإن مس المصحف للحدث جائز لا حرمة فيه كما أفاد ذلك ابن حزم فى كتابه « المحلى » وابن القيم فى كتابه « التبيان فى أقسام القرآن » وقد أطال ابن القيم الكلام فى ذلك وذكر من الأدلة القاطعة ما لا يمكن ردها ولا نقضها ولولا خشية الإطالة ، لذكرناها هنا ، ومن أراد الوقوف على الحقيقة ، فليرجع إلى الكتاب المذكور .

رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾

ومما يجب عليهم ، أن يقوموا به ويعلنوه ، ويدعوا إليه ويصدعوا به ، ولهذا قال :

[أفبهذا الحديث أنتم مدهنون] أى : أفبهذا الكتاب العظيم ، والذكر الحكيم [أنتم مدهنون] أى : تختفون ، وتدلون خوفا من الخلق وعارهم ، وألسنتهم ؟

هذا لا ينبغى ولا يليق ، إنما يليق أن يداهن بالحديث الذى لا يثق صاحبه منه .

وأما القرآن الكريم ، فهو الحق الذى لا يغالب به مغالب ، إلا غلب ، ولا يصول به صائل ، إلا كان العالى على غيره .

وهو الذى ، لا يداهن به ويختفى ، بل يصدع به ويعلن .

وقوله [وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون] أى : تجعلون مقابلة منة الله عليكم بالرزق والتكذيب والكفر لنعمة الله ، فتقولون :مطرنا بنوء[1] كذا وكذا ، وتضيفون النعمة لغير مسديها ومو ليها .

---

(١) النوء سقوط نجم من النازل فى المغرب مع الفجر وطلوع رقيبه من المشرق ، يقابله من ساعته فى كل ثلاثة عشر يوماً ما خلا الجبهة فإن لها أربعة عشر يوماً .

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها .

وقيل : إلى الطالع منها ، لأنه فى سلطانه .

وجمعه أنواء ونوءان كعبد وعبدان . اهـ من المختار من الصحاح . =

وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾

فهلا شكرتم الله على إحسانه ، إذ أنزله إليكم ، ليزيدكم من فضله .

فإن التكذيب والكفر ، داع لرفع النعم ، وحلول النقم .

[فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون * ونحن أقرب إليه منكم ولكن لا تبصرون] .

أى : فهلا إذا بلغت الروح الحلقوم ، وأنتم تنظرون المحتضر فى هذه الحالة .

والحال أنا نحن أقرب إليه منكم ، بعلمنا وملائكتنا ، ولكن لا تبصرون .

[فلولا إن كنتم غير مدينين] أى : فهلا إذ كنتم تزعمون ، أنكم غير مبعوثين ولا محاسبين ومجزيين [ترجعونها] أى : إلى بدنها [إن كنتم صادقين] وأنتم تقرون أنكم عاجزون عن ردها إلى موضعها .

فحينئذ إما أن تقروا بالحق ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم .

وإما أن تعاندوا فتعلم حالكم وسوء مآلكم .

= والمراد هنا : النهى عن إثبات تأثير حوادث الأمطار والحر والبرد إلى تنقلات النجوم من منزل إلى منزل كما كان عرب الجاهلية تعتقد هذا : بل المؤثر بإنزال المطر وإرسال الرياح وحصول الحر والبرد ، إنما هو الله تعالى .

﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ

---

* ذكر الله تعالى أحوال الطوائف الثلاث : المقربين ، وأصحاب اليمين، والمكذبين الضالين فى أول السورة فى دار القرار .

ثم ذكر أحوالهم فى آخرها ، عند الاحتضار والموت فقال :

[فأما إن كان من المقربين] أى : إن كان الميت من المقربين إلى الله، المتقربين إليه بأداء الواجبات والمستحبات . وترك المحرمات والمكروهات ، وفضول المباحات .

[فـ] لهم [روح] أى : راحة وطمأنينة ، وسرور وبهجة ، ونعيم القلب والروح .

[وريحان] وهو اسم جامع لكل لذة بدنية ، من أنواع المآكل والمشارب وغيرها .

وقيل : الريحان هو : الطيب المعروف ، فيكون من باب التعبير بنوع الشيء عن جنسه العام .

[وجنة نعيم] جامعة للأمرين كليهما ، فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فيبشر المقربون عند الاحتضار بهذه البشارة ، التى تكاد تطير منها الأرواح ، فرحاً وسروراً .

كما قال تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون * نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم ولكم فيها ما تدعون * نزلا من غفور رحيم » .

لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا

وقد فسر قوله تعالى : « لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة » أن هذه البشارة المذكورة ، هى البشرى فى الحياة الدنيا .

وقوله [وأما إن كان من أصحاب اليمين] وهم : الذين أدوا الوجبات وتركوا المحرمات ، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق ، التى لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم ، فيقال لأحدهم :

[سلام لك من أصحاب اليمين] أى : سلام حاصل لك من إخوانك أصحاب اليمين .

أى : يسلمون عليه ، ويحيونه عند وصوله إليهم ، ولقائهم له .

أو يقال له : سلام لك من الآفات والبليات والعذاب ، لأنك من أصحاب اليمين ، الذين سلموا من الموبقات .

[وأما إن كان من المكذبين الضالين] أى : الذين كذبوا بالحق ، وضلوا عن الهدى .

[فنزل من حميم وتصلية جحيم] أى : ضيافتهم يوم قدومهم على ربهم تصلية الجحيم ، التى تحيط بهم ، وتصل إلى أفئدتهم .

وإذا استغاثوا من شدة العطش والظمأ « يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه بئس الشراب وساءت مرتفقا » .

[إن هذا] الذى ذكره الله تعالى ، من جزاء العباد بأعمالهم ، خيرها

لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

وشرها ، وتفاصيل ذلك [لهو حق اليقين] أى : الذى لا شك فيه ولا مرية .

بل هو الحق الثابت ، الذى لا بد من وقوعه .

وقد أشهد الله عباده ، الأدلة القواطع على ذلك ، حتى صار عند أولى الألباب ، كأنهم ذائقون له ، مشاهدون لحقيقته .

فحمدوا الله تعالى ، على ما خصهم من هذه النعمة العظيمة ، والمنحة الجسيمة .

ولهذا قال تعالى : [فسبح باسم ربك العظيم] فسبحان ربنا العظيم وتعالى وتنزه عما يقول الظالمون والجاحدون ، علوا كبيرا .

والحمد لله رب العالمين ، حمدا كثيرا ، طيبا ، مباركا فيه .

تم تفسير سورة الواقعة

تفسير

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ وَهُوَ

---

* يخبر تعالى عن عظمته وجلاله ، وسعة سلطانه ، أن جميع مافى السموات والأرض ، من الحيوانات الناطقة وغيرها ، والجوامد ، تسبح بحمد ربها ، وتنزهه عما لا يليق بجلاله .

وأنها قانتة لربها ، منقادة لعزته ، قد ظهرت فيها آثار حكمته ، ولهذا قال :

[وهو العزيز الحكيم] فهذا فيه بيان عموم افتقار المخلوقات ، العلوية والسفلية ، لربها ، فى جميع أحوالها ، وعموم عزته وقهره للأشياء كلها ، وعموم حكمته فى خلقه وأمره .

ثم أخبر عن عموم ملكه فقال : [له ملك السموات والأرض يحيي ويميت] .

عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ

أى : هو الخالق للمخلوقات ، الرازق المدبر لها ، بقدرته [وهو على كل شىء قدير][1] .

[هو الأول] الذى ليس قبله شىء [والآخر] الذى ليس بعده شىء .

[والظاهر] الذى ليس فوقه شىء [والباطن] الذى ليس دونه شىء .

[وهو بكل شىء عليم] قد أحاط علمه بالظواهر والبواطن ، والسرائر والخفايا ، والأمور المتقدمة والمتأخرة .

[وهو الذي خلق السموات والأرض فى ستة أيام] أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الجمعة .

[ثم استوى على العرش] استواء يليق بجلاله ، فوق جميع خلقه .

[يعلم ما يلج فى الأرض] من حب وحيوان ، ومطر ، وغير ذلك .

[ومايخرج منها] من نبت وشجر ، وحيوان ، وغير ذلك .

[وما ينزل من السماء] من الملائكة والأقدار والأرزاق .

[وما يعرج فيها] من الملائكة والأرواح ، والأدعية ، والأعمال وغير ذلك .

---

(١) قدير . أى : تام القدرة ومبالغ فيها بحيث لا تدرك العقول مدى قدرة الله ولا تحديدها .

مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ

[وهو معكم أينما كنتم] كقوله : « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا » .

وهذه المعية ، معية العلم والاطلاع ، ولهـذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله :

[والله بما تعملون بصير] أى : هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال ، وما صدرت عنه تلك الأعمال ، من بر وفجور ، فمجازيكم عليها ، وحافظها عليكم .

[له ما فى السموات والأرض] ملكا ، وخلقا ، وعبيداً ، يتصرف فيهم بما شاءه ، من أوامره القدرية والشرعية ، الجارية على الحكمة الربانية .

[وإلى الله ترجع الأمور] من الأعمال والعمال .

فيعرض عليه العباد ، فيميز الخبيث من الطيب ، ويجازى المحسن بإحسانه ، والمسىء بإساءته .

[يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل] أى : يدخل الليل على النهار ، فيغشيهم الليل بظلامه ، فيسكنون ويهدأون .

ثم يدخل النهار على الليل ، فيزول ما على الأرض من الظلام ، ويضىء الكون .

فيتحرك العباد ، ويقومون إلى مصالحهم ومعايشهم .

فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾

ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَأَنفَقُواْ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

ولا يزال الله يكور الليل على النهار ، والنهار على الليل ، ويداول بينهما ، فى الزيادة والنقص ، والطول والقصر ، حتى تقوم بذلك ، الفصول ، وتستقيم الأزمنة ، ويحصل من المصالح بذلك ، ما يحصل .

فتبارك الله رب العالمين ، وتعالى الكريم الجواد ، الذى أنعم على عباده بالنعم الظاهرة والباطنة .

[وهو عليم بذات الصدور] أى : بما يكون فى صدور العالمين .

فيوفق من يعلم أنه أهل لذلك ، ويخذل من يعلم ، أنه لا يصلح لهدايته .

* يأمر تعالى عباده ، بالإيمان به وبرسوله ، وبما جاء به ، وبالنفقة فى سبيله ، من الأموال التى جعلها الله فى أيديهم ، واستخلفهم عليها ، لينظر كيف يعملون .

ثم لما أمرهم بذلك ، رغبهم ، وحثهم عليه بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال :

[فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير] أى : الذين جمعوا بين الإيمان بالله ورسوله ، والنفقة فى سبيله ، لهم أجر كبير ، أعظمه وأجله ، رضا ربهم ، والفوز بدار كرامته ، وما فيها من النعيم المقيم ، الذى أعده الله للمؤمنين والمجاهدين .

وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُواْ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَإِنَّ ٱللَّهَ

ثم ذكر السبب الداعى لهم إلى الإيمان ، وعدم المانع منه فقال :

[ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين] أى : وما الذى يمنعكم من الإيمان ، والحال أن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ، أفضل الرسل وأكرم داع دعا إلى الله ، يدعوكم .

فهذا مما يوجب المبادرة إلى إجابة دعوته ، والتلبية والإجابة للحق ، الذى جاء به ، وقد أخذ عليكم العهد والميثاق بالإيمان ، إن كنتم مؤمنين .

ومع ذلك ، من لطفه وعنايته بكم ، أنه لم يكتف بمجرد دعوة الرسول الذى هو أشرف العالم ، بل أيده بالمعجزات ، ودلكم على صدق ماجاء به ، بالآيات البينات .

فلهذا قال : [هو الذى ينزل على عبده آيات بينات] أى : ظاهرات تدل أهل العقول على صحة جميع ما جاء به ، وأنه هو الحق اليقين .

[ليخرجكم] بإرسال الرسول إليكم ، وما أنزله الله على يده ، من الكتاب والحكمة .

[من الظلمات إلى النور] أى : من ظلمات الجهل والكفر ، إلى نور العلم والإيمان .

بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِن بَعْدُ

وهـذا من رحمته بكم ورأفته ، حيث كان أرحم بعباده من الوالدة بولدها [وإن الله بكم لرءوف رحيم[1]] .

ومالكم أن لا تنفقوا فى سبيل الله ولله ميراث السموات والأرض] أى : وما الذى يمنعكم من النفقة فى سبيل الله ، وهى طرق الخير كلها ، ويوجب لكم أن تبخلوا .

[و] الحال أنه ليس لكم شىء بل [لله ميراث السموات والأرض] .

فجميع الأموال ، ستنتقل من أيديكم ، أو تنقلون عنها ، ثم يعود الملك إلى مالكه ، تبارك وتعالى .

فاغتنموا الإنفاق ، ما دامت الأموال فى أيديكم ، وانتهزوا الفرصة .

ثم ذكر تعالى ، تفاضل الأعمال، بحسب الأحوال والحكمة الإلهية فقال:

[لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا] المراد بالفتح هنا هو : فتح الحديبية

---

(١) (وإن الله بكم) فى إخراجكم من الكفر إلى الإيمان (لرءوف) كثير الرأفة [رحيم] واسع الرحمة . حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول وتنزيل الآيات ونصب الحجج العقلية .

وَقَٰتَلُواْ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾

حين جرى من الصلح بين الرسول ، وبين قريش ، مما هو أعظم الفتوحات، التى حصل فيها نشر الإسلام ، واختلاط المسلمين بالكافرين ، والدعوة إلى الدين من غير معارض .

فدخل الناس من ذلك الوقت ، فى دين الله ، أفواجاً ، واعتز الإسلام عزاً عظيما .

وكان المسلمون قبل هذا الفتح ، لا يقدرون على الدعوة إلى الدين فى غير البقعة التى أسلم أهلها ، كالمدينة وتوابعها .

وكان من أسلم من أهل مكة وغيرها ، من ديار المشركين ، يؤذى ويخاف .

فلذلك كان من أسلم قبل الفتح وقاتل ، أعظم درجة وأجراً وثواباً ، ممن لم يسلم ويقاتل وينفق إلا بعد ذلك ، كما هو مقتضى الحكمة .

ولهذا كان السابقون ، وفضلاء الصحابة ، غالبهم أسلم قبل الفتح .

ولما كان التفضيل بين الأمور ، قد يتوهم منه نقص وقدح فى المفضول ، احترز تعالى من هذا بقوله :

[وكلا وعد الله الحسنى] أى : الذين أسلموا وقاتلوا وأنفقوا من قبل الفتح وبعده ، كلهم وعده الله الجنة .

وهذا يدل على فضل الصحابة كلهم ، رضى الله عنهم ، حيث شهد الله لهم بالإيمان ، ووعدهم الجنة .

[والله بما تعملون خبير] فيجازى كُلا منكم ، على ما يعمله من عمله .

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾

يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ

ثم حث على النفقة فى سبيله ، لأن الجهاد متوقف على النفقة فيه ، وبذل الأموال فى التجهز له فقال :

[من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا] وهى : النفقة الطيبة ، التى تكون خالصة لوجه الله ، موافقة لمرضاة الله ، من مال حلال طيب ، طيبة به نفسه .

وهذا من كرم الله تعالى ، حيث سماه قرضا ، والمال ماله ، والعبيد عبيده.

ووعد بالمضاعفة عليه ، أضعافا كثيرة ، وهو الكريم الوهاب .

وتلك المضاعفة ، محلها ومواضعها ، يوم القيامة يوم يتبين كل إنسان فقره ، ويحتاج إلى أقل شىء من الجزاء الحسن ، ولهذا قال : [يوم ترى المؤمنين] إلى [وبئس المصير] .

* يقول تعالى — مبينا لفضل الإيمان واغتباط أهله به يوم القيامة : [يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم] .

أى : إذا كان يوم القيامة ، وكورت الشمس ، وخسف القمر ، وصار الناس فى الظلمة ، ونصب الصراط على متن جهنم ، فحينئذ ترى المؤمنين والمؤمنات ، يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، فيمشون بإيمانهم ، ونورهم

خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ

فى ذلك الموقف الهائل الصعب ، كل على قدر إيمانه ، ويبشرون عند ذلك ، بأعظم بشارة فيقال :

[بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك هو الفوز العظيم] .

فلله ما أحلى هذه البشارة بقلوبهم ، وألذها لنفوسهم ، حيث حصل لهم كل مطلوب محبوب ، ونجوا من كل شر ومرهوب .

فإذا رأى المنافقون المؤمنين يمشون بنورهم ، وهم قد طفىء نورهم ، وبقوا فى الظلمات حائرين ، قالوا للمؤمنين : [انظرونا نقتبس من نوركم] أى : أمهلونا ، لننال من نوركم ما نمشى به ، لننجو من العذاب .

[قيل] لهم : [ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً] .

أى : إن كان ذلك ممكنا ، والحال أن ذلك غير ممكن ، بل هو من المحالات .

[فضرب بينهم] أى : بين المؤمنين والمنافقين [بسور] أى : حائط منيع ، وحصن حصين .

[له باب باطنه فيه الرحمة[١]] وهو الذى يلى المؤمنين [وظاهره من

---

(١) أى : فضرب بين المؤمنين والمنافقين بحاجز له باب ، باطن الحاجز الذى يلى الجنة ، فيه الرحمة والنعيم ، وظاهر الحاجز الذى يلى النار من جهته ، النقمة والعذاب . اﻫ من المنتخب من تفسير القرآن الكريم .

ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ

قبله العذاب] وهو الذى يلى المنافقين .

فينادى المنافقون المؤمنين ، فيقولون تضرعا وترحما :

[ألم نكن معكم] فى الدنيا بقول « لا إله إلا الله » ونصلى ونصوم ، ونجاهد ، ونعمل مثل عملكم ؟

[قالوا بلى] كنتم معنا فى الدنيا ، وعملتم فى الظاهر ، مثل عملنا ، ولكن أعمالكم أعمال المنافقين ، من غير إيمان ، ولا نية صادقة صالحة .

[بل فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم] أى : شككتم فى خبر الله الذى لا يقبل شكا .

[وغرتكم الأمانى] الباطلة ، حيث تمنيتم أن تنالوا منال المؤمنين ، وأنتم غير موقنين .

[حتى جاء أمر الله] أى : حتى جاءكم الموت ، وأنتم بتلك الحالة الذميمة .

[وغركم بالله الغرور] وهو : الشيطان ، الذى زين لكم الكفر والريب ، فاطمأننتم به ، ووثقتم بوعده ، وصدقتم خبره .

لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ

[فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا] ولو افتديتم بملء الأرض ذهبا ، ومثله معه ، لما تقبل منكم .

[مأواكم النار] أى : مستقركم [هى مولاكم] التى تتولاكم ، وتضمكم إليها [وبئس المصير] النار .

قال تعالى « وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية * وما أدراك ما هية * نار حامية » .

لما ذكر حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات فى الدار الآخرة كان ذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لربها ، والاستكانة لعظمته ، فعاتب الله المؤمنين على عدم ذلك فقال : [ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق] .

* أى : ألم يأت الوقت الذى به تلين قلوبهم ، وتخشع لذكر الله ، الذى هو القرآن ، وتنقاد لأوامره وزواجره ، وما نزل من الحق ، الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

وهذا فيه ، الحث على الاجتهاد ، على خشوع القلب لله تعالى ، ولما أنزله من الكتاب والحكمة ، وأن يتذكر المؤمنون المواعظ الإلهية ، والأحكام الشرعية ، كل وقت ، ويحاسبوا أنفسهم على ذلك .

[ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد] .

فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾
ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَاۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾

أى : ولا يكونوا كالذين أنزل الله عليهم الكتاب الموجب لخشوع القلب ، والانقياد التام ، ثم لم يدوموا عليه ، ولا ثبتوا .

بل طال عليهم الزمان ، واستمرت بهم الغفلة ، فاضمحل إيمانهم ، وزال إيقانهم .

[فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون] فالقلوب تحتاج فى كل وقت ، إلى أن تذكر بما أنزل الله ، وتناطق بالحكمة ، ولا ينبغى الغفلة عن ذلك ، فإنه سبب لقسوة القلب ، وجمود العين .

[اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها ، قد بينا لكم الآيات لعلكم تعقلون] فإن الآيات تدل العقول على المطالب الإلهية .

والذي أحيا الأرض بعد موتها ، قادر على أن يحيي الأموات بعد موتهم ، فيجازيهم بأعمالهم .

والذى أحيا الأرض بعد موتها ، بماء المطر ، قادر على أن يحيي القلوب الميتة ، بما أنزله من الحق على رسوله .

وهذه الآية تدل على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ، ولم ينقد لشرائع الله .

﴿ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ

---

* [إن المصدقين والمصدقات] بالتشديد ، أى : الذين أكثروا من الصدقات والنفقات المرضية .

[وأقرضوا الله قرضا حسنا] بأن قدموا من أموالهم فى طرق الخيرات ، ما يكون ذخرا لهم عند ربهم [يضاعف لهم] الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

[ولهم أجر كريم] وهو ما أعده الله لهم فى الجنة ، مما لا تعلمه النفوس .

[والذين آمنوا بالله ورسله] والإيمان عند أهل السنة ، ما دل عليه الكتاب والسنة ، وهو قول القلب واللسان ، وعمل القلب واللسان والجوارح .

فيشمل ذلك ، جميع شرائع الدين ، الظاهرة والباطنة .

فالذين جمعوا هذه الأمور ، هم الصديقون ، أى : الذين مرتبتهم فوق مرتبة عموم المؤمنين ، ودون مرتبة الأنبياء .

وقوله [والشهداء عند ربهم لهم أجرهم ونورهم] كما ورد فى الحديث الصحيح « إن فى الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، أعدها الله للمجاهدين فى سبيله » .

وهذا يقتضى شدة علوهم ورفعتهم ، وقربهم من الله تعالى .

وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم] فهذه الآيات جمعت أصناف الخلق المتصدقين ، والصديقين والشهداء ، وأصحاب الجحيم .

فالمتصدقون هم الذين ، جُلّ عملهم ، الإحسان إلى الخلق ، وبذل النفع لهم ، بغاية ما يمكنهم .

خصوصاً بالنفع بالمال فى سبيل الله .

والصديقون ، هم الذين كملوا مراتب الإيمان ، والعمل الصالح ، والعلم النافع ، واليقين الصادق .

والشهداء ، هم الذين قاتلوا فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وبذلوا أنفسهم وأموالهم ، فقتلوا .

وأصحاب الجحيم ، هم الكفار الذين كذبوا بآيات الله .

وبقى قسم ، ذكرهم الله فى سورة فاطر ، وهم المقتصدون ، الذين أدوا الواجبات ، وتركوا المحرمات ، إلا أنهم حصل منهم بعض التقصير بحقوق الله وحقوق عباده .

فهؤلاء مآلهم الجنة ، وإن حصل لبعضهم عقوبة ، ببعض ما فعل .

﴿ ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ

---

* يخبر تعالى عن حقيقة الدنيا ، وما هى عليه ، ويبين غايتها ، وغاية أهلها ، بأنها لعب ولهو ، تلعب بها الأبدان ، وتلهو بها القلوب .

وهذا مصداقه ، ما هو موجود ، وواقع ، من أبناء الدنيا .

فإنك تجدهم ، قد قطعوا أوقات عمرهم ، بلهو قلوبهم ، وغفلتهم عن ذكر الله ، وعما أمامهم ، من الوعد والوعيد .

تراهم قد اتخذوا دينهم لعبا ولهوا .

بخلاف أهل اليقظة ، وعُمّالِ الآخرة ، فإن قلوبهم معمورة بذكر الله ، ومعرفته ومحبته .

وقد شغلوا أوقاتهم ، بالأعمال التى تقربهم إلى الله ، من النفع ، القاصر والمتعدى .

وقوله:[وزينة] أي : تَزيُّنٌ فى اللباس والطعام ، والشراب والمراكب ، والدور ، والقصور ، والجاه ، وغير ذلك .

[وتفاخر بينكم] أى : كل واحد من أهلها ، يريد مفاخرة الآخر ، وأن يكون هو الغالب فى أمورها ، والذى له الشهرة فى أحوالها .

[وتكاثر فى الأموال والأولاد] أى : كُلٌّ ، يريد أن يكون هو الكاثر لغيره ، فى المال والولد ، وهذا مصداقه ، وقوعه من مُحِبِّى الدنيا ، والمطمئنين إليها .

بخلاف من عرف الدنيا وحقيقتها ، فجعلها معبرا ، ولم يجعلها مستقرا .

فنافس فيما يقربه إلى الله ، واتخذ الوسائل ، التى توصله إلى دار كرامته .

وإذا رأى من يكاثره ، وينافسه فى الأموال والأولاد ، نافسه بالأعمال الصالحة .

ثم ضرب للدنيا مثلا ، بغيث نزل على الأرض ، فاختلط به نبات الأرض ، مما يأكل الناس والأنعام ، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها ، وأعجب نباته الـكفار ، الذين قصروا نظرهم وهممهم على الدنيا،جاءها من أمر الله ، ما أتلفها ، فهاجت ويبست ، وعادت إلى حالها الأولى ، كأنه لم ينبت فيها خضراء ، ولا رُؤِىَ لها مرأى أنيق .

كذلك الدنيا ، بينما هى زاهية لصاحبها ، زاهرة ، مهما أراد من مطالبها حصل ، ومهما توجه لأمر من أمورها ، وجد أبوابه مفتحة .

إذ أصابها القدر ، فأذهبها من يده ، وأزال تسلطه عليها ، أو ذُهِبَ به عنها ، فرحل منها صفر اليدين ، ولم يتزود منها سوى الـكفن .

فَتبًّا لمن أضحت هى غاية أمنيته ، ولها عمله وسعيه .

وأما العمل للآخرة ، فهو الذى ينفع ، ويدخر لصاحبه ،ويصحب العبد على الأبد .

ولهذا قال تعالى : [وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان] أى : حال الآخرة ، لا يخلو من هذين الأمرين .

إما العذاب الشديد فى نار جهنم ، وأغلالها ، وسلاسلها ، وأهوالها

عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ

لمن كانت الدنيا هى غايته ، ومنتهى مطلبه ، فتجرأ على معاصى الله ، وكذب بآيات الله ، وكفر بأنعم الله .

وإما مغفرة من الله للسيئات ، وإزالة العقوبات ، ورضوان من الله ، يحل من أحله عليه ، دار الرضوان ، لمن عرف الدنيا ، وسعى للآخرة سعيها .

فهذا كله ، مما يدعو إلى الزهد فى الدنيا ، والرغبة فى الآخرة ، ولهذا قال :

[وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور] أى : إلا متاع يتمتع به ، وينتفع به ، ويستدفع به الحاجات ، لا يغتر به ، ويطمئن إليه ، إلا أهل العقول الضعيفة ، الذين يغرهم بالله الغرور .

ثم أمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ورضوانه وجنته .

وذلك يكون بالسعى بأسباب المغفرة ، من التوبة النصوح ، والاستغفار النافع ، والبعد عن الذنوب ومظانها ، والمسابقة إلى رضوان الله بالعمل الصالح ، والحرص على ما يرضى الله على الدوام ، من الإحسان فى عبادة الخالق ، والإحسان إلى الخلق بجميع وجوه النفع ولهذا ، ذكر الله الأعمال الموجبة لذلك فقال :

[وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسله] والإيمان بالله ورسله ، يدخل فيه أصول الدين وفروعه

يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾

[ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء] أى : هذا الذى بيناه لكم ، وذكرنا الطرق الموصلة إلى الجنة ، والطرق الموصلة إلى النار ، وأن ثواب الله بالأجر الجزيل ، والثواب الجميل ، من أعظم منته على عباده وفضله .

[والله ذو الفضل العظيم] الذى لا يحصى أحد ثناء عليه، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه .

* ويقول تعالى مخبراً عن عموم قضائه وقدره : [ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم] وهذا شامل لعموم المصائب ، التى تصيب ، التى تصيب الخلق ، من خير وشر ، فكلها قد كتب فى اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها .

وهذا أمر عظيم لا تحيط به العقول ، بل تذهل عنده أفئدة أولى الألباب ، ولكنه على الله يسير .

وأخبر الله عباده بذلك ، لأجل أن تتقرر هذه القاعدة عندهم ، ويبنوا عليها ما أصابهم من الخير والشر .

فلا يأسوا ويحزنوا ، على ما فاتهم ، مما طمحت له أنفسهم ، وتشوفوا إليه ، لعلمهم أن ذلك مكتوب فى اللوح المحفوظ ، لابد من نفوذه ووقوعه ، فلا سبيل إلى دفعه .

ولا يفرحوا بما آتاهم الله ، فرح بطر وأشر ، لعلمهم أنهم ما أدركوه

لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾

بحولهم وقوتهم ، وإنما أدركوه بفضل الله ومَنّه ، فيشتغلوا بشكر من أولى ، النعم ، ودفع النقم ، ولهذا قال :

[والله لا يحب كل مختال فخور] أى : متكبر فظ ، معجب بنفسه ، فخور بنعم الله ، ينسبها إلى نفسه ، وتطغيه وتلهيه كما قال تعالى : « وإذا أذقناه رحمة منا قال إنما أوتيته على علم بل هى فتنة » .

[الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل] أى : يجمعون بين الأمرين الذميمين ، اللذين كل منهما كاف فى الشر :

البخل وهو : منع الحقوق الواجبة ، ويأمرون الناس بذلك ، فلم يكفهم بخلهم ، حتى أمروا الناس بذلك ، وحثوهم على هذا الخلق الذميم ، بقولهم وفعلهم .

وهذا من إعراضهم عن طاعة ربهم وتوليهم عنها .

[ومن يتول] عن طاعة الله ، فلا يضر إلا نفسه ، ولن يضر الله شيئا

[فإن الله هو الغنى الحميد] الذى غناه من لوازم ذاته ، الذى له ملك السموات والأرض ، وهو الذى أغنى عباده ، وأقناهم .

الحميد الذى له كل اسم حسن ، ووصف كامل ، وفعل جميل ، يستحق أن يحمد عليه ، ويثنى ويعظم عليه .

۞ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَٰبَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ

---

* يقول تعالى : [لقد أرسلنا رسلنا بالبينات] وهى : الأدلة والشواهد والعلامات الدالة على صدق ما جاءوا به وحقيته .

[وأنزلنا معهم الكتاب] وهو اسم جنس ، يشمل سائر الكتب ، التى أنزلها الله لهداية الخلق وإرشادهم ، إلى ما ينفعهم فى دينهم ودنياهم .

[والميزان] وهو : العدل فى الأقوال والأفعال .

والدين الذى جاءت به الرسل ، كله عدل وقسط فى الأوامر والنواهى وفى معاملات الخلق ، وفى الجنايات ، والقصاص ، والحدود ، والمواريث ، وغير ذلك .

وذلك [ليقوم الناس بالقسط] قياما بدين الله ، وتحصيلا لمصالحهم التى لا يمكن حصرها وعدها .

وهذا ، دليل على أن الرسل ، متفقون فى قاعدة الشرع ، وهو القيام بالقسط ، وإن اختلفت صور العدل ، بحسب الأزمنة والأحوال .

[وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد] من آلات الحرب ، كالسلاح ، والدروع وغير ذلك .

[ومنافع للناس] وهو : ما يشاهد من نفعه ، فى أنواع الصناعات والحرف ، والأوانى ، وآلات الحرث ، حتى إنه قلّ أن يوجد شىء ، إلا وهو يحتاج إلى الحديد .

قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا

[وليعلم الله من ينصره ورسله بالغيب] أى: ليقيم تعالى سوق الامتحان بما أنزله من الكتاب والحديد ، فيتبين من ينصره ، وينصر رسله فى حالة الغيب ، التى ينفع فيها الإيمان قبل الشهادة ، التى لا فائدة بوجود الإيمان فيها ، لأنه حينئذ يكون ضروريا واضطراريًّا .

[إن الله لقوى عزيز] أى : لا يعجزه شىء ، ولا يفوته هارب .

ومن قوته وعزته ، أن أنزل الحديد ، الذى منه الآلات القوية .

ومن قوته وعزته ، أنه قادر على الانتصار من أعدائه ، ولكنه يبتلى أولياءه بأعدائه ، ليعلم من ينصره بالغيب .

وقرن تعالى بهذا الموضع ، بين الكتاب والحديد ، لأن بهذين الأمرين ، ينصر الله دينه ، ويعلى كلمته

بالكتاب ، الذى فيه الحجة والبرهان .

والسيف الناصر ، بإذن الله ، وكلاهما قيامه بالعدل والقسط ، الذى يستدل به على حكمة البارى وكماله ، وكمال شريعته ، التى شرعها على ألسنة رسله .

ولما ذكر نبوة الأنبياء عموما ، ذكر من خواصهم، النبيين الكريمين نوحا ، وإبراهيم اللذين جعل الله النبوة والكتاب فى ذريتهما فقال :

[ولقد أرسلنا نوحا وإبراهيم وجعلنا فى ذريتهما النبوة والكتاب] أى : الأنبياء المتقدمين والمتأخرين ، كلهم من ذرية نوح ، وإبراهيم عليهما السلام .

ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا

وكذلك الكتب كلها ، نزلت على ذرية هذين النبيين الكريمين .

[فنهم] أى : ممن أرسلنا إليهم الرسل [مهتد] بدعوتهم ، منقاد لأمرهم ، مسترشد بهداهم .

[وكثير منهم فاسقون] أى : خارجون عن طاعة الله ، وطاعة رسله كما قال تعالى : « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

[ثم قفينا] أى : أتبعنا [على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى بن مريم].

خص الله عيسى عليه السلام ، لأن السياق مع النصارى ، الذين يزعمون اتباع عيسى .

[وآتيناه الإنجيل] الذى هو من كتب الله الفاضلة [وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة] كما قال تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ،ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى، ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون » .

ولهذا كان النصارى ، ألين من غيرهم قلوبا ، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام .

[ورهبانية ابتدعوها] والرهبانية : العبادة ، فهم ابتدعوا من عند أنفسهم عبادة ، ووظفوها على أنفسهم ، والتزموا لوازم ، ما كتبها الله عليهم ولا فرضها .

مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ

بل هم الذين التزموا بها من تلقاء أنفسهم ، قصدهم بذلك ، رضا الله .

ومع ذلك [فما رعوها حق رعايتها] أى : ما قاموا بها ، ولا أدوا حقوقها .

فقصروا من وجهين : من جهة ابتداعهم .

ومن جهة عدم قيامهم بما فرضوه على أنفسهم .

فهذه الحال ، هى الغالب من أحوالهم .

ومنهم : من هو مستقيم على أمر الله ولهذا قال :

[فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم] أى : الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، مع إيمانهم بعيسى ، كُلٌّ أعطاه الله على حسب إيمانه [وكثير منهم فاسقون] « أى : مكذبون بمحمد ، وخارجون عن الطاعة والطريق المستقيم » .

* وهذا الخطاب ، يحتمل أنه خطاب لأهل الكتاب ، الذين آمنوا بموسى وعيسى ، عليهما السلام ، يأمرهم أن يعملوا بمقتضى إيمانهم ، بأن يتقوا الله ، فيتركوا معاصيه ، ويؤمنوا برسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، وأنهم إن فعلوا ذلك ، أعطاهم الله [كفلين من رحمته] أى : نصيبين من الأجر .

لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ

نصيب على إيمانهم بمحمد صلى الله عليه وسلم .

ويحتمل أن يكون الأمر عاماً ، يدخل فيه أهل الكتاب وغيرهم ، وهذا هو الظاهر .

وأن الله أمرهم بالإيمان والتقوى ، الذى يدخل فيه جميع الدين ، ظاهره وباطنه ، أصوله وفروعه ، وأنهم إن امتثلوا هذا الأمر العظيم ، أعطاهم [كفلين من رحمته] لا يعلم قدهما ولا وصفهما إلا الله تعالى .

أجر على الإيمان ، وأجر على التقوى ، وأجر على امتثال الأوامر ، وأجر على اجتناب النواهى .

أو أن التثنية المراد بها تكرار الإيتاء ، مرة بعد أخرى .

[ويجعل لكم نورا تمشون به] أى يعطيكم علما ، وهدى ، ونوراً تمشون به فى ظلمات الجهل ، ويغفر لكم السيئات .

[والله ذو الفضل العظيم] فلا يستغرب كثرة هذا الثواب ، على فضل ذى الفضل العظيم ، الذى عم فضله ، أهل السموات والأرض ، فلا يخلو مخلوق من فضله طرفة عين ، ولا أقل من ذلك .

وقوله [لئلا يعلم أهل الكتاب أن لا يقدرون على شىء من فضل الله] أى : بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن آمن إيمانا عاما ، واتقى الله ، وآمن برسوله ، لأجل أن يكون عند أهل الكتاب علم ، بأنهم لا يقدرون على

وَٱللَّهُ ذو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

شيء من فضل الله ، أى : لا يحجرون على الله ، بحسب أهوائهم وعقولهم الفاسدة ، فيقولون :

« لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى » ، ويتمنون على الله الأمانى الفاسدة .

فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم المتقين لله أن أن لهم كفلين من رحمته ، ونورا ، ومغفرة ، رغما على أنوف أهل الكتاب .

وليعلموا [أن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء] ممن اقتضت حكمته تعالى أن يؤتيه من فضله [والله ذو الفضل العظيم] الذى لا يقادر قدره .

تم تفسير سورة الحديد ـ ولله الحمد والمنة

تفسير

سورة المجادلة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِينَ

---

* نزلت هذه الآيات الكريمات ، فى رجل من الأنصار ، اشتكته زوجته إلى الله ، وجادلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما حرمها على نفسه ، بعد الصحبة الطويلة ، والأولاد.

وكان هو ، رجلا شيخا كبيراً.

فشكت حالها ، وحاله إلى الله ، وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكررت ذلك ، وأبدت فيه وأعادت.

فقال تعالى : [قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما] أى : تخاطبكما فيما بينكما.

[إن الله سميع] لجميع الأصوات ، فى جميع الأوقات ، على تفنن الحاجات.

[بصير] يبصر دبيب النملة السوداء ، على الصخرة الصماء فى الليلة الظلماء.

يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟

وهذا إخبار عن كمال سمعه وبصره ، وإحاطتهما بالأمور الدقيقة والجليلة .

وفى ضمن ذلك ، الإشارة بأن الله سيزيل شكواها وبلواها .

ولهذا ذكر حكمها ، وحكم غيرها على وجه العموم فقال:

[الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهن إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم] .

المظاهرة من الزوجة : أن يقول الرجل لزوجته «أنت علىّ كظهر أمى» أو غيرها من محارمه ، أو « أنت علىّ حرام » .

وكان المعتاد عندهم فى هذا اللفظ « الظهر » ولهذا سماه الله « ظهاراً » فقال :

[الذين يظاهرون منكم من نسائهم ماهن أمهاتهن] أى : كيف يتكلمون بهذا الكلام ، الذى يعلمون أنه لا حقيقة له ، فيشبهون أزواجهم بأمهاتهم اللاتى ولدنهم ؟ .

ولهذا عظم الله أمره ، وقبحه فقال :

[وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً] أى : قولا شنيعا ، وكذبا .

[وإن الله لعفو غفور] عمن صدر منه بعض المخالفات ، فتداركها بالتوبة النصوح .

[والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا] اختلف العلماء فى معنى العود .

فقيل ، معناه العزم على جماع من ظاهر منها ، وأنه بمجرد عزمه ، تجب عليه الكفارة المذكورة ، ويدل على هذا ، أن الله تعالى ذكر فى الكفارة ، أنها تكون قبل المسيس ، وذلك إنما يكون بمجرد العزم .

وقيل : معناه حقيقة الوطء ، ويدل على ، أن الله قال : [ثم يعودون لما قالوا] .

والذى قالوا ، إنما هو الوطء .

وعلى كل من القولين [ف] إذا وجد العود ، صار كفارة هذا التحريم [تحرير رقبة مؤمنة] كما قيدت فى آية القتل ، ذكر ، أو أنثى ، بشرط أن تكون سالمة من العيوب الضارة بالعمل .

[من قبل أن يتماسا] أى : يلزم الزوج أن يترك وطء زوجته ، التى ظاهر منها ، حتى يكفر برقبة .

[ذلكم] الحكم الذى ذكرناه لكم ، [توعظون به] أى : يبين لكم حكمه مع الترهيب المقرون به ، لأن معنى الوعظ ذكر الحكم مع الترغيب والترهيب .

فالذى يريد أن يظاهر ، إذا ذكر أن عليه عتق رقبة ، كف نفسه عنه .

[والله بما تعملون خبير] فيجازى كل عامل بعمله .

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ذَٰلِكَ

[فمن لم يجد] رقبة يعتقها، بأن لم يجدها، أو لم يجد ثمنها [فـ] عليه [صيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا .

[فمن لم يستطع] الصيام [فإطعام ستين مسكينا] .

إما أن يطعمهم من قوت بلده ما يكفيهم ، كما هو قول كثير من المفسرين .

وإما أن يطعم كل مسكين مُدَّ بُرٍّ أو نصف صاع من غيره مما يجزى فى الفطرة كما هو قول طائفة أخرى .

ذلك الحكم الذى بيناه لكم ، ووضحناه [لتؤمنوا بالله ورسوله] وذلك بالتزام هذا الحكم وغيره من الأحكام ، والعمل به .

فإن التزام أحكام الله ، والعمل بها ، من الإيمان ، بل هى المقصودة ، ويزداد بها الإيمان ، ويكمل ، وينمو .

[وتلك حدود الله] التى تمنع من الوقوع فيها ، فيجب أن لا تتعدى ولا يقصر عنها .

[وللكافرين عذاب أليم (١)] .

وفى هذه الآيات ، عدة أحكام :

---

(١) قوله « وللكافرين عذاب أليم » أى : وللكافرين بحدود الله الذين يتعدونها ولا يلتزمون حدود الله « عذاب أليم » أى : مؤلم للغاية

لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

منها : لطف الله بعباده ، واعتناؤه بهم، حيث ذكر شكوى هذه المرأة المصابة ، وأزالها ، ورفع عنها البلوى ، بل رفع البلوى بحكمه العام ، عن كل من ابتلى بمثل هذه القضية .

ومنها : أن الظهار ، مختص بتحريم الزوجة ، لأن الله قال [من نسائهم] .

فلو حرم أمته ، لم يكن ظهارا ، بل هو من جنس تحريم الطيبات ، كالطعام ، والشراب ، تجب فيه كفارة اليمين فقط .

ومنها : أن لا يصلح الظهار [1] من امرأة قبل أن يتزوجها ، لأنها لا تدخل فى نسائه وقت الظهار ، كما لا يصح طلاقها ، سواء نجّز ذلك ، أو علّقه .

ومنها : أن الظهار محرم ، لأن الله سماه [منكراً من القول وزورا] .

ومنها : تنبيه الله على الحكم وحكمته ، لأن الله قال [ما هن أمهاتهم] .

ومنها : أنه يكره للرجل أن ينادى زوجته ويدعوها باسم محارمه ، كقوله « يا أمى » ، « يا أختى » ونحو ذلك ، لأن ذلك يشبه المحرم .

ومنها : أن الكفارة إنما تجب بالعود لما قال المظاهر ، على اختلاف القولين السابقين ، لا بمجرد الظهار .

---

(١) قوله «أن لا يصلح الظهار» هكذا فى الأصل المطبوع ، والصواب أن يقال « ومنها أنه لا يصح الظهار من امرأة » الخ. ليتناسب مع ما بعده

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ كُبِتُوا۟ كَمَا كُبِتَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ ﴾

ومنها : أنه يجزىء فى كفارة الرقبة ، الصغير والكبير ، والذكر ، والأنثى ، لإطلاق الآية فى ذلك .

ومنها : أنه يجب إخراجها إذا كانت عتقا ، أو صياما ، قبل المسيس ، كما قيده الله . بخلاف كفارة الإطعام ، فإنه يجوز المسيس والوطء فى أثنائها .

ومنها : أنه لعل الحكمة فى وجوب الكفارة قبل المسيس ، أن ذلك أدعى لإخراجها ، فإنه إذا اشتاق إلى الجماع ، وعلم أنه لا يُمكن من ذلك إلا بعد الكفارة ، بادر إلى إخراجها .

ومنها : أنه لابد من إطعام ستين مسكينا .

فلو جمع طعام ستين مسكينا ، ودفعه لواحد أو أكثر من ذلك ، دون الستين ، لم يجز ذلك ، لأن الله قال : [فإطعام ستين مسكينا] .

* محادة الله ورسوله : مخالفتهما ومعصيتهما ، خصوصا فى الأمور الفظيعة كمحادة الله ورسوله ، بالكفر ، ومعاداة أولياء الله .

و قوله : [كبتوا كما كبت الذى من قبلهم] أى : أذلوا وأهينوا ، كما فعل بمن قبلهم ، جزاء وفاقا .

وليس لهم حجة على الله ، فإن الله قد قامت حجته البالغة على الخلق .

وقد أنزل من الآيات البينات ، والبراهين ما يبين الحقائق ، ويوضح المقاصد .

فمن اتبعها ، وعمل عليها ، فهو من المهتدين الفائزين .

[وللكافرين] بها [عذاب مهين] أى : يهينهم ويذلهم .

فكما تكبروا عن آيات الله ، أهانهم الله وأذلهم :

يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

---

* يقول الله تعالى : [يوم يبعثهم الله] أى : يوم يبعث الله الخلق [جميعاً] فيقومون من أجداثهم سريعاً [فينبئهم بما عملوا] من خير وشر ، لأنه علم ذلك ، و [أحصاه الله] أى : كتبه فى اللوح المحفوظ ، وأمر الملائكة الكرام الحفظة ، بكتابته .

هذا [و] العاملون قد [نسوه] أى : نسوا ماعملوه والله أحصى ذلك .

[والله على كل شىء شهيد] على الظواهر والسرائر، والخبايا والخفايا .

ولهذا أخبر عن سعة علمه وإحاطته ، بما فى السموات والأرض ، من دقيق وجليل .

وأنه [ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا] .

والمراد بهذه المعية : معية العلم والإحاطة ، بما تناجوا ، به وأسروه فيما بينهم ، ولهذا قال : [إن الله بكل شىء عليم]

ثم قال تعالى : [ألم تر إلى الذين] إلى [تحشرون] .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نُهُوا عَنِ النَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَيَتَنَاجَوْنَ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ اللَّهُ وَيَقُولُونَ فِي أَنفُسِهِمْ لَوْلَا

---

* النجوى هى : التناجى بين اثنين فأكثر ، وقد تكون فى الخير ، وتكون فى الشر .

فأمر الله المؤمنين أن يتناجوا بالبر ، وهو : اسم جامع لكل خير وطاعة ، وقيام بحق الله ، وحق عباده .

والتقوى ، وهى ـ هنا ـ اسم جامع لترك جميع المحارم والمآثم .

فالمؤمن يمتثل هذا الأمر الإلهى ، فلا تجده مناجياً ومتحدثاً ، إلا بما يقربه إلى الله ، ويباعده من سخطه .

والفاجر ، يتهاون بأمر الله ، ويناجى بالإثم والعدوان ، ومعصية الرسول ، كالمنافقين الذين هذا دأبهم وحالهم مع الرسول صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى [وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله] أى : يسيئون الأدب فى تحيتهم لك .

[ويقولون فى أنفسهم] أى : يسرون فيها ما ذكر عالم الغيب والشهادة عنهم ، وهو قولهم : [لولا يعذبنا الله بما نقول] .

ومعنى ذلك أنهم يتهانون بذلك ، ويستدلون بعدم تعجيل العقوبة عليهم ، أن ما يقولونه غير محذور .

وقال تعالى فى بيان أنه يمهل ولا يهمل : [حسبهم جهنم يصلونها

يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَـٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَـٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾

إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ

فبئس المصير] أي تكفيهم جهنم ، التى جمعت كل عذاب وشقاء عليهم ، تحيط بهم ، ويعذبون بها [فبئس المصير]« أى : المرجع والمآل ، جهنم » .

وهؤلاء المذكورون ، إما أناس من المنافقين ، يظهرون الإيمان ، ويخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم ، بهذا الخطاب ، الذى يوهمون أنهم أرادوا به خيراً ، وهم كذبة فى ذلك .

وإما أناس من أهل الكتاب ، الذين سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا « السام عليك يا محمد » يعنون : الموت .

* يقول تعالى [إنما النجوى] أى : تناجى أعداء المؤمنين بالمؤمنين ، بالمكر والخديعة ، وطلب السوء ، من الشيطان ، الذى كيده ضعيف .

[ليجزى الذين آمنوا] هذا غاية هذا المكر ومقصوده .

[وليس بضارهم شيئاً إلا بإذن الله] فإن الله وعد المؤمنين بالكفاية ، والنصر على الأعداء ، وقال تعالى : « ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله » .

ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَـٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍ وَٱللَّهُ

فأعداء الله ورسوله والمؤمنين ، مهما تناجوا ومكروا فإن ضرر ذلك ، عائد إلى أنفسهم ، ولا يضر المؤمنين ، إلا شيء قدره الله وقضاه .

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] أي : ليعتمدوا عليه ، ويثقوا بوعده .

فإن من توكل على الله ، كفاه كيد الأعداء ،وكفاه أمر دينه ودنياه .

* هذا أدب من الله لعباده ، إذا اجتمعوا فى مجلس من مجالس مجتمعاتهم ، واحتاج بعضهم ، أو بعض القادمين للتفسح له فى المجلس ، فإن من الأدب ، أن يفسحوا له ، تحصيلا لهذا المقصود .

وليس ذلك بضار للفاسح شيئاً ، فيحصل مقصود أخيه ، من غير ضرر يلحقه .

والجزاء من جنس العمل، فإن من فسح لأخيه، فسح الله له ، ومن وسع لأخيه ، وسع الله عليه .

[وإذا قيل انشزوا] أى : ارتفعوا وتنحوا عن مجالسكم ، لحاجة تعرض .

[فانشزوا] أى : فبادروا للقيام ، لتحصيل تلك المصلحة .

فإن القيام بمثل هذه الأمور ، من العلم والإيمان ، والله تعالى يرفع

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَـٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ

أهل العلم والإيمان ، درجات بحسب ما خصهم به ، من العلم والإيمان .

[والله بما تعلمون خبير] فيجازى كل عامل بعمله ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وفى هذه الآية ، فضيلة العلم وأن زينته وثمرته ، التأدب بآدابه ، والعمل بمقتضاه .

* يأمر تعالى المؤمنين بالصدقة ، أمام مناجاة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، تأديبا لهم ، وتعليما ، وتعظيما للرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن هذا التعظيم ، خير للمؤمنين ، وأطهر .

أى : بذلك ، يكثر خيركم وأجركم ، وتحصل لكم الطهارة من الأدناس ، التى من جملتها ، ترك احترام الرسول صلى الله عليه وسلم ، والأدب معه بكثرة المناجاة ، التى لا ثمرة تحتها .

فإنه إذا أمر بالصدقة بين يدى مناجاته ، صار هذا ميزانا ، لمن كان حريصا على العلم والخير ، فلا يبالى بالصدقة .

ومن لم يكن له حرص ولا رغبة فى الخير ، وإنما مقصوده ، مجرد كثرة الكلام ، فينكف بذلك ، عن الذى يشق على الرسول ، هذا فى الواجد للصدقة .

صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ

وأما الذى لا يجد الصدقة ، فإن الله لم يضيق عليه الأمر ، بل عفا عنه وسامحه ، وأباح له المناجاة ، بدون تقديم صدقة لا يقدر عليها .

ثم لما رأى تعالى شفقة المؤمنين ، ومشقة الصدقات عليهم ، عند كل مناجاة ، سهل الأمر عليهم ، ولم يؤاخذهم بترك الصدقة بين يدى المناجاة وبقى التعظيم للرسول والاحترام بحاله ، لم ينسخ ، لأن هذا من باب المشروع لغيره ، ليس مقصوداً لنفسه .

وإنما المقصود ، هو الأدب مع الرسول والإكرام له .

وأمرهم تعالى أن يقوموا بالمأمورات الكبار المقصودة بنفسها فقال :

[فإذ لم تفعلوا] أى : لم يهن عليكم تقديم الصدقة ، ولا يكفى هذا فإنه ليس من شرط الأمر ، أن يكون هينا على العبد ، ولهذا قيده بقوله :

[وتاب الله عليكم] أى : عفا لكم عن ذلك .

[فأقيموا الصلاة] بأركانها وشروطها ، وجميع حدودها ، ولوازمها .

[وآتوا الزكاة] المفروضة فى أموالكم ، إلى مستحقيها .

وهاتان العبادتان ، هما أم العبادات البدنية والمالية .

فمن قام بهما على الوجه الشرعى ، فقد قام بحقوق الله ، وحقوق عباده .

ولهذا قال بعده : [وأطيعوا الله ورسوله] وهذا أشمل ما يكون من الأوامر .

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٣﴾

أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ قَوۡمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مَّا هُم مِّنكُمۡ وَلَا مِنۡهُمۡ وَيَحۡلِفُونَ عَلَى ٱلۡكَذِبِ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤﴾

فيدخل في ذلك ، طاعة الله وطاعة رسوله، بامتثال أوامرهما، واجتناب نواهيهما ، وتصديق ما أخبرا به ، والوقوف عند حدود الشرع .

والعبرة فى ذلك ، على الإخلاص والإحسان ، فلهذا قال :

[والله خبير بما تعملون] فيعلم تعالى أعمالهم ، وعلى أى وجه صدرت ، فيجازيهم على حسب علمه ، بما فى صدورهم .

* يخبر تعالى عن شناعة حال المنافقين ، الذين يتولون الكافرين ، من اليهود والنصارى وغيرهم ، ممن غضب الله عليهم ، ونالوا من لعنة الله ، أوفى نصيب ، وأنهم ليسوا من المؤمنين ولا من الكافرين « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء »

فليسوا مؤمنين ظاهراً وباطناً لأن باطنهم مع الكفار ، ولا مع الكفار ظاهرا وباطنا لأن ظاهرهم مع المؤمنين، وهذا وصفهم ، الذى نعتهم الله به .

والحال أنهم يحلفون على الذى هو الكذب ، فيحلفون ، أنهم مؤمنون ، والحال أنهم ليسوا مؤمنين .

فجزاء هؤلاء الخونة الفجرة الكذبة، أن الله أعد لهم عذابا شديداً، لا يقادر قدره ، ولا يعلم وصفه ، إنهم ساء ما كانوا يعملون ، حيث عملوا بما يسخط الله ، ويوجب لهم العقوبة واللعنة .

أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾ لَّن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ

[اتخذوا أيمانهم جنة] أى : ترسا ووقاية ، يتقون بها من لوم الله ورسوله والمؤمنين .

فبسبب ذلك ، صدوا أنفسهم وغيرهم عن سبيل الله ، وهو الصراط الذى من سلكه ، أفضى به إلى جنات النعيم .

ومن صد عنه ، فليس إلا الصراط الموصل إلى الجحيم .

[فلهم عذاب مهين] حيث إنهم لما استكبروا عن الإيمان بالله ، والانقياد لآياته . أهانهم بالعذاب السرمدى ، الذى لا يُفتَّر عنهم ساعة ، ولا هم يُنظَرُون .

[لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً] أى : لا تدفع عنهم شيئا من العذاب ، ولا تحصل لهم قسطا من الثواب .

[أولئك أصحاب النار] الملازمون لها ، الذين لا يخرجون عنها .

[وهم فيها خالدون] ومن عاش على شىء ، مات عليه .

فكما أن المنافقين فى الدنيا ، يموهون على المؤمنين ، ويحلفون لهم أنهم مؤمنون ، فإذا كان يوم القيامة وبعثهم الله جميعاً ، حلفوا لله كما حلفوا للمؤمنين ، ويحسبون فى حلفهم هذا ، أنهم على شىء ، لأن كفرهم ،

كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ

ونفاقهم، وعقائدهم الباطلة، لم تزل ترسخ فى أذهانهم شيئا فشيئاً، حتى غرتهم وظنوا أنهم على شىء يعتد به، ويعلق عليه الثواب، وهم كاذبون فى ذلك.

ومن المعلوم، أن الكذب لا يروج على عالم الغيب والشهادة.

وهذا الذى جرى عليهم، من استحواذ الشيطان، الذى استولى عليهم، وزين لهم أعمالهم، وأنساهم ذكر الله، وهو العدو المبين، الذى لا يريد بهم إلا الشر «إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير».

[أولئك حزب الشيطان، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون] الذين خسروا دينهم ودنياهم وأهليهم.

* هذا وعد، ووعيد.

وعيد لمن حادّ الله ورسوله، بالكفر والمعاصى، أنه مخذول مذلول، لا عاقبة له حميدة، ولا راية له منصورة.

ووعد، لمن آمن به، وبرسله، واتبع ما جاء به المرسلون، فصار من

فِي ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِيٓ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ يُوَآدُّونَ

حزب الله المفلحين ، أن لهم الفتح والنصر والغلبة ، فى الدنيا والآخرة .

وهذا وعد لا يُخْلَفَ ، ولا يُغَيَّرَ ، فإنه من الصادق القوى العزيز ، الذى لا يعجزه شىء يريده .

* يقول تعالى : [لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله] .

أى : لا يجتمع هذا وهذا ، فلا يكون العبد مؤمنا بالله واليوم الآخر حقيقة ، إلا كان عاملا على مقتضى إيمانه ولوازمه ، من محبة من قام بالإيمان ، وموالاته ، بغض من لم يقم به ، ومعاداته ، ولو كان أقرب الناس إليه .

وهذا هو الإيمان على الحقيقة ، الذى وجدت ثمرته ، والمقصود منه .

وأهل هذا الوصف ، هم الذين كتب الله فى قلوبهم الإيمان ،أى :رسمه وثبته ، وغرسه غرسا ، لا يتزلزل ، ولا تؤثر فيه الشبه والشكوك .

وهم الذين قواهم الله بروح منه ، أى : بوحيه ، ومعرفته ، ومدده الإلهى ، وإحسانه الربانى .

وهم الذين ، لهم الحياة الطيبة فى هذه الدار ، ولهم جنات النعيم فى دار القرار ، التى فيها كل ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وتختار ، ولهم أفضل النعيم وأكبره .

مَنْ حَادَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

وهو أن الله يحل عليهم رضوانه ، فلا يسخط عليهم أبدا ، ويرضون عن ربهم ، بما يعطيهم من أنواع الكرامات ، ووافر المثوبات ، وجزيل الهبات ، ورفيع الدرجات .

بحيث لا يرون فوق ما أعطاهم مولاهم ، غاية ، ولا وراءه نهاية .

وأما من يزعم أنه يؤمن بالله واليوم الآخر ، وهو مع ذلك ، مُوَادٌّ لأعداء الله ، محب لمن نبذ الإيمان وراء ظهره ، فإن هذا إيمان زَعْمِيٌّ ، لا حقيقة له .

فإن كل أمر ، لا بد له من برهان تصدقه ، فمجرد الدعوى ، لا تفيد شيئا ، ولا يصدق صاحبها .

تم تفسير سورة المجادلة — والحمد لله

تفســـير

سُورَةُ الحَشْر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

---

* هذه السورة تسمى « سورة بنى النضير » وهم طائفة كبيرة من اليهود ، فى جانب المدينة ، وقت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم .

فلما بعث النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجر إلى المدينة ، كفروا به فى جملة من كفر من اليهود .

فهادن النبي صلى الله عليه وسلم ، طوائف اليهود ، الذين هم جيرانه فى المدينة .

فلما كان بعد وقعة بدر بستة أشهر أونحوها ، خرج إليهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وكلمهم أن يعينوه فى دية الكلابيين ، الذين قتلهم عمرو بن أمية الضمرى .

فقالوا : نفعل يا أباالقاسم ، اجلس ههنا ، حتى نقضى حاجتك .

نخلا بعضهم ببعض ، وسوّل لهم الشيطان ،الشقاء الذى كتب عليهم .

. . . .

فتآمروا على قتله صلى الله عليه وسلم ، فقالوا : أيكم يأخذ هذه الرحا ، فيصعد ، فيلقيها على رأسه يشدخه بها ؟

فقال أشقاهم ، عمرو بن جحاش : أنا .

فقال لهم سلام بن مشكم : لاتفعلوا ، فوالله ليُخْبَرَنَّ بما هممتم به ، وإنه لنقض للعهد الذى بيننا وبينه .

وجاء الوحى على الفور إليه من ربه ، بما هموا به .

فنهض مسرعا ، فتوجه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه ، فقالوا : نهضت ، ولم نشعر بك .

فأخبرهم بما همت يهود به .

وبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . « أن اخرجوا من المدينة ولا تساكنونى بها ، وقد أجلتكم عشرا ، فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه » :

فأقامو أياما يتجهزون ، وأرسل إليهم المنافق عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول « أن لاتخرجوا من دياركم ، فإن معى ألفين ، يدخلون معكم حصنكم فيموتون دونكم ، وتنصركم قريظة وحلفاؤكم من غطفان » .

وطمع رئيسهم حُيَىّ بن أخطب فيما قال له ، وبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

إنا لا نخرج من ديارنا ، فاصنع ما بدا لك .

فكبَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، ونهضوا إليهم ، وعلى بن أبى طالب يحمل اللواء :

. . . .

وأقاموا على حصونهم يرمون بالنبال والحجارة .

واعتزلتهم قريظة ، وخانهم ابن أُبَىّ ، وحلفاؤهم من غطفان .

فحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،وقطع نخلهم وحرّق .

فأرسلوا إليه : نحن نخرج من المدينة .

فأنزلهم ، على أن يخرجوا منها بنفوسهم ، وذراريهم ، وأن لهم ما حملت إبلهم إلا السلاح .

وقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الأموال والسلاح .

وكانت بنو النضير ، خالصة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، لنوائبه ، ومصالح المسلمين .

ولم يخمسها ، لأن الله فاءها عليه ، ولم يوجف المسلمون عليها ، بخيل ولاركاب

وأجلاهم إلى خيبر ، وفيهم حُيَيٌّ بن أخطب كبيرهم ، واستولى على أرضهم وديارهم .

وقبض السلاح ، فوجد من السلاح ، خمسين درعا ، وخمسين بيضة ، وثلثمائة وأربعين سيفا .

هذا حاصل قصتهم ، كما ذكرها أهل السير .

فافتتح تعالى هذه السورة ، بالإخبار أن جميع من فى السموات والأرض ، تسبح بحمد ربها ، وتنزهه عما لايليق بجلاله ، وتعبده وتخضع لعظمته ، لأنه العزيز ، الذى قد قهر كل شىء ، فلا يمتنع عليه شىء ، ولا يستعصى عليه عسير .

ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟ وَقَذَفَ

الحكيم فى خلقه وأمره ، فلا يخلق شيئا عبثا ، ولا يشرع ما لا مصلحة فيه ، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته .

ومن ذلك ، نصره لرسوله صلى الله عليه وسلم ، على الذين كفروا ، من أهل الكتاب ، من بني النضير ، حين غدروا برسوله ، فأخرجهم من ديارهم وأوطانهم ، التى ألفوها وأحبوها .

وكان إخراجهم منها ، أول حشر وجلاء ، كتبه الله عليهم ، على يد رسوله محمد صلى الله عليه وسلم إلى خيبر .

ودلت الآية الكريمة ، أن لهم حشرا وجلاء غير هذا .

فقد وقع حين أجلاهم النبي صلى الله عليه وسلم من خيبر ، ثم عمر رضى الله عنه ، أخرج بقيتهم منها .

[ماظننتم] أيها المسلمون [أن يخرجوا] من ديارهم ، لحصانتها ، ومنعتها ، وعزهم فيها .

[وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله] فأعجبو بها ، وغرتهم ، وحسبوا أنهم لا يُنَالُون بها ، ولا يقدر عليها أحد .

وقدر الله وراء ذلك كله ، لاتغنى عنه الحصون والقلاع ، ولا تُجْدِى فيه القوة والدفاع .

فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ

ولهذا قال : [فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا] أى : من الأمر والباب، الذى لم يخطر ببالهم ، أن يؤتوا منه .

وهو أنه تعالى [قذف فى قلوبهم الرعب] وهو الخوف الشديد ، الذى هو جند الله الأكبر ، الذى لا ينفع معه عَدَدٌ ولا عُدَّة ، ولا قوة ولا شدة .

فالأمر الذى يحتسبونه ، ويظنون أن الخلل يدخل عليهم منه إن دخل، هو الحصون التى تحصنوا بها ، واطمأنت نفوسهم إليها .

ومن وثق بغير الله فهو مخذول ، ومن ركن إلى غير الله ، كان وبالا عليه .

فأتاهم أمر سماوى ، نزل على قلوبهم ، التى هى محل الثبات والصبر ، أو الخور والضعف .

فأزال قوتها وشدتها ، وأورثها ضعفا وخورا ، وجبنا ، لا حيلة لهم فى دفعه ، فصار ذلك عونا عليهم ، ولهذا قال :

[يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين] وذلك أنهم صالحوا النبى صلى الله عليه وسلم ، على أن لهم ما حملت الإبل .

فنقضوا لذلك ، كثيرا من سقوفهم ، التى استحسنوها ، وسلطوا المؤمنين ، بسبب بغيهم على إخراب ديارهم ، وهدم حصونهم .

فهم الذين جنوا على أنفسهم ، وصاروا أكبر عون عليها .

فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴿٢﴾ وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ

[فاعتبروا يا أولى الأبصار] أى : البصائر النافذة ، والعقول الكاملة، فإن فى هذا معتبرا ، يعرف به صنع الله فى المعاندين للحق ، المتبعين لأهوائهم، الذين لم تنفعهم عزتهم ، ولا منعتهم قوتهم ، ولا حصنتهم حصونهم ، حين جاءهم أمر الله ، فوصل إليهم النكال بذنوبهم ، والعبرة بعموم المعنى ، لا بخصوص السبب .

فإن هذه الآية ، تدل على الأمر بالاعتبار ، وهو اعتبار النظير بنظيره ، وقياس الشىء على ما يشابهه ، والتفكر فيما تضمنته الأحكام ، من المعانى والحكم ، التى هى محل العقل والفكرة ، وبذلك يكمل العقل ، وتتنور البصيرة ، ويزداد الإيمان ، ويحصل الفهم الحقيقى .

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء اليهود ، لم يصبهم جميع ما يستحقون من العقوبة .

وأن الله خفف عنهم .

[ولولا أن كتب عليهم الجلاء] الذى أصابهم وقضاه عليهم ، بقدره الذي لا يبدل ولا يغير ، لكان لهم شأن آخر من عذاب الدنيا ونكالها .

ولكنهم ـ وإن فاتهم العذاب الشديد الدنيوى ـ فإن لهم فى الآخرة عذاب النار ، الذى لا يمكن أن يعلم شدته إلا الله .

فلا يخطر ببالهم ، أن عقوبتهم ، انقضت وفرغت ، ولم يبق لهم منها بقية .

فما أعد الله لهم من العذاب فى الآخرة ، أعظم وأطم .

بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ

ذلك بأنهم [شاقوا الله ورسوله] وعادوهما وحاربوهما ، وسعوا فى معصيتهما .

وهذه سنته وعادته فيمن شاقه [ومن يشاق الله فإن الله شديد العقاب]

ولما لام بنو النضير ، رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين فى قطع النخيل والأشجار ، وزعموا أن ذلك من الفساد ، وتوصلوا بذلك ، إلى الطعن بالمسلمين ، أخبر تعالى ، أن قطع النخيل إن قطعوه ، أو إبقاءهم ، إياه ، إن أبقوه [فبإذن الله] وأمره [وليخزى الفاسقين] حيث سلطكم على قطع نخلهم ، وتحريقها ، ليكون ذلك نكالا لهم ، وخزيا فى الدنيا ، وذلا يعرف به عجزهم التام ، الذى ما قدروا على استنقاذ نخلهم ، الذى هو مادة قوتهم .

واللينة : تشمل النخيل كله ، على أصح الاحتمالات وأولاها .

فهذه حال بنى النضير ، وكيف عاقبهم الله فى الدنيا .

ثم ذكر من انتقلت إليه أموالهم وأمتعتهم فقال :

[وما أفاء الله على رسوله منهم] أى : من أهل هذه القرية ، وهم بنو النضير .

[ف] إنكم يا معشر المسلمين [ما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب] أى : ما أجلبتم ولا حشدتم ، أى : لم تتعبوا بتحصيلها ، لا بأنفسكم ،

فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ

ولا بمواشيكم ، بل قذف الله فى قلوبهم الرعب ، فأتتكم صَفْواً عفْواً .

ولهذا قال [ولـكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شىء قدير] .

ومن تمام قدرته ، أنه لا يمتنع عليه ممتنع ، ولا يعزز من دونه قَوِىٌّ .

وتعريف الفىء باصطلاح الفقهاء ، هو ما أخذ من مال الـكفار بحق ، من غير قتال ، كهذا المال الذى فَرُّواَ وتركوه ، خوفا من المسلمين .

وسمى فيئا ، لأنه رجع من الـكفار ، الذين هم غير مستحقين له ، إلى المسلمين ، الذين لهم الحق الأوفر فيه .

وحكمه العام ، كما ذكره الله بقوله [ما أفاء الله على رسوله من أهل القري] عموما ، سواء كان فى وقت الرسول أو بعده ، على من تولى « الإمارة » من بعده من أمته .

[فلله وللرسول و لذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل] .

وهذه الآية ، نظير الآية ، التى فى سورة الأنفال وهى قوله : « واعلموا أنما غنتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » .

فهذا الفىء يقسم خمسة أقسام :

لله ، ولرسوله ، يصرف فى مصالح المسلمين العامة .

وخمس لذى القربى ، وهم : بنو هاشم ، وبنو المطلب ، حيث كانوا ، يُسَوَّى فيه بين ، ذكورهم وإناثهم .

وإنما دخل بنو المطلب فى خمس الخمس ، مع بنى هاشم ، ولم يدخل بقية بنى عبد مناف ، لأنهم شاركوا بنى هاشم ، فى دخولهم الشعب ، حين تعاقدت قريش عل هجرهم وعداوتهم ، فنصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بخلاف غيرهم .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم ، فى بنى عبد المطلب « إنهم لم يفارقونى فى جاهلية ولا إسلام » .

وخمس لفقراء اليتامى ، وهم : من لا أب له ولم يبلغ .

وخمس للمساكين . وخمس لأبناء السبيل ، وهم الغرباء المنقطع بهم فى غير أوطانهم .

وإنما قدر الله هذا التقدير ، وحصر الفىء فى هؤلاء المعينين [كى لا يكون دولة] أى : مدوالة واختصاصا [بين الأغنياء منكم] فإنه لو لم يقدره ، لتداولته الأغنياء الأقوياء ، ولما حصل لغيرهم من العاجزين منه شىء ، وفى ذلك من الفساد ، مالا يعلمه إلا الله .

كما أن في اتباع أمر الله وشرعه ، من المصالح ، مالا يدخل تحت الحصر .

ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية ، والأصل العام فقال :

[وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا] وهذا شامل

لأصول الدين وفروعه ، وظاهره وباطنه ، وأن ما جاء به الرسول ، يتعين على العباد ، الأخذ به واتباعه ، ولا تحل مخالفته .

وأن نص الرسول على حكم الشيء ، كنص الله تعالى ، لا رخصة لأحد ولا عذر له فى تركه ، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله .

ثم أمر بتقواه ، التى بها عمارة القلوب والأرواح ، والدنيا والآخرة ، وبها السعادة الدائمة ، والفوز العظيم ، وبإضاعتها ، الشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى فقال :

[واتقوا الله إن الله شديد العقاب] على من ترك التقوى ، وآثر اتباع الهوى .

ثم ذكر تعالى ، الحكمة والسبب الموجب ، لجعله تعالى أموال الفيء ، لمن قدرها له ، وأنهم حقيقون بالإعانة ، مستحقون لأن تجعل لهم ، وأنهم ما بين مهاجرين ، قد هجروا المحبوبات والمألوفات ، من الديار ، والأوطان ، والأحباب ، والخلان ، والأموال ، رغبة فى الله ، ومحبة لرسول الله .

فهؤلاء هم الصادقون ، الذين عملوا بمقتضى إيمانهم ، وصدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة ، والعبادات الشاقة .

بخلاف من ادعى الإيمان ، وهو لم يصدقه بالجهاد والهجرة وغيرهما ، من العبادات ، وبين أنصارهم ، الأوس ، والخزرج ، الذين آمنوا بالله ورسوله

دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن

طوعا ومحبة واختيارا ، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومنعوه من الأحمر والأسود ، وتبوأوا دار الهجرة والإيمان حتى صارت موئلا ومرجعا يرجع إليه المؤمنون ، ويلجأ إليه المهاجرون ،ويسكن بحماه المسلمون إذ كانت البلدان كلها ، بلدان حرب ، وشرك وشر .

فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار ، حتى انتشر الاسلام،وقوى وجعل يزداد شيئا فشيئا ، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن ، والبلدان ، بالسيف والسنان .

الذين من جملة أوصافهم الجميلة ، أنهم [يحبون من هاجر إليهم]وهذا لمحبتهم لله ورسوله ، أحبوا أحبابه ، وأحبوا من نصر دينه .

[ولا يجدون فى أنفسهم حاجة مما أوتوا] أى : لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله ، وخصهم به ، من الفضائل والمناقب ، التى هم أهلها .

وهذا يدل على سلامة صدورهم ، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنها .

ويدل ذلك ، على أن المهاجرين ، أفضل من الأنصار ، لأن الله قدمهم بالذكر ، وأخبر أن الأنصار ، لا يجدون فى صدورهم حاجة ، مما أوتوا .

يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِن

فدل على أن الله تعالى، آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم، ولأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

وقوله [ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة] أى: ومن أوصاف الأنصار، التى فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها عمن سواهم، الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس، من الأموال وغيرها وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة.

وهذا لا يكون، إلا من خلق زكى، ومحبة لله تعالى، مقدمة على شهوات النفس ولذاتها.

ومن ذلك، قصة الأنصارى الذى نزلت الآية بسببه، حين آثر ضيفه بطعامه، وطعام أهله وأولاده، وباتوا جياعا.

والإيثار عكس الأثرة.

فالإيثار محمود، والأثرة مذمومة، لأنها من خصال البخل والشح.

ومن رزق الإيثار، فقد وُقِىَ شح نفسه [ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون].

ووقاية شح النفس، يشمل وقايتها الشح، فى جميع ما أمر به.

فإنه إذا وُقِىَ العبد شُحَّ نفسه، سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعا منقادا، منشرحا بها صدره.

وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه، وإن كان محبوبا للنفس، تدعو إليه، وتتطلع إليه.

بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

وسمحت نفسه ببذل الأموال ، فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاته ، وبذلك يحصل للفلاح والفوز .

بخلاف من لم يوق شح نفسه ، بل ابتلى بالشح بالخير ، الذى هو أصل الشر ومادته .

فهذا الصنفان ، الفاضلان الزكيان ، هم الصحابة الكرام ، والأئمة الأعلام ، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ، ما سبقوا به من بعدهم ، وأدركوا به من قبلهم ، فصاروا أعيان المؤمنين ، وسادات المسلمين وقادات المتقين .

وحَسْبُ مَنْ بعدهم من الفضل ، أن يسير خلفهم ، ويأتم بهداهم .

ولهذا ذكر الله من اللاحقين ، من هو مؤتم بهم فقال : [والذين جاءوا من بعدهم] .

أي : من بعد المهاجرين والأنصار [يقولون] على وجه النصح لأنفسهم ولسائر المؤمنين : [ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان] .

وهذا دعاء شامل لجميع المؤمنين ، من السابقين ، من الصحابة ، ومن قبلهم ومن بعدهم .

وهذا من فضائل الإيمان أن المؤمنين ينتفع بعضهم ببعض ، ويدعو بعضهم لبعض ، بسبب المشاركة فى الإيمان ، المقتضى لعقد الأخوة بين المؤمنين التى من فروعها ، أن يدعو بعضهم لبعض ، وأن يحب بعضهم بعضا .

ولهذا ذكر الله فى هذا الدعاء ، نَفْيَ الغل عن القلب ، الشامل لقليله وكثيره ، الذى إذا انتفى ، ثبت ضده ، وهو : المحبة بين المؤمنين ، والموالاة والنصح ، ونحو ذلك ، مما هو من حقوق المؤمنين .

فوصف الله مَنْ بعد الصحابة بالإيمان ، لأن قولهم [سبقونا بالإيمان] دليل على المشاركة فيه ، وأنهم تابعون للصحابة فى عقائد الإيمان وأصوله ، وهم أهل السنة والجماعة ، الذين لا يصدق هذا الوصف التام إلا عليهم .

ووصفهم بالإقرار بالذنوب ، والاستغفار منها واستغفار بعضهم لبعض ، واجتهادهم فى إزالة الغل والحقد لإخوانهم المؤمنين ، لأن دعاءهم بذلك ، مستلزم لما ذكرنا ، ومتضمن لمحبة بعضهم بعضا وأن يحب أحدهم لأخيه ، ما يحب لنفسه ، وأن ينصح له ، حاضرا وغائبا ، حيا وميتا .

ودلت الآية الكريمة ، على أن هذا من جملة حقوق المؤمنين بعضهم لبعض .

ثم ختموا دعاءهم ، باسمين كريمين ، دالين على كمال رحمة الله ، وشدة رأفته وإحسانه بهم ، الذى من جملته ، بل أجله ، توفيقهم للقيام بحقوقه وحقوق عباده .

فهؤلاء الأصناف الثلاثة هم أصناف هذه الأمة ، وهم المستحقون للفىء الذى مصرفه راجع إلى مصالح الإسلام .

وهؤلاء أهله ، الذين هم أهله ، جعلنا الله منهم ، بمنه وكرمه .

ٱلْـكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَـكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّـكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَـكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنتُمْ أَشَدُّ

ثم تعجب تعالى من حال المنافقين ، الذين أطمعوا إخوانهم من أهل الـكتاب ، فى نصرتهم ، وموالاتهم على المؤمنين ، وأنهم يقولون لهم : [لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا] أى : لا نطيع فى عدم نصرتـكم أحداً ، يعذلنا أو يخوفنا .

[وإن قوتلتم لننصرنـكم ، والله يشهد إنهم لـكاذبون] فى هذا الوعد الذى غروا به إخوانهم .

ولا يستـكثر هذا عليهم ، فإن الـكذب وصفهم ، والغرور والخداع ، مقارنهم ، والنفاق والجبن يصحبهم ، ولهذا كذبهم الله بقوله ، الذى وجد مخبره كما أخبر به ، ووقع طبق ما قال ، فقال :

[لئن أخرجوا] أى : من ديارهم جلاء ونفيا [لايخرجون معهم] لمحبتهم للأوطان وعدم صبرهم على القتال ، وعدم وفائهم بالوعد .

[ولئن قوتلوا لا ينصرونهم] بل يستولى عليهم الجبن ، ويملـكهم الفشل ، ويخذلون إخوانهم ، أحوج ما كانوا إليهم .

[ولئن نصروهم] على الفرض والتقدير ، [ليولن الأدبار ثم لاينصرون] أى : سيحصل منهم الإدبار عن القتال والنصرة ، ولا يحصل لهم نصر من الله .

رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَٰتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَآءِ جُدُرٍ بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ

والسبب الذى حملهم على ذلك ، أنكم - أيها المؤمنين - [أشد رهبة فى صدورهم من الله] تخافوا منكم ، أعظم مما يخافون من الله ، وقدموا مخافة المخلوق ، الذى لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، على مخافة الخالق ، الذي بيده الضر والنفع ، والعطاء والمنع .

[ذلك بأنهم قوم لا يفقهون] مراتب الأمور ، ولا يعرفون حقائق الأشياء ، ولا يتصورون العواقب .

وإنما الفقه كل الفقه ، أن يكون خوف الخالق ، ورجاؤه ، ومحبته ، مقدمة على غيرها ، وغيرها تبعا لها .

[لا يقاتلونكم جميعا] أى : فى حال الاجتماع [إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر] أى : لا يثبتون على قتالكم ، ولا يعزمون عليه ، إلا إذا كانوا متحصنين فى القرى ، أو من وراء الجدر ، والأسوار .

فإنهم إذ ذاك ، ربما يحصل منهم امتناع ، اعتمادا على حصونهم وجدرهم لا شجاعة بأنفسهم ، وهذا من أعظم الذم .

[بأسهم بينهم شديد] أى : بأسهم فيما بينهم شديد ، لا آفة فى أبدانهم ولا فى قوتهم .

وإنما الآفة ، فى ضعف إيمانهم ، وعدم اجتماع كلمتهم ولهذا قال :

[تحسبهم جميعا] حين تراهم مجتمعين ومتظاهرين .

لَّا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُواْ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ

[و] لكن [قلوبهم شتى] أى : متباغضة متفرقة متشتتة .

[ذاك] الذى أوجب لهم اتصافهم بما ذكر [بأنهم قوم لا يعقلون] أى : لا عقل عندهم ، ولا لب .

فإنهم لو كانت لهم عقول ، لآثروا الفاضل على المفضول ، ولما رضوا لأنفسهم بأبخس الخطتين ، ولكانت كلمتهم مجتمعة ، وقلوبهم مؤتلفة،فبذلك يتناصرون ، ويتعاضدون ، ويتعاونون على مصالحهم الدينية والدنيوية ، مثل هؤلاء المخذولين من أهل الكتاب ، الذين انتصر الله لرسوله منهم ، وأذاقهم الخزى في الحياة الدنيا .

وعدم نصر من وعدهم بالمعاونة [كمثل الذين من قبلهم قريبا] وهم كفار قريش الذين زين لهم الشيطان أعمالهم ، وقال « لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم * فلما تراءت الفئتان ، نكص على عقبيه وقال : إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون » .

فغرتهم أنفسهم ، وغرهم من غرهم ، الذين لم ينفعوهم، ولم يدفعوا عنهم العذاب،حتى أتوا « بَدْراً » بفخرهم وخيلائهم،ظانين أنهم مدركون برسول الله وللمؤمنين أمانيهم .

فنصر الله رسوله والمؤمنين عليهم ، فقتلوا كبارهم وصناديدهم،وأسروا من أسروا منهم ، وفر من فر .

وبذلك [ذاقوا وبال أمرهم] وعاقبة شركهم وبغيهم .

هذا فى الدنيا [ولهم] فى الآخرة [عذاب أليم] .

فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾

ومثل هؤلاء المنافقين ، الذين غروا إخوانهم من أهل الكتاب .

[كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر] أى : زين له الكفر وحسنه ودعاه إليه .

فلما اغتر به وكفر ، وحصل له الشقاء ، لم ينفعه الشيطان ، الذي تولاه ودعاه إلى ما دعاه إليه .

بل تبرأ منه [وقال إنى برىء منك إنى أخاف الله رب العالمين] .

أى : ليس لى قدرة على دفع العذاب عنك ، ولست بمغن عنك ، مثقال ذرة من الخير .

[فكان عاقبتهما] أى : الداعى الذى هو الشيطان ، والمدعو ، الذى هو الإنسان حين أطاعه [أنهما فى النار خالدين فيها] كما قال تعالى « إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

[وذلك جزاء الظالمين] الذين اشتركوا فى الظلم والكفر، وإن اختلفوا فى شدة العذاب وقوته .

وهذا دأب الشيطان مع كل أوليائه ، فإنه يدعوهم ويدليهم بغرور ، إلى ما يضرهم ، حتى إذا وقعوا فى الشباك ، وحاق بهم أسباب الهلاك ، تبرأ منهم ، وتخلى عنهم .

واللوم كل اللوم ، على من أطاعه ، فإن الله قد حذر منه ، وأنذر ،

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾

وأخبر بمقاصده وغايته ونهايته ، فالمقدم على طاعته ، عاص على بصيرة ، لا عذر له .

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بما يوجبه الإيمان ، ويقتضيه من لزوم تقواه ، سرا وعلانية ، فى جميع الأحوال ، وأن يراعوا ما أمرهم الله به ، من أوامره وحدوده ، وينظروا ما لهم وما عليهم ، وماذا حصلوا عليه ، من الأعمال التى تنفعهم أو تضرهم ، فى يوم القيامة .

فإنهم إذا جعلوا الآخرة نصب أعينهم ، وقبلة قلوبهم ، واهتموا للمقام بها ، اجتهدوا فى كثرة الأعمال الموصلة إليها ، وتصفيتها من القواطع والعوائق ، التى توقفهم عن السير ، أو تعوقهم أو تصرفهم .

وإذا علموا أيضاً ، أن الله خبير بما يعملون ، لا تخفى عليه أعمالهم ، ولا تضيع لديه ، ولا يهملها ، أوجب لهم الجد والاجتهاد .

وهذه الآية الكريمة ، أصل فى محاسبة العبد نفسه ، وأنه ينبغى له أن يتفقدها .

فإن رأى زللا ، تداركه بالإقلاع عنه ، والتوبة النصوح ، والإعراض عن الأسباب الموصلة إليه

وإن رأى نفسه مقصرا ، في أمر من أوامر الله ، بذل جهده ، واستعان بربه فى تتميمه ، وتكميله ، وإتقانه .

وَلَا تَكُونُواْ كَالَّذِينَ نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَـٰسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ

ويقايس بين منن الله عليه وإحسانه ، وبين تقصيره ، فإن ذلك، يوجب له الحياة لا محالة .

والحرمان كل الحرمان ، أن يغفل العبد عن هذا الأمر ، ويشابه قوما نسوا الله ، وغفلوا عن ذكره ، والقيام بحقه .

وأقبلوا على حظوظ أنفسهم وشهواتها ، فلم ينجحوا ، ولم يحصلوا على طائل .

بل أنساهم الله مصالح أنفسهم وأغفلهم عن منافعها وفوائدها ، فصار أمرهم فرطاً ، فرجعوا بخسارة الدارين ، وغبنوا غبنا ، لا يمكن تداركه ، ولا يجبر كسره ، لأنهم هم الفاسقون ، الذين خرجوا عن طاعة ربهم ، وأوضعوا فى معاصيه .

فهل يستوى من حافظ على تقوى الله ، ونظر لما قدم لغده ، فاستحق جنات النعيم ، والعيش السليم – مع الذين أنعم الله عليهم ، من النبيين ، والصديقين ، والشهداء ، والصالحين – ومن غفل عن ذكره ، ونسى حقوقه فشقى فى الدنيا ، واستحق العذاب فى الآخرة .

فالأولون ، هم الفائزون ، والآخرون هم الخاسرون .

ولما بين تعالى لعباده ما بين ، وأمر عباده ونهاهم فى كتابه العزيز ،

خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

كان هذا موجبا لأن يبادروا إلى ما دعاهم إليه ، وحثهم عليه ، ولو كانوا فى القسوة وصلابة القلوب كالجبال الرواسى .

فإن هذا القرآن ، لو أنزل عل جبل ، لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله .

أى : لكمال تأثيره فى القلوب ، فإن مواعظ القرآن ، أعظم المواعظ على الإطلاق .

وأوامره ونواهيه ، محتوية على الحكم والمصالح ، المقرونة بها ، وهى من أسهل شىء على النفوس ، وأيسرها على الأبدان ، خالية من التكلف لا تناقض فيها ، ولا اختلاف ، ولا صعوبة فيها ، ولا اعتساف ، تصلح لكل زمان ومكان ، وتليق لكل أحد .

ثم أخبر تعالى أنه يضرب للناس الأمثال ، ويوضح لعباده الحلال والحرام ، لأجل أن يتفكروا فى آياته ويتدبروها .

فإن التفكير فيها ، يفتح للعبد خزائن العلم ، ويبين له طرق الخير والشر ، ويحثه على مكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، ويزجره عن مساوىء الأخلاق .

فلا أنفع للعبد من التفكير فى القرآن ، والتدبر لمعانيه .

هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ

---

* هذه الآيات الكريمات ، قد اشتملت على كثير من أسماء الله الحسنى وأوصافه العلى ، عظيمة الشأن ، وبديعة البرهان .

فأخبر أنه الله المألوه المعبود ، الذى لا إله إلا هو ، وذلك لكماله العظيم وإحسانه الشامل ، وتدبيره العام .

وكل إله غيره ، فإنه باطل ، لا يستحق من العبادة مثقال ذرة ، لأنه فقير عاجز ناقص ، لا يملك لنفسه ولا لغيره ، شيئا .

ثم وصف نفسه بعموم العلم الشامل ، لما غاب عن الخلق ، وما يشاهدونه .

وبعموم رحمته ، التى وسعت كل شىء ، ووصلت إلى كل حى .

ثم كرر ذكر عموم إلهيته وانفراده بها ، وأنه المالك لجميع الممالك .

فالعالم العلوى والسفلى وأهله الجميع ، مماليك لله ، فقراء مدبرون .

[القدوس السلام] أى : المقدس السالم من كل عيب ونقص ، المعظم الممجد .

لأن القدوس ، يدل على التنزيه من كل نقص ، والتعظيم لله فى أوصافه وجلاله .

[المؤمن] أى : المصدق لرسله وأنبيائه ، بما جاءوا به ، بالآيات البينات

سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ

والبراهين القاطعات ، والحجج الواضحات .

[العزيز] الذى لا يغالب ولا يمانع ، بل قد قهر كل شىء ، وخضع له كل شىء .

[الجبار] الذى قهر جميع العباد ، وأذعن له سائر الخلق ، الذى يجبر الكسير ، ويغنى الفقير .

[المتكبر] الذى له الكبرياء والعظمة ، المتنزه عن جميع العيوب والظلم والجور .

[سبحان الله عما يشركون] وهذا تنزيه عام ، عن كل ما وصفه به ، من أشرك به وعانده .

[هو الله الخالق] لجميع المخلوقات [البارىء] للمبروءات [المصور] للمصورات .

وهذه الأسماء متعلقة بالخلق والتدبير والتقدير ، وأن ذلك كله ، قد انفرد الله به ، لم يشاركه فيه مشارك .

[له الأسماء الحسنى] أى : له الأسماء الكثيرة جدا ، التى لا يحصيها ، ولا يعلمها ، أحد إلا هو ، ومع ذلك ، فكلها حسنى ، أى : صفات كمال ، بل تدل على أكمل الصفات وأعظمها ، لا نقص فى شىء منها ، بوجه من الوجوه .

ومن حسنها ، أن الله يحبها ، ويحب من يحبها ، ويحب من عباده أن يدعوه ، ويسألوه بها .

ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

ومن كماله ، وأن له الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، أن جميع من في السموات والأرض ، مفتقرون إليه على الدوام ، يسبحون بحمده ، ويسألونه حوائجهم ، فيعطيهم من فضله وكرمه ، ما تقتضيه رحمته وحكمته .

[وهو العزيز الحكيم] الذي لا يريد شيئا إلا ويكون ، ولا يكون شيئا إلا لحكمة ومصلحة .

تم تفسير سورة الحشر ـ والحمد لله وحده

تفسير

سُورَةُ المُمتَحَنَةِ

بِسمِ اللهِ الرَّحمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ

---

* ذكر كثير من المفسرين ، رحمهم الله ، أن سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، فى قصة حاطب بن أبى بلتعة ، حين غزا النبى صلى الله عليه وسلم غزاة الفتح .

فكتب حاطب إلى المشركين ، من أهل مكة ، يخبرهم بمسير رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، ليتخذ بذلك يداً عندهم ، لا شكا ونفاقا ، وأرسله مع امرأة .

فَأُخبِرَ النبى صلى الله عليه وسلم ،بشأنه ، فأرسل إلى المرأة قبل وصولها وأخذ منها الكتاب .

وعاتب حاطبا فاعتذر بعذر ، قبله النبى صلى الله عليه وسلم .

وهذه الآيات فيها النهى الشديد ، عن موالاة الكفار من المشركين

وغيرهم، وإلقاء المودة إليهم ، وأن ذلك مناف للإيمان،ومخالف لملة إبراهيم الخليل ، عليه الصلاة والسلام ، ومناقض للعقل الذى يوجب الحذر كل الحذر ، من العدو ، والذى لا يبقى من مجهوده فى العداوة شيئا ، وينتهز الفرصة فى إيصال الضرر إلى عدوه ، فقال تعالى :

[يا أيها الذين آمنوا] أى اعملوا بمقتضى إيمانكم ، من ولاية من قام بالإيمان ومعاداة من عاداه ، فإنه عدو لله ، وعدو للمؤمنين .

[لاتتخذوا]عدو الله[وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة]أى:تسارعون فى مودتهم ، والسعى فى أسبابها ، فإن المودة ، إذا حصلت ، تبعتها النصرة والموالاة .

فخرج العبد من الإيمان ، وصار من جملة أهل الكفران .

وهذا المتخذ للكافر وليا ، عادم المروءة أيضا ، فإنه كيف يوالى أعدى أعدائه ، الذى لا يريد له إلا الشر ، ويخالف ربه ووليه ، الذى يريد به الخير ، ويأمره به ، ويحثه عليه ؟!

ومما يدعو المؤمن أيضا ، إلى معاداة الكفار ، أنهم قد كفروا بما جاء المؤمنين ، من الحق .

ولا أعظم من هذه المخالفة والمشاقة ، فإنهم قد كفروا بأصل دينكم ، وزعموا أنكم ضُلاَّل ، على غير هدى .

والحال أنهم كفروا بالحق الذى لا شك فيه ولا مرية .

ومن رد الحق ، فمحال أن يوجد له دليل ، أو حجة ، تدل على صحة

يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ

قوله ، بل مجرد العلم بالحق ، يدل على بطلان قول من رده وفساده .

ومن عداوتهم البليغة أنهم [يخرجون الرسول وإياكم] أيها المؤمنون من دياركم ، ويشردونكم من أوطانكم .

ولا ذنب لكم فى ذلك عندهم، إلا [أن تؤمنوا بالله ربكم] الذى يتعين على الخلق كلهم ، القيام بعبوديته ، لأنه رباهم ، وأنعم عليهم ، بالنعم الظاهرة والباطنة .

فلما أعرضوا عن هذا الأمر ، الذى هو أوجب الواجبات ، وقمتم به ، عادوكم ، وأخرجوكم - من أجله - من دياركم .

فأى دين ، وأى مروءة وعقل ، يبقى مع العبد إذا والى الكفار ، الذين هذا وصفهم ، فى كل زمان أو مكان ؟!! ولا يمنعهم منه إلا خوف ، أو مانع قوى .

[إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى] أى : إن كان خروجكم ، مقصودكم به الجهاد فى سبيل الله ، لإعلاء كلمة الله ، وابتغاء رضاه فاعملوا بمقتضى هذا ، من موالاة أولياء الله ، ومعاداة أعدائه ، فإن هذا من أعظم الجهاد فى سبيله ، ومن أعظم ما يتقرب به المتقربون إلى الله ، ويبتغون به رضاه .

[تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم] أى : كيف

وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾

تسرون المودة للكافرين ، وتخفونها ، مع علمكم أن الله عالم بما تخفون ، وما تعلنون ؟ !

فهو ، وإن خفى على المؤمنين ، فلا يخفى على الله تعالى ، وسيجازى العباد بما يعلمه منهم ، من الخير والشر .

[ومن يفعله منكم] أى : موالاة الكافرين بعد ما حذركم الله منها [فقد ضل سواء السبيل] لأنه سلك مسلكا مخالفا للشرع والعقل ، والمروءة الإنسانية .

ثم بين تعالى شدة عداوتهم ، تهييجا للمؤمنين على عداوتهم فقال :

[إن يثقفوكم] أى : يجدوكم ، وتسنح لهم الفرصة فى أذاكم .

[يكونوا لكم أعداء] ظاهرين [ويبسطوا إليكم أيديهم] بالقتل والضرب ، ونحو ذلك .

[وألسنتهم بالسوء] أى : بالقول الذى يسوء ، من شتم وغيره .

[وودوا لو تكفرون] فإن هذا غاية ما يريدون منكم .

فإن احتججتم وقلتم نوالى الكفار ، لأجل القرابة والأموال [لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم] من الله شيئا [يوم القيامة يفصل بينكم ، والله بما تعملون بصير] .

لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ

فلذلك حذركم من موالاة الكافرين الذين تضركم موالاتهم .

[قد كانت لكم] يا معشر المؤمنين [أسوة حسنة] أى : قدوة صالحة وائتمام ينفعكم .

[فى إبراهيم والذين معه] من المؤمنين ، لأنكم قد أمرتم أن تتبعوا ملة إبراهيم حنيفا .

[إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله] أى : إذ تبرأ إبراهيم عليه السلام ، ومن معه من المؤمنين ، من قومهم المشركين ، ومما يعبدون من دون الله .

ثم صرحوا بعداوتهم غاية التصريح فقالوا : [كفرنا بكم وبدا].

أى : ظهر وبان [بيننا وبينكم العداوة والبغضاء] أى : البغض بالقلوب وزوال مودتها ، والعداوة بالأبدان .

وليس لتلك العداوة والبغضاء ، وقت ولا حد ، بل ذلك [أبدا] ما دمتم مستمرين على كفركم [حتى تؤمنوا بالله وحده] أى : فإذا آمنتم بالله وحده ، زالت العداوة والبغضاء ، وانقلبت مودة وولاية .

فلكم أيها المؤمنون ، أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه ، فى القيام

وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا

بالإيمان والتوحيد ، ولوازم ذلك ومقتضياته ، وفى كل شىء تعبدوا به لله وحده .

[إلا] فى خصلة واحدة وهى [قول إبراهيم لأبيه] آزر المشرك ، الكافر ، المعاند ، حين دعاه إلى الإيمان والتوحيد ، فامتنع فقال إبراهيم له :

[لأستغفرن لك ، و] الحال أنى [ما أملك لك من الله من شىء] .

ولكنى أدعو ربى ، عسى أن لا أكون بدعاء ربى شقيا .

فليس لكم أن تقتدوا بإبراهيم ، فى هذه الحالة ، التى دعا بها للمشرك .

فليس لكم أن تدعوا للمشركين ، وتقولوا : إنا فى ذلك متبعون لملة إبراهيم .

فإن الله ذكر عذر إبراهيم فى ذلك بقوله « وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه ، فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » الآية .

ولكم أسوة حسنة فى إبراهيم ومن معه ، حين دعوا الله وتوكلوا عليه وأنابوا إليه ، واعترفوا بالعجز والتقصير فقالوا :

[ربنا عليك توكلنا] أى : اعتمدنا عليك فى جلب ما ينفعنا ، ودفع ما يضرنا ، ووثقنا بك يا ربنا فى ذلك .

وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَٱغْفِرْ لَنَا رَبَّنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ

[وإليك أنبنا] أى : رجعنا إلى طاعتك ومرضاتك ، وجميع ما يقرب إليك .

فنحن فى ذلك ساعون ، وبفعل الخيرات مجتهدون ، ونعلم أنا إليك نصير .

فسنستعد للقدوم عليك ، ونعمل ما يزلفنا إليك .

[ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا] أى : لا تسلطهم علينا بذنوبنا ، فيفتنونا ، ويمنعونا مما يقدرون عليه ، من أمور الإيمان .

ويفتنون أيضا بأنفسهم ، فإنهم إذا رأوا لهم الغلبة ، ظنوا أنهم على الحق ، وأنا على الباطل ، فازدادوا كفرا وطغيانا .

[واغفر لنا] ما اقترفنا من الذنوب والسيئات ، وما قصرنا به من المأمورات .

[ربنا إنك أنت العزيز] القاهر لكل شىء .

[الحكيم] الذى يضع الأشياء مواضعها .

فبعزتك وحكمتك انصرنا على أعدائنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، وأصلح عيوبنا .

ثم كرر الحث على الاقتداء بهم وقال : [لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة] .

وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٦﴾ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ

وليس كل أحد ، تسهل عليه هذه الأسوة .

وإنما تسهل [لمن كان يرجو الله واليوم الآخر] فإن الإيمان ، واحتساب الأجر والثواب ، يسهل على العبد كل عسير ، ويقلل لديه كل كثير ، ويوجب له الاقتداء بعباد الله الصالحين ، والأنبياء والمرسلين ، فإنه يرى نفسه مفتقرا مضطرًا ، إلى ذلك غاية الاضطرار .

[ومن يتول] عن طاعة الله والتأسى برسل الله ، فلن يضر إلا نفسه ولا يضر الله شيئا .

[فإن الله هو الغنى] الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه ، فلا يحتاج إلى أحد من خلقه بوجه من الوجوه .

[الحميد] فى ذاته وصفاته وأفعاله ، فإنه محمود على ذلك كله .

ثم أخبر تعالى أن هذه العداوة ، التى أمر بها المؤمنين للمشركين ، ووصفهم بالقيام بها أنهم ما داموا على شركهم وكفرهم ، وأنهم إن انتقلوا إلى الإيمان ، فإن الحكم يدور مع علته ، والمودة الإيمانية ترجع .

فلا تيأسو أيها المؤمنون ، من رجوعهم إلى الإيمان .

ف [عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة] سببها رجوعهم إلى الإيمان .

رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ

[والله قدير] على كل شيء ، ومن ذلك، هداية القلوب ، وتقليبها من حال إلى حال .

[والله غفور رحيم] لا يتعاظمه ذنب أن يغفره ، ولا عيب أن يستره

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم » .

وفى هذه الآية، إشارة وبشارة بإسلام بعض المشركين ، الذين كانوا .

إذ ذاك ، أعداء للمؤمنين ، وقد وقع ذلك ، ولله الحمد والمنة .

ولما نزلت هذه الآيات الكريمات ، المهيجة على عداوة الكافرين ، وقعت من المؤمنين كل موقع ، وقاموا بها أتم القيام ، وتأثموا من صلة بعض أقاربهم المشركين ، وظنوا أن ذلك داخل فيما نهى الله عنه .

فأخبرهم الله أن ذلك لا يدخل فى المحرم فقال : [لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين] .

أى : لا ينهاكم الله عن البر والصلة ، والمكافأة بالمعروف ، والقسط للمشركين ، من أقاربكم وغيرهم ، حيث كانوا بحال لم ينصبوا لقتالكم فى الدين ، والإخراج من دياركم .

وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَـٰرِكُمْ وَظَـٰهَرُوا۟ عَلَىٰٓ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٩﴾

فليس عليكم جناح أن تصلوهم ، فإن صلتهم فى هذه الحالة ، لا محذور فيها ولا تبعة .

كما قال تعالى فى الأبوين الكافرين ، إذا كان ولدهما مسلما « وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفاً » .

وقوله : [إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين] أى : لأجل دينكم ، عداوة لدين الله ، ولمن قام به .

[وأخرجوكم من دياركم وظاهروا] أى : عاونوا غيرهم [على إخراجكم] .

نهاكم الله [أن تولوهم] بالنصرة والمودة ، بالقول والفعل .

وأما بركم وإحسانكم ، الذى ليس بتولٍ للمشركين ، فلم ينهكم الله عنه .

بل ذلك داخل ، فى عموم الأمر بالإحسان إلى الأقارب وغيرهم ، من الآدميين ، وغيرهم .

[ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون] وذلك الظلم ، يكون بحسب التولّى .

فإن كان تولّياً تاما ، كان ذلك كفرا مخرجا عن دائرة الإسلام ، وتحت ذلك من المراتب ، ما هو غليظ ، وما هو دونه .

۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ

---

* لما كان صلح الحديبية ، صالح النبي صلى الله عليه وسلم المشركين ، على أن من جاء منهم إلى المسلمين مسلما ، أنه يرد إلى المشركين .

وكان هذا ، لفظا عاما مطلقا ، يدخل فى عمومه ، النساء والرجال .

فأما الرجال فإن الله لم ينهَ رسوله عن ردهم ، إلى الكفار ، وفاء بالشرط وتتميما للصلح ، الذى هو من أكبر المصالح .

وأما النساء ، فلما كان ردهن ، فيه مفاسد كثيرة ، أمر المؤمنين ، إذا جاءهم المؤمنات مهاجرات ، وشكوا فى صدق إيمانهن ، أن يمتحنوهن ويختبروهن ، بما يظهر به صدقهن ، من أيمان مغلظة وغيرها ، فإنه يحتمل أن يكون إيمانها غير صادق بل رغبة فى زوج ، أو بلد أو غير ذلك ، من المقاصد الدنيوية .

فإن كن بهذا الوصف ، تعين ردهن وفاء بالشرط ، من غير حصول مفسدة .

وإن امتحنوهن ، فوجدن صادقات ، أو علموا ذلك منهن ، من غير امتحان ، فلا يرجعوهن إلى الكفار .

[لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن] فهذه مفسدة كبيرة راعاها الشارع وراعى أيضا الوفاء بالشرط ، بأن يعطوا الكفار أزواجهن ، ما أنفقوا عليهن من المهر وتوابعه ، عوضا عنهن .

وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُواْ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ وَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْئَلُواْ مَآ أَنفَقُواْ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ

ولا جناح حينئذ، على المسلمين، أن ينكحوهن ولو كان لهن أزواج فى دار الشرك.

ولكن بشرط، أن يؤتوهن أجورهن، من المهر، والنفقة.

وكما أن المسلمة لا تحل للكافر، فكذلك الكافرة لا تحل للمسلم، ما دامت على كفرها، غير أهل الكتاب.

ولهذا قال تعالى: [ولا تمسكوا بعصم الكوافر] وإذا نهى عن الإمساك بعصمتها، فالنهى عن ابتداء تزويجها أولى.

[واسألوا ما أنفقتم] أيها المؤمنون، حين ترجع زوجاتكم مرتدات إلى الكفار.

فإذا كان الكفار يأخذون من المسلمين نفقة من أسلمت من نسائهم، استحق المسلمون أن يأخذوا، مقابلة ما ذهب من زوجاتهم إلى الكفار.

وفى هذا دليل، على أن خروج البضع من الزوج، متقوم.

فإذا أفسد مفسد، نكاح امرأة رجل، برضاع أو غيره، كان عليه ضمان المهر.

وقوله [ذلكم حكم الله] أى: ذلكم الحكم، الذى ذكره الله، هو حكم الله، بيّنهُ لكم ووضحه.

وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِن فَاتَكُمْ شَىْءٌ مِّنْ أَزْوَٰجِكُمْ إِلَى ٱلْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَـَٔاتُوا۟ ٱلَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَٰجُهُم مِّثْلَ مَآ أَنفَقُوا۟

[والله عليم حكيم] فيعلم تعالى ، ما يصلح لكم من الأحكام فيشرعه ، بحسب حكمته ورحمته .

وقوله : [وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفار] بأن ذهبن مرتدات [فعاقبتم[1] فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا] كما

---

(١) قوله « فعاقبتم » أي : فغزوتم وغنمتم [فآتوا الذين ذهبت أزواجهم] من الغنيمة [مثل ما أنفقوا] لفواته عليهم من جهة الكفار [واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون] وقد فعل المؤمنون ما أمروا به من الإيتاء للكفار والمؤمنين ، ثم ارتفع الحكم . اهـ من الجلالين .

وفي تفسير النسفي « إن انفلت أحد منهن إلى الكفار — وهي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه (أحد) - (فعاقبتم) فأصبتموهم في القتال بعقوبة حتى غنمتم — عن الزجاج —(فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا) فأعطوا المسلمين الذين ارتدت زوجاتهم ولحقن بدار الحرب مهور زوجاتهم من هذه الغنيمة . وقيل : هذا الحكم منسوخ أيضاً . اهـ .

وفي تفسير أبي السعود .

[وإن فاتكم] أي : وانفلت منكم .

[شيء من أزواجكم إلى الكفار] أي:أحد من أزواجكم وقد قرىء=

وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ أَنتُم بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

تقدم أن الكفار، إذا كانوا يأخذون، بدل مايفوت من أزواجهم إلى المسلمين فمن ذهبت زوجته من المسلمين إلى الكفار، وفاتت عليه، فعلى المسلمين أن يعطوه من الغنيمة، بدل ما أنفق.

[واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون] فإيمانكم بالله، يقتضى منكم أن تكونوا ملازمين للتقوى، الدوام.

= كذلك. (وهى قراءة ابن مسعود) وإيقاع « شىء » موقعه للتحقير والإشباع فى التعميم أو شىء من مهور أزواجكم.

[فعاقبتم] أى: فجاءت عقبتكم أى: نوبتكم من أداء المهر

شبه ما حكم به على المسلمين والكافرين، من أداء هؤلاء مهور نساء أولئك تارة، وأداء أولئك مهور نساء هؤلاء أخرى، بأمر يتعاقبون فيه كما يتعاقب فى الركوب وغيره.

[فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا] من مهر المهاجرة التى تزوجتموها ولا تؤتوه زوجها الكافر.

وقيل: معناه إن فاتكم فأصبتم من الكفار عقبى، هى، الغنيمة فآتوا بدل الفائت من الغنيمة.

وقرئ « فأعقبتم » و « فعقبتم » بتشديد القاف و « فعقبتم » بالتخفيف وفتح القاف وكسرها.

وقيل: جميع من لحق بالمشركين من نساء المؤمنين المهاجرين ست نسوة، أم الحكم بنت أبى سفيان، وفاطمة بنت أمية، وبروع بنت عقبة، وعبدة بنت عبد العزى، وهند بنت أبى جهل، وكلثوم بنت جرو. اهـ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَـٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَـٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ

---

* هذه الشروط المذكورة في هذه الآية ، تسمى « مبايعة النساء » اللاتى كن يبايعن على إقامة الواجبات المشتركة ، التى تجب على الذكور والنساء ، فى جميع الأوقات .

وأما الرجال ، فيتفاوت ما يلزمهم بحسب أحوالهم ومراتبهم ، وما يتعين عليهم .

فكان النبى صلى الله عليه وسلم يمتثل ما أمره الله .

فكان إذا جاءته النساء يبايعنه ، والتزمن بهذه الشروط ، بايعهن ، وجبر قلوبهن ، واستغفر لهن الله ، فيما يحصل منهن من التقصير ، وأدخلهن فى جملة المؤمنين .

[على أن لا يشركن بالله شيئاً] بل يفردن الله وحده بالعبادة .

[ولا يقتلن أولادهن] كما يجرى لنساء الجاهلية الجهلاء « من وأد البنات » .

[ولا يزنين] كما كان ذلك موجوداً كثيراً ، فى البغايا وذوات الأخدان

[ولا يأتين ببهتان يفترينة بين أيديهن وأرجلهن [1]] .

---

(١) قوله « بين أيديهن وأرجلهن » أى : لا يلحقن بأزواجهن من ليس من أولادهم ، بهتانا وكذبا يختلقنه بين أيديهن وأرجلهن . =

وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ

والبهتان: الافتراء على الغير، أى لا يفترين بكل حالة ، سواء تعلقت بهن مع أزواجهن ، أو تعلق ذلك بغيرهم .

[ولا يعصينك فى معروف] أى : لا يعصينك فى كل أمر تأمرهن به ، لأن أمرك لايكون إلا بمعروف ، ومن ذلك ، طاعتهن لك ، فى النهى عن النياحة ، وشق الجيوب ، وخمش الوجوه ، والدعاء بدعوى الجاهلية .

[فبايعهن] إذا التزمن بجميع ما ذكر .

[واستغفر لهن الله] عن تقصيرهن وتطييبا لخواطرهن .

[إن الله غفور] أى : كثير المغفرة للعاصين والإحسان إلى المذنبين التائبين .

[رحيم] وسعت رحمته كل شىء ، وعم إحسانه البرايا .

* أى : يا أيها المؤمنون ، إن كنتم مؤمنين بربكم ، ومتبعين لرضاه ومجانبين لسخطه .

[لا تتولوا قوما غضب الله عليهم] وإنما غضب عليهم لكفرهم .

وهذا شامل لجميع أصناف الكفار .

= كانت المرأة تلتقط المولود ، فتقول لزوجها : هو ولدى منك .

كنىّ عنه بالبهتان المفترى بين يديها ورجليها ، لأن بطنها الذى تحمله بين يديها ، ومخرجه ، بين رجليها . اهـ . أبو السعود .

عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُواْ مِنَ ٱلْأَخِرَةِ كَمَا يَئِسَ ٱلْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْقُبُورِ ﴿١٣﴾

[قد يئسوا من الآخرة] أى : قد حرموا من خير الآخرة ، فليس لهم منها نصيب .

فاحذروا أن تولوهم ، فتوافقوهم على شرهم وشركهم ، فتحرموا خير الآخرة كما حرموا .

وقوله [كما يئس الكفار من أصحاب القبور] حين أفضو إلى الدار الآخرة ، وشاهدوا حقيقة الأمر ، وعلموا علم اليقين ، أنهم لا نصيب لهم منها .

ويحتمل أن المعنى : قد يئسوا من الآخرة ، أى : قد أنكروها ، وكفروا بها .

فلا يستغرب حينئذ منهم ، الإقدام على مساخط الله ، وموجبات عذابه ، وإياسهم من الآخرة ، كما يئس الكفار المنكرون للبعث فى الدنيا ، من رجوع أصحاب القبور ، إلى الله تعالى .

تم تفسير سورة الممتحنة ـ والله أعلم

تفســـير

سُورَةُ الصَّفِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾

---

* وهذا بيان لعظمته تعالى وقهره ،وذل جميع الأشياء له ، تبارك وتعالى، وأن جميع من فى السموات والأرض ، يسبحون بحمد ربهم ، ويعبدونه ، ويسألونه حوائجهم .

[وهو العزيز] الذى قهر الأشياء بعزته وسلطانه [الحكيم] فى خلقه وأمره .

[يا أيها الذين آمنوا لم تقولون ما لا تفعلون] أى : لم تقولون الخير ، وتحثون عليه ، وربما تمدحتم به ، وأنتم لا تفعلونه .

وتنهون عن الشر ، وربما نزهتم أنفسكم عنه ، وأنتم متلوثون متصفون به .

كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾

إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾

فهل تليق بالمؤمنين ، هذه الحالة الذميمة ؟ .

أم من أكبر المقت عند الله ، أن يقول العبد ما لا يفعل ؟ .

ولهذا ينبغى للآمر بالخير، أن يكون أول الناس مبادرة إليه ، والناهى عن الشر ، أن يكون أبعد الناس عنه ، قال تعالى : « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون » .

وقال شعيب عليه السلام: « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنها كم عنه » .

* هذا حث من الله لعباده ، على الجهاد فى سبيله ، وتعليم لهم ، كيف يصنعون .

وأنهم ينبغى لهم ، أن يصفوا فى الجهاد ، صفا متراصا ، متساويا ، من غير خلل يحصل فى الصفوف .

وتكون صفوفهم ، على نظام وترتيب ، به تحصل المساواة بين المجاهدين والتعاضد وإرهاب العدو ، وتنشيط بعضهم بعضا .

ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا حضر القتال ، صف أصحابه، ورتبهم فى مواقفهم ، بحيث لا يحصل اتكال بعضهم على بعض .

بل تكون كل طائفة منهم ، مهتمة بمركزها ، وقائمة بوظيفتها ، وبهذه الطريقة تتم الأعمال ، ويحصل الكمال .

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ ﴾

---

* أى [وإذ قال موسى لقومه] موبخا لهم على صنيعهم ، ومقرعا لهم على أذيته ، وهم يعلمون أنه رسول الله : [لم تؤذوننى] بالأقوال والأفعال [وقد تعلمون أنى رسول الله إليكم] .

والرسول من حقه الإكرام والإعظام ، والقيام بأوامره ، والابتدار لحكمه .

وأما أذية الرسول ، الذى إحسانه إلى الخلق ، فوق كل إحسان ، بعد إحسان الله ، ففى غاية الوقاحة والجراءة ، والزيغ عن الصراط المستقيم ، الذى قد علموه وتركوه .

ولهذا قال : [فلما زاغوا] أى : انصرفوا عن الحق بقصدهم [أزاغ الله قلوبهم] عقوبة لهم على زيغهم ، الذى اختاروه لأنفسهم ، ورضوه لها ، ولم يوفقهم الله للهدى ، لأنهم لا يليق بهم الخير ، ولا يصلحون إلا للشر .

[والله لا يهدى القوم الفاسقين] أى الذين لم يزل الفسق وصفا لهم ، ليس لهم قصد فى الهدى .

وهذه الآية الكريمة ، تفيد أن إضلال الله لعبيده ، ليس ظلماً منه ، ولا حجة لهم عليه .

وإنما ذلك ، بسبب منهم ، فإنهم الذين أغلقوا على أنفسهم باب الهدى

﴿ وَإِذ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِن بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ قَالُوا۟ هَـٰذَا

بعد ما عرفوه ، فيجازيهم بعد ذلك ، بالإضلال والزيغ ، وتقليب القلوب ، عقوبة لهم وعدلا منه بهم ، كما قال تعالى : « ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنو به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون »

* يقول تعالى مخبراً عن عناد بنى إسرائيل المتقدمين ، الذين دعاهم عيسى بن مريم وقال لهم : [يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم] .

أي : أرسلنى الله لأدعوكم إلى الخير ، وأنهاكم عن الشر ، وأيدنى بالبراهين الظاهرة ومما يدل على صدق ، كونى [مصدقا لما بين يدىّ من التوراة] أى : جئت بما جاء به موسى من التوراة ، والشرائع السماوية .

ولو كنت مدعياً للنبوة ، غير صادق فى دعواى ، لجئت بغير ما جاء به المرسلون .

ومصدقاً لما بين يدىّ من التوراة أيضاً ، أنها أخبرت بى وبشرت فجئت وبعثت مصدقا لها [ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد] وهو : محمد بن عبدالله بن عبد المطلب النبي الهاشمى .

فعيسى عليه الصلاة والسلام ، كسائر الأنبياء ، يصدق بالنبي السابق ، ويبشر بالنبي اللاحق .

بخلاف الكذابين ، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة ، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق ، والأمر والنهى .

سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ

[فلما جاءهم] محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى بشر به عيسى [بالبينات] أى : الأدلة الواضحة ، الدالة على أنه هو ، وأنه رسول الله حقاً .

[قالوا] معاندين للحق مكذبين له [هذا سحر مبين] وهذا من أعجب العجائب .

الرسول الذى قد وضحت رسالته ، وصارت أَبْيَنَ من شمس النهار ، يجعل ساحراً بَيِّناً سحره .

فهل فى الخذلان ، أعظم من هذا ؟

وهل فى الإفتراء أبلغ من هذا الافتراء ، الذى نفى عنه ، ما كان معلوما من رسالته وأثبت له ما كان أبعد الناس عنه ؟

[ومن أظلم ممن افترى على الله الكذب] بهذا أو غيره ، والحال أنه لا عذر له ، وقد انقطعت حجته ، لأنه [يدعى إلى الإسلام] وتبين له براهينه وبيناته .

[والله لا يهدى القوم الظالمين] الذين لا يزالون على ظلمهم مستقيمين، لا تردهم عنه موعظة ، ولا يزجرهم بيان ولا برهان .

خصوصاً هؤلاء الظلمة ، القائمين بمقابلة الحق ليردوه ، ولينصروا الباطل -

ولهذا قال عنهم : [يريدون ليطفئوا نور الله بأفواهم] أى : بما يصدر

لِيُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾
هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ

منهم من المقالات الفاسدة ، التي يردون بها الحق ، وهى لا حقيقة لها ، بل تزيد البصير ، معرفة بما هم عليه ، من الباطل .

[والله متم نوره ولو كره الكافرون] أى : قد تكفل الله بنصر دينه ، وإتمام الحق ، الذى أرسل به رسله ، وإظهار نوره فى سائر الأقطار ، ولو كره الكافرون ، وبذلوا بسبب ـ كراهته ـ كل ما قدروا عليه ، مما يتوصلون به إلى إطفاء نور الله ، فإنهم مغلوبون .

ومثلهم ، كمثل من ينفخ عين الشمس بفيه ، ليطفئها ، فلا على مرادهم حصلوا ، ولا سلمت عقولهم من النقص والقدح فيها .

ثم ذكر سبب الظهور والانتصار للدين الإسلامى ، الحسى والمعنوى فقال :

[هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق] أى : بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

بالعلم : الذى يهدى إلى الله ، وإلى دار كرامته ، ويهدى لأحسن الأعمال والأخلاق ، ويهدى إلى مصالح الدنيا والآخرة .

[ودين الحق] أى الدين الذى يدان به ، ويتعبد لرب العالمين الذى هو حق وصدق ، لا نقص فيه ، ولا خلل يعتريه ، بل أوامره غذاء القلوب والأرواح ، وراحة الأبدان .

وتركوا نواهيه ، سلامة من الشر والفساد .

كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾

فما بعث به النبي صلى الله عليه وسلم ، من الهدى ودين الحق ، أكبر دليل وبرهان ، على صدقه ، وهو برهان باق ، ما بقى من الدهر ، كلما ازداد العاقل تفكرا ، ازداد به فرحا وتبصرا .

[ليظهره على الدين كله] أى : ليعليه على سائر الأديان ، بالحجة والبرهان ، ويظهر أهله القائمين به ، بالسيف والسنان .

فأما نفس الدين ، فهذا الوصف ، ملازم له فى كل وقت ، فلا يمكن أن يغالبه مغالب ، أو يخاصمه مخاصم ، إلا فلجه ، وصار له الظهور والقهر .

وأما المنتسبون إليه ، فإنهم إذا قاموا به ، واستناروا بنوره ، واهتدوا بهديه ، فى مصالح دينهم ودنياهم ، فكذلك لا يقوم لهم أحد ، ولا بد أن يظهروا على أهل الأديان .

وإذا ضيعوه واكتفوا منه بمجرد الانتساب إليه ، لم ينفعهم ذلك ، وصار إهمالهم له ، سبب تسليط الأعداء عليهم .

ويعرف هذا ، من استقرأ الأحوال والنظر ، فى أول المسلمين وآخرهم

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَـٰهِدُونَ﴾

---

* هذه وصية ودلالة ، وإرشاد من أرحم الراحمين ، لعباده المؤمنين ، لأعظم تجارة ، وأجل مطلوب ، وأعلى مرغوب ، يحصل بها النجاة من العذاب الأليم ، والفوز بالنعيم المقيم .

وأتى بأداة العرض ، الدالة على أن هذا أمر يرغب فيه كل معتبر ، ويسمو إليه كل لبيب .

فكأنه قيل : : ما هذه التجارة ، التى هذا قدرها ؟ فقال : [تؤمنون بالله ورسوله] .

ومن المعلوم ، أن الإيمان التام ، هو التصديق الجازم بما أمر الله بالتصديق به ، المستلزم لأعمال الجوارح ، التى من أجلها، الجهاد فى سبيله .

فلهذا قال : [وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم] بأن تبذلوا نفوسكم ومهجكم ، لمصادمة أعداء الإسلام ، والقصد : دين الله ، وإعلاء كلمته .

وتنفقون ما تيسر من أموالكم فى ذلك المطلوب،فإن ذلك، وإن كان كريها للنفوس ،شاقاً عليها فإنه [خير لكم إن كنتم تعلمون] فإن فيه الخير الدنيوى ، من النصر على الأعداء ، والعز المنافى للذل والرزق الواسع ، وسعة الصدر ، وانشراحه .

والخير الأخروى ، بالفوز بثواب الله ، والنجاة من عقابه ولهذا ذكر الجزاء فى الآخرة فقال :

فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ

[يغفر لكم ذنوبكم] وهو شامل للصغائر والكبائر ، فإن الإيمان بالله ، والجهاد فى سبيله ، مكفر للذنوب ، ولو كانت كبائر .

[ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار] أى: من تحت مساكنها وقصورها ، وغرفها ، وأشجارها ، أنهار من ماء غير آسن ، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ، وأنهار من خمر لذة للشاربين ، وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات .

[ومساكن طيبة فى جنات عدن] أى : جمعت كل طيب ، من علو ، وارتفاع ، وحسن بناء وزخرفة .

حتى إن أهل الغرف من أهل عليين ، يتراءاهم أهل الجنة ، كما يتراءى الكوكب الدرى فى الأفق الشرقى ، أو الغربى .

وحتى إن بناء الجنة ، بعضه من لبن ذهب ، وبعضه من لبن فضة ، وخيامها من اللؤلؤ والمرجان ، وبعض المنازل من الزمرد ، والجواهر الملونة بأحسن الألوان .

حتى إنها من صفائها ، يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها وفيها من الطيب والحسن ، ما لا يأتى عليه وصف الواصفين ، ولا خطر على قلب أحد من العالمين ، لا يمكن أن يدركوه ، حتى يروه ، ويتمتعوا بحسنه ، وتقر به أعينهم .

ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ

فى تلك الحالة ، لولا أن الله خلق أهل الجنـة ، وأنشأهم نشأة كاملة ، لا تقبل العدم ، لأوشك أن يموتوا من الفرح .

فسبحان من لا يحصى أحد من خلقه ، ثناء عليه ، بل هو كما أثنى على نفسه ، وفوق ما يثنى عليه أحد من خلقه .

وتبارك الجليل الجميل ، الذى أنشأ دار النعيم ، وجعل فيها من الجلال والجمال ، ما يبهر عقول الخلق ، ويأخذ بأفئدتهم .

وتعالى من له الحكمة التامة ، الذي من جملتها ، أنه لو رأى العباد الجنة ، ونظروا إلى ما فيها من النعيم لما تخلف عنها أحد ، ولما هنأهم العيش فى هذه الدار المنغصة ، المشوب نعيمها بألمها ، وفرحها بترحها .

وسميت جنة عدن ، لأن أهلها مقيمون فيها ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا يبغون عنها حولا .

ذلك الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، هـو الفوز العظيم ، الذى لا فوز مثله .

فهذا الثواب الأخروى .

وأما الثواب الدنيوى لهذه التجارة ، فذكره بقوله [وأخرى تحبونها] أى : يحصل لكم خصلة أخرى تحبونها وهى : [نصر من الله] لكم على الأعداء ، يحصل به العز والفرح .

[وفتح قريب] تتسع به دائرة الإسلام ، ويحصل به الرزق الواسع ، فهذا جزاء المؤمنين المجاهدين .

ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ

وأما المؤمنون من غير أهل الجهاد ، إذا قام غيرهم بالجهاد ، فلم يؤيسهم الله تعالى من فضله وإحسانه ، بل قال :

[وبشر المؤمنين] أى : بالثواب العاجل والآجل كل على حسب إيمانه ، وإن كانوا لا يبلغون مبلغ المجاهدين فى سبيل الله .

كما قال النبي صل الله عليه وسلم « من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا ، وبمحمد رسولا ، وجبت له الجنة » .

فعجب لها أبو سعيد الخدرى ، راوي الحديث فقال : أعدها عَلَيَّ يا رسول الله ، فأعادها عليه .

ثم قال « وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة فى الجنة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض » .

فقال: وما هى يارسول الله ؟ قال : « الجهاد فى سبيل الله » رواه مسلم.

ثم قال تعالى [ياأيها الذين آمنو كونوا أنصار الله] أى : بالأقوال والأفعال ، وذلك بالقيام بدين الله ، والحرص على تنفيذه على الغير ، وجهاد من عانده ونابذه ، ، بالأبدان والأموال ، ومن نصر الباطل بما يزعمه ، من العلم ، ورد الحق ، بدحض حجته ، وإقامة الحجة عليه، والتحذير منه .

ومن نصر دين الله ،تَعَلُّمُ كتاب الله وسنة رسوله ، والحث على ذلك والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ثم هيج الله المؤمنين بالاقتداء بمن قبلهم من الصالحين بقوله :

نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّن بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

[كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصار الله] أى : قال لهم منبها: من يعاوننى ، ويقوم معى فى نصر دين الله ، ويدخل مدخلى ، ويخرج مخرجى ؟ .

فابتدر الحواريون فقالوا : [نحن أنصار الله] فمضى عيسى عليه السلام ، على نصر دين الله ، هو ومن معه من الحواريين .

[فآمنت طائفة من بنى إسرائيل] بسبب دعوة عيسى والحواريين .

[وكفرت طائفة] منهم ، فلم ينقادوا لدعوتهم ، فجاهد المؤمنون الكافرين .

[فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم] أى : قويناهم ، ونصرناهم عليهم .

[فأصبحو ظاهرين] عليهم قاهرين لهم .

فأنتم ياأمة محمد ، كونوا أنصار الله ودعاة دينه ، ينصركم الله كما نصر من قبلكم ، ويظهركم على عدوكم .

تم تفسير سورة الصف ـ والحمد لله رب العالمين

تفســــير

سورة الجمعة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّينَ رَسُولًا

أى : يسبح لله ، وينقاد لأمره ، ويتألهه ، ويعبده ، جميع ما فى السموات والأرض .

لأنه الكامل الملك ، الذى له ملك العالم العلوى والسفلى ، فالجميع ، مماليكه ، وتحت تدبيره .

[القدوس] المعظم ، المنزه عن كل آفة ونقص [العزيز] القاهر للأشياء كلها .

[الحكيم] في خلقه وأمره .

فهذه الأوصاف العظيمة ، تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

[هو الذى بعث فى الأميين رسولا] المراد بالأميين : الذين لا كتاب عندهم ، ولا أثر رسالة من العرب وغيرهم ، ممن ليسوا من أهل الكتاب .

مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ وَءَاخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا۟

فامتن الله تعالى عليهم ، منة عظيمة ، أعظم من منته على غيرهم ، لأنهم عادمون للعلم والخير ، وكانوا من قبل ، فى ضلال مبين ، يتعبدون للأصنام والأشجار ، والأحجار ، ويتخلقون بأخلاق السباع الضارية ، يأكل قويهم ضعيفهم ، وقد كانوا فى غاية الجهل ، بعلوم الأنبياء .

فبعث الله فيهم رسولا منهم ، يعرفون نسبه ، وأوصافه الجميلة وصدقه.

وأنزل عليه كتابه [يتلو عليهم آياته] القاطعة الموجبة للإيمان واليقين.

[ويزكيهم] بأن يفصل لهم الأخلاق الفاضلة ، ويحثهم عليها ، ويزجرهم عن الأخلاق الرذيلة .

[ويعلمهم الكتاب والحكمة] أى : علم الكتاب والسنة ، المشتمل على علوم الأولين والآخرين .

فكانوا، بعد هذا التعليم والتزكية، من أعلم الخلق، بل كانوا أئمة أهل العلم والدين ، وأكمل الخلق أخلاقا ، وأحسنهم هديا وسمتا .

اهتدوا بأنفسهم ، وهدوا غيرهم فصاروا أئمة المهتدين ، وقادة المتقين .

فلله تعالى عليهم ، يبعثة هذا الرسول صلى الله عليه وسلم ، أكمل نعمة وأجل منحة .

وقوله [وآخرين منهم لما يلحقوا بهم] أى وامتن على آخرين من غيرهم،أى:من غير الأميين ، ممن يأتى بعدهم ، ومن أهل الكتاب ، لما يلحقوا بهم ، أى : فيمن باشر دعوة الرسول .

بِهِمْ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾

مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ

ويحتمل أنهم لما يلحقوا بهم فى الفضل .

ويحتمل أن يكونوا ، لما يلحقوا بهم فى الزمان ، وعلى كل ، فكلا المعنيين صحيح .

فإن الذين بعث الله فيهم رسوله ، وشاهدوه ، وباشروا دعوته ، حصل لهم من الخصائص والفضائل ، ما لا يمكن أحداً أن يلحقهم فيها .

وهذا من عزته وحكمته ، حيث لم يترك عباده هملا ، ولا سدى .

بل ابتعث فيهم الرسل ، وأمرهم ونهاهم ، وذلك من فضله العظيم ، الذى يؤتيه من يشاء من عباده ، وهو أفضل من نعمته عليهم ، بعافية البدن وسعة الرزق ، وغير ذلك ، من النعم الدنيوية .

فلا أعظم من نعمة الدين التى هى مادة الفوز ، والسعادة الأبدية .

* لما ذكر تعالى منته على هذه الأمة ، الذين بعث فيهم النبى الأمى ، وما خصهم الله من المزايا والمناقب ، التى لا يلحقهم فيها أحد .

وهم : الأمة الأمية ، الذين فاقوا الأولين والآخرين ، حتى أهل الكتاب ، الذين يزعمون أنهم العلماء الربانيون ، والأحبار المتقدمون ،

ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓا۟

ذكر [1] أن الذين حملهم الله التوراة من اليهود والنصارى ، وأمرهم أن يتعلموها ، ويعملوا بها فلم يحملوها ولم يقوموا بما حملوا به أنهم لا فضيلة لهم.

وأن مثلهم كمثل الحمار الذى يحمل فوق ظهره أسفاراً من كتب العلم .

فهل يستفيد الحمار من تلك الكتب التى فوق ظهره ؟ وهل تلحقه فضيلة بسبب ذلك ؟ أم حظه منها حملها فقط ؟ .

فهذا مثل علماء أهل الكتاب ، الذين لم يعملوا بما فى التوراة ، الذى من أجله وأعظمه ، الأمر باتباع محمد صلى الله عليه وسلم ، والبشارة به ، والإيمان بما جاء به من القرآن .

فهل استفاد من هذا وصفه ، من التوراة ، إلا الخيبة والخسران ، وإقامة الحجة عليه ؟

فهذا المثل ، مطابق لأحوالهم .

[بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله] الدالة على صدق رسولنا وصحة ما جاء به .

[والله لا يهدى القوم الظالمين] أى لا يرشدهم إلى مصالحهم ، ما دام الظلم لهم وصفا ، والعناد لهم نعتا .

ومن ظلم اليهود وعنادهم ، أنهم يعلمون ، أنهم على باطل ، ويزعمون أنهم على حق ، وأنهم أولياء الله من دون الناس .

---

(١) قوله « ذكر » جواب « لما » فى قوله المتقدم « لما ذكر » .

إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾

ولهذا أمر الله رسوله ، أن يقول لهم : إن كنتم صادقين فى زعمكم ، أنكم على الحق ، وأولياء الله : [فتمنوا الموت] وهذا أمر خفيف .

فإنهم لو علموا أنهم على حق لما توقفوا عن هذا التحدى الذى جعله الله دايلا على صدقهم إن تمنوه ، وكذبهم إن لم يتمنوه .

ولما لم يقع منهم ، مع الإعلان لهم بذلك ، علم أنهم عالمون ببطلان ما هم عليه وفساده .

ولهذا قال : [ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم] أى من الذنوب والمعاصى ، التى يستوحشون من الموت ، من أجلها .

[والله عليم بالظالمين] فلا يمكن أن يخفى عليه من ظلمهم شىء .

هذا ، وإن كانوا لا يتمنون الموت بما قدمت أيديهم ، يل يفرون منه غاية الفرار ، فإن ذلك ، لا ينجيهم ، بل لا بد أن يلاقيهم الموت الذى قد حتمه الله على العباد .

ثم بعد الموت واستكمال الآجال ، يرد الخلق كلهم يوم القيامة ، إلى عالم الغيب والشهادة ، فينبئهم بما كانوا يعملون ، من خير وشر ، قليل وكثير .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين بالحضور لصلاة الجمعة ، والمبادرة إليها من حين ينادي لها والسعى إليها .

والمراد بالسعى هنا : المبادرة والاهتمام ، وجعلها أهم الأشغال : لا العدو الذى قد نهى عنه عند المضى إلى الصلاة .

وقوله [وذروا البيع] أى : اتركوا البيع ، إذا نودى للصلاة ، وامضوا إليها .

فإن [ذلكم خير لكم] من اشتغالكم بالبيع ، أو تفويتكم لصلاة الفريضة ، التى هى من آكد الفروض .

[إن كنتم تعلمون] أى : ما عند الله خير وأبقى ، وأن من آثر الدنيا على الدين ، فقد خسر الخسارة الحقيقية ، من حيث يظن أنه يربح .

وهذا الأمر بترك البيع ، موقت مدة الصلاة .

[فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض] لطلب المكاسب والتجارات

ولما كان الاشتغال بالتجارة ، مظنة الغفلة عن ذكر الله ، أمر الله بالإكثار من ذكره ، لينجبر بهذا فقال :

وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾
وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا قُلْ مَا عِندَ

[واذكروا الله كثيرا] أى فى حال قيامكم ، وقعودكم ، وعلى جنوبكم .

[لعلكم تفلحون] فإن الإكثار من ذكر الله أكبر أسباب الفلاح .

[وإذا رأوا تجارة أو لَهْوًا انفضوا إليها] أى : خرجوا من المسجد ، حرصا على ذلك اللهو ، وتلك التجارة ، وتركوا الخير [وتركوك قائما] تخطب الناس .

وذلك فى يوم الجمعة ، بينما النبى صلى الله عليه وسلم يخطب الناس ، إذ قدم المدينة ، عير تحمل تجارة .

فلما سمع الناس بها ، وهم فى المسجد ، انفضوا من المسجد ، وتركوا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب ، استعجالا لما لا ينبغى أن يستعجل له ، وترك أدب .

[قل ما عند الله] من الأجر والثواب ، لمن لازم الخير ، وصبر نفسه على عبادة الله .

[خير من اللهو ومن التجارة] التى ، وإن حصل منها بعض المقاصد ، فإن ذلك قليل منقض ، مفوت لخير الآخرة ، وليس الصبر على طاعة الله ، مفوتا للرزق .

ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَـٰرَةِ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

[والله خير الرازقين] فمن اتقى الله ، رزقه من حيث لا يحتسب .

وفى هذه الآيات فوائد عديدة :

منها : أن الجمعة فريضة على المؤمنين ، يجب عليهم السعى إليها ، والمبادرة والاهتمام بشأنها .

ومنها : أن الخطبتين يوم الجمعة ، فريضة ، يجب حضورهما ، لأنه فسر الذكر هنا بالخطبتين ، فأمر الله بالمضى إليه والسعى له .

ومنها : مشروعية النداء للجمعة ، والأمر به .

ومنها : النهى عن البيع والشراء ، بعد نداء الجمعة ، وتحريم ذلك ، وما ذاك إلا أن يفوت الواجب ، ويشغل عنه .

فدل ذلك ، على أن كل أمر ، وإن كان مباحا فى الأصل ، إذا كان ينشأ عنه تفويت واجب ، فإنه لا يجوز فى تلك الحال .

ومنها : الأمر بحضور الخطبتين يوم الجمعة ، وذم من لم يحضرهما ، ومن لازم ذلك ، الإنصات لهما .

ومنها : أنه ينبغى للعبد المقبل على عبادة الله ، وقت دواعى النفس لحضور اللهو والتجارات ، والشهوات ، أن يذكرها بما عند الله من الخيرات وما لمؤثر رضاه على هواه .

تم تفسير سورة الجمعة ، بمن الله وعونه ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

سُورَةُ المُنافِقُونَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَكَـٰذِبُونَ ﴿١﴾

---

* لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكثر الإسلام فيها وعز ، صار أناس من أهلها ، من الأوس والخزرج ، يظهرون الإيمان ، ويبطنون الكفر ، ليبقى جاههم ، وتحقن دماؤهم ، وتسلم أموالهم .

فذكر الله من أوصافهم ، مابه يعرفون ، لكي يحذرهم العباد، ويكونوا منهم على بصيرة فقال :

[إذا جاءك المنافقون قالوا] على وجه الكذب [نشهد إنك لرسول الله] وهذه الشهادة من المنافقين ، على وجه الكذب والنفاق ، مع أنه لا حاجة لشهادتهم ، فى تأييد رسوله .

[والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون] فى قولهم ودعواهم ، وأن ذلك ليس بحقيقة منهم .

ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ

[اتخذوا أيمانهم جنة] أى : ترسا يتترسون بها ، من نسبتهم إلى النفاق .

[فصدوا عن سبيل الله] بأنفسهم ، وصدوا غيرهم ، ممن يخفى عليه حالهم .

[إنهم ساء ما كانوا يعملون] حيث أظهروا الإيمان ، وأبطنوا الكفر، وأقسموا على ذلك ، وأوهموا صدقهم .

[ذلك] الذى زين لهم النفاق [بـ] سبب [أنهم] لا يثبتون على الإيمان .

بل [آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم] بحيث لا يدخلها الخير أبداً .

[فهم لا يفقهون] ما ينفعهم ، ولا يعون ما يعود بمصالحهم .

[وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم] من روائها ، ونضارتها .

[وإن يقولوا تسمع لقولهم] أى : من حسن منطقهم ، تستلذ لاستماعه.

فأجسامهم وأقوالهم معجبة ، ولكن ليس وراء ذلك من الأخلاق الفاضلة ، والهدى الصالح ، شىء ، ولهذا قال :

[كأنهم خشب مسندة] لا منفعة فيها ، ولا ينال منها إلا الضرر المحض .

ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا۟ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ

[يحسبون كل صيحة عليهم] وذلك لجبنهم وفزعهم ، وضعف قلوبهم وريبها ، يخافون أن يطلع عليها .

فهؤلاء [هم العدو] على الحقيقة ، لأن العدو البارز المتميز ، أهون من العدو ، الذى لا يشعر به ، وهو مخادع ماكر ، يزعم أنه وَلِيٌّ ، وهو العدو المبين .

[فاحذرهم ، قاتلهم الله ، أنى يؤفكون] أى : كيف يصرفون عن الدين الإسلامى بعد ما تبينت أدلته ، واتضحت معالمه ، إلى الكفر الذى لا يفيدهم ، إلا الخسار والشقاء .

[وإذا قيل لهم] أى: لهؤلاء المنافقين [تعالوا يستغفر لكم رسول الله] عما صدر منكم ، لتحسن أحوالكم ، وتقبل أعمالكم ، امتنعوا من ذلك أشد الامتناع .

[لووا رءوسهم] امتناعا من طلب الدعاء من الرسول .

[ورأيتهم يصدون] عن الحق، بغضا له [وهم مستكبرون] عن اتباعه بغيا وعنادا .

فهذه حالهم ، عندما يدعون إلى طلب الدعاء من الرسول ، وهذا من لطف الله وكرامته لرسوله ، حيث لم يأتوا إليه ، فيستغفر لهم .

لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

فإنه [سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم] وذلك لأنهم قوم فاسقون ، خارجون عن طاعة الله ، مؤثرون للكفر على الإيمان ، فلذلك لا ينفع فيهم استغفار الرسول ، لو استغفر لهم كما قال تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم » . [إن الله لا يهدى القوم الفاسقين[1]] .

* وهذا من شدة عداوتهم للنبى صلى الله عليه وسلم ، والمسلمين ، لما رأوا اجتماع أصحابه ، وائتلافهم ، ومسارعتهم فى مرضاة الرسول صلى الله عليه وسلم ، قالوا بزعمهم الفاسد :

[لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا] فإنهم — على زعمهم — لولا أموال المنافقين ونفقاتهم عليهم ، لما اجتمعوا فى نصرة دين الله .

وهذا من أعجب العجب ، أن يدعى هؤلاء المنافقون ، الذين هم أحرص الناس على خذلان الدين ، وأذية المسلمين ، مثل هذه الدعوى ، التى لا تروج إلا على من لا علم له بالحقائق .

---

(١) الفاسقين . أى : الكاملين فى الفسق ، الخارجين عن دائرة الاستصلاح ، المنهمكين فى الكفر والنفاق . اهـ أبو السعود .

لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾

ولهذا قال تعالى ، ردا لقولهم : [ولله خزائن السموات والأرض] فيؤتى الرزق من يشاء ، ويمنعه من يشاء ، وييسر الأسباب لمن يشاء ، ويعسرها على من يشاء .

[ولـكن المنافقين لا يفقهون] فلذلك قالوا تلك المقالة ، التى مضمونها أن خزائن الرزق فى أيديهم ، وتحت مشيئتهم .

[يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل] وذلك فى غزوة المريسيع ، حين صار بين بعض المهاجرين والأنصار ، بعض كلام ، كدر الخواطر ، ظهر حينئذ نفاق المنافقين ، وتبين ما فى قلوبهم .

وقال كبيرهم ، عبد الله بن أُبَىّ ابن سلول : ما مثلنا ، ومثل هؤلاء — يعنى المهاجرين — إلا كما قال القائل « سَمِّنْ كلبك يأكلك » .

وقال : لئن رجعنا إلى المدينة [ليخرجن الأعز منها الأذل] بزعمه أنه ، هو وإخوانه المنافقين ، الأعزون ، وأن رسول الله ، ومن اتبعه هم ، الأذلون ، والأمر بعكس ما قال هذا المنافق .

فلهذا قال تعالى : [ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين] فهم الأعزاء ، والمنافقون وإخوانهم من الـكفار ، هم الأذلاء .

[ولـكن المنافقين لا يعلمون] ذلك ، فلذلك زعموا أنهم الأعزاء ، اغترارا بما هم عليه من الباطل .

ثم قال تعالى : [يا أيها الذين آمنوا]إلى[بما تعملون]

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ

---

* يأمر تعالى عباده المؤمنين ، بالإكثار من ذكره ، فإن فى ذلك ، الربح والفلاح ، والخيرات الكثيرة .

وينهاهم أن تشغلهم أموالهم وأولادهم عن ذكره ، فإن محبة المال والأولاد ، مجبولة عليها أكثر النفوس ، فتقدمها على محبة الله ، وفى ذلك ، الخسارة العظيمة ، ولهذا قال تعالى :

[ومن يفعل ذلك] أى يلهه ماله وولده ، عن ذكر الله [فأولئك هم الخاسرون] للسعادة الأبدية ، والنعيم المقيم ، لأنهم آثروا ما يفنى على ما يبقى .

قال تعالى : « إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم » .

وقوله : [وأنفقوا مما رزقناكم] يدخل فى هذا ، النفقات الواجبة ، من الزكاة ، والكفارات ، ونفقة الزوجات ، والمماليك ، ونحو ذلك ، والنفقات المستحبة ، كبذل المال فى جميع المصالح .

وقال : [مما رزقناكم] ليدل ذلك على أنه تعالى ، لم يكلف العباد من النفقة ، ما يعنتهم ويشق عليهم ، بل أمرهم بإخراج جزء مما رزقهم ،ويسره، ويسر أسبابه .

فليشكروا الذى أعطاهم ، بمواساة إخوانهم المحتاجين ، وليبادروا

ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

بذلك ، الموت الذى إذا جاء ، لم يمكن العبد أن يأتى بمثقال ذرة من الخير ، ولهذا قال :

[من قبل أن يأتى أحدكم الموت فيقول] متحسراً على ما فرّط فى وقت الإمكان ، سائلا الرجعة التى هى محال : [رب لولا أخرتنى إلى أجل قريب] أى : لأتدارك ما فرّطتُ فيه .

[فأصدق] من مالى ، ما به أنجو من العذاب ، وأستحق جزيل الثواب .

[وأكن من الصالحين] بأداء المأمورات كلها ، واجتناب المنهيات ، ويدخل فى هذا ، الحج وغيره .

وهذا السؤال والتمنى ، قد فات وقته ، ولا يمكن تداركه ، ولهذا قال : [ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها] المحتوم لها [والله خبير بما تعملون] من خير وشر ، فيجازيكم على ما علمه ، من النيات والأعمال .

تم تفسير سورة المنافقين — ولله الحمد

تفسـير

سُورَةُ التَّغَابُنْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ

---

* هذه الآيات الكريمات ، مشتملات على جملة كثيرة واسعة ، من أوصاف البارى العظيمة .

فذكر كمال ألوهيته سبحانه ، وسعة غناه ، وافتقار جميع الخلائق إليه ، وتسبيح من فى السموات والأرض بحمد ربها ، وأن الملك كله لله ، فلايخرج عن ملكه مخلوق .

والحمد كله له ، حمد ، على ماله من صفات الكمال ، وحمد ، على ما أوجده من الأشياء .

وحمد ، على ما شرعه من الأحكام ، وأسداه من النعم .

وقدرته شاملة ، لا يخرج عنها موجود ، فلا يعجزه شىء يريده .

فِمنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ

وذكر أنه خلق العباد ، وجعل منهم المؤمن والكافر .

فإيمانهم وكفرهم كله ، بقضاء الله وقدره ، وهو الذى شاء ذلك منهم ، بأن جعل لهم قدرة وإرادة ، بها يتمكنون من كل ما يريدون ، من الأمر والنهى ، [والله بما تعملون بصير[1]] .

فلما ذكر خلق الإنسان المأمور المنهى ، ذكر خلق باقى المخلوقات فقال :

[خلق السموات والأرض] أى : أجرامهما ، وجميع ما فيهما ، فأحسن خلقهما .

[بالحق] أى : بالحكمة ، والغاية المقصودة له تعالى .

[وصوركم فأحسن صوركم] كما قال تعالى : « لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم » .

فالإنسان ، أحسن المخلوقات صورة . وأبهاها منظرا .

[وإليه المصير] أى : المرجع يوم القيامة ، فيجازيكم على إيمانكم وكفركم ، ويسألكم عن النعم والنعيم، الذى أولاكم ، هل قمتم بشكره ، أم لم تقوموا به ؟

---

(١) فيجازيكم بذلك ، فاختاروا منه ما يجديكم من الإيمان والطاعة وإياكم وما يرديكم من الكفر والعصيان . اهـ . أبو السعود .

ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ فَذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ

ثم ذكر عموم علمه فقال :

[يعلم ما فى السموات والأرض] أى : من السرائر والظواهر ، والغيب والشهادة .

[ويعلم ما تسرون وما تعلنون[1] * والله عليم بذات الصدور] أى : بما فيها من الأسرار الطيبة ، والخبايا الخبيثة ، والنيات الصالحة ، والمقاصد الفاسدة .

فإذا كان عليما بذات الصدور ، تعين على العاقل البصير ، أن يحرص ويجهد ، فى حفظ باطنه ، من الأخلاق الرذيلة ، واتصافه بالأخلاق الجميلة .

* لما ذكر تعالى من أوصافه الكاملة العظيمة ، ما به يعرف ويعبد ، ويبذل الجهد فى مرضاته ، وتجتنب مساخطه ، أخبر بما فعل بالأمم السابقين ، والقرون الماضين ، الذين لم تزل أنباؤهم ، يتحدث بها المتأخرون ، ويخبر بها الصادقون ، وأنهم حين جاءتهم رسلهم بالحق ، كذبوهم وعاندوهم .

[فذاقوا وبال أمرهم] فى الدنيا ، وأخزاهم الله فيها [ولهم عذاب أليم] فى الدار الآخرة ، ولهذا ذكر السبب فى هذه العقوبة فقال :

[ذلك] النكال والوبال ، الذى أحللناه بهم [بأنه كانت تأتيهم

---

(١) أى : ما تسرونه فيما بينكم ، وما تظهرونه من الأمور .

رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٦﴾

زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى

رسلهم بالبينات] أى : بالآيات الواضحات ، الدالة على الحق والباطل ، فاشمأزوا ، واستكبروا على رسلهم فقالوا :

[أبشر يهدوننا] أى : ليس لهم فضل علينا ، ولأى شىء خصهم الله دوننا .

كما قال فى الآية الأخرى : « قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده » فهم حجروا فضل الله ومنته على أنبيائه ، أن يكونوا رسلا للخلق ، واستكبروا عن الانقياد لهم .

فابتلوا بعبادة الأشجار ، والأحجار ونحوها [فكفروا] بالله [وتولوا] عن طاعته .

[واستغنى الله] عنهم ، فلا يبالى بهم ، ولا يضره ضلالهم شيئاً .

[والله غنى حميد] أى : هو الغنى ، الذى له الغنى التام المطلق ، من جميع الوجوه .

الحميد ، فى أقواله وأفعاله وأوصافه .

* يخبر تعالى عن عناد الكافرين ، وزعمهم الباطل ، وتكذيبهم بالبعث بغير علم ، ولا هدى ولا كتاب منير .

فأمر أشرف خلقه ، أن يقسم بربه على بعثهم ، وجزائهم بأعمالهم الخبيثة ، وتكذيبهم بالحق .

لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٨﴾

[وذلك على الله يسير] فإنه ، وإن كان عسيراً بل متعذراً ، بالنسبة إلى الخلق ، فإن قواهم كلهم ، لو اجتمعت على إحياء ميت واحد ، ماقدروا على ذلك .

وأما الله تعالى ، فإنه إذا أراد شيئاً ، قال له كن فيكون .

قال تعالى . « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات والأرض إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون »

* لما ذكر تعالى إنكار من أنكر البعث ، وأن ذلك منهم موجب كفرهم بالله وآياته ، أمر بما يعصم من الهلكة والشقاء ، وهو الإيمان به ، وبرسوله ، وبكتابه .

وسماه الله نوراً ، لأن النور ضد الظلمة ، فما فى الكتاب الذى أنزله الله ، من الأحكام ، والشرائع ، والأخبار ، أنوار يهتدى بها فى ظلمات الجهل المدلهمة ، ويمشى بها فى حندس الليل البهيم .

وما سوى الأهتداء بكتاب الله ، فهى علوم ، ضررها أكثر من نفعها ، وشرها أكثر من خيرها .

بل لا خير فيها ولا نفع ، إلا ما وافق ماجاءت به الرسل .

والإيمان بالله ورسوله وكتابه ، يقتضى الجزم التام ، واليقين الصادق بها ، والعمل بمقتضى ذلك التصديق ، من امتثال الأوامر ، واجتناب النواهى

[والله بما تعملون خبير] فيجازيكم بأعمالكم ، الصالحة والسيئة .

﴿ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ وَمَن

* يعنى : اذكروا يوم الجمع الذى يجمع الله به الأولين والآخرين ، ويقفهم موقفا هائلا عظيما ، وينبئهم بما عملوا .

فحينئذ ، يظهر الفرق والتغابن بين الخلائق ، ويرفع أقوام إلى أعلى عليين ، فى الغرف العاليات ، والمنازل المرتفعات ، المشتملة على جميع اللذات والشهوات .

ويخفض أقوام إلى أسفل سافلين ، محل الهم والغم ، والحزن والعذاب الشديد .

وذلك نتيجة ما قدموه لأنفسهم ، وأسلفوه أيام حياتهم ، ولهذا قال : [ذلك يوم التغابن [1]]

---

(١) أصل الغبن فى اللغة المخادعة فى البيع والشراء ، واستعير هنا ، بمعنى أن يغبن الناس بعضهم بعضاً ، بنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء ، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى كانوا ينزلونها لو كانوا أشقياء وفى الحديث « ما من عبد يدخل الجنة إلا أُرِيَ مقعده من النار لو أساء ، ليزداد شكراً ، وما من عبد يدخل النار إلا أرى مقعده من الجنة لو أحسن ليزداد حسرة » وتخصيص التغابن بذلك اليوم ، للإيذان والإعلام ، بأن التغابن — فى الحقيقة — هو الذى يقع فيه (أي : يوم القيامة) لا ما يقع فى أمور الدنيا . ا هـ . أبو السعود ، والنسفى بتصرف يسير .

يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ

اى : يظهر فيه التغابن ، والتفاوت بين الخلائق .

ويغبن المؤمنون الفاسقين ، ويعرف المجرمون . أنهم على غير شيء ، وأنهم هم الخاسرون .

فكأنه قيل : بأى شيء يحصل الفلاح والشقاء والنعيم والعذاب ؟

فذكر أسباب ذلك بقوله : [ومن يؤمن بالله] إيماناً تاماً ، شاملا لجميع ما أمر الله بالإيمان به .

[ويعمل صالحا] من الفرائض والنوافل ، من أداء حقوق الله وحقوق عباده .

[يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار] فيها ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وتختاره الأرواح ، وتحن إليه القلوب ، ويكون نهاية كل مرغوب .

[خالدين فيها أبدا ، ذلك الفوز العظيم [١].]

[والذين كفروا وكذبوا بآياتنا] أى : كفروا بها ، من غير مستند شرعى ولا عقلى .

بل جاءتهم الأدلة والبينات ، فكذبوا بها وعاندوا ، ما دلت عليه .

---

(١) أى : الذى لافوز وراءه لانطوائه على النجاة من أعظم الملكات والظفر بأجل الطلبات . ا هـ . أبو السعود .

فِيهَا وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾

مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ

[أولئك أصحاب النار خالدين فيها وبئس المصير[1]] لأنها جمعت كل بؤس وشدة ، وشقاء وعذاب .

* يقول تعالى : [ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله[2]] هذا عام لجميع المصائب ، فى النفس ، والمال ، والولد ، والأحباب ، ونحوهم .

فجميع ما أصاب العباد ، بقضاء الله وقدره ، قد سبق بذلك ، علم الله ، وجرى به قلمه ، ونفذت مشيئته ، واقتضته حكمته .

ولكن الشأن كل الشأن ، هل يقوم العبد بالوظيفة ، التى عليه فى هذا المقام ، أم لا يقوم بها ؟

فإن قام بها ، فله الثواب الجزيل ، والأجر الجميل ، فى الدنيا والآخرة .

فإذا آمن أنها من عند الله ، فرضى بذلك ، وسلم لأمره ، هدى الله قلبه ، فاطمأن ، ولم ينزعج عند المصائب ، كما يجرى ممن لم يهد الله قلبه ، بل يرزقه الثبات عند ورودها والقيام بموجب الصبر فيحصل له بذلك ، ثواب

---

(١) أى : النار كأن هاتين الآيتين الكريمتين ، بيان لكيفية التغابن. اهـ . أبو السعود .

(٢) أى : إلا بعلمه وتقديره ومشيئته ، كأنه أذن للمصيبة أن تصيبه . اهـ . نسفى .

يَهْدِ قَلْبَهُ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟

عاجل، مع مايدخر له يوم ، الجزاء من الأجر العظيم ، كما قال تعالى : «إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب »

وعلم من ذلك ، أن من لم يؤمن بالله عند ورود المصائب ، بأن لم يلحظ قضاء الله وقدره ، بل وقف مع مجرد الأسباب ، أنه يخذل ، ويكله الله إلى نفسه .

وإذا وكل العبد إلى نفسه ، فالنفس ليس عندها إلا الهلع والجزع ، الذى هو عقوبة عاجلة على العبد ، قبل عقوبة الآخرة ، على ما فرط فى واجب الصبر .

هذا مايتعلق بقوله [ومن يؤمن بالله يهد قلبه] فى مقام المصائب الخاص

وأما ما يتعلق بها من حيث العموم اللفظى ، فإن الله أخبر أن كل من آمن ، أى: الإيمان المأمور به ، وهو الإيمان بالله وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره .

وصدق إيمانه ، بما يقتضيه الإيمان من لوازمه وواجباته ، أن هذا السبب الذى قام به العبد ، أكبر سبب لهداية الله له ، فى أقواله ، وأفعاله ، وجميع أحواله وفى علمه وعمله .

وهذا أفضل جزاء ، يعطيه الله لأهل الإيمان ، كما قال تعالى ــ مخبراً أنه يثبت المؤمنين فى الحياة الدنيا وفى الآخرة .

وأصل الثبات : ثبات القلب وصبره ، ويقينه عند ورود كل فتنة ، فقال :

ٱلرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾

« يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة »

فأهل الإيمان ، أهدى الناس قلوباً ، وأثبتهم عند المزعجات والمقلقات وذلك ، لما معهم من الإيمان .

وقوله : [وأطيعوا الله وأطيعو الرسول] أى : فى امتثال أمرهما ، واجتناب نهيهما .

فإن طاعة الله وطاعة رسوله ، مدار السعادة ، وعنوان الفلاح .

[فإن توليتم] أى : عن طاعة الله وطاعة رسوله [فإنما على رسولنا البلاغ المبين] أى : يبلغكم ما أرسل به إليكم ، بلاغا بينا واضحاً ، فتقوم عليكم به الحجة ، وليس بيده من هدايتكم ، ولا من حسابكم شىء .

وإنما يحاسبكم على القيام بطاعة الله ، وطاعة رسوله ، أو عدم ذلك ، عالم الغيب والشهادة .

[الله الذى لا إله إلا هو] أى : هو المستحق للعبادة والألوهية ، فكل معبود سواه ، فباطل .

[وعلى الله فليتوكل المؤمنون] أى فيلعتمدوا عليه فى كل أمر نابهم ، وفيما يريدون القيام به .

فإنه لا يتيسر أمر من الأمور ، إلا بالله .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ

ولا سبيل إلى ذلك ، إلا بالاعتماد على الله .

ولا يتم الاعتماد على الله ، حتى يحسن العبد ظنه بربه ، ويثق به فى كفايته الأمر ، الذى يعتمد عليه به .

وبحسب إيمان العبد ، يكون توكله ، قوة وضعفا .

* هذا تحذير من الله للمؤمنين ، عن الاغترار بالأزواج والأولاد فإن بعضهم عدو لكم ، والعدو ، هو الذى يريد لك الشر .

فوظيفتك الحذر ممن هذه صفته ، والنفس مجبولة على محبة الأزواج والأولاد .

فنصح تعالى عباده ، أن توجب لهم هذه المحبة، الانقياد لمطالب الأزواج والأولاد ، التى فيها محذور شرعى ، ورغبهم فى امتثال أوامره ، وتقديم مرضاته بما عنده ، من الأجر العظيم المشتمل على المطالب العالية ، والمحاب الغالية ، وأن يؤثروا الآخرة على الدنيا الفانية المنقضية .

ولما كان النهى عن طاعة الأزواج والأولاد ، فيما هو ضرر على العبد، والتحذير من ذلك ، قد يوهم الغلظة عليهم وعقابهم ـ أمر تعالى بالحذر منهم ، والصفح عنهم والعفو ، فإن فى ذلك ، من المصالح ، ما لا يمكن حصره ، فقال :

[وإن تعفوا وتصفحوا وتغفروا فإن الله غفور رحيم] لأن الجزاء من جنس العمل .

غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُوا۟ وَأَطِيعُوا۟ وَأَنفِقُوا۟

فمن عفا ، عفا الله عنه ، ومن صفح ، صفح عنه ، ومن عامل الله فيما يحب ، وعامل عباده بما يحبون وينفعهم ، نال محبة الله ، ومحبة عباده ، واستوثق له أمره .

* يأمر تعالى بتقواه ، التي هي امتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وقيد ذلك ، بالاستطاعه والقدرة .

فهذه الآية ، تدل على أن كل واجب عجز عنه العبد ، يسقط عنه ، وأنه إذا قدر على بعض الأمور ، وعجز عن بعضه، فإنه يأتي بما قدر عليه، ويسقط عنه مايعجز عنه ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم » .

ويدخل تحت هذه القاعدة الشرعية من الفروع ، ما لا يدخل تحت الحصر .

وقوله [واسمعوا] أي : اسمعوا ما يعظكم الله به ، وما يشرعه لكم ، من الأحكام ، واعلموا ذلك ، وانقادوا له [وأطيعوا] الله ورسوله ، في جميع أموركم .

[وأنفقوا] من النفقات الواجبة والمستحبة ، يكن ذلك الفعل منكم

خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴿١٦﴾

[خيراً لأنفسكم] فى الدنيا والآخرة ، فإن الخير كله ، فى امتثال أوامر الله، وقبول نصائحه ، والانقياد لشرعه ، والشر كله ، فى مخالفة ذلك .

ولكن ثَمَّ آفة تمنع كثيراً من الناس ، من النفقة المأمور بها ، وهو الشح ، المجبولة عليه أكثر النفوس ، فإنها تشح بالمال ، وتحب وجوده ، وتكره خروجه من اليد غاية الكراهة .

[ومن يوق شح نفسه] بأن تسمح بالإنفاق النافع لها [فأولئك هم المفلحون] لأنهم أدركوا المطلوب ، ونجوا من المرهوب .

بل لعل ذلك ، شامل لكل ما أمر به العبد ، ونهى عنه .

فإنه إن كانت نفسه شحيحة. لاتنقاد لما أمرت به، ولاتخرج ما قِبَلها، « من النفقات المأمورة بها » لم يفلح ، بل خسر الدنيا والآخرة.

وإن كانت نفسه نفساً سمحة ، مطمئنة ، منشرحة لشرع الله ، طالبة لمرضاته ، فإنها ليس بينها وبين فعل ما كلفت به إلا العلم به ، ووصول معرفته إليها ، والبصيرة بأنه مُرْضٍ لله .

وبذلك تفلح ، وتنجح ، وتفوز كل الفوز .

ثم رغب تعالى فى النفقة فقال : [إن تقرضوا الله قرضاً حسناً] وهو : كل نفقة كانت من الحلال ، وإذا قصد بها العبد وجه الله تعالى ، - ووضعها فى موضعها [يضاعفه لكم] النفقة ، بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة.

إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾

[و] مع المضافة أيضاً [يغفر لكم] بسبب الإنفاق والصدقة ، ذنوبكم فإن الذنوب تكفرها الصدقات والحسنات « إن الحسنات يذهبن السيئات .

[والله شكور حليم] لا يعاجل من عصاه ، بل يمهله ولا يهمله .

« ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى »

[والله] تعالى [شكور] يقبل من عباده اليسير من العمل ، ويجازيهم عليه الكثير من الأجر .

ويشكر تعالى لمن تحمل من أجله المشاق والأثقال ، وأنواع التكاليف الثقال ، ومن ترك شيئاً ، عوضه الله خيراً منه .

[عالم الغيب والشهادة] أي ما غاب عن العباد ، من الجنود التى لا يعلمها إلا هو ، وما يشاهدنه من المخلوقات .

[العزيز] الذى لا يغالب ، ولا يمانع ، الذى قهر جميع الأشياء .

[الحكيم] فى خلقه وأمره ، الذى يضع الأشياء مواضعها .

تم تفسير سورة التغابن - ولله الحمد

تفســـير

سُورَةُ الطَّلاقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِن بُيُوتِهِنَّ

---

* يقول تعالى ـ مخاطباً لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ـ :

[يا أيها النبى إذا طلقتم النساء] أى : أردتم طلاقهن [فـ] التمسوا لطلاقهن ، الأمر المشروع ، ولا تبادروا بالطلاق ، من حين يوجد سببه ، من غير مراعاة لأمر الله .

بل [طلقوهن لعدتهن] أى:لأجل عدتهن ، بأن يطلقها زوجها ،وهى طاهر ، فى طهر لم يجامعها فيه ، فهذا الطلاق ، هو الذى تكون العدة فيه واضحة بينة .

بخلاف ما لو طلقها وهى حائض فإنها لا تحتسب تلك الحيضة ، التى وقع فيها الطلاق ، وتطول عليها العدة بسبب ذلك .

وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن

وكذلك لو طلقها فى طهر وطىء فيه ، فإنه لا يؤمن حملها ، فلا يتبين، ولا يتضح بأى عدة تعتد .

[وأحصوا العدة] وإحصاء العدة ، ضبطها إن كانت تحيض ، أو بالأشهر ، إن لم تكن تحيض ، وايست حاملا .

فإن فى إحصائها ، أداء لحق الله ، وحق الزوج المطلق ، وحق من سيتزوجها بَعْدُ ، وحقها فى النفقة ونحوها .

فإذا ضبطت عدتها ، علمت حالها على بصيرة ، وعلم ما يترتب عليها ، من الحقوق ، وما لها منها .

وهذا الأمر بإحصاء العدة ، يتوجه للزوج ، وللمرأة ، إن كانت مكلفة ، وإلا فلِوَلِيِّهَا .

وقوله : [واتقوا الله ربكم] أى : فى جميع أموركم ، وخافوه فى حق الزوجات المطلقات .

[لا تخرجوهن من بيوتهن] مدة العدة ، بل تلزم بيتها ، الذى طلقها زوجها وهى فيه .

[ولا يخرجن] أى : لا يجوز لهن الخروج منها .

أما النهى عن إخراجها ، فلأن المسكن ، يجب على الزوج للزوجة ، لتكمل فيه عدتها التى هى حق من حقوقه .

وأما النهى عن خروجها ، فلما فى خروجها ، من إضاعة حق الزوج ، وعدم صونه .

يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ

ويستمر هذا النهى عن الخروج من البيوت ، والإخراج ، إلى تمام العدة.

[إلا أن يأتين بفاحشة مبينة] أى : بأمر قبيح واضح ، موجب لإخراجها ، بحيث يدخل على أهل البيت الضرر ، من عدم إخراجها ، كالأذى بالأقوال ، والأفعال الفاحشة .

ففى هذه الحال يجوز لهم إخراجها،لأنها هى التى تسببت لإخراج نفسها .

والإسكان فيه جبر لخاطرها ، ورفق بها ، فهى التى أدخلت الضرر عليها ، وهذا فى المعتدة الرجعية .

وأما البائن ، فليس لها سكنى واجبة ، لأن السكن تبع للنفقة ، والنفقة تجب للرجعية ، دون البائن .

[وتلك حدود الله] أى : التى حدها لعباده وشرعها لهم ، وأمرهم بلزومها ، والوقوف معها .

[ومن يتعد حدود الله] بأن لم يقف معها ، بل تجاوزها ، أوقصر عنها.

[فقد ظلم نفسه] أى بخسها حقها ، وأضاع نصيبه من اتباع حدود الله التى هى الصلاح فى الدنيا والآخرة .

[لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً] أى : شرع الله العدة ، وحدد الطلاق بها ، لحكم عظيمة :

فمنها : أنه لعل الله يحدث فى قلب المطلق ، الرحمة والمودة ، فيراجع من طلقها ، ويستأنف عشرتها ، فيتمكن من ذلك « من معرفة » مدة العدة .

ولعله يطلقها ، لسبب منها ، فيزول ذلك السبب ، فى مدة العدة ، فيراجعها ، لانتفاء سبب الطلاق .

أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ

ومن الحكم : أنها مدة التربص ، يعلم براءة رحمها ، من زوجها .

وقوله : [فإذا بلغن أجلهن] أى قاربن انقضاء العدة ، لأنهن لو خرجن من العدة ، لم يكن الزوج مخيرا بين الإمساك والفراق .

[فأمسكوهن بمعروف] أى : على وجه المعاشرة الحسنة ، والصحبة الجميلة ، لا على وجه الضرر ، وإرادة الشر والحبس ، فإن إمساكها على هذا الوجه ، لا يجوز .

[أو فارقوهن بمعروف] أى : فراقا لا محذور فيه ، من غير تشاتم ولا تخاصم ، ولا قهر لها ، على أخذ شىء من مالها .

[وأشهدوا] على طلاقها ورجعتها [ذوى عدل منكم] أى : رجلين مسلمين عدلين ، لأن فى الإشهاد المذكور ، سداً لباب المخاصمة ، وكتمان كل منهما ، ما يلزم بيانه ،

[وأقيموا] أيها الشهداء [الشهادة لله] أى ائتوا بها على وجهها ، من غير زيادة ولا نقص .

واقصدوا باقامتها وجه الله تعالى ، ولا تراعوا بها قريبا لقرابته ، ولا صاحبا لمحبته .

[ذلكم] الذى ذكرنا لكم من الأحكام والحدود [يوعظ به من كان

يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ

يؤمن بالله واليوم الآخر] فإن الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، يوجب لصاحبه أن يتعظ بمواعظ الله ، وأن يقدم لآخرته من الأعمال الصالحة ، مايتمكن منها.

بخلاف من ترحل الإيمان من قلبه ، فإنه لا يبالى بما أقدم عليه من الشر ، ولا يعظم مواعظ الله ، لعدم الموجب لذلك .

ولما كان الطلاق ، قد يوقع فى الضيق والكرب والغم ، أمر تعالى بتقواه ووعد من اتقاه فى الطلاق وغيره بأن يجعل له فرجا ومخرجا .

فإذا أراد العبد الطلاق ، ففعله على الوجه الشرعى ، بأن أوقعه طلقة واحدة ، فى غير حيض ولا طهر أصابها فيه ، فإنه لا يضيق عليه الأمر ، بل جعل الله له فرجا وسعة ، يتمكن بها من الرجوع إلى النكاح ، إذا ندم على الطلاق .

والآية ، وإن كانت فى سياق الطلاق والرجعة ، فإن العبرة بعموم اللفظ .

فكل من اتقى الله ، ولازم مرضاته فى جميع أحواله ، فإن الله يثيبه فى الدنيا والآخرة .

ومن جملة ثوابه ، أن يجعل له فرجا ومخرجا ، من كل شدة ومشقة .

وكما أن من اتقى الله ، جعل له فرجا ومخرجا ، فمن لم يتق الله ، يقع فى الآصار والأغلال ، التى لا يقدرون على التخلص منها ، والخروج من تبعتها .

واعتبر ذلك في الطلاق ، فإن العبد إذا لم يتق الله فيه ، بل أوقعه على

عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

الوجه المحرم ، كالثلاث ونحوها ، فإنه لا بد أن يندم ندامة ، لا يتمكن من استدراكها ، والخروج منها

وقوله [ويرزقه من حيث لا يحتسب] أى : يسوق الله الرزق للمتقى ، من وجه لا يحتسبه ، ولا يشعر به .

[ومن يتوكل على الله] فى أمر دينه ودنياه ، بأن يعتمد على الله فى جلب ما ينفعه ، ودفع ما يضره ، ويثق به فى تسهيل ذلك [فهو حسبه] أى : كافيه الأمر الذى توكل عليه فيه .

وإذا كان الأمر فى كفالة الغنى القوى ، العزيز الرحيم، فهو أقرب إلى العبد من كل شىء .

ولكن ربما أن الحكمة الإلهية ، اقتضت تأخيره إلى الوقت المناسب له فلهذا قال تعالى :

[إن الله بالغ أمره] أى : لابد من نفوذ قضائه وقدره .

ولكنه [قد جعل لكل شىء قدرا] أى : وقتا ومقدارا ،لا يتعداه، ولا يقصر عنه .

﴿ وَٱلَّـٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّـٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾

---

* لما ذكر تعالى، أن الطلاق المأمور به، يكون لعدة النساء، ذكر العدة فقال.

[واللائى يئسن من المحيض من نسائكم إن ارتبتم] بأن كن يحضن، ثم ارتفع حيضهن، لكبر أو غيره، ولم يُرْجَ رجوعه [فعدتهن ثلاثة أشهر] جعل كل شهر، مقابلة حيضة.

[واللائى لم يحضن] أى: الصغار، اللائى لم يأتهن الحيض بَعْدُ، أو البالغات، اللاتى لم يأتهن حيض بالكلية، فإنهن كالآيسات، عدتهن ثلاثة أشهر.

وأما اللائى يحضن، فذكر الله عدتهن فى قوله:

[والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء].

وقوله [وأولات الأحمال أجلهن] أى: عدتهن [أن يضعن حملهن] أى: جميع ما فى بطونهن، من واحد، ومتعدد، ولا عبرة حينئذ، بالأشهر ولا غيرها.

[ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرا] أى: من اتقى، يسّر له الأمور، وسهّل عليه كل عسير.

ذَٰلِكَ أَمْرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيْكُمْ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾

أَسْكِنُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟

[ذلك] أى الحكم الذي بينه الله لكم [أمر الله أنزله إليكم] لتمشوا عليه ، وتأتموا به ، وتعظموه .

[ومن يتق الله يكفر عنه سيئاته ويعظم له أجرا] أى : يندفع عنه المحذور ، ويحصل له المطلوب .

* تقدم أن الله نهى عن إخراج المطلقات من البيوت وهنا أمر بإسكانهن وقدر إسكانهن بالمعروف ، وهو البيت الذى يسكنه مثله ومثلها ، بحسب وُجْدِ الزوج وعسره

[ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن] أى : لا تضاروهن ، عند سكناهن بالقول أو الفعل ، لأجل أن يمللن ، فيخرجن من البيوت ، قبل تمام العدة ، فتكونوا ، أنتم المخرجين لهن .

وحاصل هذا ، أنه نهى عن إخراجهن ، ونهاهن عن الخروج ، وأمر بسكناهن ، على وجه لا يحصل به عليهن ، ضرر ولا مشقة ، وذلك راجع إلى العرف .

[وإن كن] أى : المطلقات [أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن] وذلك لأجل الحمل الذى فى بطنها ، إن كانت بائنا .

عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾

ولها ولحملها ، إن كانت رجعية ومنتهى النفقة ، إلى وضع الحمل .

فإذا وضعن حملهن ، فإما أن يرضعن أولادهن أو لا .

[فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن] المسماة لهن ، إن كان مسمى ، وإلا فأجر المثل .

[وائتمروا بينكم بمعروف] أى : وليأمر كل واحد من الزوجين وغيرهما ، الآخر بالمعروف ، وهو كل ما فيه منفعة ومصلحة فى الدنيا والآخرة.

فإن الغفلة عن الائتمار بالمعروف ، يحصل فيها من الضرر والشر ، ما لا يعلمه إلا الله .

وفى الائتمار به ، تعاون على البر والتقوى .

ومما يناسب هذا المقام ، أن الزوجين عند الفراق وقت العدة ، خصوصا إذا ولد بينهما ولد، فى الغالب يحصل من التنازع والتشاجر لأجل النفقة عليها وعلى الولد مع الفراق ، الذى لا يحصل فى الغالب ، إلا مقرونا بالبغض ، فيتأثر من ذلك ، شىء كثير .

فكل منهما ، يؤمر بالمعروف ، والمعاشرة الحسنة ، وعدم المشاقة والمنازعة وينصح على ذلك .

[وإن تعاسرتم] بأن لم يتفق الزوجان على رضاعها لولدها .

[فسترضع له أخرى] غيرها « ولا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف » .

لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنفِقْ مِمَّا ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾

وهذا حيث كان الولد يقبل ثَدْىَ غير أمه .

فإن لم يقبل إلا ثدى أمه ، تعينت لإرضاعه ، ووجب عليها ، وأجبرت إن امتنعت ، وكان لها أجرة المثل ، إن لم يتفقا على مسمى .

وهذا مأخوذ من الآية الكريمة من حيث المعنى ، فإن الولد ، لما كان فى بطن أمه مدة الحمل ، لا خروج له منه ، عَيَّنَ تعالى على وليه النفقة .

فلما ولد ، وكان يتمكن أن يتقوت من أمه ، ومن غيرها ، أباح تعالى، الأمرين .

فإذا ، كان بحالة ، لا يمكن أن يتقوت إلا من أمه ، كان بمنزلة الحمل، وتعينت أمه طريقا لقوته .

ثم قدر تعالى النفقة ، بحسب حال الزوج فقال :

[لينفق ذو سعة من سعته] أى : لينفق الغنى من غناه ، فلا ينفق نفقة الفقراء .

[ومن قدر عليه رزقه] أى : ضيق عليه [فلينفق مما آتاه الله] من الرزق .

[لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها] وهذا مناسب للحكمة والرحمة الإلهية حيث جعل كلا بحسبه ، وخفف عن المعسر ، وأنه لا يكلفه إلا ما آتاه ، فلا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، فى باب النفقة وغيرها . [سيجعل الله بعد العسر يسرا] وهذه بشارة للمعسرين ، أن الله تعالى سيزيل عنهم الشدة ، ويرفع عنهم المشقة ، « فإن مع العسر يسرا » .

۞ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا ﴿١٠﴾ رَّسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَـٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَـٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَمَن يُؤْمِن بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَـٰلِحًا

---

* يخبر تعالى عن إهلاكه الأمم العاتية ، والقرون المكذبة للرسل ، وأن كثرتهم وقوتهم ، لم تغن عنهم شيئا ، حين جاءهم الحساب الشديد ، والعذاب الأليم .

وأن الله أذاقهم من العذاب ، ما هو موجب أعمالهم السيئة .

ومع عذاب الدنيا ، فإن الله أعد لهم فى الآخرة ، عذابا شديدا .

[فاتقوا الله باأولى الألباب] أى : ياذوى العقول ، التى تفهم عن الله آياته وعبره ، وأن الذى أهلك القرون الماضية ، بتكذيبهم ، أن من بعدهم مثلهم ، لا فرق بين الطائفتين .

ثم ذكر عباده المؤمنين ، بما أنزل عليهم من كتابه ، الذى أنزله على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، ليخرج الخلق من ظلمات الجهل والكفر والمعصية ، إلى نور العلم والإيمان والطاعة .

فمن الناس ، من آمن به ، ومنهم من لم يؤمن به .

[ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا] من الواجبات والمستحبات .

يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا ﴿١٢﴾

[يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار] فيهـا من النعيم المقيم ، ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

[خالدين فيها أبداً ، قد أحسن الله له رزقا] أى : ومن لم يؤمن بالله ورسوله ، فأولئك أصحاب النار ، هم فيها خالدون .

ثم أخبر تعالى أنه خلق السموات والأرض ، ومن فيهن ، والأرضين السبع ومن فيهن ، وما بينهن ، وأنزل الأمر وهو : الشرائع والأحكام الدينية ، التى أوحاها إلى رسله لتذكير العباد ووعظهم ، وكذلك الأوامر الكونية والقدرية ، التى يدبر بها الخلق ، كل دلك لأجل أن يعرفه العباد ويعلموا إحاطة قدرته بالأشياء كلها ، وإحاطة علمه بجميع الأشياء ، .

فإذا عرفوه بأسمائه الحسنى وأوصافه المقدسة ، عبدوه ، وأحبوه ،وقاموا بحقه ، فهذه هى الغاية المقصودة من الخلق والأمر : معرفة الله وعبادته .

فقام بذلك الموفقون من عبـاد الله الصالحين ، وأعرض عن ذلك ، الظالمون المعرضون .

تم تفسير سورة الطلاق ـ والحمد لله

تفسـير

سُورَةُ التَّحْرِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ

---

* هذا عتاب من الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، حين حرم على نفسه سريته « مارية » أو شرب العسل، مراعاة لخاطر بعض زوجاته، فى قصة معروفة.

فأنزل الله هذه الآيات [يأأيها النبى] أى : يا أيها الذى أنعم الله عليه بالنبوة والرسالة والوحى [لم تحرم ما أحل الله لك] من الطيبات، التى أنعم الله بها عليك وعلى أمتك.

[تبتغى] بذلك التحريم [مرضاة أزواجك والله غفور رحيم].

هذا تصريح بأن الله قد غفر لرسوله، ورفع عنه اللوم، ورحمه، وصار ذلك التحريم الصادر منه، سببا لشرع حكم عام لجميع الأمة، فقال تعالى :

[قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم] وهذا عام فى جميع أيمان المؤمنين

أَيْمَٰنِكُمْ وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ

أى : قد شرع لكم ، وقدر ما به تنحل أيمانكم قبل الحنث ، وما به تتكفر بعد الحنث.

وذلك كما فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » إلى أن قال : « فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ، فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ، ذلك كفارة أيمانكم إذا حلفتم » .

فكل من حرم حلالا عليه ، من طعام أو شراب ، أو سرية ، أو حلف يمينا بالله ، على فعل أو ترك ، ثم حنث وأراد الحنث ، فعليه هذه الكفارة المذكورة .

وقوله [والله مولاكم أى : متولى أموركم ، ومربيكم أحسن تربية ، في أمر دينكم ودنياكم ، وما به يندفع عنكم الشر ، فلذلك فرض لكم لكم تحلة أيمانكم ، لتبرأ ذممكم .

[وهو العليم الحكيم] الذى أحاط علمه بظواهركم وبواطنكم . وهو الحكيم فى جميع ما خلقه وحكم به .

فلذلك شرع لكم من الأحكام ، ما يعلم أنه موافق لمصالحكم ، ومناسب لأحوالكم .

ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ

وقوله [وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثا] قال كثير من المفسرين : هى حفصة ، أم المؤمنين رضى الله عنها ، أَسَرَّ لها النبى صلى الله عليه وسلم حديثا ، وأمر أن لا تخبر به أحدا ، فحدثت به عائشة رضى الله عنها .

وأخبره الله بذلك الخبر ، الذى أذاعته ، فَعَرَّفها صلى الله عليه وسلم ، ببعض قالت ، وأعرض عن بعضه ، كرما منه صلى الله عليه وسلم ، وحلما .

[قالت] له : [من أنبأك هذا] الخبر الذى لم يخرج منا ؟ .

[قال نبأنى العليم الخبير] الذى لا تخفى عليه خافية ، يعلم السر وأخفى.

وقوله : [إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما] الخطاب للزوجتين الكريمتين حفصة ، وعائشة رضى الله عنهما ، كانتا سببا لتحريم النبى صلى الله عليه وسلم على نفسه ما يحبه .

فعرض الله عليهما التوبة ، وعاتبهما على ذلك ، وأخبرهما أن قلوبكما قد صغت أى : مالت وانحرفت عما ينبغى لهن ، من الورع والأدب ، مع الرسول صلى الله عليه وسلم ، واحترامه ، وأن لا يشققن عليه .

[وإن تظاهرا عليه] أى : تعاونا على ما يشق عليه ، ويستمر هذا الأمر منكن .

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ

[فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير] أى : الجميع أعوان للرسول ، مظاهرون له . ومن كان هؤلاء أنصاره ، فهو المنصور ، وغيره ، إن يناوئه ، فهو مخذول .

وفى هذا أكبر فضيلة وشرف لسيد المرسلين ، حيث جعل البارى ، نفسه الكريمة ، وخواص خلقه ، أعوانا لهذا الرسول الكريم .

وفيه من التحذير للزوجين الكريمتين ، ما لا يخفى .

ثم خوفهما أيضا ، بحالة تشق على النساء غاية المشقة ، وهو الطلاق ، الذى هو أكبر شىء عليهن فقال :

[عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن] أى: فلا تترفعن عليه ، فإنه لو طلقكن ، لا يضيق عليه الأمر ، ولم يكن مضطراً إليكن .

فإنه سيجد ، ويبدله الله أزواجا ، خيرا منكن ، دينا وجمالا .

وهذا من باب التعليق الذى لم يوجد ، ولا يلزم وجوده .

فإنه ، ما طلقهن ، ولو طلقهن ، لكان ما ذكره الله ، من هذه الأزواج الفاضلات .

[مسلمات مؤمنات] جامعات بين الإسلام ، وهو : القيام بالشرائع الظاهرة .

والإيمان وهو : القيام بالشرائع الباطنة ، من العقائد وأعمال القلوب .

[قانتات] والقنوت هو : دوام الطاعة واستمرارها [تائبات] عما يكرهه الله .

سَٰئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ

فوصفهن بالقيام بما يحبه الله ، والتوبة عما يكرهه الله .

[ثيبات وأبكارا] أى بعضهن ثيب ، وبعضهن أبكار . ليتنوع صلى الله عليه وسلم ، فيما يحب .

فلما سمعن - رضى الله عنهن - هذا التخويف والتأديب ، بادرن إلى رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان هذا الوصف ، منطبقا عليهن ، فصرن أفضل نساء المؤمنين .

* أى : يامن مَنّ الله عليهم بالإيمان ، قوموا بلوازمه وشروطه .

ف[قوا أنفسكم وأهليكم نارا] موصوفة بهذه الأوصاف الفظيعة .

ووقاية الأنفس ، بإلزامها أمر الله ، امتثالا ، ونهيه اجتنابا ، والتوبة عما يسخط الله ، ويوجب العذاب .

ووقاية الأهل والأولاد ، بتأديبهم ، وتعليمهم ، وإجبارهم على أمر الله .

فلا يسلم العبد ، إلا إذا قام بما أمر الله به فى نفسه ، وفيمن تحت ولايته وتصرفه .

ووصف الله النار بهذه الأوصاف ، ليزجر عباده عن التهاون بأمره فقال :

[وقودها الناس والحجارة] كما قال تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون » .

ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَعْتَذِرُواْ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا

[عليها ملائكة غلاظ شداد] أى : غليظة أخلاقهم ، شديد انتصارهم يفزعون بأصواتهم ويزعجون بمرآهم ، ويهينون أصحاب النار بقوتهم ، وينفذون فيهم أمر الله ، الذى حتّم عليهم بالعذاب وأوجب ، عليهم شدة العقاب .

[لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون] وهذا فيه أيضا ، مدح للملائكة الكرام ، وانقيادهم لأمر الله وطاعتهم له فى كل ما أمرهم به .

* أى : يونج أهل النار يوم القيامة بهذا التوبيخ فيقال لهم :

[يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم] أى : فإنه ذهب وقت الاعتذار ، وزال نفعه ، فلم يبق الآن إلا الجزاء على الأعمال .

وانتم لم تقدموا ، إلا الكفر بالله ، والتكذيب بآياته ومحاربة رسله وأوليائه .

* قد أمر الله بالتوبة النصوح فى هذه الآية ، ووعد عليها بتكفير السيئات ، ودخول الجنات ، والفوز والفلاح ، حين يسعى المؤمنون يوم القيامة ، بنور إيمانهم ، ويمشون بضيائه ، ويتمتعون بروحه وراحته ، ويشفقون إذا طفئت الأنوار ، التى تعطى المنافقين ، ويسألون الله ، أن يتم

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾

لهم نورهم فيستجيب الله دعوتهم ، ويوصلهم بما معهم من النور واليقين ، إلى جنات النعيم ، وجوار الرب الكريم .

وكل هذا ، من آثار التوبة النصوح .

والمراد بها : التوبة العامة الشاملة لجميع الذنوب ، التى عقدها العبد لله، لا يريد بها إلا وجه الله ، والقرب منه ، ويستمر عليها فى جميع أحواله .

* يأمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ، بجهاد الكفار والمنافقين ، والإغلاط عليهم فى ذلك .

وهذا شامل لجهادهم ، بإقامة الحجة عليهم ، ودعوتهم بالموعظة الحسنة وإبطال ما هم عليه من أنواع الضلال ، وجهادهم بالسلاح والقتال ، لمن أبى أن يجيب دعوة الله ، وينقاد لحكمه ، فإن هذا ، يجاهد ويغلظ عليه .

وأما المرتبة الأولى ، فتكون بالتى هى أحسن .

فالكفار والمنافقون ، لهم عذاب فى الدنيا ، بتسليط الله لرسوله وحزبه عليهم ، وعلى جهادهم ، وعذاب النار فى الآخرة ، وبئس المصير ، الذى يصير إليه كل شقى خاسر .

﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾

☆ هذان المثلان ، اللذان ضربهما الله للمؤمنين والكافرين ، ليبين لهم أن اتصال الكافر بالمؤمن ، وقربه منه ، لا يفيده شيئا ، وأن اتصال المؤمن بالكافر ، لا يضره شيئا ، مع قيامه بالواجب عليه .

فكأن فى ذلك ، إشارة وتحذيرا لزوجات النبى صلى الله عليه وسلم ، عن المعصية ، وأن اتصالهن به صلى الله عليه وسلم ، لا ينفعهن شيئا مع الإساءة ، فقال :

[ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا] .

أى : المرأتان [تحت عبدين من عبادنا صالحين] وهما نوح ، ولوط ، عليهما السلام .

[فخانتاهما] فى الدين ، بأن كانتا على غير دين زوجيهما .

وهذ هو المراد بالخيانة لا خيانة النسب والفراش ، فإنه ما بغت امرأة نبى قط ، وما كان الله ، ليجعل امرأة أحد من أنبيائه بغيا .

[فلم يغنيا] أى : نوح ولوط [عنهما] أى . عن امرأتيهما [من الله شيئا وقيل لهما ادخلا النار مع الداخلين(١)] .

---

(١) أى : مع سائر الداخلين من الكفرة الذين لا وصلة بينهم وبين الأنبياء عليهم السلام . ا هـ . أبو السعود .

وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ

[وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون] وهى آسية بنت مزاحم رضى الله عنها [إذ قالت رب ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين] .

فوصفها الله بالإيمان والتضرع لربها ، وسؤالها أجل المطالب ، وهو دخول الجنة ، ومجاورة الرب الكريم،وسؤالها ،أن ينجيها من فتنة فرعون وأعماله الخبيثة ، ومن فتنة كل ظالم .

فاستجاب الله لها ، فعاشت فى إيمان كامل ، وثبات تام ، ونجاة من الفتن .

ولهذا قال النبى صلى الله عليه وسلم « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء ، إلا مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفضل عائشة على النساء ، كفضل الثريد على سائر الطعام » .

وقوله [ومريم ابنت عمران التى أحصنت فرجها] أى : حفظته وصانته عن الفاحشة ، لكمال ديانتها ، وعفتها ، ونزاهتها .

[فنفخنا فيه من روحنا] بأن نفخ جبريل عليه السلام فى جيب درعها فوصلت نفخته إلى مريم ، فجاء منها ، عيسى عليه السلام ، الرسول الكريم والسيد العظيم .

ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

[وصدقت بكلمات ربها وكتبه] وهذا وصف لها بالعلم والمعرفة .

فإن التصديق بكلمات الله ، يشمل كلماته الدينية والقدرية .

والتصديق بكتبه ، يقتضى معرفة ما به يحصل التصديق ، ولا يكون ذلك ، إلا بالعلم والعمل ، ولهذا قال :

[وكانت من القانتين] أى : المداومين على طاعة الله ، بخشية وخشوع .

وهذا وصف لها بكمال العمل ، فإنها - رضى الله عنها - صديقة ، والصديقية هى : كمال العلم والعمل .

تم تفسير سورة التحريم - بعون الله وتيسيره

تفسير

سورة الملك

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ

---

* [تبارك الذى بيده الملك] أى : تعاظم وتعالى، وكثر خيره، وعم إحسانه.

من عظمته أن بيده، ملك العالم العلوى والسفلى، فهو الذى خلقه، ويتصرف فيه بما شاء، من الأحكام القدرية، والأحكام الدينية، التابعة لحكمته.

[وهو على كل شىء قدير] أى : ومن عظمته، كمال قدرته، التى يقدر بها على كل شىء، وبها أوجد ما أوجد من المخلوقات العظيمة، كالسموات والأرض.

[الذى خلق الموت والحياة] أى : قدر لعباده أن يحييهم ثم يميتهم.

[ليبلوكم أيكم أحسن عملا] أى : أخلصه وأصوبه.

عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا

وذلك أن الله خلق عباده، وأخرجهم لهذه الدار، وأخبرهم أنهم سينقلون منها، وأمرهم ونهاهم، وابتلاهم بالشهوات المعارضة لأمره.

فمن انقاد لأمر الله، أحسن الله له الجزاء فى الدارين.

ومن مال مع شهوات النفس، ونبذ أمر الله، فله شر الجزاء.

[وهو العزيز] الذى له العزة كلها، التى قهر بها جميع الأشياء، وانقادت له المخلوقات.

[الغفور] عن المسيئين، والمقصرين، والمذنبين، خصوصا إذا تابوا وأنابوا.

فإنه يغفر ذنوبهم، ولو بلغت عنان السماء، ويستر عيوبهم، ولو كانت ملء الدنيا.

[الذى خلق سبع سموات طباقا] أى: كل واحدة فوق الأخرى، ولسن طبقة واحدة، وخلقها فى غاية الحسن والإتقان [ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت] أى: خلل ونقص.

وإذا انتفى النقص من كل وجه، صارت حسنة كاملة، متناسبة من كل وجه، فى لونها، وهيئتها، وارتفاعها، وما فيها، من الشمس، والكواكب النيرات، الثوابت منهن والسيارات.

ولما كان كمالها معلوما، أمر الله تعالى بتكرار النظر إليها والتأمل فى أرجائها فقال:

مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾

وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا

[فارجع البصر] أي : أعده إليها ، ناظرا معتبرا [هل ترى من فطور] أي : نقص واختلال .

[ثم ارجع البصر كرتين] المراد بذلك : كثرة التكرار [ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير] أي : عاجزا عن أن يرى خللا أو فطورا ، ولو حرص غاية الحرص .

ثم صرح بذكر حسنها فقال : [ولقد زينا السماء] إلى [لأصحاب السعير] .

* [ولقد زينا] أي : ولقد جملنا [السماء الدنيا] التى ترونها وتليكم .

[بمصابيح] وهى : النجوم ، على اختلافها فى النور والضياء .

فإنه لولا ما فيها من النجوم ، لكانت سقفا مظلما ، لا حسن فيه ولا جمال .

ولكن جعل الله هذه النجوم زينة للسماء ، وجمالا ونورا ، وهداية يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر .

ولا ينافى إخباره أنه زين السماء الدنيا بمصابيح ، أن يكون كثير من

لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا

النجوم ، فوق السموات السبع ، فإن السموات شفافة ، وبذلك تحصل الزينة للسماء الدنيا ، وإن لم تكن الكواكب فيها .

[وجعلناها] أى : المصابيح [رجوما للشياطين] الذين يريدون استراق خبر السماء .

فجعل الله هذه النجوم ، حراسة للسماء عن تلقف الشياطين أخبارها ، إلى الأرض .

فهذه الشهب ، التى ترمى من النجوم ، أعدها الله فى الدنيا للشياطين .

[وأعتدنا لهم فى الآخرة عذاب السعير] لأنهم تمردوا على الله ، وأضلوا عباده .

ولهذا كان أتباعهم من الكفار مثلهم ، قد أعد الله لهم عذاب السعير ، فلهذا قال :

[وللذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير] التى يهان أهلها ، غاية الهوان .

[إذا ألقوا فيها] على وجه الإهانة والذل [سمعوا لها شهيقا] أى: صوتا عاليا فظيعا [وهى تفور[1]] .

---

(١) أى : والحال أنها تغلى بهم غليان المرجل [القدر] بما فيه . اهـ . أبو السعود .

وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ

[تكاد تميز من الغيظ] أى : تكاد على اجتماعها ، أن يفارق بعضها بعضا ، وتتقطع من شدة غيظها على الكفار ، فما ظنك ما تفعل بهم ، إذا حصلوا فيها ؟!! .

ثم ذكر توبيخ الخزنة لأهلها فقال : [كلما ألقى فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير] أى : حالكم هذه واستحقاقكم النار ، كأنكم لم تخبروا عنها ، ولم تحذركم النذر منها .

[قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شىء ، إن أنتم إلا فى ضلال كبير] ، فجمعوا بين تكذيبهم الخاص ، والتكذيب العام بكل ما أنزل الله .

ولم يكفهم ذلك ، حتى أعلنوا بضلال الرسل المنذرين ، وهم الهداة المهتدون .

ولم يكتفوا بمجرد الضلال ، بل جعلوا ضلالهم ، ضلالا كبيرا .

فأى : عناد وتكبر وظلم ، يشبه هذا ؟

[وقالوا] معترفين بعدم أهليتهم للهدى والرشاد : [لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير] فنفوا عن أنفسهم طرق الهدى ، وهى ، السمع لما أنزل الله ، وجاءت به الرسل ، والعقل ، الذى ينفع صاحبه ، ويوقفه على حقائق الأشياء ، وإيثار الخير ، والانزجار عن كل ما عاقبته ذميمة ، فلا سمع لهم ولا عقل .

فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾
وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾
فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

وهذا بخلاف أهل اليقين والعرفان ، وأرباب الصدق والإيمان ، فإنهم أيدوا إيمانهم بالأدلة السمعية ، فسمعوا ما جاء من عند الله ،وجاء به رسول الله ، علما ، ومعرفة ، وعملا .

والأدلة العقلية ، المعرفة للهدى من الضلال ، والحسن من القبيح ، والخير من الشر .

وهم ـ فى الإيمان ـ بحسب ما منّ الله عليهم به ، من الاقتداء بالمعقول والمنقول .

فسبحان من يختص بفضله من يشاء ، ويمن على من يشاء من عباده ، ويخذل من لا يصلح للخير .

قال تعالى عن هؤلاء الداخلين للنار ، المعترفين بظلمهم وعنادهم :

[فاعترفوا بذنبهم فسحقا لأصحاب السعير] أى : بُعْداً لهم وخسارة وشقاء .

فما أشقاهم وأرداهم ، حيث فاتهم ثواب الله ، وكانوا ملازمين للسعير، التى تستعر فى أبدانهم ، وتطلع على أفئدتهم !

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ ﴾

﴿ وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ

---

* لما ذكر حالة الأشقياء الفجار، ذكر وصف الأبرار السعداء فقال : [إن الذين يخشون ربهم بالغيب] أى : فى جميع أحوالهم، حتى فى الحالة التى لا يطلع عليهم فيها إلا الله، فلا يقدمون على معاصيه، ولا يقصرون عما أمرهم به .

[لهم مغفرة] لذنوبهم وإذا غفر الله ذنوبهم، وقاهم شرها، ووقاهم عذاب الجحيم .

[ولهم أجر كبير] وهو ما أعده لهم فى الجنة، من النعيم المقيم، والملك الكبير، واللذات المتواصلات، والقصور، والمنازل العاليات، والحور الحسان، والخدم والولدان .

وأعظم من ذلك وأكبر، رضا الرحمن، الذى يحله على ساكنى الجنان .

* هذا إخبار من الله، بسعة علمه، وشمول لطفه فقال : [وأسروا قولكم أو اجهروا به] أى : كلاهما سواء لديه، لا يخفى عليه منهما خافية .

[إنه عليم بذات الصدور] أى : بما فيها من النيات، والإرادات، فكيف بالأقوال والأفعال، التى تسمع وترى ؟ !

ثم قال - مستدلاً بدليل عقلى على علمه - : [ألا يعلم من خلق]، فمن خلق الخلق وأتقنه، وأحسنه، كيف لا يعلمه ؟!

ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

[وهو اللطيف الخبير] الذى لطف علمه وخبره ، حتى أدرك السرائر والضمائر ، والخبايا والخفايا ، والغيوب « وهو الذى يعلم السر وأخفى »

ومن معانى اللطيف ، أنه الذى يلطف بعبده ووليه ، فيسوق إليه البر والإحسان ، من حيث لا يشعر ، ويعصمه من الشر ، من حيث لا يحتسب ، ويرقيه إلى أعلى المراتب ، بأسباب ، لا تكون من العبد على بال ، حتى إنه يذيقه المكاره ، ليوصله بها ، إلى المحاب الجليلة ، والمطالب النبيلة .

* أى : هو الذى سخر لكم الأرض، وذللها ، لتدركوا منها كل ماتعلقت به حاجتكم ، من غرس ، وبناء ، وحرث ، وطرق يتوصل بها إلى الأقطار النائية ، والبلدان الشاسعة .

[فامشوا فى مناكبها] أى : لطلب الرزق والمكاسب .

[وكلوا من رزقه وإليه النشور] أى : بعد أن تنتقلوا من هذه الدار التى جعلها الله امتحانا ، وبلغة يتبلغ بها إلى الدار الآخرة ، تبعثون بعد موتكم ، وتحشرون إلى الله ، ليجازيكم بأعمالكم الحسنة والسيئة .

﴿ أَءَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ كَانَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ ﴾

---

* هذا تهديد ووعيد ، لمن استمر فى طغيانه ، وتعدّيه ، وعصيانه الموجب للنكال ، وحلول العقوبة فقال : [أأمنتم من فى السماء] وهو الله تعالى ، العالى على خلقه .

[أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور] بكم وتضطرب ، حتى تهلكوا وتتلفوا .

[أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا] أى : عذابا من السماء ، يحصبكم ، وينتقم الله منكم [فستعلمون كيف نذير] أى : كيف يأتيكم ما أنذرتكم به الرسل والكتب .

فلا تحسبوا أن أمنكم من أن يعاقبكم بعقاب من الأرض ومن السماء ، ينفعكم .

فستجدون عاقبة أمركم ، سواء طال عليكم الأمد أو قصر .

فإن من قبلكم ، كذبوا كما كذبتم ، فأهلكهم الله تعالى ، فانظروا كيف إنكار الله عليهم .

عاجلهم بالعقوبة الدنيوية ، قبل عقوبة الآخرة ، فاحذروا أن يصيبكم ما أصابهم .

﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ

---

* وهذا عتاب وحث على النظر إلى حالة الطير، التي سخرها الله ، وسخر لها الجو والهواء ، تصف فيه أجنحتها للطيران ، وتقبضها للوقوع ، فتظل سابحة فى الجو ، مترددة فيه ، بحسب إرادتها وحاجتها .

[ما يمسكهن إلا الرحمن] فإنه الذى سخر لهن الجو ، وجعل أجسادها وخلقتها ، فى حالة مستعدة للطيران .

فمن نظر فى حالة الطير ، واعتبر فيها ، دلته على قدرة البارى ، وعنايته الربانية ، وأنه الواحد الأحد ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

[إنه بكل شىء بصير] فهو المدبر لعباده ، بما يليق بهم ، وتقتضيه حكمته .

* يقول تعالى للعتاة النافرين عن أمره ، المعرضين عن الحق :
[أم من هذا الذى هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن] .
أى : ينصركم ، إذا أراد الرحمن بكم سوءا ، فيدفعه عنكم ؟ .

أى : من الذى ينصركم على أعدائكم غير الرحمن ؟ فإنه تعالى ، هو الناصر ، المعز المذل .

وغيره من الخلق ، لو اجتمعوا على نصر عبد ، لم ينفعوه بمثقال ذرة ، على أيدى أىّ عدو كان .

ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾

أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾

فاستمرار الكافرين على كفرهم، بعد أن علموا، أنه لا ينصرهم أحد من دون الرحمن، غرور، وسَفَهٌ.

[أم من هذا الذى يرزقكم إن أمسك رزقه] أى : الرزق كله من الله.

فلو أمسك عنكم الرزق، فمن الذى يرسله لكم ؟ فإن الخلق لا يقدرون على رزق أنفسهم، فكيف بغيرهم ؟

فالرزاق المنعم، الذى لا يصيب العباد نعمة إلا منه، هو الذى يستحق أن يفرد بالعبادة.

ولكن الكافرون [لجوا] أى : استمروا [فى عتو] أى : قسوة وعدم لين للحق [ونفور] أى : شرود عن الحق.

* أى : أى الرجلين أهدى ؟ من كان تائها فى الضلال، غارقا فى الكفر قد انتكس قلبه، فصار الحق عنده باطلا، والباطل حقا ؟

أو من كان عالما بالحق، مؤثرا له، عاملا به، يمشى على الصراط المستقيم، فى أقواله وأعماله، وجميع أحواله ؟

فبمجرد النظر إلى حال الرجلين، يعلم الفرق بينهما، والمهتدى من الضال منهما، والأحوال أكبر شاهد من الأقوال.

﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَـٰذَا ٱلْوَعْدُ

---

* يقول تعالى ـ مبينا أنه المعبود وحده ، وداعيا عباده إلى شكره ، وإفراده بالعباده ـ :

[قل هو الذى أنشأكم] أى : أوجدكم من العدم ، من غير معاون له ولا مظاهر .

ولما أنشأكم ، كمل لكم الوجود ، إذ [جعل لكم السمع والأبصار والأفئدة] .

وهذه الثلاثة ، هى أفضل أعضاء البدن ، وأكمل القوى الجسمانية .

ولكنكم مع هذا الإنعام [قليلا ما تشكرون] الله ، قليل منكم الشاكر وقليل منكم الشكر .

[قل هو الذى ذرأكم فى الأرض] أى : بثكم فى أقطارها ، وأسكنكم فى أرجائها ، وأمركم ، ونهاكم ، وأسدى إليكم من النعم ، ما به تنتفعون .

ثم بعد ذلك ، يحشركم ليوم القيامة .

ولكن هذا الوعد بالجزاء ، ينكره هؤلاء المعاندون [ويقولون] تكذيبا :

[متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] جعلوا علامة صدقهم، أن يخبروهم بوقت مجيئه ، وهذا ظلم وعناد .

إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾

فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ

[قل إنما العلم عند الله] لا عند أحد من الخلق ، ولا ملازمة بين هذا الخبر ، وبين الإخبار بوقته ، فإن الصدق ، يعرف بأدلته .

وقد أقام الله ، من الأدلة والبراهين على صحته ، ما لا يبقى معه أدنى شك ، لمن ألقى السمع وهو شهيد .

* يعنى أن محل تكذيب الكفار وغرورهم به ، حين كانوا فى الدنيا .

فإذا كان يوم الجزاء ، ورأوا العذاب منهم [زلفة] أى : قريبا ، ساءهم ذلك ، وأفظعهم ، وأقلقهم ، فتغيرت لذلك وجوههم ، ووبخوا على تكذيبهم وقيل : [هذا الذى كنتم به تدعون] .

فاليوم رأيتموه عيانا ، وانجلى لكم الأمر ، وتقطعت بكم الأسباب ، ولم يبق إلا مباشرة العذاب .

ولما كان المكذبون للرسول صلى الله عليه وسلم ، الذين يردون دعوته ، ينتظرون هلاكه ، ويتربصون به ريب المنون ، أمره الله أن يقول لهم : إنكم إن حصلت لكم أمنيتكم ، وأهلكنى الله ومن معى ، فليس ذلك بنافع لكم شيئا ، لأنكم كفرتم بآيات الله ، واستحققتم العذاب .

فمن يجيركم من عذاب أليم قد تحتم وقوعه بكم ؟

وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾
قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ

فإذاً ، تعبكم وحرصكم على هلاكى ، غير مفيدة ، ولا مُجْدٍ لكم شيئا .

ومن قولهم ، إنهم على هدى ، والرسول على ضلال ، أعادوا فى ذلك وأبدوا ، وجادلوا عليه ، وقاتلوا .

فأمر الله نبيه ، أن يخبر عن حاله ، وحال أتباعه ، ما به يتبين لكل أحد هداهم وتقواهم .

وهو أن يقولوا : [هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا] والإيمان يشمل التصديق الباطن ، والأعمال الباطنة والظاهرة .

ولما كانت الأعمال ، وجودها وكمالها ، متوقفان على التوكل ، خص الله التوكل من سائر الأعمال ، وإلا ، فهو داخل فى الإيمان ومن جملة لوازمه.

كما قال تعالى : « وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين » .

فإذا كانت هذه حال الرسول ، وحال من اتبعه ، وهى الحال التى تتعين للفلاح ، وتتوقف عليها السعادة ، وحالة أعدائه بضدها ، فلا إيمان لهم ، ولا توكل - علم بذلك ، من هو على هدى ، ومن هو فى ضلال مبين .

ثم أخبر عن انفراده بالنعم ، خصوصا ، الماء الذى جعل الله منه كل حيٍّ فقال :

مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾

[قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غورا] أى : غائرا [فمن يأتيكم بماء معين] تشربون منه ، وتسقون أنعامكم ، وأشجاركم ، وزروعكم ؟

وهذا استفهام بمعنى النفى ، أى : لا يقدر أحد على ذلك ، غير الله تعالى .

تم تفسير سورة الملك ـ والحمد لله

تفسير

سورة القلم

بسم الله الرحمن الرحيم

ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ

---

* يقسم تعالى بالقلم ، وهو اسم جنس شامل للأقلام ، التى تكتب بها أنواع العلوم ، ويسطر بها المنثور والمنظوم .

وذلك أن القلم ، وما يسطر به من أنواع الكلام ، من آياته العظيمة، التى تستحق أن يقسم بها ، على براءة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، مما نسبه إليه أعداؤه من الجنون .

فنفى عنه ذلك ، بنعمة ربه عليه ، وإحسانه ، حيث منّ عليه ، بالعقل الكامل ، والرأى الجزل ، والكلام الفصل ، الذى هو أحسن ما جرت به الأقلام ، وسطره الأنام ، وهذا هو السعادة في الدنيا .

ثم ذكر سعادته فى الآخرة فقال : [وإن لك لأجرا غير ممنون] .

أى : لأجرا عظيما ، كما يفيده التنكير ، غير مقطوع ، بل هو دائم مستمر .

وذلك لما أسلفه النبي صلى الله عليه وسلم من الأعمال الصالحة ، والأخلاق الكاملة ، والهداية إلى كل خير .

. . . .

ولهذا قال : [وإنك لعلى خلق عظيم] أى : علٍّ به ، مُسْتَعْمِلٍ بخلقك الذى منّ الله عليك به .

وحاصل خلقه العظيم ، ما فسرته به أم المؤمنين ، عائشة رضى الله عنها لمن سألها عنه فقالت : « كان خلقه القرآن » وذلك نحو قوله تعالى « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين * فبما رحمة من الله لنت لهم » الآية ، « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم » الآية .

وما أشبه ذلك من الآيات الدالات على اتصافه صلى الله عليه وسلم بمكارم الأخلاق ، والآيات الحاثّات على كل خلق جميل .

فكان له منها ، أكملها وأجلها ، وهو فى كل خصلة منها ، فى الذروة العليا .

فكان سهلا لينا ، قريبا من الناس ، مجيبا لدعوة من دعاه ، قاضيا لحاجة من استقضاه ، جابرا لقلب من سأله ، لا يحرمه ، ولا يرده خائبا .

وإذا أراد أصحابه منه أمراً ، وافقهم عليه ، وتابعهم فيه وإذا لم يكن فيه محذور .

وإن عزم على أمر ، لم يستبد به دونهم ، بل يشاورهم ، ويؤامرهم .

وكان يقبل من محسنهم ، ويعفو عن مسيئهم .

ولم يكن يعاشر جليسا ، إلا أتم عشرة وأحسنها .

فكان لا يعبس فى وجهه ، ولا يغلظ عليه فى مقاله ، ولا يطوى عنه بِشْرَهُ ، ولا يمسك عليه فلتات لسانه ، ولا يؤاخذه بما يصدر منه من جفوة .

عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾

فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ

بل يحسن إليه غاية الإحسان ، ويحتمله غاية الاحتمال .

فلما أنزل الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم فى أعلى المنازل ، وكان أعداؤه ينسبون إليه ، أنه مجنون مفتون قال :

[فستبصر ويبصرون بأيكم المفتون] وقد تبين أنه أهدى الناس ، وأكملهم لنفسه ولغيره .

وأن أعداءه ، أضل الناس ، وشر الناس للناس ، وأنهم الذين فتنوا عباد الله ، وأضلوهم عن سبيله .

وكفى بعلم الله بذلك ، فإنه المحاسب المجازى .

[إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين] وهذا ، فيه تهديد للضالين ، ووعد للمهتدين ، وبيان لحكمة الله ، حيث كان يهدى من يصلح للهداية ، دون غيره .

* يقول الله تعالى ، لنبيه صلى الله عليه وسلم : [فلا تطع المكذبين] الذين كذبوك ، وعاندوا الحق ، فإنهم ليسوا أهلا ، لأن يطاعوا ، لأنهم لا يأمرون ، إلا بما يوافق أهواءهم ، وهم لا يريدون إلا الباطل فالمطيع لهم ، مقْدِمٌ على ما يضره

بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾

وهذا عام فى كل مكذب ، وفى كل طاعة ناشئة عن التكذيب ، وإن كان السياق فى شىء خاص ، وهو أن المشركين طلبوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، أن يسكت عن عيب آلهتهم ودينهم ، ويسكتوا عنه ، ولهذا قال :

[ودوا] أى : المشركون [لو تدهن[1]] أى : توافقهم على بعض ما هم عليه ، إما بالقول ، أو الفعل ، أو بالسكوت عما يتعين الكلام فيه .

[فيدهنون[1]] ، ولكن اصدع بأمر الله ، وأظهر دين الإسلام ، فإن تمام إظهاره ، نقض ما يضاده ، وعيب ما يناقضه .

[ولا تطع كل حلاف] أى : كثير الحلف ، فإنه لا يكون كذلك ، إلا وهو كذاب .

ولا يكون كذاباً ، إلا وهو [مهين] أى : خسيس النفس ، ناقص الحكمة ، ليس له رغبة فى الخير ، بل إرادته فى شهوات نفسه الخسيسة .

[هماز] أى : كثير العيب للناس والطعن فيهم ، بالغيبة والاستهزاء ، وغير ذلك .

[مشاء بنميم] أى : يمشى بين الناس بالنميمة ، وهو : نقل كلام بعض الناس لبعض ، لقصد الإفساد بينهم ، وإيقاع العداوة والبغضاء .

[مناع للخير] الذى يلزمه القيام به من النفقات الواجبة والكفارات والزكوات وغير ذلك [معتد] على الخلق يظلمهم فى دمائهم وأموالهم

---

(١) تدهن . أى : تلين لهم . فيدهنون أى : يلينون لك .

أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينٍ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾

وأعراضهم [أثيم] أى : كثير الإثم والذنوب المتعلقة فى حق الله [عتل بعد ذلك] أى : غليظ شرس الخلق قاس ، غير منقاد للحق [زنيم] أى : دَعِىٌّ ، ليس له أصل ولا مادة ينتج منها الخير ، بل أخلاقه أقبح الأخلاق ، ولا يرجى منه فلاح ، له زنمة أى : علامة فى الشر ، يعرف بها .

وحاصل هذا ، أن الله تعالى نهى عن طاعة كل حلاف كذاب ، خسيس النفس ، سيء الأخلاق ، خصوصاً ، الأخلاق المتضمنة للإعجاب بالنفس، والتكبر على الحق وعلى الخلق، والاحتقار للناس ، بالغيبة والنميمة، والطعن فيهم ، وكثرة المعاصى .

وهذه الآيات ـ وإن كانت نزلت فى بعض المشركين ، كالوليد بن المغيرة أو غيره لقوله عنه [أن كان ذا مال وبنين * إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين] أى : لأجل كثرة ماله وولده ، طغى واستكبر عن الحق، ودفعه حين جاءه ، وجعله من جملة أساطير الأولين ، التى يمكن صدقها وكذبها ـ فإنها عامة فى كل من اتصف بهذا الوصف ، لأن القرآن نزل لهداية الخلق كلهم ، ويدخل فيه أول الأمة وآخرهم .

وربما نزل بعض الآيات فى سبب شخص من الأشخاص ، لتتضح به القاعدة العامة ، ويعرف به أمثال الجزئيات الداخلة فى القضايا العامة .

ثم توعد تعالى من جرى منه ما وصف الله ، بأن الله سيسمه على الخرطوم فى العذاب ، ويعذبه عذاباً ظاهراً ، يكون عليه سمة وعلامة ، فى

إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟

أشق الأشياء عليه ، وهو وجهه[1] .

* يقول تعالى : إنا بلونا هؤلاء المكذبين بالخير، وأمهلناهم ، وأمددناهم بما شئنا ، من مال وولد ، وطول عمر ، ونحو ذلك . مما يوافق أهواءهم ، لا لكرامتهم علينا .

بل ربما يكون استدراجا لهم ، من حيث لا يعلمون .

فاغترارهم بذلك ، نظير اغترار أصحاب الجنة ، الذين هم فيها شركاء ، حين أينعت أشجارها ، وزهت ثمارها ، وآن وقت صرامها ، وجزموا أنها فى أيديهم ، وطوع أمرهم ، وأنه ليس ثَمّ مانع يمنعهم منها .

ولهذا أقسموا وحلفوا من غير استثناء ، أنهم سيصرمونها .

أى : يجذونها مصبحين .

ولم يدروا أن الله بالمرصاد ، وأن العذاب سيخلفهم عليها ، ويبادرهم إليها .

---

(١) وذلك بأن يكويه على أنفه مهانة له وعلامة يعرف بها وتخصيص الأنف بالذكر لأن الوسم عليه أبشع . وحاصل معنى الآية (سنسمه على الخرطوم) أى : سنجعل على أنفه علامة يعير بها طيلة حياته ، فخطم أنفه بالسيف يوم « بدر » .

مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا

[فطاف عليها طائف من ربك] أى : عذاب نزل عليها ليلا [وهم نائمون] فأبادها ، وأتلفها [فأصبحت كالصريم] أى : كالليل المظلم ، وذهبت الأشجار والثمار ، هذا وهم لا يشعرون بهذا الواقع الملم ، ولهذا تنادوا فيما بينهم ، لما أصبحوا يقول بعضهم لبعض :

[أن اغدوا على حرثكم إن كنتم صارمين . فانطلقوا] قاصدين لها [وهم يتخافتون] فيما بينهم بمنع حق الله تعالى ويقولون : [لا يدخلها اليوم عليكم مسكين] .

أى : بكروا قبل انتشار الناس ، وتواصوا مع ذلك ، بمنع الفقراء والمساكين .

ومن شدة حرصهم وبخلهم ، أنهم يتخافتون بهذا الكلام مخافتة ، خوفاً أن يسمعهم أحد ، فيخبر الفقراء .

[وغدوا] فى هذه الحالة الشنيعة ، والقسوة ، وعدم الرحمة [على حرد قادرين] أى : على إمساك ومنع لحق الله ، جازمين بقدرتهم عليها .

[فلما رأوها] على الوصف الذى ذكر الله كالصريم [قالوا] من الحيرة والإنزعاج .

لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَـٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَـٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَـٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا

[إنا لضالون] أى : تائهون عنها ، لعلها غيرها .

فلما تحققوها ، ورجعت إليهم عقولهم قالوا : [بل نحن محرومون] منها، فعرفوا حينئذ أنه عقوبة .

[قال أوسطهم] أى : أعدلهم ، وأحسنهم طريقة [ألم أقل لكم لولا تسبحون] أى : تنزهون الله عما لايليق به، ومن ذلك ، ظنكم أن قدرتكم مستقلة ، فلو استثنيتم، وقلتم « إن شاء الله » وجعلتم مشيئتكم تابعة لمشيئته، ما جرى عليكم ما جرى .

[قالوا سبحان ربنا إنا كنا ظالمين] أى : استدركوا بعد ذلك ، ولكن بعد ما وقع على جنتهم العذاب ، الذى لا يرفع .

ولكن لعل تسبيحهم هذا ، وإقرارهم على أنفسهم بالظلم ، ينفعهم فى تخفيف الإثم ويكون توبة ، ولهذا ندموا ندامة عظيمة .

[فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون] فيما أجروه وفعلوه [قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين] أى : متجاوزين للحد فى حق الله ، وحق عباده .

[عسى ربنا أن يبدلنا خيراً منها إنا إلى ربنا راغبون] فهم رجوا الله أن يبدلهم خيراً منها ، ووعدوا أنهم سيرغبون إلى الله ، ويلحون عليه فى الدنيا .

رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ وَلَعَذَابُ ٱلْأَخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾

فإن كانوا كما قالوا ، فالظاهر أن الله أبدلهم فى الدنيا خيراً منها لأن من دعا الله صادقا ، ورغب إليه ورجاه ، أعطاه سُؤْلَهَ .

قال تعالى معظما ما وقع : [كذلك العذاب] أى : الدنيوى لمن أتى بأسباب العذاب أن يسلبه الله الشيء الذى طغى به وبغى ، وآثر الحياة الدنيا ، وأن يزيله عنه ، أحوج ما يكون إليه .

[ولعذاب الآخرة أكبر] من عذاب الدنيا [لو كانوا يعلمون] فإن من علم ذلك ، أوجب له الإنزجار عن كل سبب يوجب العقاب، ويحرم الثواب

* يخبر تعالى بما أعده للمتقين الكفر والمعاصى ، من أنواع النعيم والعيش السليم فى جوار أكرم الأكرمين ، وأن حكمته تعالى ، لا تقتضى أن يجعل المتقين القانتين لربهم ، المنقادين لأوامره ، المتبعين مراضيه ، كالمجرمين الذين أوضعوا فى معاصيه ، والكفر بآياته ، ومعاندة رسله ، ومحاربة أوليائه .

وأن من ظن أنه يسويهم فى الثواب ، فإنه قد أساء الحكم ، وأن حكمه باطل ، ورأيه فاسد .

وأن المجرمين إذا ادعوا ذلك ، فليس لهم مستند ، لا كتاب فيه يدرسون ويتلون ، أنهم من أهل الجنة ، وأن لهم ما طلبوا وتخيروا .

أَمْ لَكُمْ كِتَٰبٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَٰنٌ عَلَيْنَا بَٰلِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾ سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَآءُ فَلْيَأْتُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٤١﴾

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ

وليس لهم عند الله عهد ويمين بالغة إلى يوم القيامة أن لهم ما يحكمون وليس لهم شركاء وأعوان على إدراك ما طلبوا .

فإن كان لهم شركاء وأعوان ، فليأتوا بهم ، إن كانوا صادقين .

ومن المعلوم ، أن جميع ذلك منتف ، فليس لهم كتاب ، ولا لهم عهد عند الله فى النجاة ، ولا لهم شركاء يعينونهم ، فعلم أن دعواهم باطله فاسدة.

وقوله: [سلهم أيهم بذلك زعيم] أى : أيهم الكفيل بهذه الدعوى التى تبين بطلانها ، فإنه لا يمكن أحداً ، أن يتصدر بها ، ولا يكون زعيما فيها .

* أى : إذا كان يوم القيامة ، وانكشف فيه من القلاقل والزلازل ، والأهوال ، ما لا يدخل تحت الوهم ، وأتى الباري لفصل القضاء بين عباده ومجازاتهم فكشف عن ساقه الكريمة ، التى لا يشبهها شيء ، ورأى الخلائق من جلال الله وعظمته ، ما لا يمكن التعبير عنه ، فحينئذ يدعون إلى السجود لله .

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾

فيسجد المؤمنون الذين كانوا يسجدون لله ، طوعاً واختياراً .

ويذهب الفجار المنافقون ، ليسجدوا ، فلا يقدرون على السجود ، وتكون ظهورهم كصياصى البقر ، لا يستطيعون الانحناء .

وهذا الجزاء من جنس عملهم ، فإنهم كانوا يدعون فى الدنيا إلى السجود لله ، وتوحيده وعبادته ، وهم سالمون ، لا علة فيهم فيستكبرون عن ذلك ويأبون .

فلا تسأل يومئذ عن حالهم ، وسوء مآ لهم ، فإن الله سخط عليهم ، وحقت عليهم كلمة العذاب ، وتقطعت أسبابهم ، ولم تنفعهم الندامة والاعتذار يوم القيامة .

ففى هذا ما يزعج القلوب عن المقام على المعاصى ، ويوجب التداوك مدة الإمكان .

* أى : دعنى والمكذبين بالقرآن العظيم فإن علىّ جزاءهم، ولا تستعجل لهم [سنستدرجهم من حيث لا يعلمون] فنمدهم بالأموال والأولاد ، ونمدهم فى الأرزاق والأعمال، ليغتروا ، ويستمروا على ما يضرهم ، وهذا من كيد الله لهم .

أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ

وكيد الله لأعدائه ، متين قوي ، يبلغ من ضررهم وعقوبتهم ، كل مبلغ .

[أم نسألهم أجراً فهم من مغرم مثقلون] أى : ليس لنفورهم عنك ، وعدم تصديقهم لك ، سبب يوجب لهم ذلك فإنك تعلمهم ، وتدعوهم إلى الله ، لمحض مصلحتهم ، من غير أن تصيبهم من أموالهم مغرما ، يثقل عليهم

[أم عندهم الغيب فهم يكتبون] ما كان عندهم من الغيوب ، وقد وجدوا أنهم على حق ، وأن لهم الثواب عند الله .

فهذا أمر ، ما كان ، وإنما كانت حالهم ، حال معاند ظالم .

فلم يبق إلا الصبر لأذاهم ، والتحمل لما يصدر منهم ، والاستمرار على دعوتهم ، ولهذا قال :

[فاصبر لحكم ربك] أى لما حكم به ، شرعاً وقدرا ، فالحكم القدرى ، يصبر على المؤذى منه ، ولا يُتَلَقَّى بالسخط والجزع .

والحكم الشرعى ، يقابل بالقبول والتسليم ، والأنقياد لأمره .

وقوله : [ولا تكن كصاحب الحوت[1]] وهو يونس بن متى ، عليه الصلاة والسلام .

---

(١) [ولا تكن كصاحب الحوت] وهو يونس بن متى ، فى العجلة والغضب على القوم ، حتى لا تبتلى ببلائه .

مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِالْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَاجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ

أى : ولا تشابهه فى الحال ، التى أوصلته ، وأوجبت له الانحباس فى بطن الحوت ، وهو عدم صبره على قومه ، الصبر المطلوب منه ، وذهابه مغاضبا لربه[1] ، حتى ركب البحر ، فاقترع أهل السفينة حين ثقلت بأهلها ، أيهم يلقون لكى تخف بهم ، فوقعت القرعة ،عليه فالتقمه الحوت وهو مليم

وقوله [إذ نادى وهو مكظوم] أى : وهو فى بطنها قد كظمت عليه أو نادى وهو مغتم مهقم فقال « لا إله إلا أنت سبحانك إنى كنت من الظالمين »

فاستجاب الله له ، وقذفته الحوت من بطنها بالعراء ، وهو سقيم ، وأنبت الله عليه شجرة من يقطين ، ولهذا قال هنا :

[لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء] أى : لطرح فى العراء ، وهى الأرض الخالية [وهو مذموم[2]] ولكن الله تغمده برحمته فنبذ وهو ممدوح ، وصارت حاله أحسن من حاله الأولى ، ولهذا قال :

[فاجتباه ربه] أى : اختاره ، ونقاه من كل كدر .

[فجعله من الصالحين] أى : الذين صلحت أعمالهم وأقوالهم ، ونياتهم وأحوالهم .

---

(١) قوله « مغاضبا لربه » الصواب « مغاضبا لقومه » وقد سبق أن تكلمنا على ذلك .

(٢) مذموم . أى : معاتب بزلته : لكنه رحم فنبذ بفضاء من الأرض غير مذموم .

لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

فامتثل نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أمر الله فصبر لحكم ربه صبراً لا يدركه أحد من العالمين.

فجعل الله له العاقبة « والعاقبة للمتقين » ولم يبلغ أعداؤه فيه، إلا ما يسوؤهم.

حتى إنهم حرصوا على أن يزلقوه بأبصارهم، أى: يصيبوه بأعينهم، من حسدهم، وحنقهم، وغيظهم.

هذا منتهى ما قدروا عليه من الأذى الفعلىّ، والله حافظه وناصره.

وأما الأذى القولى، فيقولون فيه أقوالا، بحسب ما توحى إليهم قلوبهم.

فيقولون تارة « مجنون » وتارة « شاعر » وتارة « ساحر ».

قال تعالى [وما هو إلا ذكر للعالمين] أى: وما هذا القرآن العظيم، والذكر الحكيم، إلا ذكر للعالمين، يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم، والحمد لله.

تم تفسير سورة القلم ـ بمن الله وكرمه

تفســــير

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟

---

* [الحاقة] من أسماء يوم القيامة ، لأنها تحق وتنزل بالخلق ، وتظهر فيها حقائق الأمور ، ومخبآت الصدور .

فعظم تعالى شأنها وفخمه ، بما كرره من قوله [الحاقة ما الحاقة * وما أدراك ما الحاقة] فإن لها شأنا عظيما ، وهولا جسيما .

ثم ذكر نموذجا من أحوالها الموجودة فى الدنيا المشاهدة فيها ، وهو ما أحله من العقوبات البليغة بالأمم العاتية فقال :

[كذبت ثمود] وهم : القبيلة المشهورة ، سكان الحجر ، الذين أرسل الله إليهم رسوله صالحا عليه السلام ، ينهاهم عما هم عليه من الشرك ، ويأمرهم بالتوحيد .

فردوا دعوته ، وكذبوه ، وكذبوا ما أخبر به من يوم القيامة ، وهى : القارعة ، التى تقرع الخلق بأهوالها .

بِالطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾

وكذلك عاد الأولى ، سكان حضرموت ، حين بعث الله إليهم رسوله هودا عليه الصلاة والسلام ، يدعوهم إلى عبادة الله وحده فكذبوه ، وأنكروا ما أخبر به من البعث ، فأهلك الله الطائفتين بالهلاك العاجل :

[فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية] وهى : الصيحة العظيمة الفظيعة ، التى قطعت قلوبهم ، وزهقت لها أرواحهم فأصبحوا موتى ، لا يرى إلا مساكنهم وجثثهم .

[وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر] أى : قوية شديدة الهبوب ، لها صوت أبلغ من صوت الرعد القاصف [عاتية] أى : عتت على خزانها ، على قول كثير من المفسرين .

أو عتت على عاد ، وزادت على الحد كما هو الصحيح .

[سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما] أى : نحسا وشرا فظيعا عليهم ، فدمرتهم وأهلكتهم .

[فترى القوم فيها صرعى] أى : هلكى موتى [كأنهم أعجاز نخل خاوية] أى : كأنهم جذوع النخل ، التى قد قطعت رءوسها الخاوية ، الساقط بعضها على بعض .

[فهل ترى لهم من باقية] وهذا استفهام بمعنى النفى المتقرر .

﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ

---

* أى : وكذلك غير هاتين الأمتين الطاغيتين ، عاد وثمود ، جاء غيرهم من الطغاة العتاة ، كفرعون مصر ، الذى أرسل الله إليه عبده ورسوله ، موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام ، وأراهم من الآيات البينات ، ما تيقنوا بها الحق ، ولكن جحدوا وكفروا ، ظلما وعلوا ، وجاء من قبله من المكذبين .

[والمؤتفكات] أى : قرى قوم لوط ، الجميع جاءوا [بالخاطئة] أى : بالفعلة الطاغية ، وهو : الكفر والتكذيب ، والظلم والمعاندة ، وما انضم إلى ذلك من أنواع المعاصى والفسوق

[فعصوا رسول ربهم] وهذا اسم جنس ، أى : كل من هؤلاء ، كذبوا الرسول ، الذى أرسله الله إليهم .

[فأخذهم الله] جميعا [أخذة رابية] أى : زائدة على الحد والمقدار ، الذى يحصل به هلاكهم .

ومن جملة هؤلاء ، قوم نوح أغرقهم الله فى اليم [لما طغى الماء] على وجه الأرض ، وعلا على مواضعها الرفيعة .

وامتن الله على الخلق الموجودين بعدهم أن حملهم [فى الجارية] وهى : السفينة فى أصلاب آبائهم وأمهاتهم ، الذين نجاهم الله .

فاحمدوا الله ، واشكروا الذى نجاكم حين أهلك الطاغين ، واعتبروا بآياته الدالة على توحيده ، ولهذا قال :

حَمَلْنَـٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾

فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ

[لنجعلها] أى : الجارية والمراد جنسها [تذكرة] تذكركم أول سفينة صنعت ، وما قصتها ، وكيف نجى الله عليها من آمن به ، واتبع رسوله ، وأهلك أهل الأرض كلهم ، فإن جنس الشىء مذكر بأصله .

وقوله [وتعيها أذن واعية] أى : يعقلها أولو الألباب ، ويعرفون المقصود منها ووجه الآية بها .

وهذا ، بخلاف أهل الإعراض والغفلة ، وأهل البلادة وعدم الفطنة ، فإنهم ليس لهم انتفاع بآيات الله ، لعدم وعيهم عن الله ، وتفكرهم بآياته .

* لما ذكر تعالى ما فعله بالمكذبين لرسله ، وكيف جازاهم ، وعجل لهم العقوبة فى الدنيا ، وأن الله نجى الرسل وأتباعهم ، كان هذا مقدمة للجزاء الأخروى ، وتوفية الأعمال كاملة يوم القيامة .

فذكر الأمور الهائلة التى تقع أمام يوم القيامة ، وأن أول ذلك أنه ينفخ إسرافيل [فى الصور] إذا تكاملت الأجساد نابتة .

[نفخة واحدة] فخرجت الأرواح ، فتدخل كل روح فى جسدها ، فإذا الناس قيام لرب العالمين .

[وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة] أى : فتتت الجبال ،

ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾

واضمحلت ، وخلطت بالأرض ، ونسفت عليها ، فكان الجميع قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا . هذا ما يصنع بالأرض وما عليها .

وأما ما يصنع بالسماء ، فإنها تضطرب وتمور وتشقق ، ويتغير لونها ، وتهى بعد تلك الصلابة والقوة العظيمة ، وما ذاك إلا لأمر عظيم أزعجها ، وكرب جسيم هائل ، أوهاها وأضعفها .

[والملك] أى : الملائكة الكرام [على أرجائها] أى : على جوانب السماء وأركانها ، خاضعين لربهم ، مستكينين لعظمته .

[ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية] أملاك فى غاية القوة ، إذا أتى للفصل بين العباد والقضاء بينهم ، بعدله وقسطه وفضله .

ولهذا قال : [يومئذ تعرضون] على الله [لا تخفى منكم خافية] لا من أجسادكم وذواتكم ، ولا من أعمالكم وصفاتكم ، فإن الله تعالى عالم الغيب والشهادة .

ويحشر العباد ، حفاة ، عراة ، عزلا ، فى أرض مستوية ، يسمعهم الداعى وينفذهم البصر ، فحينئذ يجازيهم بما عملوا ، ولهذا ذكر كيفية الجزاء فقال : [فأما من أوتى كتابه] إلى [الخالية] .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟

---

* وهؤلاء ، هم أهل السعادة ، يُعْطَوْنَ كتبهم التى فيها أعمالهم الصالحة بأيمانهم ، تمييزا لهم ، وتنويها بشأنهم ، ورفعا لمقدارهم .

ويقول أحدهم عند ذلك ، من الفرح والسرور ، ومحبة أن يطلع الخلق على ما مَنَّ الله عليه به من الكرامة :

[هاؤم اقرأوا كتابيه] أى : دونكم كتابى ، فاقرأوه ، فإنه يبشر بالجنات ، وأنواع الكرامات ، ومغفرة الذنوب ، وستر العيوب .

والذى أوصلنى إلى هذه الحال ، ما مَنَّ الله به عَلَىَّ من الإيمان بالبعث والحساب ، والاستعداد له ، بالممكن من العمل ، ولهذا قال :

[إنى ظننت أنى ملاق حسابيه] أى : أيقنت .

فالظن ـ هنا ـ بمعنى اليقين .

[فهو فى عيشة راضية] أى : جامعة لما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وقد رضوها ، ولم يختاروا عليها غيرها .

[فى جنة عالية] المنازل والقصور ، عالية المحل .

[قطوفها دانية] أى : ثمرها وجناها ، من أنواع الفواكه ، قريبة ، سهلة التناول على أهلها ، ينالها أهلها ، قياما وقعودا ، ومتكئين .

ويقال لهم إكراما : [كلوا واشربوا] أى : من كل طعام لذيذ ، وشراب شهىٍّ .

وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾

وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَـٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَـٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَـٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾

[هنيئا] أى : تاما كاملا ، من غير مكدر ولا منغص .

وذلك الجزاء حصل لكم [بما أسلفتم فى الأيام الخالية] من الأعمال الصالحة ، من صلاة ، وصيام ، وصدقة ، وحج ، وإحسان إلى الخلق ، وذكر الله ، وإنابة إليه ، وترك الأعمال السيئة .

فالأعمال ، جعلها الله سببا لدخول الجنة ، ومادة لنعيمها ، وأصلا لسعادتها .

* هؤلاء هم أهل الشقاء ، يُعْطَوْنَ كتبهم المشتملة على أعمالهم السيئة ، بشمالهم ، تمييزا لهم ، وخزيا ، وعارا وفضيحة .

فيقول أحدهم ، من الهم ، والغم ، والحزن : [ياليتنى لم أوت كتابيه] لأنه يبشر بدخول النار ، والخسارة الأبدية .

[ولم أدر ما حسابيه] أى : ليتنى كنت نسيا منسيا ، ولم أبعث وأحاسب ، ولهذا قال :

[ياليتها كانت القاضية] أي : ياليت موتتى هى الموتة ، التى لا بعث بعدها .

ثم التفت إلى ماله وسلطانه ، فإذا هو ، وبال عليه ، لم يقدم منه لآخرته ، ولا ينفعه لو افتدى به من العذاب شيئاً ، فيقول : [ما أغنى عنى ماليه]

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ

أى : ما نفعني فى الدنيا ، لأنى لم أقدم منه شيئا ، ولا فى الآخرة ، قد ذهب وقت نفعه .

[هلك عني سلطانيه] أي : ذهب واضمحل ، فلم تنفع الجنود ولا الكثرة ولا الْعَدَدُ ولا الْعُدَدُ ، ولا الجاه العريض، بل ذهب ذلك كله أدراج الرياح وفاتت بسببه ، المتاجر والأرباح ، وحضرت بدله ، الهموم والغموم والأتراح.

فحينئذ يؤمر بعذابه ، فيقال للزبانية الغلاظ الشداد : [خذوه فغلوه] أى : اجعلوا فى عنقه ، غلا يخنقه .

[ثم الجحيم صلوه] أى : قلبوه على جمرها ولهبها . .

[ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا] من سلاسل الجحيم فى غاية الحرارة [فاسلكوه] أى : انظموه فيها بأن تدخل فى دبره ، وتخرج من فمه ، ويعلق فيها .

فلايزال يعذب هذا العذاب الفظيع ، فبئس العذاب والعقاب ، وواحسرة له ، من التوبيخ والعتاب .

فإن السبب الذى أوصله ، إلى هذا المحل [إنه كان لا يؤمن بالله العظيم] بأن كان كافرا بربه ، معانداً لرسله ، رادا ما جاءوا به من الحق .

ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾

[ولا يحض على طعام المسكين] أى : ليس فى قلبه رحمة ، يرحم بها الفقراء والمساكين ، فلا يطعمهم من ماله ، ولا يحض غيره على إطعامهم ، لعدم الوازع فى قلبه .

وذلك ، لأن مدار السعادة ومادتها أمران :

الإخلاص لله ، الذى أصله الإيمان بالله .

والإحسان إلى الخلق ، بجميع وجوه الإحسان ، التى من أعظمها ، دفع ضرورة المحتاجين ، بإطعامهم ما يتقوتون به .

وهؤلاء لا إخلاص ولا إحسان ، فلذلك استحقوا ، ما استحقوا .

[فليس له اليوم ههنا] أى : يوم القيامة [حميم] أى : قريب أو صديق، يشفع له ، لينجو من عذاب الله ، أو يفوز بثوابه « ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له * ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

[ولا طعام إلا من غسلين] وهو صديد أهل النار ، الذى هو فى غاية الحرارة والمرارة ، ونتن الريح ، وقبح الطعم .

لا يأكل هذا الطعام الذميم [إلا الخاطئون[1]] الذين أخطأوا الصراط

---

(١) الخاطئون . أى : الكافرون ، وأصحاب الخطايا ، الذين كانوا يرتكبون الجرائم عمداً ، ولا يبالون بأوامر الله ونواهيه .

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾

المستقيم ، وسلكوا كل طريق يوصلهم إلى الجحيم ، فلذلك استحقوا العذاب الأليم .

* أقسم تعالى ، بما يبصر الخلق من جميع الأشياء ، وما لا يبصرونه .

فدخل فى ذلك ، كل الخلق ، بل دخل فى ذلك ، نفسه المقدسة ، على صدق الرسول ، بما جاء به من هذا القرآن الكريم ، وأن الرسول الكريم ، بلغه عن الله تعالى .

ونزه الله رسوله ، عما رماه به أعداؤه ، من أنه شاعر أو ساحر ، وأن الذى حملهم على ذلك ، عدم إيمانهم وتذكرهم ، فلو آمنوا وتذكروا ، علموا ما ينفعهم ويضرهم .

ومن ذلك ، أن ينظروا فى حال محمد صلى الله عليه وسلم ، ويرمقوا أوصافه وأخلاقه ، ليروا أمرا مثل الشمس ، يدلهم على أنه رسول الله حقا ، وأن ما جاء به [تنزيل من رب العالمين] لا يليق أن يكون قولا للبشر ، بل هو كلام دال على عظمة من تكلم به ، وجلالة أوصافه ، وكمال تربيته للخلق ، وعلوه فوق عباده .

وأيضا ، فإن هذا ، ظن منهم بما لا يليق بالله وحكمته .

[ولو تقول علينا] وافترى [بعض الأقاويل] الكاذبة .

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذْكِرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾

[لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين] وهو عرق متصل بالقلب ، إذا انقطع ، هلك منه الإنسان .

فلو قدر أن الرسول ـ حاشا وكلا ـ تقوّل على الله ، لعاجله بالعقوبة ، وأخذه أخذ عزيز مقتدر ، لأنه حكيم ، قدير على كل شيء .

فحكمته ، تقتضى أن لا يمهل الكاذب عليه ، الذى يزعم أن الله أباح له دماء من خالفه وأموالهم ، وأنه هو وأتباعه ، لهم النجاة ، ومن خالفه ، فله الهلاك .

فإذا كان الله قد أيد رسوله بالمعجزات ، وبرهن على صدق ما جاء به ، بالآيات البينات ، ونصره على أعدائه ، ومكنه من نواصيهم ، فهو أكبر شهادة منه على رسالته .

وقوله : [فما منكم من أحد عنه حاجزين] أى : لو أهلكه ، ما امتنع هو بنفسه ، ولا قدر أحد أن يمنعه من عذاب الله .

[وإنه] أى : القرآن الكريم [لتذكرة للمتقين] يتذكرون به مصالح دينهم ودنياهم ، فيعرفونها ، ويعملون عليها ، يذكرهم العقائد الدينية ، والأخلاق المرضية ، والأحكام الشرعية ، فيكونون من العلماء الربانيين ، والعباد العارفين ، والأئمة المهديين .

[وإنا لنعلم أن منكم مكذبين] به ، وهذا فيه تهديد ، ووعيد للمكذبين ،

وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

وأنه سيعاقبهم على تكذيبهم ، بالعقوبة البليغة .

[وإنه لحسرة على الكافرين] فإنهم لما كفروا به ، ورأوا ما وعدهم به ، تحسروا إذ لم يهتدوا به ولم ينقادوا لأمره ، ففاتهم الثواب ، وحصلوا على أشد العذاب ، وتقطعت بهم الأسباب .

[وإنه لحق اليقين] أى : أعلى مراتب العلم ، فإن أعلى مراتب العلم ، اليقين وهو : العلم الثابت ، الذى لا يتزلزل ، ولا يزول .

واليقين مراتبه ثلاثة ، كل واحدة أعلى مما قبلها :

أولها : علم اليقين ، وهو العلم المستفاد من الخبر .

ثم عين اليقين ، وهو : العلم المدرك بحاسة البصر .

ثم حق اليقين ، وهو العلم المدرك بحاسة الذوق والمباشرة .

وهذا القرآن ، بهذا الوصف ، فإن ما فيه من العلوم المؤيدة بالبراهين القطعية ، ومافيه من الحقائق والمعارف الإيمانية ، يحصل به لمن ذاقه حق اليقين .

[فسبح باسم ربك العظيم] أى : نزهه عما لا يليق بجلاله ، وقَدِّسْهُ ، بذكر أوصاف جلاله ، وجماله ، وكماله .

تم تفسير سورة الحاقة ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

سورة المعارج

بسم الله الرحمن الرحيم

سَأَلَ سَآئِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَـٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ

---

* يقول تعالى – مبينا لجهل المعاندين ، واستعجالهم لعذاب الله ، استهزاء وتعنتا وتعجيزا :

[سأل سائل] أى : دعا داع ، واستفتح مستفتح [بعذاب واقع ، للكافرين] لاستحقاقهم له بكفرهم وعنادهم [ليس له دافع ، من الله] أى : ليس لهذا العذاب ، الذى استعجل به من استعجل ، من متمردى المشركين ، أحد يدفعه قبل نزوله ، أو يرفعه بعد نزوله .

وهذا حين دعا النضر بن الحارث القرشى أو غيره ، من المكذبين فقال:

اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .

فالعذاب ، لا بد أن يقع عليهم من الله ، فإما أن يعجل لهم فى الدنيا ، وإما أن يدخر لهم فى الآخرة .

إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَاصْبِرْ صَبْرًا

فلو عرفوا الله ، وعرفوا عظمته ، وسعة سلطانه ، وكمال أسمائه وصفاته ، لما استعجلوا ، ولاستسلموا وتأدبوا ، ولهذا ذكر تعالى من عظمته ، ما يضاد أقوالهم القبيحة فقال :

[ذى المعارج ، تعرج الملائكة والروح إليه] أى : ذى العلو والجلال ، والعظمة ، والتدبير لسائر الخلق ، الذى تعرج إليه الملائكة ، بما جعلها على تدبيره ، وتعرج إليه الروح .

وهذا اسم جنس ، يشمل الأرواح كلها ، بَرّها ، وفاجرها ، وهذا عند الوفاة .

فأما الأبرار ، فتعرج أرواحهم إلى الله ، فيؤذن لها من سماء إلى سماء ، حتى تنتهى إلى السماء ، التى فيها الله عز وجل ، ربها فَتُحَيِّي ، وتسلم عليه ، وتحظى بقربه ، وتبتهج بالدنو منه ، ويحصل لها منه الثناء والإكرام ، والبر والإعظام .

وأما أرواح الفجار فتعرج ، فإذا وصلت إلى السماء ، استأذنت ، فلا يؤذن لها ، وأعيدت إلى الأرض .

ثم ذكر المسافة ، التى تعرج فيها الملائكة والروح إلى الله ، وأنها تعرج في يوم بما يسر لها من الأسباب ، وأعانها عليه من اللطافة والخفة ، وسرعة السير .

مع أن تلك المسافة ، على السير المعتاد ، مقدار خمسين ألف سنة ، من ابتداء العروج إلى بلوغها ، ما حُدّ لها ، وما تنتهى إليه من الملأ الأعلى .

جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَاهُ قَرِيبًا ﴿٧﴾

فهذا الملك العظيم ، والعالم الكبير ، علويه وسفليه ، جميعه قد تولى خلقه وتدبيره ، العَلِيُّ الأعلى .

فعلم أحوالهم الظاهرة والباطنة ، ومستقرهم ، ومستودعهم ، وأوصلهم من رحمته وبره وإحسانه ، ما عمهم وشملهم ، وأجرى عليهم حكمه القدرى وحكمه الشرعى ، وحكمه الجزائى .

فَبُؤْسًا لأقوام جهلوا عظمته، ولم يقدروه حق قدره ،فاستعجلوا بالعذاب على وجه التعجيز والامتحان .

وسبحان الحليم ، الذى أمهلهم ، وما أهملهم ، وآذوه ، فصبر عليهم ، وعافاهم ، ورزقهم .

هذا أحد الاحتمالات فى تفسير هذه الآية الكريمة ، فيكون هذا العروج والصعود فى الدنيا ، لأن السياق الأول ، يدل عليه .

ويحتمل أن هذا ، فى يوم القيامة، وأن الله تعالى ، يُظْهِرُ لعباده فى يوم القيامة ، من عظمته وجلاله وكبريائه ، ما هو أكبر دليل على معرفته ، مما يشاهدونه ، من عروج الأملاك والأرواح ، صاعدة ونازلة ، بالتدابير الإلهية ، والشئون الربانية .

[فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة] من طوله وشدته ، لكن الله تعالى ، يخففه على المؤمن .

وقوله : [فاصبر صبرا جميلا] أى : اصبر على دعوتك لقومك ، صبرا جميلا ، لا تَضَجُّرَ فيه ولا ملل .

﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ

بل استمر على أمر الله ، وادع عباده إلى توحيده ، ولا يمنعك عنهم ، ما تري من عدم انقيادهم ، وعدم رغبتهم ، فإن فى الصبر على ذلك ، خيرا كثيرا .

[إنهم يرونه بعيدا ونراه قريبا] الضمير يعود إلى البعث ، الذى فيه عذاب السائلين بالعذاب .

أى : إن حالهم ، حال المنكر له ، والذى غلبت عليه الشقوة والسكرة، حتى تباعد جميع ما أمامه ، من البعث والنشور .

والله يراه قريبا ، لأنه رفيق حليم لا يعجل ، ويعلم أنه لا بد أن يكون، وما هو آت ، فهو قريب . ثم ذكر أهوال ذلك اليوم وما فيه فقال : [يوم تكون السماء] إلى [فأوعى] .

* أى [يوم] القيامة ، الذى تقع فيه هذه الأمور العظيمة [تكون السماء كالمهل] وهو : الرصاص المذاب ، من تشققها ، وبلوغ الهول منها كل مبلغ .

[وتكون الجبال كالعهن] وهو : الصوف المنفوش ، ثم تكون بعد ذاك ، هباء منثورا ، فتضمحل .

فإذا كان هذا الانزعاج والقلق لهذه الأجرام الكبيرة الشديدة ، فما ظنك بالعبد الضعيف ، الذى قد أثقل ظهره بالذنوب والأوزار ؟

أليس حقيقا ، أن ينخلع قلبه ولبه ، ويذهل عن كل أحد ؟ ولهذا قال :

لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾

[ولا يسأل حميم حميا * يبصرونهم] أى : يشاهد الحميم ، وهو: القريب حميمه ، فلا يبقى فى قلبه متسع لسؤاله عن حاله ، ولا فيما يتعلق بعشرتهم ومحبتهم ، ولا يهمه إلا نفسه .

[يود المجرم] الذى حق عليه العذاب [لو يفتدى من عذاب يومئذ ببنيه * وصاحبته] أى : زوجته [وأخيه * وفصيلته] أى : قرابته [التى تؤويه] أى : التى جرت عادتها فى الدنيا ، أن تتناصر ، ويعين بعضها بعضا .

فنى القيامة ، لا ينفع أحد أحداً ، ولا يشفع أحد إلا بإذن الله .

بل لو يفتدى المجرم المستحق للعذاب بكل من يعرفه [ومن فى الأرض جميعا ثم ينجيه] ذلك ، لم ينفعه .

[كلا] أى : لا حيلة ولا مناصر لهم ، قد حقت عليهم كلمة ربك ، وذهب نفع الأقارب والأصدقاء .

[إنها لظى * نزاعة للشوى] أى : النار التى تتلظى ، تنزع من شدتها للأعضاء الظاهرة والباطنة .

[تدعو] إلى نفسها [من أدبر * وتولى وجمع فأوعى] أى : أدبر عن

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾

اتباع الحق ، وأعرض عنه ، فلا غرض له فيه ، وجمع الأموال بعضها فوق بعض ، وأوعاها ، فلم ينفق منها ما ينفعه ، ويدفع عنه النار .

فالنار تدعو هؤلاء إلى نفسها ، وتستعد للالتهاب بهم .

* وهذا الوصف للإنسان ، من حيث هو ، وصف طبيعته ، أنه هلوع .

وفسر : الهلوع بقوله [إذا مسه الشر جزوعا] فيجزع إن أصابه فقر أو مرض ، أو ذهاب محبوب له ، من مال ، أو أهل ، أو ولد .ولا يستعمل في ذلك ، الصبر ، والرضا بما قضى الله .

[وإذا مسه الخير منوعا] فلا ينفق مما آتاه الله ، ولا يشكر الله على نعمه وبره ، فيجزع فى الضراء ، ويمنع فى السراء .

[إلا المصلين] الموصوفين بتلك الأوصاف ، فإنهم إذا مسهم الخير ، شكروا الله ، وأنفقوا مما خولهم ، وإذا مسهم الشر ، صبروا واحتسبوا .

وقوله فى وصفهم [الذين هم على صلاتهم دائمون] أى : مداومون عليها فى أوقاتها ، بشروطها ، ومكملاتها .

وليسوا كمن لا يفعلها ، أو يفعلها وقتا دون وقت ، أو يفعلها على وجه ناقص .

[والذين فى أموالهم حق معلوم] من زكاة وصدقة [للسائل] الذى

لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿٢٥﴾ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٢٦﴾ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٢٧﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴿٢٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٢٩﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ

يتعرض للسؤال [والمحروم] وهو : المسكين الذى لا يسأل الناس ،فيعطوه، ولا يفطن له ، فيتصدق عليه .

[والذين يصدقون بيوم الدين] أى : يؤمنون بما أخبر به الله ، وأخبرت به الرسل ، من الجزاء والبعث ، ويتيقنون ذلك ، فيستعدون للآخرة ، ويسعون لها سعيها .

والتصديق بيوم الدين ، يلزم منه التصديق بالرسل ، وبما جاءوا به من الكتب .

[والذين هم من عذاب ربهم مشفقون] أى : خائفون وجلون ،فيتركون لذلك كل ما يقربهم من عذاب الله .

[إن عذاب ربهم غير مأمون] أى : هو العذاب الذى يخشى ويحذر .

[والذين هم لفروجهم حافظون] فلا يطأون بها وطئا محرماً ، من زناً ، أو لواط ، أو وطء فى دبر ، أو حيض ، ونحو ذلك .

ويحفظونها أيضا من النظر إليها ومسها ، ممن لا يجوز له ذلك .

ويتركون أيضاً ، وسائل المحرمات الداعية لفعل الفاحشة .

[إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم] أى : سرياتهم [فإنهم غير ملومين] فى وطئهن ، فى المحل الذى هو محل الحرث .

أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣٠﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٣١﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَـٰنَـٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَـٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ﴿٣٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ

[فمن ابتغى وراء ذلك] أي : غير الزوجة ، وملك اليمين .

[فأولئك هم العادون] أى : المتجاوزون ما أحل الله ، إلى ما حرم الله .

ودلت هذه الآية ، على تحريم نكاح المتعة ، لكونها غير زوجة مقصودة ، ولا ملك يمين .

[والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون] أى : مراعون لها ، حافظون مجتهدون على أدائها ، والوفاء بها .

وهذا شامل لجميع الأمانات ، التى بين العبد وبين ربه ، كالتكاليف السرية ، التى لا يطلع عليها إلا الله ، والأمانات التى بين العبد وبين الخلق ، فى الأموال والأسرار .

وكذلك العهد ، شامل للعهد ، الذى عاهد عليه الله ، والعهد الذى عاهد الخلق عليه .

فإن العهد ، يسأل عنه العبد ، هل قام به ووفاه ، أم رفضه وخانه ، فلم يقم به ؟ .

[والذين هم بشهاداتهم قائمون] أى : لا يشهدون إلا بما يعلمونه ، من غير زيادة ولا نقص ، ولا كتمان ، ولا يحابى فيها قريبا ولا صديقا ونحوه ، ويكون القصد بإقامتها ، وجه الله .

صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٣٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ﴿٣٥﴾

فَمَالِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ

قال تعالى : « وأقيموا الشهادة لله * يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

[والذين هم على صلاتهم يحافظون] بالمداومة عليها على أكمل الوجوه.

[أولئك] أى : الموصوفون بتلك الصفات [فى جنات مكرمون] أى : قد أوصل الله لهم من الكرامة والنعيم المقيم ، ما تشتهيه الأنفس ، وتلذ الأعين ، وهم فيها خالدون .

وحاصل هذا ، أن الله وصف أهل السعادة والخير ، بهذه الأوصاف الكاملة ، والأخلاق المرضية الفاضلة ، من العبادات البدنية ، كالصلاة ، والمداومة عليها ، والأعمال القلبية ، كخشية الله الداعية لكل خير ، والعبادات المالية ، والعقائد النافعة ، والأخلاق الفاضلة ، ومعاملة الله ، ومعاملة خلقه ، أحسن معاملة ، من إنصافهم ، وحفظ حقوقهم وأماناتهم، والعفة التامة بحفظ الفروج ، عما يكرهه الله تعالى .

* يقول تعالى ، مبينا اغترار الكافرين : [فما للذين كفروا قبلك مهطعين] أى : مسرعين [عن اليمين وعن الشمال عزين] أى : قطعا متفرقة ، وجماعات متنوعة ، كل منهم ، بما لديه فرح .

[أيطمع كل امرىء منهم أن يدخل جنة نعيم] أىُّ : سبب أطمعهم ،

نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟

وهم لم يقدموا سوى الكفر ، والجحود لرب العالمين ، ولهذا قال :

[كلا] أى : ليس الأمر بأمانيهم ، ولا إدراك ما يشتهون بقوتهم .

[إنا خلقناهم مما يعلمون] أى : من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، فهم ضعفاء ، لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

* هذا إقسام منه تعالى، بالمشارق والمغارب، للشمس، والقمر، والكواكب، لما فيها من الآيات الباهرات ، على البعث وقدرته على تبديل أمثالهم ، وهم بأعيانهم ، كما قال تعالى : « وننشئكم فيما لا تعلمون » .

[وما نحن بمسبوقين] أى : ما أحد يسبقنا ويفوتنا ويعجزنا ، إذا أردنا أن نعيده .

فإذا تقرر البعث والجزاء ، واستمروا على تكذيبهم ، وعدم انقيادهم لآيات الله .

[فذرهم يخوضوا ويلعبوا] أى : يخوضوا بالأقوال الباطلة ، والعقائد الفاسدة ، ويلعبوا بدينهم ، ويأكلوا ويشربوا ، ويتمتعوا [حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون] .

وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

فإن الله قد أعد لهم فيه ، من النكال والوبال ، ما هـو عاقبة خوضهم ولعبهم .

ثم ذكر حال الخلق حين يلاقون اليوم الذى يوعدون فقال :

[يوم يخرجون من الأجداث] أى : القبور [سراعا] مجيبين لدعوة الداعى ، مهطعين إليها .

[كأنهم إلى نصب يوفضون[1]] أى : كأنهم إلى علم يؤمون ويقصدون .

فلا يتمكنون من الاستعصاء على الداعى ، ولا الالتواء عن نداء المنادى. بل يأتون ، أذلاء مقهورين ، بين يدى رب العالمين .

[خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة] وذلك أن الذلة والقلق ، قد ملك قلوبهم، واستولى على أفئدتهم ، فخشعت منهم الأبصار ، وسكنت الحركات ، وانقطعت الأصوات .

[ذلك] الحال والمآل ، هو [اليوم الذى كانوا يوعدون] ولا بد من الوفاء بوعد الله .

تم تفسير سورة المعارج ـ والحمد لله

---

(١) نصب . أى : كل ما نصب فعبد من دون الله . « يوفضون » أى : يسرعون . اهـ . أبو السعود .

تفسير

سورة نوح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾

لم يذكر الله فى هذه السورة ،لا قصة نوح وحدها لطول لبثه فى قومه ، وتكرار دعوته إلى التوحيد ، ونهيه عن الشرك .

فأخبر تعالى أنه أرسل نوحا إلى قومه ، رحمه بهم وإنذاراً من عذاب أليم ، خوفاً من استمرارهم على كفرهم ، فيهلكهم هلاكا أبديا ، ويعذبهم عذابا سرمديا .

فامتثل نوح عليه السلام لذلك ، وابتدر لأمر الله فقال :

[ياقوم إنى لكم نذير مبين] أى : واضح النذارة بينها ، وذلك لتوضيحه ما أنذر به ، وما أنذر عنه ، وبأى شيء تحصل النجاة ، بَيَّنَ ذلك بيانا شافيا .

فأخبرهم وأمرهم بأصل ذلك فقال : [أن اعبدوا الله واتقوه] وذلك بإفراده تعالى بالعبادة والتوحيد ، والبعد عن الشرك وطرقه ، ووسائله .

أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾

فإنهم إذا اتقوا الله ، غفر ذنوبهم ، وإذا غفر ذنوبهم ، حصل لهم النجاة من العذاب ، والفوز بالثواب .

[ويؤخركم إلى أجل مسمى] أى : يمتعكم فى هذه الدار ، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى ، أى : مقدر البقاء فى الدنيا ، بقضاء الله وقدره ، إلى وقت محدود ، وليس المتاع أبدا ، فإن الموت لابد منه ، ولهذا قال :

[إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون] كما كفرتم بالله ، وعاندتم الحق ، فلم يجيبوا لدعوته ، ولا انقادوا لأمره ، فقال شاكيا لربه :

[رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا * فلم يزدهم دعائى إلا فرارا] أى : نفورا عن الحق ، وإعراضا ، فلم يبق لذلك فائدة ، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه .

[وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم] أى : لأجل أن يستجيبوا ، فإذا استجابوا ، غفرت لهم ، وهذا محض مصلحتهم .

ولكن أبوا ، إلا تماديا على باطلهم ، ونفورا عن الحق .

[جعلوا أصابعهم فى آذانهم] حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح عليه السلام .

[واستغشوا ثيابهم] أى تغطوا بها غطاء يغشاهم ، بعدا عن الحق ، وبغضا له .

فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ

[وأصروا] على كفرهم وشرهم [واستكبروا على الحق [استكبارا] فشرهم ازداد ، وخيرهم بَعُدَ .

[ثم إنى دعوتهم جهارا] أى بمسمع منهم كلهم .

[ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا] كل هذا حرص ونصح ، وإتيانهم بكل طريق يظن به حصول المقصود .

[فقلت استغفروا ربكم] أى : اتركو ما أنتم عليه ، من الذنوب ، واستغفروا الله منها .

[إنه كان غفارا] كثير المغفرة لمن تاب واستغفر ، فرغبهم بمغفرة الذنوب ، وما يترتب عليها من الثواب ، واندفاع العقاب .

ورغبهم أيضا بخير الدنيا العاجل فقال : [يرسل السماء عليكم مدرارا] أى : مطرا متتابعا ، يروى الشعاب والوهاد ، ويحيي البلاد والعباد .

[ويمددكم بأموال وبنين] أى : يكثر أموالكم ، التى تدركون بها ما تطلبون من الدنيا ، وأولادكم .

وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾ مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا

[ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً] وهذا من أبلغ ما يكون من لذات الدنيا ومطالبها .

[ما لكم لا ترجون لله وقارا] أى : لا تخافون لله عظمة ، وليس لله عندكم قدر .

[وقد خلقكم أطوارا] أى : خلقا من بعد خلق ، فى بطن الأم ، ثم فى الرضاع ، ثم فى سن الطفولية ، ثم التمييز ، ثم الشباب . ثم إلى آخر ما يصل إليه الخلق .

فالذى انفرد بالخلق والتدبير البديع ، متعين أن يفرد بالعبادة والتوحيد.

وفى ذكر ابتداء خلقهم تنبيه لهم على المعاد ، وأن الذى أنشأهم من العدم قادر على أن يعيدهم بعد موتهم .

واستدل أيضا بخلق السموات ، التى هى أكبر من خلق الناس فقال :

[ألم تروا كيف الله سبع سموات طباقا] أى : كل سماء فوق الأخرى

[وجعل القمر فيهن نورا] لأهل الأرض [وجعل الشمس سراجا] .

ففيه تنبيه على عظم خلق هذه الأشياء ، وكثرة المنافع فى الشمس والقمر الدالة على رحمة الله وسعة إحسانه ، فالعظيم الرحيم ، يستحق أن يعظم ويحب ويخاف ، ويرجى .

وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾ وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ

[والله أنبتكم من الأرض نباتا] حين خلق أباكم آدم وأنتم فى صلبه .

[ثم يعيدكم فيها] عند الموت [ويخرجكم إخراجا] للبعث والنشور ، فهو الذى يملك الحياة والموت والنشور .

[والله جعل لكم الأرض بساطاً] أى : مبسوطة مهيأة للانتفاع بها .

[لتسلكوا منها سبلا فجاجا] فلولا أنه بسطها ، لما أمكن ذلك ، بل ولا أمكنهم حرثها وغرسها ، وزرعها ، والبناء ، والسكون على ظهرها .

[قال نوح] شاكيا لربه : إن هذا الكلام والوعظ والتذكير ، ما نجع فيهم ولا أفاد .

[رب إنهم عصونى] فيما أمرتهم به [واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خسارا] أى : عصوا الرسول الناصح الدال على الخير واتبعوا الملأ والأشراف ، الذين لم تزدهم أموالهم ولا أولادهم إلا خسارا ، أى : هلاكا وتفويتا للأرباح ، فكيف بمن انقاد لهم وأطاعهم ؟ !

[ومكروا ومكرا كبارا] أى : مكراً كبيراً بليغا فى معاندة الحق .

وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا ﴿٢٤﴾ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا

[وقالوا] لهم داعين إلى الشرك مزينين [لا تذرن آلهتكم] فدعوهم إلى التعصب على ما هم عليه من الشرك ، وأن لا يدعوا ما عليه آباؤهم الأقدمون .

ثم عينوا آلهتهم فقالوا : [ولا تذرن ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا] .

وهذه أسماء رجال صالحين ، لما ماتوا ، زين الشيطان لقومهم أن يصوروا صورهم ، لينشطوا - بزعمهم - على الطاعة ، إذا رأوها .

ثم طال الأمد ، وجاء غير أولئك فقال لهم الشيطان :

إن أسلافكم كانوا يعبدونهم ، ويتوسلون بهم ، وبهم يسقون المطر فعبدوهم .

ولهذا وصى رؤساؤهم للتابعين لهم ، أن لا يدعوا عبادة هذه الأصنام .

[وقد أضلوا كثيرا] أي : أضل الكبار والرؤساء بدعوتهم ، كثيرا من الخلق .

[ولا تزد الظالمين إلا ضلالا] أي : لو كان ضلالهم عند دعوتي إياهم للحق ، لكان مصلحة ، ولكن لا يزيدون بدعوة الرؤساء إلا ضلالا ، أي : فلم يبق محل لنجاحهم وصلاحهم .

ولهذا ذكر الله عذابهم وعقوبتهم الدنيوية والأخروية فقال :

نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى

[مما خطيئاتهم أغرقوا] فى اليم الذى أحاط بهم [فأدخلوا نارا] فذهبت أجسادهم فى الغرق ، وأرواحهم للنار والحرق .

وهذا كله بسبب خطيئاتهم ، التى أتاهم نبيهم ينذرهم عنها ، ويخبرهم بشؤمها وسوء مغبتها ، فرفضوا ما قال ، حتى حل بهم النكال .

[فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا] ينصرونهم حين نزل بهم الأمر ولا أحد يقدر على أن يعارض القضاء والقدر .

[وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا] يدور على وجه الأرض .

وذكر السبب فقال : [إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا] أى : بقاؤهم مفسدة محضة ، لهم ولغيرهم .

وإنما قال نوح ذلك ، لأنه مع كثرة مخالطته إياهم ، ومزاولته لأخلاقهم ، علم بذلك ، نتيجة أعمالهم ، فلهذا استجاب الله له دعوته ، فأغرقهم أجمعين ، ونجى نوحا ومن معه من المؤمنين .

وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

[رب اغفر لى ولوالدى ولمن دخل بيتى مؤمنا] خص المذكورين ، لتأكد حقهم وتقديم برهم ، ثم عم الدعاء فقال : [وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا] أى : حسارا ، ودمارا، وهلاكا .

تم تفسير سورة نوح ـ والحمد لله

تفسير

سورة الجن

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴿٢﴾ ﴾

---

* أى : [قل] يا أيها الرسول للناس [أوحى إلى أنه استمع نفر من الجن] صرفهم الله إلى رسوله ، لسماع آياته ، لتقوم عليهم الحجة ،وتتم عليهم النعمة ، ويكونوا منذرين لقومهم .

وأمر رسوله ، أن يقص نبأهم على الناس .

وذلك : أنهم لما حضروه قالوا : أنصتوا .

فلما أنصتوا ، فهموا معانيه ، ووصلت حقائقه إلى قلوبهم .

[فقالوا إنا سمعنا قرآنا عجبا] أى: من العجائب الغالية، والمطالب العالية .

[يهدى إلى الرشد] والرشد : اسم جامع لكل ما يرشد الناس إلى مصالح دينهم ودنياهم .

[فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا] فجمعوا بين الإيمان ، الذى يدخل فيه جميع أعمال الخير ، وبين التقوى ، المتضمنة لترك الشر .

﴿وَأَنَّهُ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ

وجعلوا السبب الداعى لهم إلى الإيمان وتوابعه ، ما علموه من إرشادات القرآن ، وما اشتمل عليه من المصالح والفوائد ، واجتناب المضار ، فإن ذلك آية عظيمة ، وحجة قاطعة ، لمن استنار به ، واهتدى بهديه .

وهذا هو الإيمان النافع ، المثمر لكل خير ، المبنى على هداية القرآن .

بخلاف إيمان العوائد، والمربى، والإلف ونحو ذلك ، فإنه إيمان تقليد تحت خطر الشبهات والعوارض الكثيرة .

* [وأنه تعالى جدر بنا] أى : تعالت عظمته وتقدست أسمائه .

* [ما اتخذ صاحبة ولا ولدا] فعلموا من جد الله وعظمته ، ما دلهم على بطلان من يزعم أن له صاحبة أو ولدا ، لأن له العظمة والجلال ، فى كل صفة كمال .

واتخاذ الصاحبة والولد ، ينافى ذلك ، لأنه يضاد كمال الغنى .

[وأنه كان يقول سفيهنا على الله شططا] أى : قولا جائرا عن الصواب ، متعديا للحد ، وما حمله على ذلك ، إلا سفهه ، وضعف عقله

وإلا ، فلو كان رزينا مطمئنا ، لعرف كيف يقول .

[وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن على الله كذبا] أى : كنا مغترين قبل ذلك ، غرتنا السادة والرؤساء من الجن والإنس ، فأحسنا بهم

يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّواْ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا

الظن ، وحسبناهم لا يتجرأون على الكذب على الله ، فلذلك كنا قبل ذلك على طريقهم .

فاليوم إذ بان لنا الحق ، سلكنا طريقه ، وانقدنا له ، ولم نبال بقول أحد من الخلق ، يعارض الهدى .

[وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا] .

أى : كان الإنس ، يعوذون بالجن ، عند المخاوف والأفزاع ، ويعبدونهم .

فزاد الإنس الجن رهقا ، أى : طغيانا وتكبرا ، لما رأوا الإنس يعبدونهم ، ويستعيذون بهم .

ويحتمل أن الضمير وهو « الواو » يرجع إلى الجن ، أى : زاد الجن الإنس ذعرا وتخويفا ، لما رأوهم يستعيذون بهم ، ليلجئوهم إلى الاستعاذة بهم ، والتمسك بما هم عليه .

فكان الإنسى إذا نزل بواد مخوف قال « أعوذ بسيد هذا الوادى من سفهاء قومه » .

[وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا] .

أى : فلما أنكروا البعث ، أقدموا على الشرك والطغيان .

مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْآنَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾ وَأَنَّا لَا نَدْرِىٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا

[وأنا لمسنا السماء] أى: أتيناها واختبرناها [فوجدناها ملئت حرسا شديدا] عن الوصول إلى أرجائها ، والدنو منها .

[وشهبا] يرمى بها من استرق السمع ، وهذا مخالف لعادتنا الأولى .

فإنا كنا نتمكن من الوصول إلى خبر السماء .

[وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع] فنتلقف من أخبار السماء ما شاء الله .

[فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا] أى : مرصدا له ، معدا لإتلافه وإحراقه .

أى : وهذا له شأن عظيم ونبأ جسيم .

وجزموا أن الله تعالى ، أراد أن يحدث فى الأرض حادثا كبيرا ، من خير أو شر .

فلهذا قالوا [وأنا لا ندرى أشر أريد بمن فى الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا] أى:لابد من هذا أو هذا ،لأنهم رأوا الأمر تغير عليهم تغيرا أنكروه ، فعرفوا بفطنتهم ، أن هذا الأمر يريده الله ، ويحدثه فى الأرض .

وفى هذا بيان لأدبهم ، إذ أضافوا الخير إلى الله تعالى ، والشر حذفوا فاعله تأدبا .

ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾

[وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك] أى : فساق ، وفجار ، وكفار .

[كنا طرائق قددا] أى : فرقا متنوعة ، وأهواء متفرقة، كل حزب بما لديهم فرحون .

[وأنا ظننا أن لن نعجز الله فى الأرض ولن نعجزه هربا] أى : وأنا فى وقتنا الآن تبين لنا كمال قدرة الله ، وكمال عجزنا ، وأن نواصينا بيد الله ، فلن نعجزه فى الأرض ، ولن نعجزه إن هربنا ، وسعينا بأسباب الفرار والخروج عن قدرته ، لا ملجأ منه ، إلا إليه .

[وأنا لما سمعنا الهدى] وهو : القرآن الكريم الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعرفنا هدايته وإرشاده ، أثّر فى قلوبنا و [آمنا به] .

ثم ذكروا ما يرغب المؤمن فقالوا : [فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا] .

أى : من آمن به إيمانا صادقا ، فلا عليه نقص ، ولا أذى يلحقه ، وإذا سلم من الشر ، حصل له الخير .

فالإيمان ، سبب داع إلى كل خير ، وانتفاء كل شر .

وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟

[وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون] أى : الجائرون ، العادلون عن الصراط المستقيم .

[فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا] أى : أصابوا طريق الرشد ، الموصل لهم إلى الجنة ونعيمها .

[وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا] وذلك جزاء على أعمالهم ، لا ظلم من الله لهم .

[وأن لو استقاموا على الطريقة] المثلى [لأسقيناهم ماء غدقا] .

أى : هنيئا مريئا ، ولم يمنعهم من ذلك ، إلا ظلمهم وعدوانهم .

[لنفتنهم فيه] أى : لنختبرهم ونمتحنهم ليظهر الصادق من الكاذب .

[ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعدا] أى : من أعرض عن ذكر الله . الذى هو كتابه ، فلم يتبعه ، وينقد له ، بل لها عنه وغفل ، يسلكه عذابا صعدا ، أى : بليغا شديدا .

[وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا] أى : لا دعاء عبادة ، ولا دعاء مسئلة .

يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُواْ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا

فإن المساجد ، التى هى أعظم محالٍّ للعبادة ، مبنية على الإخلاص لله ، والخضوع لعظمته ، والاستكانة لعزته .

[وأنه لما قام عبد الله يدعوه] أى : يسأله ويتعبد له ، ويقرأ القرآن .

[كادوا] أى : الجن من تكاثرهم عليه [يكونون عليه لبدا] .

أى : متلبدين متراكمين ، حرصا على ما جاء به من الهدى .

[قل] لهم ، يا أيها الرسول ، مبينا حقيقة ما تدعو إليه :

[إنما أدعو ربى ولا أشرك به أحدا] أى : أوحده ، وحده لاشريك له ، وأخلع ما دونه من الأنداد والأوثان ، وكل ما يتخذه المشركون من دونه .

[قل إنى لا أملك لكم ضرا ولا رشدا] فإنى عبد ليس من الأمر والتصرف شىء .

[قل إنىّ لن يجيرنى من الله أحد] أى:لا أحد أستجير به ينقذنى من عذاب الله .

وإذا كان الرسول الذى هو أكمل الخلق ، لا يملك ضرا ولا رشدا ، ولا يمنع نفسه من الله شيئا ، إن أراده بسوء ، فغيره من الخلق ، من باب أولى وأحرى .

[ولن أجد من دونه ملتحدا] أى : ملجأ ومنتصرا [إلا بلاغا من الله ورسالاته] أى : ليس لى مزية على الناس ، إلا أن الله خصنى بإبلاغ رسالاته ودعوة خلقه إليه ، وبذلك تقوم الحجة على الناس .

مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ

[ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا] وهذا المراد به ، المعصية الكفرية ، كما قيدتها النصوص الأخر المحكمة .

وأما مجرد المعصية ، فإنه لا يوجب الخلود في النار ، كما دلت على ذلك آيات القرآن ، والأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وأجمع عليه سلف الأمة ، وأئمة هذه الأمة .

[حتى إذا رأوا ما يوعدون] أى : شاهدوه عيانا ، وجزموا أنه واقع بهم .

[فسيعلمون] فى ذلك الوقت حقيقة المعرفة [من أضعف ناصرا وأقل عدداً] حين لا ينصرهم غيرهم ،ولا أنفسهم ينتصرون ، وإذ يحشرون فرادى كما خلقوا أول مرة .

[قل] لهم إن سألوك فقالوا : « متى هذا الوعد » ؟ .

[إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا] أى : غاية طويلة ، فعلم ذلك ، عند الله .

[عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا] من الخلق ، بل انفرد بعلم الضمائر والأسرار ، والغيوب .

وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٨﴾

[إلا من ارتضى من رسول] أى : فإنه يخبره بما اقتضت حكمته ، أن يخبره به .

وذلك لأن الرسل ، ليسوا كغيرهم ، فإن الله أيدهم بتأييد ، ما أيده أحدا من الخلق ، وحفظ ما أوحاه إليهم حتى يبلغوه على حقيقته ، من غير أن تقربه الشياطين ، فيزيدوا فيه أو ينقصوا ، ولهذا قال .

[فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا] أى . يحفظونه بأمر الله .

[ليعلم] بذلك [أن قد أبلغوا رسالات ربهم] بما جعله لهم من الأسباب .

[وأحاط بما لديهم] أى : بما عندهم ، وما أسروه وما أعلنوه .

[وأحصى كل شىء عددا] ، وفى هذه السورة فوائد عديدة .

منها : وجود الجن ، وأنهم مأمورون منهيون ، ومجازون بأعمالهم ، كما هو صريح فى هذه السورة .

ومنها : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مبعوث إلى الجن ، كما هو مبعوث إلى الإنس .

فإن الله صرف نفرا من الجن ، ليستمعوا ما يوحى إليه ، ويبلغوا قومهم .

. . . .

ومنها : ذكاء الجن ، ومعرفتهم بالحق ، وأن الذى ساقهم إلى الإيمان هو ما تحققوه من هداية القرآن ، وحسن أدبهم فى خطابهم .

ومنها . اعتناء الله برسوله ، وحفظه لما جاء به .

فحين ابتدأت بشائر نبوته ، والسماء محروسة بالنجوم ، والشياطين قد هربت من أماكنها ، وأزعجت عن مراصدها ، وأن الله رحم به أهل الأرض رحمة ما يقدر لها قدر ، وأراد بهم ربهم رشدا ، فأراد أن يظهر من دينه وشرعه ، ومعرفته فى الأرض ، ما تبتهج به القلوب ، وتفرح به أولو الألباب وتظهر به شعائر الإسلام ، وينقمع به أهل الأوثان والأصنام .

ومنها : شدة حرص الجن على استماعهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، وتراكمهم عليه .

ومنها : أن هذه السورة ، قد اشتملت على الأمر بالتوحيد والنهى عن الشرك ، وبينت حالة الخلق ، وأن كل أحد منهم لا يستحق من العبادة مثقال ذرة .

لأن الرسول محمدا صلى الله عليه وسلم ، إذا كان لا يملك لأحد نفعا ولا ضرا ، بل ولا يملك لنفسه ، علم أن الخلق كلهم كذلك .

فمن الخطأ والظلم ، اتخاذ من هذا وصفه إلها آخر .

ومنها : أن علوم الغيوب قد انفرد الله بعلمها ، فلا يعلمها أحد من الخلق ، إلا من ارتضاه الله واختصه بعلم شىء منها .

تم تفسير سورة الجن ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

سورة المزمل

بسم الله الرحمن الرحيم

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾

---

* المزمل : المتغطى بثيابه كالمدثر ، وهذا الوصف ، حصل من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حين أكرمه الله برسالته ، وابتدأه بإنزال وحيه بإرسال جبريل إليه .

فرأى أمرا ، لم ير مثله ، ولا يقدر على الثبات عليه ، إلا المرسلون .

فاعتراه عند ذلك ، انزعاج ، حين رأى جبريل عليه السلام .

فأتى إلى أهله فقال : « زملونى زملونى » وهو ترعد فرائصه .

ثم جاءه جبريل فقال « اقرأ » فقال « ما أنا بقارىء » فغطه حتى بلغ منه الجهد وهو يعالجه على القراءة ، فقرأ صلى الله عليه وسلم .

ثم ألقى الله عليه الثبات ، وتابع عليه الوحى ، حتى بلغ مبلغا ، ما بلغه أحد من المرسلين .

فسبحان الله ، ما أعظم التفاوت بين ابتداء نبوته ونهايتها ، ولهذا خاطبه الله بهذا الوصف ، الذى وجد منه أول أمره .

إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا

فأمره هنا ، بالعبادات المتعلقة به ، ثم أمره بالصبر ، على أذية قومه ، ثم أمره بالصدع بأمره ، وإعلان دعوتهم إلى الله .

فأمره هنا ، بأشرف العبادات ، وهى الصلاة ، وبآكد الأوقات وأفضلها ، وهو قيام الليل .

ومن رحمته به ، أنه لم يأمره بقيام الليل كله ، بل قال : [قم الليل إلا قليلا] .

ثم قدر ذلك فقال ، [نصفه أو انقص منه] أى : من النصف [قليلا] بأن يكون الثلث ونحوه [أو زد عليه] أى : على النصف ، فيكون نحو الثلثين .

[ورتل القرآن ترتيلا] فإن ترتيل القرآن ، به يحصل التدبر والتفكر ، وتحريك القلوب به ، والتعبد بآياته ، والتهيؤ ، والاستعداد التام له .

فإنه قال : [إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا] أى : نوحى إليك هذا القرآن الثقيل أى : العظيمة معانيه ، الجليلة أوصافه .

وما كان بهذا الوصف ، حقيق أن يتهيأ له ويرتل ، ويتفكر فيما يشتمل عليه .

ثم ذكر الحكمة فى أمره بقيام الليل فقال :

[إن ناشئة الليل] أى : الصلاة فيه بعد النوم [هى أشد وطئا وأقوم قيلا] أى : أقرب إلى حصول مقصود القرآن ، يتواطأ عليه القلب واللسان ، وتقل الشواغل ، ويفهم ما يقول ، ويستقيم له أمره .

وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ

وهذا بخلاف النهار ، فإنه لا تحصل به هذه المقاصد ، ولهذا قال :

[إن لك فى النهار سبحا طويلا] أى : ترددا فى حوائجك ومعاشك ، يوجب اشتغال القلب ، وعدم تفرغه التفرغ التام .

[واذكر اسم ربك] شامل لأنواع الذكر كلها [وتبتل إليه تبتيلا] أى : انقطع إليه ، فإن الانقطاع إلى الله ، والإنابة إليه ، هو الانفصال بالقلب عن الخلائق ، والاتصاف بمحبة الله ، وما يقرب إليه ، ويدنى من رضاه .

[رب المشرق والمغرب] وهذا اسم جنس ، يشمل المشارق والمغارب كلها فهو تعالى رب المشارق والمغارب ، وما يكون فيها من الأنوار ، وما هى مصلحة له من العالم العلوى والسفلى ، فهو رب كل شىء ، وخالقه ، ومدبره .

[لا إله إلا هو] أى : لا معبود إلا وجهه الأعلى ، الذى يستحق أن يخص بالمحبة والتعظيم ، والإجلال والتكريم ، ولهذا قال :

[فاتخذه وكيلا] أى : حافظا ومدبرا لأمورك كلها .

فلما أمره الله بالصلاة خصوصا ، وبالذكر عموما ، وبذلك تحصل للعبد ملكة قوية ، فى تحمل الأثقال ، وفعل الشاق من الأعمال ، أمره بالصبر ،

هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾

إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾ وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ

على ما يقوله العاندون له ويسبونه ، ويسبون ما جاء به ، وأن يمضى على أمر الله ، لا يصده عنه صاد ، ولا يرده راد ، وأن يهجرهم هجرا جميلا ، وهو الهجر ، حيث اقتضت المصلحة الهجر ، الذى لا أذية فيه ، بل يعاملهم بالهجر والإعراض عن أقوالهم ، التى تؤذيه ، وأمره بجدالهم بالتى هى أحسن .

[وذرنى والمكذبين] أي : اتركنى وإياهم ، فسأنتقم منهم ، وإن أمهلتهم ، فلا أهملهم .

وقوله : [أولى النعمة] أى : أصحاب النعمة والغنى ، الذين طغوا حين وسع الله عليهم من رزقه ، وأمدهم من فضله كما قال تعالى : « كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » .

ثم توعدهم بما عنده من العقاب فقال : [إن لدينا] إلى [مهيلا] .

* أى : إن عندنا [أنكالا] أى : عذابا شديدا ، جعلناه تنكيلا للذى لا يزال مستمرا على ما يغضب الله .

[وجحيما] أى: نارا حامية [وطعاما ذا غصة] وذلك لمرارته وبشاعته وكراهة طعمه وريحه الخبيث المنتن .

وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾

إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

[وعذابا أليما] أى : موجعا مفظعا ، وذلك [يوم ترجف الأرض والجبال] من الهول العظيم .

[وكانت الجبال] الراسيات الصم الصلاب [كثيبا مهيلا] .

أى : بمنزلة الرمل المنهال المنتثر ، ثم إنها تبس بعد ذلك ، فتكون كالهباء المنثور .

* يقول تعالى : احمدوا ربكم ، على إرسال هذا النبى الأمى العربى البشير النذير ، الشاهد على الأمة بأعمالهم ، واشكروه ، وقوموا بهذه النعمة الجليلة .

وإياكم أن تكفروا ، فتعصوا رسولكم ، فتكونوا كفرعون ، حين أرسل الله إليه موسى بن عمران ، فدعاه إلى الله ، وأمره بالتوحيد ، فلم يصدقه ، بل عصاه ، فأخذه الله أخذا وبيلا ، أى شديدا بليغا .

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا ﴿١٧﴾ السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾

إِنَّ هَٰذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿١٩﴾

---

* أى : فكيف يحصل لكم الفكاك والنجاة يوم القيامة ، اليوم المهول أمره ، العظيم خطره ، الذى يشيب الولدان ، وتذوب له الجمادات العظام ، فتتفطر السماء وتنتثر نجومها [كان وعده مفعولا] أى : لابد من وقوعه ، ولا حائل دونه .

* أى : إن هذه الموعظة التى نبأ الله بها من أحوال يوم القيامة وأهوالها تذكرة يتذكر بها المتقون ، وينزجر بها المؤمنون.

[فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا] أى : طريقا موصلا إليه ، وذلك باتباع شرعه ، فإنه قد أبانه كل البيان ، وأوضحه غاية الإيضاح .

وفى هذا دليل ، على أن الله تعالى أقدر العباد على أفعالهم ، ومكّنهم منها .

لا كما يقوله الجبرية : إن أفعالهم تقع بغير مشيئتهم ، فإن هذا ، خلاف النقل والعقل .

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ

---

* ذكر الله في أول هذه السورة ، أنه أمر رسوله بقيام نصف الليل ، وثلثيه ، أو ثلثه .

والأصل ، أن أمته أسوة له فى الأحكام .

وذكر فى هذا الموضع ، أنه امتثل ذلك ، هو وطائفة معه من المؤمنين .

ولما كان تحرير الوقت المأمور به ، مشقة على الناس ، أخبر أنه سهل عليهم فى ذلك غاية التسهيل فقال :

[والله يقدر الليل والنهار] أى : يعلم مقاديرها ، وما يمضى ، ويبقى منهما .

[علم أن لن تحصوه] أى : لن تعرفوا مقداره،من غير زيادة ولانقص لكون ذلك ، يستدعى انتباها ، وعناء زائدا .

[فتاب عليكم] أى : نخفف عنكم ، وأمركم بما تيسر عليكم ، سواء زاد على المقدر ، أو نقص .

[فاقرأوا ما تيسر من القرآن] أى : مما تعرفون ، ولا يشق عليكم .

ولهذا كان المصلى بالليل ، مأمورا بالصلاة ، ما دام نشيطا ، فإذا فتر ، أو كسل ، أو نعس ، فليسترح ، ليأتى الصلاة بطمأنينة وراحة .

عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَٱقْرَءُوا۟

ثم ذكر بعض الأسباب المناسبة للتخفيف فقال :

[علم أن سيكون منكم مرضى] يشق عليهم صلاة نصف الليل ، أو ثلثيه ، أو ثلثه ، فليصل المريض ، ما يسهل عليه ، ولا يكون أيضا مأمورا بالصلاة قائما ، عند مشقة ذلك ، بل لو شقت عليه الصلاة النافلة ، فله تركها وله أجر ما كان يعمل صحيحا .

[وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله] أى : وعلم أن منكم مسافرين ، يسافرون للتجارة ، ليستغنوا عن الخلق ، ويتكففوا عنهم .

أى : فالمسافر ، حاله تناسب التخفيف ، ولهذا خفف عنه فى صلاة الفرض ، فأبيح له جمع الصلاتين فى وقت واحد ، وقصر الصلاة الرباعية .

[وآخرون يقاتلون فى سبيل الله فاقرأوا ما تيسر منه] فذكر تعالى تخفيفين ، تخفيفا للصحيح المقيم ، يراعى فيه نشاطه ، من غير أن يكلف عليه تحرير الوقت ، بل يتحرى الصلاة الفاضلة ، وهى ثلث الليل بعد نصفه الأول .

وتخفيفا للمريض والمسافر ، سواء كان سفره للتجارة ، أو لعبادة ، من جهاد ، أو حج ، أو غيره ، فإنه يراعى ما لا يكلفه .

فلله الحمد والثناء ، حيث لم يجعل علينا فى الدين من حرج ، بل سهل شرعه ، وراعى أحوال عباده ، ومصالح دينهم ، وأبدانهم ودنياهم .

ثم أمر العباد بعبادتين ، هما أم العبادات وعمادها .

مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا

إقامة الصلاة ، التى لا يستقيم الدين إلا بها .

وإيتاء الزكاة ، التى هى برهان الإيمان ، وبها تحصل المواساة للفقراء ، والمساكين فقال :

[وأقيموا الصلاة] أى : بأركانها وحدودها ، وشروطها ، وجميع مكملاتها .

[وآتوا الزكاة وأقرضوا الله قرضا حسنا] أى : خالصا لوجه الله ، بنية صادقة ، وتثبيت من النفس ، ومال طيب ، ويدخل فى هذا ، الصدقة الواجبة والمستحبة .

ثم حث على عموم الخير وأفعاله فقال :

[وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيرا وأعظم أجرا].

الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى أضعاف كثيرة .

وليعلم أن مثقال ذرة فى هذه الدار من الخير ، يقابله أضعاف أضعاف الدنيا ، وما عليها فى دار النعيم المقيم ، من اللذات والشهوات .

وإن الخير والبر في هذه الدنيا ، مادة الخير والبر فى دار القرار ، وبذره وأصله وأساسه .

فوا أسفاه على أوقات مضت فى الغفلات .

وواحسرتاه على أزمان تقضت في غير الأعمال الصالحات .

وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

وواغوثاه من قلوب لم يؤثر فيها وعظ بارئها ، ولم ينجع فيها تشويق من هو أرحم بها من نفسها .

فلك اللهم الحمد ، وإليك المشتكى ، وبك المستغاث ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

[واستغفر الله إن الله غفور رحيم] وفى الأمر بالاستغفار ، بعد الحث على أفعال الطاعة والخير ، فائدة كبيرة .

وذلك أن العبد لا يخلو من التقصير فيما أمر به ، إما أن لا يفعله أصلا أو يفعله على وجه ناقص .

فأمر بترقيع ذلك بالاستغفار ، فإن العبد يذنب آناء الليل والنهار .

فمتى لم يتغمده الله برحمته ومغفرته ، فإنه هالك .

تم تفسير سورة المزمل - والحمد لله

تفسير

سورة المدثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾

---

* تقدم أن المزمل والمدثر ، بمعنى واحد ، وأن الله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم ، بالاجتهاد فى عبادات الله القاصرة والمتعدية .

فتقدم هناك ، الأمر له بالعبادات الفاضلة والقاصرة ، والصبر على أذى قومه .

وأمره هنا ، بالإعلان بالدعوة ، والصدع بالإنذار ، فقال :

[قم] أى : بجد ونشاط [فأنذر] الناس ، بالأقوال والأفعال ، التى يحصل بها المقصود ، وبيان حال المنذر عنه ، ليكون ذلك أدعى لتركه .

[وربك فكبر] أى : عظمه بالتوحيد ، واجعل قصدك فى إنذارك وجه الله ، وأن يعظمه العباد ، ويقوموا بعبادته .

[وثيابك فطهر] يحتمل أن المراد بالثياب ، أعماله كلها ، وبتطهيرها تخليصها والنصح بها ، وإيقاعها على أكمل الوجوه ، وتنقيتها عن المبطلات والمفسدات ، والمنقصات من شر ورياء ، ونفاق ، وعجب ، وتكبر ، وغفلة وغير ذلك ، مما يؤمر العبد باجتنابه فى عباداته .

. . . .

ويدخل فى ذلك ، تطهير الثياب من النجاسة ، فإن ذلك من تمام التطهير للأعمال .

خصوصا فى الصلاة ، التى قال كثير من العلماء : إن إزالة النجاسة عنها ، شرط من شروطها « أى : من شروط صحتها » .

ويحتمل أن المراد بثيابه ، الثياب المعروفة ، وأنه مأمور بتطهيرها عن جميع النجاسات ، فى جميع الأوقات ، خصوصا عند الدخول فى الصلوات .

وإذا كان مأمورا بطهارة الظاهر ، فإن طهارة الظاهر ، من تمام طهارة الباطن .

[والرجز فاهجر] يحتمل أن المراد بالرجز : الأصنام ، والأوثان ، التى عبدت مع الله .

فأمره بتركها والبراءة منها ، ومما نسب إليها ، من قول أو عمل .

ويحتمل أن المراد بالرجز : أعمال الشر كلها ، وأقواله ، فيكون أمرا له بترك الذنوب ، صغارها ، وكبارها ، ظاهرها وباطنها ، فيدخل فى هذا ، الشرك فما دونه .

[ولا تمنن تستكثر] أى : لا تمنن على الناس ، بما أسديت إليهم من النعم الدينية والدنيوية ، فتستكثر بتلك المنة ، وترى الفضل عليهم .

بل أحسن إلى الناس ، مهما أمكنك ، وانسَ عندهم إحسانك ، واطلب أجرك من الله تعالى ، واجعل من أحسنت إليه وغيره ، على حد سواء .

وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

وقد قيل : إن معنى هذا،ألا تعطى أحدا شيئا،وأنت تريد أن يكافئك عليه بأكثر منه ، فيكون هذا خاصا بالنبي صلى الله عليه وسلم .

[ولربك فاصبر] أى : احتسب بصبرك ، واقصد به وجه الله تعالى .

فامتثل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأمر ربه ، وبادر فيه ، فأنذر الناس ، وأوضح لهم بالآيات البينات ، جميع المطالب الإلهية .

وعظم الله تعالى ، ودعا الخلق إلى تعظيمه ، وطهر أعماله الظاهرة والباطنة ، من كل سوء .

وهجر كل ما يعبد من دون الله ، وما يعبد معه من الأصنام وأهلها ، والشر وأهله .

وله المنة على الناس ـ بعد منة الله ـ من غير أن يطلب عليهم بذلك جزاء ولا شكورا .

وصبر لربه أكمل صبر : فصبر على طاعة الله ، وعن معاصيه .

وصبر على أقداره المؤلمة ، حتى فاق أولى العزم من المرسلين . صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ﴾

﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا

---

* أى : فإذا نفخ فى الصور للقيام من القبور ، وجمع الخلائق للبعث والنشور .

[فذلك يومئذ يوم عسير] لكثرة أهواله وشدائده .

[على الكافرين غير يسير] لأنهم قد أيسوا من كل خير ، وأيقنوا بالهلاك والبوار .

ومفهوم ذلك ، أنه على المؤمنين يسير ، كما قال تعالى : « يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

* هذه الآيات ، نزلت فى الوليد بن المغيرة ، المعاند للحق ، المبارز لله ولرسوله بالمحاربة والمشاقة .

فذمه الله ذما ، لم يذم به غيره ، وهذا جزاء كل من عاند الحق ،ونابذه، أن له الخزى فى الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى ، فقال :

[ذرنى ومن خلقت وحيدا] أى : خلقته منفردا ، بلا مال ، ولا أهل، ولا غيره ، فلم أزل أربيه وأعطيه .

[وجعلت له مالا ممدودا] أى : كثيرا [و] جعلت له [بنين] أى : ذكورا [شهودا] أى : حاضرين عنده على الدوام ، يتمتع بهم ، ويقضى بهم حوائجه ، ويستنصر بهم .

مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِأَيَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ

[ومهدت له تمهيدا] أى : مكنته من الدنيا وأسبابها ، حتى انقادت له مطالبه ، وحصل له ما يشتهى ويريد .

[ثم] مع هذه النعم والإمدادات [يطمع أن أزيد] أى : يطمع أن ينال نعيم الآخرة ، كما نال نعيم الدنيا .

[كلا] أى : ليس الأمر كما طمع ، بل هو بخلاف مقصوده ومطلوبه.

وذلك [إنه كان لآياتنا عنيدا] عرفها ، ثم أنكرها ، ودعته إلى الحق، فلم ينقد لها .

ولم يكفه أنه أعرض عنها وتولى ، بل جعل يحاربها ، ويسعى فى إبطالها، ولهذا قال عنه :

[إنه فكر] أى : فى نفسه [وقدر] ما فكر فيه ، ليقول قولا ، يبطل به القرآن .

[فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر] لأنه قدر أمراً ، ليس فى طوره ، وتَسَوَّر على ما لا يناله ، هو ولا أمثاله .

[ثم نظر] ما يقول [ثم عبس وبسر] فى وجهه ، وظاهره نفرة عن الحق ، وبغضا له .

أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ عَلَيْهَا

[ثم أدبر] أى : تولى [واستكبر] نتيجة سعيه الفكرى ، والعملى والقولى .

[فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر] أى: ما هذا كلام الله ، بل كلام البشر ، وليس أيضا كلام البشر الأخيار ، بل كلام الأشرار منهم ، والفجار ، من كل كاذب سحار .

فتبًّا له ، ما أبعده من الصواب ، وأحراه بالخسارة والتباب ! !

كيف يدور في الأذهان ، أو يتصوره ضمير أى إنسان ، أن يكون أعلى الكلام وأعظمه ، كلام الرب الكريم ، الماجد العظيم ، يشبه كلام المخلوقين الفقراء الناقصين ؟ !

أم كيف يتجرأ هذا الكاذب العنيد ، على وصفه بهذا الوصف لكلام الله تعالى ؟ !

فما حقه إلا العذاب الشديد ، ولهذا قال تعالى :

[سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لا تبقى ولا تذر] أى : لا تبقى من الشدة ، ولا على المعذب شيئا ، إلا وبلغته .

[لواحة للبشر] أى : تلوحهم وتصليهم فى عذابها ، وتقلقهم بشدة حرها وقرِّها .

تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾ وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ

[عليها تسعة عشر] من الملائكة خزنة لها ، غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون .

[وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة] وذلك لشدتهم وقوتهم .

[وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا] يحتمل أن المراد : إلا لعذابهم وعقابهم فى الآخرة ، ولزيادة نكالهم فيها ، والعذاب ، يسمى فتنة كما قال تعالى : « يوم هم على النار يفتنون » .

ويحتمل أن المراد : أنا ما أخبرناكم بعدتهم ، إلا لنعلم من يصدق ممن يكذب .

ويدل على هذا ، ما ذكره بعده فى قوله : [ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا] .

فإن أهل الكتاب ، إذا وافق ما عندهم وطابقه ، ازداد يقينهم بالحق .

والمؤمنون ، كلما أنزل الله آية ، فآمنوا بها ، وصدقوا ، ازداد إيمانهم .

[ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون] أى : ليزول عنهم الريب والشك .

وهذه مقاصد جليلة ، يعتنى بها أولو الألباب ، وهى : السعى فى اليقين ،

وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِي مَن يَشَآءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ

وزيادة الإيمان فى كل وقت ، وكل مسئلة من مسائل الدين ، ودفع الشكوك والأوهام ، التى تعرض فى مقابلة الحق .

فجعل ما أنزله على رسوله ، محصلا لهذه المقاصد الجليلة ، ومميزا للصادقين من الكاذبين .

ولهذا قال : [وليقول الذين فى قلوبهم مرض] أى : شك وشبهة ونفاق.

[والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا] وهذا على وجه الحيرة والشك منهم ، والكفر بآيات الله ، وهذا وذاك ، من هداية الله لمن يهديه ، وإضلاله لمن يضله ، ولهذا قال :

[كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء] فمن هداه الله ، جعل ما أنزل على رسوله رحمة فِي حقه ، وزيادة فى إيمانه ودينه .

ومن أضله ، جعل ما أنزله على رسوله ، زيادة شقاء عليه وحيرة ، وظلمه فى حقه .

والواجب ، أن يتلقى ما أخبر الله به ورسوله ، بالتسليم .

[وما يعلم جنود ربك] من الملائكة وغيرهم [إلا هو] فإذا كنتم جاهلين بجنوده ، وأخبركم بها العليم الخبير ، فعليكم أن تصدقوا خبره ، من غير شك ولا ارتياب .

لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾

كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾ وَٱلَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَآ أَسْفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾

[وما هي إلا ذكرى للبشر] أي : وما هذه الموعظة والتذكار ، مقصودا به العبث واللعب ، وإنما المقصود به ، أن يتذكر به البشر ما ينفعهم فيفعلونه ، وما يضرهم ، فيتركونه .

* [كلا] هنا ، بمعنى : حقاً ، أو بمعنى « ألا » الاستفتاحية .

فأقسم تعالى بالقمر ، وبالليل وقت إدباره ، والنهار وقت إسفاره ، لاشتمال المذكورات ، على آيات الله العظيمة ، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته ، وسعة سلطانه ، وعموم رحمته وإحاطة علمه .

والمقسم عليه ، قوله [إنها لإحدى الكبر] أي : إن النار لإحدى العظائم الطامة ، والأمور الهامة .

فإذا أعلمناكم بها ، وكنتم على بصيرة من أمرها ، فمن شاء منكم أن يتقدم ، فيعمل بما يقربه إلى الله ، ويدنيه من رضاه ، ويزلفه من دار كرامته .

أو يتأخر عما خلق له ، وعما يحبه الله ويرضاه ، فيعمل بالمعاصي، ويتقرب إلى جهنم ، كما قال تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » الآية .

لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا

[كل نفس بما كسبت] من أفعال الشر وأعمال السوء [رهينة] بها موثقة بسعيها ، قد ألزم عنقها ، وغل فى رقبتها ، واستوجبت به العذاب

[إلا أصحاب اليمين] فإنهم لم يرتهنوا ، بل أطلقوا وفرحوا .

[فى جنات يتساءلون ، عن المجرمين] أى : فى جنات قد حصل لهم فيها جميع مطلوباتهم ، وتمت لهم الراحة والطمأنينة ، حتى أقبلوا يتساءلون .

فأفضت بهم المحادثة ، أن سألوا عن المجرمين : أى حال وصلوا إليها ، وهل وجدوا ما وعدهم الله ؟

فقال بعضهم لبعض « هل أنتم مطلعون عليهم » ، فاطلعوا عليهم فى وسط الجحيم ، يعذبون فقالوا لهم :

[ما سلككم فى سقر] أى : أى شيء أدخلكم فيها ؟ وبأى ذنب استحققتموها ؟

[قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين] فلا إخلاص للمعبود ولا إحسان ، ولا نفع للخلق المحتاجين .

[وكنا نخوض مع الخائضين] أى : نخوض بالباطل ، ونجادل به الحق .

ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾

[وكنا نكذب بيوم الدين] هـذه آثار الخوض بالباطل ، وهو التكذيب بالحق .

ومن أحق الحق ، يوم الدين الذى هو محل الجزاء على الأعمال ، وظهور ملك الله وحكمه العدل لسائر الخلق .

فاستمر عملنا على هذا المذهب الباطل [حتى أتانا اليقين] أى: الموت .

فلما ماتوا على الكفر تعذرت حينئذ عليهم الحيل ، وانسد فى وجوههم باب الأمل .

[فما تنفعهم شفاعة الشافعين] لأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى وهؤلاء لا يرضى الله أعمالهم .

فلما بين الله مآل المخالفين ، وبين ما يفعل بهم ، عطف على الموجودين بالعتاب واللوم فقال :

[فما لهم عن التذكرة معرضين] أى : صادين غافلين عنها .

[كأنهم] فى نفرتهم الشديدة منها [حمر مستنفرة] أى : حمر وحش ، نفرت فنفر بعضها بعضا ، فزاد عدوها .

[فرت من قسورة] أي : من صائد ورام يريدها ، أو من أسد ونحوه .

وهذا من أعظم ما يكون من النفور عن الحق ، ومع هذا النفور والإعراض ، يدعون الدعاوى الكبار .

بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَاءَ ذَكَرَهُ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ

[يريد كل امرىء منهم أن يؤتى صحفا منشرة] نازلة عليه من السماء ، يزعم أنه لا ينقاد للحق إلا بذلك .

وقد كذبوا ، فإنهم لو جاءتهم كل آية لم يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم .

لأنهم جاءتهم الآيات البينات التي تبين الحق وتوضحه ، فلو كان فيهم خير لآمنوا .

ولهذا قال : [كلا] أى : لا نعطيهم ما طلبوا ، وهم ما قصدوا بذلك إلا التعجيز .

[بل لا يخافون الآخرة] فلو كانوا يخافونها ، لما جرى منهم ما جرى .

[كلا إنها تذكرة] الضمير إما أن يعود على هذه السورة ، أو على ما اشتملت عليه من هذه الموعظة .

[فمن شاء ذكره] لأنه قد بين له السبيل ، ووضح له الدليل .

[وما يذكرون إلا أن يشاء الله] فإن مشيئة الله ، نافذة عامة ، لا يخرج عنها حادث قليل ولا كثير .

ففيها رد على القدرية ، الذين لا يدخلون أفعال العباد تحت مشيئة الله ،

وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

والجبرية ، الذى يزعمون أنه ليس للعبد مشيئة ، ولا فعل حقيقة ، وإنما هو مجبور على أفعاله .

فأثبت تعالى للعباد مشيئه حقيقة وفعلا ، وجعل ذلك تابعا لمشيئته .

[هو أهل التقوى وأهل المغفرة] أى : هو أهل أن يتقى ويعبد ، لأنه الإله ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له ، وأهل أن يغفر لمن اتقاه ، واتبع رضاه .

تم تفسير سورة المدثر — ولله الحمد والمنة

تفســـير

سُورَةُ القِيَامَة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

* لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ

---

* ليست « لا » ههنا نافية ولا زائدة ، وإنما أتى بها للاستفتاح والاهتمام بما بعدها .

ولكثرة الإتيان بها مع اليمين ، لا يستغرب الاستفتاح بها ، وإن لم تكن فى الأصل موضوعة للاستفتاح .

فالمقسم به فى هذا الموضع ، هو المقسم عليه ، وهو : البعث بعد الموت ، وقيام الناس من قبورهم ثم وقوفهم ، ينتظرون ما يحكم به الرب عليهم .

[ولا أقسم بالنفس اللوامة] وهى جميع النفوس الخيرة والفاجرة .

سميت « لوامة » لكثرة تلونها وترددها ، وعدم ثبوتها على حالة من أحوالها .

ولأنها عند الموت ، تلوم صاحبها على ما فعلت .

بل نفس المؤمن ، تلوم صاحبها فى الدنيا ، على ما حصل منه ، من تفريط وتقصير ، فى حق من الحقوق ، أو غفلة .

عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَـٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴿٦﴾

فجمع بين الإقسام ، بالجزاء ، وعلى الجزاء ، وبين مستحق الجزاء .

ثم أخبر مع هذا ، أن بعض المعاندين يكذبون بيوم القيامة فقال :

[أيحسب الإنسان أن لن نجمع عظامه] بعدالموت ، كما قال : « قال من يحيي العظام وهى رميم » ؟!! .

فاستبعد من جهله وعدوانه ، قدرة الله على خلق عظامه التى هى عماد البدن ، فرد عليه بقوله :

[بلى قادرين على أن نسوى بنانه] أى : أطراف أصابعه وعظامه .

وذلك مستلزم ، لخلق جميع أجزاء البدن ، لأنها إذا وجدت الأنامل والبنان ، فقد تمت خلقة الجسد .

وليس إنكاره لقدرة الله تعالى ، قصورا بالدليل الدال على ذلك ، وإنما وقع ذلك منه ، لأن إرادته وقصده ، التكذيب بما أمامه من البعث .

والفجور : الكذب مع التعمد . ثم ذكر أحوال القيامة فقال :

[فإذا برق] إلى [معاذيره] .

فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ

---

* أى : [فإذا] كانت القيامة [برق البصر] من الهول العظيم ، وشخص فلا يطرف كما قال تعالى : « إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار * مهطعين مقنعى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء » .

[وخسف القمر] أى : ذهب نوره وسلطانه .

[وجمع الشمس والقمر] وهما لم يجتمعا منذ خلقهما الله تعالى ، فيجمع الله بينهما يوم القيامة .

ويخسف القمر ، وتكور الشمس ، ويقذفان فى النار ، ليرى العباد ، أنهما عبدان مسخران .

وليرى من عبدهما ، أنهم كانوا كاذبين .

[يقول الإنسان يومئذ] أى : حين يرى تلك القلاقل المزعجات :

[أين المفر] أي : أين الخلاص والفكاك ، مما طرقنا ، وألمّ بنا ؟

[كلا لا وزر] أى : لا ملجأ لأحد دون الله .

[إلى ربك يومئذ المستقر] لسائر العباد ، فليس فى إمكان أحد ، أن يستتر ، أو يهرب عن ذلك الموضع ، بل لا بد من إيقافه ، ليجزى بعمله ، ولهذا قال :

يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾ بَلِ ٱلْإِنسَـٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾

لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

[ينبأ الإنسان يومئذ بما قدم وأخر] أى : بجميع عمله الحسن والسيء، فى أول وقته وآخره، وينبأ بخبر لا ينكره.

[بل الإنسان على نفسه بصيرة] أى : شاهد ومحاسب.

[ولو ألقى معاذيره] فإنها معاذير لا تقبل، بل يقرر بعمله، فيُقِرُّ به، كما قال تعالى : « اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا ».

فالعبد، وإن أنكر، أو اعتذر عما عمله، فإنكاره واعتذاره، لا يفيدانه شيئا، لأنه يشهد عليه سمعه وبصره، وجميع جوارحه بما كان يعمل، ولأن استعتابه، قد ذهب وقته، وزال نفعه « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون ».

* كان النبى صلى الله عليه وسلم، إذا جاءه جبريل بالوحى، وشرع فى تلاوته، بادره النبى صلى الله عليه وسلم، من الحرص، قبل أن يفرغ، وتلاه مع تلاوة جبريل إياه.

فنهاه الله عن ذلك وقال : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه ».

وقال هنا : [لا تحرك به لسانك لتعجل به] ثم ضمن له تعالى، أنه لا بد أن يحفظه ويقرأه، ويجمعه الله فى صدره فقال :

جَمْعَهُ وَقُرْءَانَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَـٰهُ فَٱتَّبِـعْ قُرْءَانَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴿١٩﴾

[إن علينا جمعه وقرآنه] فالحرص الذى فى خاطرك ، إنما الداعى له حذر الفوات والنسيان ، فإذا ضمنه الله لك ، فلا موجب لذلك .

[فإذا قرأناه فاتبع قرآنه] أى : إذا أكمل جبريل ما يوحى إليك ، فحينئذ ، اتبع ما قرأه فاقرأه .

[ثم إن علينا بيانه] أى : بيان معانيه ، فوعده بحفظ لفظه ، وحفظ معانيه ، وهذا أعلى ما يكون ، فامتثل صلى الله عليه وسلم لأدب ربه .

فكان إذا تلا عليه جبريل القرآن بعد هذا ، أنصت له ، فإذا فرغ قرأه .

وفى هذه الآية ، أدب لأخذ العلم ، أن لا يبادر المتعلم للعلم ، قبل أن يفرغ المعلم من المسئلة ، التى شرع فيها ، فإذا فرغ منها ، سأله عما أشكل عليه .

وكذلك إذا كان فى أول الكلام ، ما يوجب الرد أو الاستحسان ، أن لا يبادر برده أو قبوله ، قبل الفراغ من ذلك الكلام ، ليتبين ما فيه من حق أو باطل ، وليفهمه فهما ، يتمكن فيه من الكلام فيه ، على وجه الصواب .

وفيها : أن النبى صلى الله عليه وسلم ، كما بين للأمة ألفاظ الوحى ، فإنه قد بين لهم معانيه .

﴿ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

---

* أى : هذا الذى أوجب لكم الغفلة والإعراض عن وعظ الله وتذكيره أنكم [تحبون العاجلة] وتسعون فيما يحصلها ، وفى لذاتها ، وشهواتها ، وتؤثرونها على الآخرة . فتذرون العمل لها .

لأن الدنيا نعيمها ولذاتها عاجلة ، والإنسان مولع بحب العاجل .

والآخرة متأخر مافيها ، من النعيم المقيم ، فلذلك غفلتم عنها ، وتركتموها ، كأنكم لم تخلقوا لها ، وكأن هذه الدار ، هى دار القرار ، التى تبذل فيها نفائس الأعمار ، ويسعى لها آناء الليل والنهار ، وبهذا انقلبت عليكم الحقيقة ، وحصل من الخسار ما حصل .

فلو آثرتم الآخرة على الدنيا ، ونظرتم العواقب نظر البصير العاقل ، لأنجحتم ، وربحتم ربحا لا خسار معه ، وفزتم فوزا ، لا شقاء يصحبه .

ثم ذكر ما يدعو إلى إيثار الآخرة ، ببيان حال أهلها وتفاوتهم فيها فقال فى جزاء المؤثرين للآخرة على الدنيا :

[وجوه يومئذ ناضرة] أى : حسنة بهية ، لها رونق ونور ، مما هم فيه من نعيم القلوب ، وبهجة النفوس ، ولذة الأرواح .

[إلى ربها ناظرة] أى : ينظرون إلى ربهم ، على حسب مراتبهم .

ومنهم من ينظره كل يوم بكرة وعشيا ، ومنهم من ينظر كل جمعة مرة واحدة .

بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾

فيتمتعون بالنظر إلى وجهه الكريم ، وجماله الباهر ، الذى ليس كمثله شيء .

فإذا رأوه نسوا ما هم فيه من النعيم ، وحصل لهم من اللذة والسرور ، ما لا يمكن التعبير عنه ، ونضرت وجوههم ، فازدادوا جمالا إلى جمالهم .

فنسأل الله الكريم أن يجعلنا معهم .

وقال فى المؤثرين العاجلة على الآجلة [وجوه يومئذ باسرة] أى: معبسة كدرة ، خاشعة ذليلة [تظن أن يفعل بها فاقرة] أى : عقوبة شديدة ، وعذاب أليم ، فلذلك تغيرت وجوههم ، وعبست .

* يعظ تعالى عباده ، بذكر المحتضر حال السياق ، وأنه إذا بلغت روحه التراقى ، وهى العظام المكتنفة لثغرة النحر .

فحينئذ يشتد الكرب ، ويطلب كل وسيلة وسبب ، يظن أن يحصل به الشفاء والراحة .

ولهذا قال : [وقيل من راق] أي : من يرقيه ، من الرقية ، لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية ، فتعلقوا بالأسباب الإلهية .

ولكن القضاء والقدر ، إذا حتم وجاء ، فلا مرد له .

وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾

[وظن أنه الفراق(١)] الدنيا [والتفت الساق بالساق] أى : اجتمعت الشدائد ، والتفت ، وعظم الأمر وصعب الكرب ، وأريد أن تخرج الروح من البدن ، الذى ألفته ، ولم تزل معه ، فتساق إلى الله تعالى ، ليجازيها بأعمالها ، ويقررها بفعالها .

فهذا الزجر الذى ذكره الله ، يسوق القلوب إلى ما فيه نجاتها ، ويزجرها عما فيه هلاكها .

ولكن المعاند الذى لا تنفع فيه الآيات ، لا يزال مستمراً على غيه ، وكفره ، وعناده .

[فلا صدق] أى : لا آمن بالله وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره وشره .

[ولا صلى * ولكن كذب] بالحق فى مقابلة التصديق [وتولى] عن الأمر والنهى ، هذا وهو مطمئن قلبه ، غير خائف من ربه .

[ثم ذهب إلى أهله يتمطى] أى : ليس على باله شىء .

ثم توعده بقوله : [أولى لك فأولى * ثم أولى لك فأولى] وهذه كلمات

---

(١) أى : أيقن أن ما نزل به هو الفراق من الدنيا ونعيمها . اهـ . أبو السعود .

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧيَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

وعيد ، كررها ، لتكرير وعيده .

ثم ذكر الإنسان بخلقه الأول فقال : [أيحسب الإنسان أن يترك سدى] أى : مهملا ، لا يؤمر ولا ينهى ، ولا يثاب ولا يعاقب ؟

هذا حسبان باطل ، وظن بالله ، غير ما يليق بحكمته .

[ألم يك نطفة من مني يمنى ثم كان] بعد المنى [علقة] أى : دما [فخلق] الله منها الحيوان [وسوى] أى : أتقنه وأحكمه .

[فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى * أليس ذلك] أى : الذى خلق الإنسان وطوره إلى هذه الأطوار المختلفة [بقادر على أن يحيي الموتى] بلى ، إنه على كل شىء قدير .

تم تفسير سورة القيامة

تفسـير

سورة الإنسان

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ

---

* ذكر الله فى هذه السورة ، أول حال الإنسان ومنتهاها ، ومتوسطها .

فذكر أنه مر عليه [حين من الدهر] طويل ، وهو الذى قبل وجوده ، وهو معدوم [لم يكن شيئا مذكورا] .

ثم لما أراد خلقه خلق أباه آدم من طين ، ثم جعل نسله متسلسلا [من نطفة أمشاج] أى : ماء مهين مستقذر [نبتليه] بذلك ، لنعلم هل يرى حاله الأولى ، ويتفطن لها أم ينساها وتغره نفسه ؟

فأنشأه الله ، وخلق له القوى الظاهرة والباطنة ، كالسمع والبصر ، وسائر الأعضاء .

فأتمها له وجعلها سالمة ، يتمكن بها من تحصيل مقاصده .

ثم أرسل إليه الرسل ، وأنزل عليه الكتب ، وهداه الطريق الموصلة إليه ، وبيّنها ، ورغّبه فيها ، وأخبره بما له عند الوصول إليه .

فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ

ثم أخبره بالطريق الموصلة إلى الهلاك ، ورهّبه عنها ، وأخبره بما له ، إذا سلكها ، وابتلاه بذلك .

فانقسم الناس إلى شاكر لنعمة الله عليه ، قائم بما حمله الله من حقوقه .

وإلى كفور للنعم ، أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية ، فردّها ، وكفر بربه ، وسلك الطريق الموصلة إلى الهلاك .

* أى : إنا هيأنا ، وأرصدنا لمن كفر بالله ، وكذب رسله ، وتجرأ على معاصيه .

[سلاسل] فى نار جهنم كما قال تعالى : « ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه » .

[وأغلالا] تغل بها أيديهم إلى أعناقهم ، ويوثقون بها .

[وسعيرا] أى : نارا تستعر بها أجسامهم ، وتحرق بها أبدانهم ، « كلما نضجت جلودهم ، بدلناهم جلودا غيرها ، ليذوقوا العذاب » .

وهذا العذاب الدائم ، مؤبد لهم ، مخلدون فيه سرمدا .

وأما [الأبرار] وهم : الذين برت قلوبهم ، بما فيها من معرفة الله ومحبته ، والأخلاق الجميلة ، فبرت أعمالهم ، واستعملوها بأعمال البر .

بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾ يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا

فأخبر أنهم [يشربون من كأس] أى : شراب لذيذ ، من خمر قد مزج بكافور ، أى : خلط به ، ليبرده ، ويكسر حدته .

وهذا الكافور ، فى غاية اللذة ، قد سلم من كل مكدر ومنغص ، موجود فى كافور الدنيا .

فإن الآفة الموجودة فى الدنيا ، تعدم من الأسماء ، التى ذكرها الله فى الجنة .

كما قال تعالى : « فى سدر مخضود * وطلح منضود * وأزواج مطهرة * لهم دار السلام عند ربهم * وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين » .

[عينا يشرب بها عباد الله] أى : ذلك الكأس اللذيذ ، الذى يشربونه ، لا يخافون نفاذه ، بل له مادة لا تنقطع ، وهى عين دائمة الفيضان والجريان ، يفجرها عباد الله تفجيراً ، أنى شاءوا ، وكيف أرادوا .

فإن شاءوا صرفوها إلى البساتين الزاهرات ، أو إلى الرياض النضرات ، أو بين جوانب القصور ، والمساكن المزخرفات ، أو إلى أى جهة يرونها من الجهات المونقات .

ثم ذكر جملة من أعمالهم فقال : [يوفون بالنذر] أى : بما ألزموا به أنفسهم من النذور والمعاهدات .

وإذا كانوا يوفون بالنذر ، الذى هو غير واجب فى الأصل عليهم ، إلا بإيجابهم على أنفسهم ، كان فعلهم وقيامهم بالفروض الأصلية ، من باب أولى وأحرى .

كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمِ وَلَقَّىٰهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَىٰهُم

[ويخافون يوما كان شره مستطيرا] أى : قاسيا منتشرا .

نخافوا أن ينالهم شره ، فتركوا كل سبب موجب لذلك .

[ويطعمون الطعام على حبه] أى : وهم فى حال يحبون فيها المال والطعام .

ولكنهم قدموا محبة الله على محبة نفوسهم .

ويتحرون فى إطعامهم ، أولى الناس وأحوجهم [مسكينا ويتيما وأسيرا]

ويقصدون بإنفاقهم وإطعامهم ، وجه الله تعالى ، ويقولون بلسان الحال: [إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا] أى : لا جزاء ماليا ، ولا ثناء قوليا .

[إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا] أى : شديد الجهمة والشر [قمطريرا] أى : ضنكا ضيقا .

[فوقاهم الله شر ذلك اليوم] فلا يحزنهم الفزع الأكبر ، وتتلقاهم الملائكة ، هذا يومكم الذى كنتم توعدون .

[ولقاهم] أى : أكرمهم وأعطاهم [نضرة فى وجوههم وسرورا] فى قلوبهم ، فجمع لهم بين نعيم الظاهر والباطن .

بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَـٰلُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِـَٔانِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ

[وجزاهم بما صبروا] على طاعته ، فعملوا ما أمكنهم منها ، وعن معاصيه فتركوها ، وعلى أقداره المؤلمة ، فلم يتسخطوها .

[جنة] جامعة لكل نعيم ، سالمة من كل مكدر ومنغص .

[وحريرا] كما قال تعالى : « ولباسهم فيها حرير » .

ولعل الله إنما خص الحرير ، لأنه لباسهم الظاهر ، الدال على حال صاحبه .

[متكئين فيها على الأرائك] الاتكاء : التمكن من الجلوس ، في حال الطمأنينة ، والراحة ، والرفاهية .

والأرائك ، هي : السرر التي عليها اللباس المزين .

[لا يرون فيها] أي : في الجنة [شمسا] يضرهم حرها .

[ولا زمهريراً] أي : بردا شديداً ، بل جميع أوقاتهم ، في ظل ظليل ، لا حر ولا برد ، بحيث تلتذ به الأجساد ، ولا تتألم من حر ولا برد .

[ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلا] أي : قربت ثمراتها من مريدها ، تقريبا ينالها ، وهو قائم ، أو قاعد ، أو مضطجع .

[ويطاف عليهم] أي : يدور الولدان والخدم على أهل الجنة [بآنية

قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَاْ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقۡدِيرٗا ﴿١٦﴾ وَيُسۡقَوۡنَ فِيهَا كَأۡسٗا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيۡنٗا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلۡسَبِيلٗا ﴿١٨﴾ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ وِلۡدَٰنٞ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيۡتَهُمۡ حَسِبۡتَهُمۡ لُؤۡلُؤٗا

من فضة وأكواب كانت قوارير * وقوارير من فضة] أى : مادتها فضة ، وهى على صفاء القوارير .

وهذا من أعجب الأشياء ، أن تكون الفضة الكثيفة ، من صفاء جوهرها ، وطيب معدنها ، على صفاء القوارير .

[قدروها تقديرا] أى : قدروا الأوانى المذكورة على قدر ريِّهِمْ ، لا تزيد ولا تنقص .

لأنها لو زادت ، نقصت لذتها ، ولو نقصت ، لم تكفهم لريهم .

ويحتمل أن المراد : قدرها أهل الجنة بمقدار ، يوافق لذاتهم ، فأتتهم على ما قدروا فى خواطرم .

[ويسقون فيها] أى : الجنة [كأسا] وهو الإناء من خمر ورحيق .

[كان مزاجها] أى : خلطها [زنجبيلا] ليطيب طعمه وريحه .

[عينا فيها تسمى سلسبيلا] سميت بذلك ، لسلاستها ، ولذتها ، وحسنها .

[ويطوف عليهم] أى : على أهل الجنة ، فى طعامهم ، وشرابهم ، وخدمتهم .

[ولدان مخلدون] أى : خلقوا من الجنة للبقاء ، لا يتغيرون ، ولا يكبرون ، وهم فى غاية الحسن .

مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

[إذا رأيتهم] منتشرين فى خدمتهم [حسبتهم] من حسنهم [لؤلؤا منثورا] .

وهذا من تمام لذة أهل الجنة ، أن يكون خدامهم الولدان المخلدون ، الذين تسر رؤيتهم ، ويدخلون فى مساكنهم ، آمنين من تبعتهم ،ويأتونهم بما يدعون ، وتطلبه نفوسهم .

[وإذا رأيت ثم] أى : رمقت ما أهل الجنة عليه من النعيم الكامل .

[رأيت نعيما وملكا كبيرا] فتجد الواحد منهم ، عنده من المساكن والغرف المزينة المزخرفة ، ما لا يدركه الوصف .

ولديه من البساتين الزاهرة ، والثمار الدانية ، والفواكه اللذيذة ، والأنهار الجارية ، والرياض المعجبة ، والطيور المطربة المشجية ، ما يأخذ بالقلوب ، ويفرح النفوس .

وعنده من الزوجات . اللاتى فى غاية الحسن والإحسان ، الجامعات لجمال الظاهر والباطن ، الخيرات الحسان ، ما يملأ القلب سرورا ولذة وحبورا .

وحوله من الولدان المخلدين ، والخدم المؤبدين ، ما به تحصل الراحة والطمأنينة ، وتتم لذة العيش ، وتكمل الغبطة .

ثم علاوة ذلك ومعظمه ، الفوز برضا الرب الرحيم ، وسماع خطابه ، ولذة قربه ، والابتهاج برضاه ، والخلود الدائم ، وتزايد ما هم فيه ، من النعيم ، كل وقت وحين .

عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓاْ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾

فسبحان مالك الملك ، الحق المبين ، الذى لا تنفد خزائنه ، ولا يقل خيره .

فكما لا نهاية لأوصافه ، فلا نهاية لبره وإحسانه .

[عاليهم ثياب سندس خضر] أى : قد جللتهم ثياب السندس والاستبرق الأخضران اللذان هما ، أجل أنواع الحرير .

فالسندس : ما غلظ من الحرير ، والاستبرق : ما رق منه .

[وحلوا أساور من فضة] أى : حلوا فى أيديهم ، أساور ، ذكورهم وإناثهم .

وهذا وعد ، وعدهم الله ، وكان وعده مفعولا ، لأنه لا أصدق منه قيلا ولا حديثا .

وقوله : [وسقاهم ربهم شرابا طهورا] أى : لا كدر فيه بوجه من الوجوه ، مطهرا لما فى بطونهم من كل أذى وقذى .

[إن هذا] الجزاء الجزيل [كان لكم جزاء] على ما أسلفتموه ، من الأعمال .

[وكان سعيكم مشكورا] أى : القليل منه ، يجعل الله لكم به ، من النعيم ، ما لا يمكن حصره .

فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُ

وقوله تعالى لما ذكر نعيم الجنة [إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا] وفيه الوعد والوعيد ، وبيان كل ما يحتاجه العباد .

وفيه الأمر بالقيام ، بأوامره وشرائعه ، أتم القيام ، والسعى فى تنفيذها ، والصبر على ذلك .

ولهذا قال : [فاصبر لحكم ربك ولا تطع منهم آثما أو كفورا] أى : اصبر لحكمه القدرى ، فلا تسخطه ، ولحكمه الدينى ، فامض عليه ، ولا يعوقنك عنه عائق .

[ولا تطع] من المعاندين ، الذين يريدون أن يصدوك [آثما] أى فاعلا إثما ومعصية [ولا كفورا] فإن طاعة الكفار ، والفجار ، والفساق ، لا بد أن تكون معصية لله ، فإنهم لا يأمرون إلا بما تهواه أنفسهم .

ولما كان الصبر يستمد من القيام بطاعة الله ، والإكثار من ذكره ، أمر الله بذلك فقال : [واذكر اسم ربك بكرة وأصيلا] أى : أول النهار وآخره .

فدخل فى ذلك ، الصلوات المكتوبات ، وما يتبعها ، من النوافل ، والذكر ، والتسبيح ، والتهليل ، والتكبير فى هذه الأوقات .

[ومن الليل فاسجد له] أى : أكثر له من السجود ، وذلك متضمن لكثرة الصلاة .

وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ وَإِذَا

[وسبحه ليلا طويلا] وقد تقدم تقييد هذا المطلق بقوله : « يا أيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه » .

وقوله : [إن هؤلاء] أى : المكذبين لك أيها الرسول ، بعد ما بينت لهم الآيات ، ورغبوا ورهبوا ، ومع ذلك ، لم يفد فيهم ذلك شيئا بل لا يزالون [يحبون العجلة] ويطمئنون إليها .

[ويذرون] أى : يتركون العمل ، ويهملون [وراءهم] أى : أمامهم [يوما ثقيلا] وهو يوم القيامة ، الذى مقداره ، خمسون ألف سنة مما تعدون .

وقال تعالى : « يقول الكافرون هذا يوم عسر » .

فكأنهم ما خلقوا إلا للدنيا ، والإقامة فيها .

ثم استدل عليهم وعلى بعثهم ، بدليل عقلى ، وهو دليل الابتداء فقال:

[نحن خلقناهم] أى : أوجدناهم من العدم [وشددنا أسرهم] .

أى : أحكمنا خلقتهم ، بالأعصاب ، والعروق ، والأوتار ، والقوى الظاهرة والباطنة ، حتى تم الجسم ، واستكمل ، وتمكن من كل ما يريده .

فالذى أوجدهم على هذه الحالة ، قادر على أن يعيدهم بعد موتهم ، لجزائهم .

والذى نقلهم فى هذه الدار إلى هذه الأطوار ، لا يليق به أن يتركهم

شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَـٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَـٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ وَٱلظَّـٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾

سدى ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون ، ولهذا قال :

[وإذا شئنا بدلنا أمثالهم تبديلا] أى : أنشأناهم للبعث نشأة أخرى ، وأعدناهم بأعيانهم ، وهم بأنفسهم ، أمثالهم .

[إن هذه تذكرة] أى : يتذكر بها المؤمن ، فينتفع بما فيها ، من التخويف والترغيب .

[فمن شاء اتّخذ إلى ربه سبيلا] أى : طريقا موصلا إليه .

فالله ، يبين الحق والهدى ، ثم يخير الناس بين الاهتداء بها ، والنفور عنها ، إقامة للحجة « ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حى عن بينة » .

[وما تشاءون إلا أن يشاء الله] فإن مشيئة الله نافذة .

[إن الله كان عليما حكيما] فله الحكمة فى هداية المهتدى ، وإضلال الضال .

[يدخل من يشاء فى رحمته] فيختصه بعنايته ، ويوفقه لأسباب السعادة ويهديه لطرقها .

[والظالمين] الذين اختاروا الشقاء على الهدى [أعد لهم عذابا أليما] بظلمهم وعدوانهم .

تم تفسير سورة الإنسان — ولله الحمد

تفســـــير

سورة المرسلات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى على البعث والجزاء على الأعمال ، بالمرسلات عرفا . وهى : الملائكة التى يرسلها الله تعالى ، بشئونه القدرية وتدبير العالم ، وبشئونه الشرعية ، ووحيه إلى رسله .

و [عرفا] حال من المرسلات ، أى : أرسلت بالعرف ، والحكمة ، والمصلحة ، لا بالنكر والعبث .

[فالعاصفات عصفا] وهى : أيضا الملائكة ، التى يرسلها الله تعالى ، وصفها بالمبادرة لأمره ، وسرعة تنفيذ أوامره ، كالريح العاصف .

أو : أن العاصفات ، الرياح الشديدة ، التى يسرع هبوبها .

[فالناشرات نشرا] يحتمل أن المراد بها : الملائكة ، تنشر ما دبرت على نشره .

أو أنها : السحاب ، التى ينشر بها الله الأرض ، فيحييها بعد موتها .

[فالملقيات ذكرا] هى : الملائكة ، تلقى أشرف الأوامر .

عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ

وهو : الذكر الذى يرحم الله به عباده ، ويذكرهم فيه منافعهم ومصالحهم ، تلقيه إلى الرسل .

[عذرا أو نذرا] أى : إعذارا ، أو إنذارا للناس .

تنذر الناس ما أمامهم من المخاوف ، وتقطع أعذارهم ، فلا يكون لهم حجة على الله .

[إنما توعدون] من البعث والجزاء على الأعمال [لواقع] أى: متحتم وقوعه ، من غير شك ولا ارتياب .

فإذا وقع حصل من التغير والأهوال الشديدة للعالم ، ما يزعج القلوب وتشتد له الكروب ، فتنطمس النجوم ، أى : تتناثر وتزول عن أماكنها وتنسف الجبال ، فتكون كالهباء المنثور ، وتكون هى والأرض ، قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا .

وذلك اليوم ، هو اليوم الذى أقتت فيه الرسل ، وأجلت للحكم بينها وبين أممها .

ولهذا قال : [لأى يوم أجلت] استفهام للتعظيم والتفخيم ،والتهويل.

ثم أجاب بقوله : [ليوم الفصل] أى : بين الخلائق ، بعضهم من بعض ، وحساب كل منهم منفردا .

ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾

أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْأَخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾

أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ

ثم توعد المكذب بهذا اليوم فقال : [ويل يومئذ للمكذبين] .

أى : يا حسرتهم وشدة عذابهم ، وسوء منقلبهم .

أخبرهم الله ، وأقسم لهم ، فلم يصدقوه ، فلذلك استحقوا العقوبة البليغة .

* أى : أما أهلكنا المكذبين السابقين ، ثم نتبعهم بإهلاك من كذب من الآخرين .

وهذه سنته السابقة واللاحقة،فى كل مجرم لابد من عقابه،فلم لاتعتبرون بما ترون وتسمعون ؟

[ويل يومئذ للمكذبين] بعد ما شاهدوا من الآيات البينات ، والعقوبات والمثلات .

* أى : أما خلقناكم ، أيها الآدميون [من ماء مهين] أى : فى غاية الحقارة ، خرج من بين الصلب والترائب ، حتى جعله الله [فى قرار مكين] وهو الرحم ، به يستقر وينمو .

مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾

أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ

[إلى قدر معلوم] ووقت مقدر .

[فقدرنا] أى : قدرنا ودبرنا ذلك الجنين ،فى تلك الظلمات ، ونقلناه من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى أن جعله الله جدا ، ونفخ فيه الروح ومنهم من يموت قبل ذلك .

[فنعم القادرون] يعنى بذلك ، نفسه المقدسة ، لأن قدره ، تابع لحكمته موافق للحمد ، [ويل يومئذ للمكذبين] .

* أى : أما مَنَنَّا عليكم ، وأنعمنا ، بتسخير الأرض لمصالحكم .

فجعلناها [كفاتا[1]] لكم [أحياء] فى الدور [وأمواتا] فى القبور .

فكما أن الدور والقصور من نعم الله على عباده ومنته ، فكذلك القبور، رحمة فى حقهم ، وستر لهم ، عن كون أجسادهم بادية للسباع وغيرها .

[وجعلنا فيها رواسى] أى : جبالا ، ترسى الأرض ، لئلا تميد بأهلها فثبتها الله بالجبال الراسيات الشامخات ، أى : الطوال العراض .

[وأسقيناكم ماء فراتا] أى : عذبا زلالا ، قال تعالى : « أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء

---

(١) كفاتا ، أى : وعاء تضم الأحياء والأموات . والمعنى : أن الأرض تجمع الناس جميعهم . ظهرها لأحيائهم ، وبطنها لأمواتهم .

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ انطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾

جعلناه أجاجا فلولا تشكرون » .

[ويل يومئذ للمكذبين] مع ما أراهم الله من النعم ، التى انفرد بها ، واختصهم بها ، فقابلوها بالتكذيب .

هذا من الويل ، الذى أعد للمجرمين المكذبين ، أن يقال لهم يوم القيامة :

[انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون] ثم فسر ذلك بقوله :

[انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب] أى : إلى ظل نار جهنم ، التى تمايز فى خلاله ، ثلاث شعب ، أى : قطع من النار ، تتعاوره ، وتتناوبه ، وتجتمع به .

[لا ظليل] ذلك الظل ، أى : لا راحة فيه ، ولا طمأنينة .

[ولا يغنى] من مكث فيه [من اللهب] بل اللهب قد أحاط به ، يمنة ويسرة ، ومن كل جانب ، كما قال تعالى : « لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل » .

إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾

هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ الْفَصْلِ

« لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين » .

ثم ذكر عظيم شرر النار ، الدال على عظمها وفظاعتها ، وسوء منظرها فقال :

[إنها ترمى بشرر كالقصر * كأنه جمالة صفر] وهى : السود التى تضرب إلى لون ، فيه صفرة ، وهذا يدل على أن النار مظلمة ، لهبها وجمرها وشررها وأنها سوداء ، كريهة المنظر ، شديدة الحرارة .

نسأل الله العافية منها ، ومن الأعمال المقربة منها .

[ويل يومئذ للمكذبين] .

* أى : هذا اليوم العظيم الشديد على المكذبين ، لا ينطقون فيه من الخوف والوجل الشديد .

[ولا يؤذن لهم فيعتذرون] أى : لا تقبل معذرتهم ، ولو اعتذروا « فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولا هم يستعتبون »

[هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين] لنفصل بينكم ، ونحكم بين الخلائق .

جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾

إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ هَنِيٓـًٔا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا

[فإن كان لكم كيد تقدرون على الخروج به عن ملكى ، وتنجون من عذابى [فكيدون] أى : ليس لكم قدرة ، ولا سلطان ، كما قال تعالى « يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان » .

فنى ذلك اليوم ، تبطل حيل الظالمين ، ويضمحل مكرهم وكيدهم ، ويستسلمون لعذاب الله ، ويبين لهم كذبهم فى تكذيبهم [ويل يومئذ للمكذبين] .

* لما ذكر عقوبة المكذبين ، ذكر مثوبة المحسنين فقال :

[إن المتقين] أى : للتكذيب ، المتصفين بالتصديق ، فى أقوالهم وأفعالهم ، وأعمالهم .

ولا يكونون كذلك ، إلا بأدائهم الواجبات ، وتركهم المحرمات .

[فى ظلال] من كثرة الأشجار المتنوعة ، الزاهرة البهية .

[وعيون] جارية من السلسبيل ، والرحيق وغيرها .

[وفواكه مما يشتهون] أى : من خيار الفواكه وأطيبها .

كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا۟ وَتَمَتَّعُوا۟ قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ

ويقال لهم : [كلوا واشربوا] من المآ كل الشهية ، والأشربة اللذيذة [هنيئا] أى : من غير منغص ولا مكدر .

ولا يتم هناؤه ، حتى يسلم الطعام والشراب ، من كل آفة ونقص ، وحتى يجزموا أنه غير منقطع ، ولا زائل .

[بما كنتم تعملون] فأعمالكم ، هى السبب الموصل لكم إلى جنات النعيم المقيم .

وهكذا كل من أحسن فى عبادة الله ، وأحسن إلى عباد الله ، ولهذا قال :

[إنا كذلك نجزى المحسنين * ويل يومئذ للمكذبين] ولو لم يكن من هذا الويل ، إلا فوات هذا النعيم ، لكفى به حزنا وحرمانا .

* هذا تهديد ووعيد للمكذبين ، أنهم ، وإن أكلوا فى الدنيا، وشربوا وتمتعوا باللذات ، وغفلوا عن القربات ، فإنهم مجرمون ، يستحقون مايستحقه المجرمون ، فتنقطع عنهم اللذات ، وتبقى عليهم التبعات .

ومن إجرامهم ، أنهم إذا أمروا بالصلاة ، التى هى أشرف العبادات وقيل لهم « اركعوا » امتنعوا من ذلك .

فأى إجرام فوق هذا ؟ وأى تكذيب يزيد على هذا ؟ ! !

يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾

[ويل يومئذ للمكذبين] ومن الويل عليهم ، أنهم تنسدعنهم أبواب التوفيق ، ويحرمون كل خير .

فإنهم إذا كذبوا هذا القرآن ، الذى هو أعلى مراتب الصدق واليقين على الإطلاق .

[فبأى حديث بعده يؤمنون] أبالباطل ، الذى هو كاسمه ، لا يقوم عليه شبهة فضلا عن الدليل ؟ أم بكلام مشرك كذاب ، أفاك مبين ؟ .

فليس بعد النور المبين ، إلا دياجى الظلمات ، ولا بعد الصدق ، الذى قامت عليه الأدلة والبراهين القاطعة ، إلا الإفك الصراح ، والكذب المبين الذى لا يليق إلا بمن يناسبه .

فتبًا لهم ، ما أعماهم ! ، وويحاً لهم ما أخسرهم وأشقاهم ! .

نسأل الله العفو والعافية ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة المرسلات ـ ولله الحمد

تفســـير

سُورَةُ النَّبَأ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾

---

* أى : عن أى شىء يتساءل المكذبون بآيات الله ؟ ثم بيّن ما يتساءلون عنه فقال: [عن النبأ العظيم * الذى هم فيه يختلفون] .

أى : عن الخبر العظيم ، الذى طال فيه نزاعهم وانتشر فيه خلافهم على وجه التكذيب والاستبعاد ، وهو : النبأ ، الذى لا يقبل الشك ، ولا يدخله الريب .

ولكن المكذبين بلقاء ربهم ، لا يؤمنون ، ولو جاءتهم كل آية ، حتى يروا العذاب الأليم .

ولهذا قال : [كلا سيعلمون * ثم كلا سيعلمون] أى : سيعلمون إذا نزل بهم العذاب ، ما كانوا به يكذبون ، حين يُدَعُّون إلى نار جهنم دَعًّا .

ويقال لهم : « هذه النار التى كنتم بها تكذبون » .

ثم ذكر تعالى النعم والأدلة الدالة على ما جاءت به الرسل ، فقال : [ألم نجعل الأرض] إلى [ألفافاً] .

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ

---

* أى : أما أنعمنا عليكم ، بنعم جليلة ، فجعلنا لكم [الأرض مهادا].

أى : ممهدة مذللة لكم ولمصالحكم ، من الحروث ، والمساكن ، والسبل .

[والجبال أوتادا] تمسك الأرض ، لئلا تضطرب بكم ، وتميد .

[وخلقناكم أزواجا] أى : ذكورا وإناثا ، من جنس واحد، ليسكن كل منهما إلى الآخر ، فتكون المودة والرحمة ، وتنشأ عنهما الذرية ، وفى ضمن هذا الامتنان ، بلذة المنكح .

[وجعلنا نومكم سباتا] أى : راحة لكم ، وقطعا لأشغالكم ، التى متى تمادت بكم ، أضرت بأبدانكم .

فجعل الله ، الليل والنوم ، يغشى الناس ، لتسكن حركاتهم الضارة ، وتحصل راحتهم النافعة .

[وبنينا فوقكم سبعا شدادا] أى : سبع سموات ، فى غاية القوة ، والصلابة والشدة .

وقد أمسكها الله بقدرته ، وجعلها سقفا للأرض ، فيها عدة منافع لهم ، ولهذا ذكر من منافعها ، الشمس فقال :

مَآءً ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ ۞ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ

[وجعلنا سراجا وهاجا] نبه بالسراج ، على النعمة بنورها ، الذى صار ضرورة للخلق .

وبالوهاج ، وهى : حرارتها ، على ما فيها من الإنضاج والمنافع .

[وأنزلنا من المعصرات] أى : السحاب [ماء ثجاجا] .

أى : كثيرا جدا .

[لنخرج به حبا] من بُرٍّ وشعير ، وذرة ، وأرز ، غير ذلك ، مما يأكله الآدميون .

[ونباتا] يشمل سائر النباب ، الذى جعله الله قوتا لمواشيهم .

[وجنات ألفافا] أى : بساتين ملتفة ، فيها من جميع أصناف الفواكه اللذيذة .

فالذى أنعم بهذه النعم الجليلة ، التى لا يقدر قدرها ، ولا يحصى عددها كيف تكفرون به ، وتكذبون ما أخبركم به ، من البعث والنشور ؟ !

أم كيف تستعينون بنعمه على معاصيه ، وتجحدونها ؟ !!

* ذكر تعالى ، ما يكون فى يوم القيامة الذى يتساءل عنه المكذبون ، ويجحده المعاندون ، أنه يوم عظيم ، وأن الله جعله [ميقاتا] للخلق [ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا] ويجرى فيه من الزعازع والقلاقل ، ما يشيب له المولود ، وتنزعج له القلوب .

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ

فتسير الجبال ، حتى تكون كالهباء المبثوث ، وتنشق السماء ، حتى تكون أبوابا .

ويفصل الله بين الخلائق ، بحكمه الذى لا يجور .

وتوقد نار جهنم ، التى أرصدها الله ، وأعدها للطاغين ، وجعلها مثوى لهم ومآبا .

وأنهم يلبثون فيها أحقابا كثيرة ، و « الحقب » على ما قاله كثير من المفسرين : ثمانون سنة .

فإذا وردوها [لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا] أى : لا ما يبرد جلودهم ، ولا ما يدفع ظمأهم .

[إلا حميا] أى : ماء حارا ، يشوى وجوههم ، ويقطع أمعاءهم .

[وغساقا] وهو : صديد أهل النار ، الذى هو ، فى غاية النتن ، وكراهة المذاق .

وإنما استحقوا هذه العقوبات الفظيعة [جزاء وفاقا لهم] على ما عملوا من الأعمال الموصلة إليها ، لم يظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم .

ولهذا ذكر أعمالهم ، التى استحقوا بها هذا الجزاء ، فقال :

كَانُواْ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٠﴾

[إنهم كانوا لا يرجون حسابا] أي : لا يؤمنون بالبعث ، ولا أن الله يجازى الخلق ، بالخير والشر ، فلذلك أهملوا العمل للآخرة .

[وكذبوا بآياتنا كذابا] أى : كذبوا بها ، تكذيبا واضحا ، صريحا ، وجاءتهم البينات فعاندوها .

[وكل شىء] من قليل أو كثير ، وخير وشر [أحصيناه كتابا] .

أى : أثبتناه فى اللوح المحفوظ .

فلا يحسب المجرمون ، أنا عذبناهم بذنوب لم يعملوها ، ولا يحسبوا ، أنه يضيع من أعمالهم شىء ، أو ينسى منها ، مثقال ذرة .

كما قال تعالى : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا مال هذا الكتاب لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

[فذوقوا] أيها المكذبون ، هذا العذاب الأليم ، والخزى الدائم [فلن نزيدكم إلا عذابا] فكل وقت وحين ، يزداد عذابهم .

وهذه الآية ، أشد الآيات فى شدة عذاب أهل النار ، أجارنا الله منها .

إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا

---

* لما ذكر حال المجرمين ، ذكر مآل المتقين فقال :

[إن للمتقين مفازا] أى : الذين اتقوا سخط ربهم ، بالتمسك بطاعته، والانكفاف عن معصيته فلهم مفاز ، ومنجى ، وبُعْدٌ عن النار .

وفى ذلك المفاز ، لهم [حدائق] وهى : البساتين الجامعة لأصناف الأشجار الزاهية بالثمار .

[وأعنابا] تتفجر خلالها الأنهار ، وخص العنب ، لشرفه ، وكثرته ، فى تلك الحدائق .

ولهم فيها زوجات على مطالب النفوس [كواعب] وهى : النواهد، اللاتى لم ينكسر ثديهن ، من شبابهن ، وقوتهن ، ونضارتهن .

[أترابا] أى : على سن واحد متقارب .

ومن عادة الأتراب ، أن يكن متآلفات ، متعاشرات ، وذلك السن ، الذى هن فيه ، ثلاث وثلاثون سنة ، أعدل ما يكون من الشباب .

[وكأسا دهاقا] أى : مملوءة من رحيق ، ، لذة للشاربين .

[لا يسمعون فيها لغوا] أى : كلاما لا فائدة فيه [ولا كذابا] أى : إثما .

كما قال تعالى : « لا يسمعون فيها لغوا ولا تأثيما * إلا قيلا سلاما سلاما » .

وَلَا كِذَّابًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٧﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

وإنما أعطاهم الله هذا الثواب الجزيل ، من فضله وإحسانه

[جزاء من ربك عطاء حسابا] أى : بسبب أعمالهم ، التى وفقهم الله لها ، وجعلها سببا للوصول إلى كرامته .

* أى : الذى أعطاهم هذه العطايا ، هو ربهم [رب السموات والأرض وما بينهما] الذى خلقها ودبرها [الرحمن] الذى رحمته وسعت كل شىء ، فرباهم ، ورحمهم ، ولطف بهم ، حتى أدركوا ما أدركوا .

ثم ذكر عظمته وملكه العظيم يوم القيامة ، وأن جميع الخلق كلهم ، ساكتون ذلك اليوم ، لا يتكلمون و [لا يملكون منه خطابا] إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا فلا يتكلم أحد إلا بهذين الشرطين :

أن يأذن الله له فى الكلام ، وأن يكون ما تكلم به صوابا .

لأن [ذلك اليوم الحق] الذى لا يروج فيه الباطل ، ولا ينفع فيه الكذب .

وذلك [يوم يقوم الروح] وهو : جبريل عليه السلام ، الذى هو أفضل الملائكة .

[والملائكة] أيضا يقوم الجميع [صفا] خاضعين لله [لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا] .

صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًا ﴿٤٠﴾

فلما رغب ، ورهب ، وبشر ، وأنذر قال :

[ذلك اليوم الحق ، فمن شاء اتخذ إلى ربه مآبا] أى : عملا ، وقدم صدق ، يرجع إليه يوم القيامة .

[إنا إنذرناركم عذابا قريبا] لأنه قد أزف مقبلا ، وكل ما هو آت قريب .

[يوم ينظر المرء ما قدمت يداه] أى : هذا الذى يهمه ، ويفزع إليه .

فلينظر فى هذه الدار ، ما قدم لدار القرار .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعلمون » الآيات .

فإن وجد خيرا ، فليحمد الله ، وإن وجد غير ذلك ، فلا يلومن إلا نفسه .

ولهذا كان الكفار يتمنون الموت ، من شدة الحسرة والندم .

[ويقول الكافر ياليتنى كنت ترابا] . نسأل الله أن يعافينا من الكفر والشر كله ، إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة النبأ ــ ولله الحمد

تفسير

سورة النازعات

بسم الله الرحمن الرحيم

وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَٱلنَّٰشِطَٰتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَٱلسَّٰبِحَٰتِ

---

* هذه الإقسامات بالملائكة الكرام وأفعالهم الدالة على كمال انقيادهم لأمر الله ، وإسراعهم فى تنفيذه ، يحتمل أن المقسم عليه ، الجزاء ، والبعث بدليل الإتيان بأحوال القيامة بعد ذلك .

ويحتمل أن المقسم عليه ، والمقسم به ، متحدان ، وأنه أقسم على الملائكة لأن الإيمان بهم ، أحد أركان الإيمان الستة .

ولأن فى ذكر أفعالهم هنا ، ما يتضمن الجزاء الذى تتولاه الملائكة ، عند الموت ، وقبله ، وبعده ، فقال :

[والنازعات غرقا] وهم : الملائكة ، التى تنزع الأرواح بقوة ، وتغرق فى نزعها ، حتى تخرج الروح ، فتجازى بعملها .

[والناشطات نشطا] وهى : الملائكة أيضا ، تجتذب الأرواح بقوة ونشاط ، أو أن النشط يكون لأرواح المؤمنين ، والنزع لأرواح الكفار .

[والسابحات] أى : المترددات فى الهواء ، صعودا ، ونزولا [سبحا] .

سَبْحًا ﴿٣﴾ فَٱلسَّٰبِقَٰتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَٰرُهَا خَٰشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي ٱلْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَءِذَا كُنَّا

[فالسابقات] لغيرها [سبقا] فتبادر لأمر الله ، وتسبق الشياطين فى إيصال الوحى إلى رسل الله ، لئلا تسترقه .

[فالمدبرات أمرا] الملائكة ، الذين جعلهم الله يدبرون كثيرا من أمور العالم ، العلوى والسفلى ، من الأمطار ، والنبات ، والرياح ، والبحار والأجنة ، والحيوانات ، والجنة ، والنار وغير ذلك .

[يوم ترجف الراجفة] وهى : قيام الساعة .

[تتبعها الرادفة] أى : الرجفة الأخرى ، التى تردفها ، وتأتى تِلْوَها .

[قلوب يومئذ واجفة] أى : منزعجة من شدة ما ترى وتسمع .

[أبصارها خاشعة] أى : ذليلة حقيرة ، قد ملك قلوبهم الخوف ، وأذهل أفئدتهم الفزع ، وغلب عليهم التأسف ، واستولت عليهم الحسرة .

[يقولون] أى : منكروا البعث فى الدنيا ـ استهزاء وإنكاراً للبعث ـ : [أإنا لمردودون فى الحافرة[1]] أى : أنرد بعد الموت إلى الخلقة الأولى ؟! .

---

(١) والحافرة : اسم لأول الأمر ، ومنه « رجع فلان إلى حافرته » إذا رجع من حيث جاء ، ويقال لمن كان فى أمر فخرج منه ثم عاد إليه : « رجع إلى حافرته » أى : إلى حالته الأولى . ويقال : « النقد فى الحافرة » أى : عند الحالة الأولى ، وهى : الصفقة .

عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُواْ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ

استفهام إنكارى مشتمل على غاية التعجب ، ونهاية الاستغراب .

أنكروا البعث ، ثم ازدادوا استبعاداً ، فاستمروا .

[يقولون] أى : الكفار فى الدنيا ، على وجه التكذيب : [أإذا كنا عظاما نخره] أى : بالية فتاتا .

والمعنى « أنرد إلى االحياة بعد أن صرنا عظاماً وهى رميم ؟

[قالوا تلك إذا كرة خاسرة] أى : استبعدوا أن يبعثهم الله، ويعيدهم بعد ما كانوا عظاما نخرة ، جهلا منهم بقدرة الله ، وتجرؤا عليه .

قال الله فى بيان سهولة هذا الأمر عليه : [فإنما هى زجرة واحدة] ينفخ فى الصور .

[فإذا هم] أى : الخلائق كلهم [بالساهرة] أى : على وجه الأرض ، قيام ينظرون . فيجمعهم الله ، ويقضى بينهم ، بحكمه العدل ، ويجازيهم .

* يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: [هل أتاك حديث موسى] .

وهذا الاستفهام عن أمر عظيم ، متحقق وقوعه .

أى : هل أتاك حديثه [إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى] وهو :المحل الذى كلمه الله فيه ، وامتن عليه بالرسالة ، وابتعثه بالوحى ، واجتباه فقال له :

[اذهب إلى فرعون إنه طغى] أى : فانهه عن طغيانه ، وشركه ، وعصيانه ، بقول لين ، وخطاب لطيف لعله « يتذكر أو يخشى » .

هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْأَيَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْأَخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً

[فقل]له: [هل لك إلى أن تزكى] أى: هل لك فى خصلة حميدة، ومحمدة جميلة، يتنافس فيها أولو الألباب، وهى: أن تُزكِّىَ نفسك، وتطهرها من دنس الكفر والطغيان، إلى الإيمان، والعمل الصالح؟.

[وأهديك إلى ربك] أى: أدلك عليه، وأُبَيِّنُ لك مواقع رضاه، من مواقع سخطه.

[فتخشى] الله، إذا علمت الصراط المستقيم. فامتنع فرعون مما دعاه إليه موسى.

[فأراه الآية الكبرى] أى: جنس الآية الكبرى، فلا ينافى تعددها «فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فاذا هى بيضاء للناظرين»

[فكذب] بالحق [وعصى] الأمر [ثم أدبر يسعى] أى: يجتهد فى مُبارزة الحق ومحاربته.

[فحشر] جنوده أى: جمعهم [فنادى * فقال] لهم: [أنا ربكم الأعلى] فأذعنوا له، وأقروا بباطله، حين استخفهم.

[فأخذه الله نكال الآخرة والأولى] أى: جعل الله عقوبته، دليلا وزاجرا، ومبينة لعقوبة الدنيا والآخرة.

لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾

أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ

[إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى] فإن من يخشى الله ، هو الذى ينتفع بالآيات والعبر .

فإذا رأى عقوبة فرعون ، عرف أن من تكبر وعصى ، وبارز الملك الأعلى ، يعاقبه فى الدنيا والآخرة .

وأما من ترحلت خشية الله من قلبه ، فلو جاءته كل آية لا يؤمن بها .

* يقول تعالى — مبينا دليلا واضحا لمنكرى البعث ، ومستبعدى إعادة الله للأجساد :

[أأنتم] أيها البشر [أشد خلقا أم السماء] ذات الجرم العظيم، والخلق القوى ، والارتفاع الباهر [بناها] الله .

[رفع سمكها] أى : جرمها وصورتها [فسواها] بإحكام وإتقان ، يحير العقول ، ويذهل الألباب .

[وأغطش ليلها] أى : أظلمه ، فعمت الظلمة ، جميع أرجاء السماء ، فأظلم وجه الأرض .

[وأخرج ضحاها] أى : أظهر فيه النور العظيم ، حين أتى بالشمس ، فانتشر الناس فى مصالح دينهم ودنياهم .

[والأرض بعد ذلك] أى : بعد خلق السماء [دحاها] أى : أودع فيها منافعها .

بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾

وفسر ذلك بقوله : [أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها] .

أى : ثبتها بالأرض .

فدحى الأرض ، بعد خلق السموات ، كما هو نص هذه الآيات الكريمة .

وأما خلق نفس الأرض ، فمتقدم على خلق السماء كما قال تعالى : « قل أإنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين ، وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين » إلى أن قال : « ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات » .

فالذى خلق السموات العظام وما فيها من الأنوار والأجرام، والأرض الغبراء الكثيفة ، وما فيها من ضروريات الخلق ومنافعهم ، لابد أن يبعث الخلق المكلفين ، فيجازيهم بأعمالهم .

فمن أحسن ، فله الحسنى ، ومن أساء ، فلا يلومن إلا نفسه .

ولهذا ذكر بعد هذا قيام الساعة ، ثم الجزاء فقال:[فإذا جاءت الطامة] إلى [هى المأوى] .

﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ

---

* أى : إذا جاءت القيامة الكبرى والشدة العظمى ، التى يهون عندها كل شدة ، فحينئذ يذهل الوالد عن ولده ، والصاحب عن صاحبه ، وكل محب عن حبيبه .

و [يتذكر الإنسان ما سعى] فى الدنيا ، من خير وشر .

فيتمنى زيادة مثقال ذرة فى حسناته ، ويغمه ، ويحزن لزيادة مثقال ذرة فى سيئاته .

ويعلم إذ ذاك ، أن مادة ربحه وخسرانه ، ما سعاه فى الدنيا ، وينقطع كل سبب ووصلة كانت له فى الدنيا ، سوى الأعمال .

[وبرزت الجحيم لمن يرى] أى : جعلت فى البراز ، ظاهرة لكل أحد قد هيئت لأهلها ، واستعدت لأخذهم ، منتظرة لأمر ربها .

[فأما من طغى] أى : جاوز الحد ، بأن تجرأ على المعاصى الكبار ، ولم يقتصر على ما حده الله .

[وآثر الحياة الدنيا] على الآخرة ، فصار سعيه لها ، ووقته مستغرقا فى حظوظها وشهواتها ، ونسى الآخرة ، والعمل لها .

[فإن الجحيم هى المأوى] له أى : المقر والمسكن ، لمن هذه حاله .

[وأما من خاف مقام ربه] أى : خاف القيام عليه ، ومجازاته بالعدل

هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً

فأثَّر هذا الخوف فى قلبه [ونهى النفس عن الهوى] الذى يصدها عن طاعة الله ، وصار هواه تبعا لما جاء به الرسول،وجاهد الهوى والشهوة،الصادين عن الخير .

[فإن الجنة] المشتملة على كل خير وسرور ونعيم [هى المأوى] لمن هذا وصفه .

* أى يسألك المتعنتون المكذبون بالبعث [عن الساعة] متى وقوعها [أيان مرساها] فأجابهم الله بقوله :

[فيم أنت من ذكراها] أى:ما الفائدة لك ولهم فى ذكرها ،ومعرفة وقت مجيئها ؟ فليس تحت ذلك نتيجة .

ولهذا لما كان علم العباد للساعة ، ليس لهم فيه مصلحة دينية ولادنيوية بل المصلحة فى إخفائه عليهم ، طوى علم ذلك عن جميع الخلق ، واستأثر بعلمه فقال :

[إلى ربك منتهاها] أى : إليه ينتهى علمها ، كما قال فى الآية الأخرى « يسألونك عن الساعة أيان مرساها * قل إنما علمها عند ربى ، لا يجليها لوقتها إلا هو » .

[إنما أنت منذر من يخشاها] أى : إنما نذراتك ، نفعها لمن يخشى

أَوْ ضُحَاهَا ﴿٤٦﴾

مجىء الساعة ، ويخاف الوقوف بين يدى الله ، فهم الذين لا يهمهم إلا الاستعداد لها ، والعمل لأجلها .

وأما من لم يؤمن بها ، فلا يبالى به ، ولا بتعنته ، لأنه تعنت مبنى على التكذيب والعناد ، وإذا وصل إلى هذه الحال ، كانت الإجابة عنه عبثا ، ينزه أحكم الحاكمين عنه

تم تفسير سورة النازعات ـ بعون الله وتوفيقه

تفسـير

سورة عبس

بسم الله الرحمن الرحيم

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ

---

* سبب نزول هذه الآيات الكريمات ، أنه جاء رجل من المؤمنين أعمى يسأل النبي صلى الله عليه ويتعلم منه .

وجاءه رجل من الأغنياء ، وكان صلى الله عليه وسلم ، حريصا على هداية الخلق .

فمال صلى الله عليه وسلم ، وأصغى إلى الغنى ، وصد عن الأعمى الفقير ، رجاء لهداية ذلك الغنى ، وطمعا فى تزكيته ، فعاتبه الله بهذا العتاب اللطيف فقال :

[عبس] أى : فى وجهه [وتولى] فى بدنه ، لأجل مجىء الأعمى له .

ثم ذكر الفائدة فى الإقبال عليه فقال :

[وما يدريك لعله] أى : الأعمى [يزكى ؟] أى : يتطهر عن الأخلاق الرذيلة ، ويتصف بالأخلاق الجميلة ؟

ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾

[أو يذكر فتنفعه الذكرى ؟] أى : يتذكر ما ينفعه ، فينتفع بتلك الذكرى .

وهذه فائدة كبيرة ، هى المقصودة من بعثة الرسل ، ووعظ الوعاظ ، وتذكير المذكرين .

فإقبالك على من جاء بنفسه ، مفتقرا لذلك ، مقبلا ، هو الأليق الواجب .

وأما تصديك ، وتعرضك للغنى المستغنى ، الذى لا يسأل ، ولا يستفتى لعدم رغبته فى الخير ، مع تركك من هو أهم منه ، فإنه لا ينبغى لك فإنه ليس عليك أن لا يزكى .

فلو لم يتزكَّ ، فلست بمحاسب على ما عمله من الشر .

فدل هذا ، على القاعدة المشهورة أنه « لا يترك أمر معلوم لأمر موهوم ولا مصلحة متحققة ، لمصلحة متوهمة » .

وأنه ينبغى الإقبال على طالب العلم ، المفتقر إليه ، الحريص عليه ، أزيد من غيره .

كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ

---

* يقول تعالى : [كلا إنها تذكرة] أى : حقا إن هذه الموعظة ، تذكرة من الله ، يذكر بها عباده ، ويبين لهم فى كتابه ، ما يحتاجون إليه ، ويبين الرشد من الغى .

فإذا تبين ذلك [فمن شاء ذكره] أى : عمل به كقوله تعالى : « وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر » .

ثم ذكر محل هذه التذكرة ، وعظمها ، ورفع قدرها فقال :

[فى صحف مكرمة مرفوعة] القدر والرتبة [مطهرة] من الآفات ، وعن أن ينالها أيدى الشياطين ، أو يسترقوها .

بل هى [بأيدى سفرة] وهم الملائكة ، الذين هم سفراء بين الله وبين عباده .

[كرام] أى : كثيرى الخير والبركة [بررة] قلوبهم وأعمالهم .

وذلك كله ، حفظ من الله لكتابه ، أن جعل السفراء فيه إلى الرسل الملائكة الكرام الأقوياء الأتقياء .

ولم يجعل للشياطين عليه سبيلا .

وهذا مما يوجب الإيمان به ، وتَلَقِّيه بالقبول .

ولكن ، مع هذا ، أبى الإنسان إلا كفورا ، ولهذا قال تعالى :

خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ

[قتل الإنسان ما أكفره] لنعمة الله ، وما أشد معاندته للحق ، بعد ما تبين ، وهو ما هو ، هو من أضعف الأشياء ، خلقه من ماء مهين ، ثم قدر خلقه ، وسواه بشرا سويا ، وأتقن قواه الظاهرة والباطنة .

[ثم السبيل يسره] أى : يسر له الأسباب الدينية والدنيوية . وهداه السبيل ، وبينه ، وامتحنه بالأمر والنهى .

[ثم أماته فأقبره] أى : أكرمه بالدفن ، ولم يجعله كسائر الحيوانات، التى تكون جيفها على وجه الأرض .

[ثم إذا شاء أنشره] أى : بعثه بعد موته للجزاء .

فالله هو المنفرد بتدبير الإنسان وتصريفه بهذه التصاريف ، لم يشاركه فيه مشارك .

وهو - مع هذا - لا يقوم بما أمره الله ، ولم يقض ما فرضه عليه بل لا يزال مقصرا تحت الطلب .

ثم أرشده الله إلى النظر والتفكر فى طعامه ، وكيف وصل إليه بعد ما تكررت عليه طبقات عديدة ، ويسره له فقال :

[فلينظر الإنسان إلى طعامه * أنا صببنا الماء صبا] أى : أنزلنا المطر على الأرض بكثرة .

صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾

[ثم شققنا الأرض] للنبات [شقا * فأنبتنا فيها] أصنافا مصنفة ، من أنواع الأطعمة اللذيذة ، والأقوات الشهية [حبا] وهذا شامل لسائر الحبوب على اختلاف أصنافها .

[وعنبا وقضبا] وهو القَتّ : [وزيتونا ونخلا].

وخص هذه الأربعة ، لكثرة فوائدها ومنافعها .

[وحدائق غلبا] أى : بساتين ، فيها الأشجار الكثيرة الملتفة .

[وفاكهة وأبا] الفاكهة : ما يتفكه فيه الإنسان ، من تين ، وعنب ، وخوخٍ ، ورمان وغير ذلك .

والأب : ما تأكله البهائم والأنعام ، ولهذا قال :

[متاعا لكم ولأنعامكم] التى خلقها الله وسخرها لكم .

فمن نظر فى هذه النعم ، أوجب له ذلك ، شكر ربه ، وبذل الجهد فى الإنابة إليه ، والإقبال على طاعته ، والتصديق لأخباره .

فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾

---

* أى : إذا جاءت صيحة القيامة التى تصخ لهولها الأسماع ، وتنزعج لها الأفئدة يومئذ ، مما يرى الناس ، من الأهوال ، وشدة الحاجة لسالف الأعمال .

[يفر المرء] من أعز الناس عليه ، وأشفقهم عليه [من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته] أى زوجته [وبنيه] .

وذلك لأنه [لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه] أى : قد شغلته نفسه ، واهتم لفكاكها ، ولم يكن له التفات إلى غيرها .

فحينئذ ينقسم الخلق إلى فريقين ، سعداء ، وأشقياء .

فأما السعداء ، فـ[وجوههم]يومئذ [مسفرة] أى : قد ظهر فيها السرور والبهجة ، لما عرفوا من نجاتهم ، وفوزهم بالنعيم .

[ضاحكة مستبشرة *ووجوه] الأشقياء [يومئذ عليها غبرة * ترهقها] أى : تغشاها [قترة] فهى سوداء مظلمة مدلهمة ، قد أيست من كل خير ، وعرفت شقاءها وهلاكها .

أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْـكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

[أولئك] الذين بهذا الوصف [هم الـكفرة الفجرة] أى : الذين كفروا بنعمة الله ، وكذبوا بآياته ، وتجرأوا على محارمه .

نسأل الله العفو والعافية إنه جواد كريم .

تم تفسير سورة عبس ـ والحمد لله رب العالمين

تفســـير

سورة التكوير

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ

---

* أى : إذا حصلت هذه الأمور الهائلة ، تميز الخلق ، وعلم كل ، ماقدمه لآخرته ، وما أحضره فيها ، من خير وشر .

وذلك : إنه إذا كان يوم القيامة تكور الشمس ، أى : تجمع وتلف ، ويخسف القمر ، ويلقيان فى النار .

[وإذا النجوم انكدرت] أى : تغيرت ، وتناثرت من أفلاكها .

[وإذا الجبال سيرت] أى : صارت كثيبا مهيلا . ثم صارت كالعهن المنفوش .

ثم تغيرت وصارت هباء منبثا ، وأزيلت عن أماكنها .

[وإذا العشار عطلت] أى : عطل الناس يومئذ نفائس أموالهم ، التى كانوا يهتمون لها ويراعونها ، فى جميع الأوقات ، فجاءهم مايذهلهم عنها.

فنبه بالعشار ـ وهى : النوق التى تتبعها أولادها ، وهى أنفس أموال العرب إذ ذاك عندهم ـ على ما هو فى معناها ، من كل نفيس .

حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾
وَإِذَا ٱلْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ
نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾

[وإذا الوحوش حشرت] أى : جمعت ليوم القيامة ، ليقتص الله من بعضها لبعض ، ويرى العباد كمال عدله ، حتى إنه يقتص للشاة الجماء ، من الشاة القرناء ثم يقال لها كونى ترابا .

[وإذا البحار سجرت] أى : أوقدت فصارت — على عظمها — نارا تتوقد .

[وإذا النفوس زوجت] أى : قرن كل صاحب عمل مع نظيره ، فجمع الأبرار مع الأبرار ، والفجار مع الفجار ، وزوج المؤمنون بالحور العين ، والكافرون بالشياطين ، وهذا كقوله تعالى : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا * وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا * احشروا الذين ظلموا وأزواجهم » .

[وإذا الموءودة سئلت] وهى : ما كانت الجاهلية الجهلاء تفعله ، من دفن البنات ، وهن أحياء من غير سبب ، إلا خشية الفقر ، فتسأل [بأى ذنب قتلت] .

ومن المعلوم أنها ليس لها ذنب ، ولكن هذا ، فيه توبيخ وتقريع لقاتليها .

[وإذا الصحف] المشتملة على ما عمله العاملون من خير وشر [نشرت] وفرقت على أهلها .

فآخذ كتابه بيمينه ، وآخذ كتابه بشماله ، أو من وراء ظهره .

[وإذا السماء كشطت] أى : أزيلت كما قال تعالى « يوم تشقق السماء بالغمام * يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب * والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه » .

[وإذا الجحيم سعرت] أى : أوقد عليها فاستعرت ، والتهبت التهابا ، لم يكن لها قبل ذلك .

[وإذا الجنة أزلفت] أى : قربت للمتقين .

[علمت نفس] أى : كل نفس ، لإتيانها فى سياق الشرط .

[ما أحضرت] أى : ما حضر لديها من الأعمال ، التى قدمتها كما قال تعالى : « ووجدوا ما عملوا حاضرا » .

وهذه الأوصاف ، التى وصف بها يوم القيامة ، من الأوصاف التى تنزعج لها القلوب ، وتشتد من أجلها الكروب ، وترتعد الفرائص ، وتعم المخاوف ، وتحث أولى الألباب للاستعداد لذلك اليوم ، وتزجرهم عن كل ما يوجب اللوم .

ولهذا قال بعض السلف : من أراد أن ينظر ليوم القيامة كأنه رأى عين ، فليتدبر سورة « إذا الشمس كورت » .

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ

---

* أقسم تعالى [بالخنس] وهي : من الكواكب التي تخنس أى : تتأخر عن سير الكواكب المعتاد إلى جهة المشرق .

وهى : النجوم السبعة السيارة « الشمس » و « القمر » و « الزهرة » و « المشترى » و « المريخ » و « زحل » و « عطارد » فهذه السبعة لها سيران :

سير إلى جهة المغرب مع سائر الكواكب والفلك .

وسير معاكس لهذا من جهة المشرق ، تختص به هذه السبعة دون غيرها .

فأقسم الله بها ، فى حال خنوسها ، أى : تأخرها ، وفى حال جريانها ، وفى حال كنوسها ، أى : استتارها بالنهار .

ويحتمل أن المراد بها : جميع الكواكب السيارة وغيرها .

[والليل إذا عسعس] أى : أقبل ، وقيل : أدبر .

[والنهار إذا تنفس] أى : بدت علائم الصبح ، وانشق النور شيئا فشيئا ، حتى يستكمل وتطلع الشمس .

وهذه آيات عظام ، أقسم الله عليها ، لقوة سند القرآن وجلالته،وحفظه من كل شيطان رجيم فقال :

رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١٩﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ

[إنه لقول رسول كريم] وهو : جبريل عليه السلام ، نزل به من الله تعالى كما قال تعالى : « وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين » .

ووصفه الله بالكريم ، لكرم أخلاقه ، وخصاله الحميدة ، فإنه أفضل الملائكة ، وأعظمهم رتبة عند ربه .

[ذى قوة] على ما أمره الله به .

ومن قوته ، أنه قلب ديار قوم لوط بهم ، فأهلكهم .

[عند ذى العرش] أى : جبريل مقرب عند الله ، له منزلة رفيعة وخصيصة من الله ، اختصه بها .

[مكين] أى : له مكانة ومنزلة ، فوق منازل الملائكة كلهم .

[مطاع ثم] أى : جبريل مطاع فى الملأ الأعلى ، لأنه من الملائكة المقربين ، نافذ فيهم أمره ، مطاع رأيه .

[أمين] أى : ذو أمانة ، وقيام بما أمر به ، لا يزيد ولا ينقص ولا يتعدى ما حُدَّ له .

وهذا كله ، يدل على شرف القرآن عند الله تعالى .

فإنه بعث به هذا الملك الكريم ، الموصوف بتلك الصفات الكاملة .

والعادة ، أن الملوك لا ترسل الكريم عليها ، إلا فى أهم المهمات ، وأشرف الرسائل .

ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ

ولما ذكر فضل الرسول الملكى ، الذى جاء بالقرآن ، ذكر فضل الرسول البشرى ، الذى نزل عليه القرآن ، ودعا إليه الناس فقال :

[وما صاحبكم] وهو محمد صلى الله عليه وسلم [بمجنون] كما يقوله أعداؤه المكذبون برسالته ، المتقولون عليه الأقوال ، التى يريدون أن يطفئوا بها ، ما جاء به .

بل هو أكمل الناس عقلا ، وأجزلهم رأياً ، وأصدقهم لهجة .

[ولقد رآه بالأفق المبين] أى : رأى محمد صلى الله عليه وسلم ، جبريل عليه السلام بالأفق الْبَيِّن ، الذى هو أعلى ما يلوح للبصر .

[وما هو على الغيب بضنين] أى : وما هو على ما أوحاه الله إليه ، بشحيح ، يكتم بعضه .

بل هو صلى الله عليه وسلم ، أمين أهل السماء ، وأهل الأرض ، الذى بلغ رسالات ربه ، البلاغ المبين .

فلم يشح بشىء منه ، عن غَنِىٍّ ، ولا فقير ، ولا رئيس ، ولا مرءوس ، ولا ذكر ، ولا أنثى ، ولا حضرىٍّ ، ولا بدَوِىٍّ ، ولذلك بعثه الله فى أمة أمية ، جاهلة جهلاء .

فلم يمت صلى الله عليه وسلم ، حتى كانوا علماء ربانيين ، وأحبارا متفرسين .

إليهم الغاية فى العلوم ، وإليهم المنتهى فى استخراج الدقائق والمفهوم .

وهم الأساتذة ، وغيرهم ، قصاراه أن يكون من تلاميذهم .

شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ

[وما هو بقول شيطان رجيم] لما ذكر جلالة كتابه وفضله ، بذكر الرسولين الكريمين ، اللذين وصل إلى الناس على أيديهما ، وأثنى الله عليهما بما أثنى ، دفع عنه كل آفة ، ونقص ، مما يقدح فى صدقه فقال :

[وما هو بقول شيطان رجيم] أى : فى غاية البعد عن الله وعن قربه .

[فأين تذهبون] أى : كيف يخطر هذا ببالكم ، وأين عزبت عنكم أذهانكم ؟ حتى جعلتم الحق الذى هو فى أعلى درجات الصدق ، بمنزلة الكذب ، الذى هو أنزل ما يكون ، وأرذل ، وأسفل الباطل ؟

هل هذا ، إلا من انقلاب الحقائق[1] .

[إن هو إلا ذكر للعالمين] يتذكرون به ربهم ، وماله من صفات الكمال ، وما ينزه عنه من النقائص ، والرذائل والأمثال .

ويتذكرون به ، الأوامر والنواهى ، وحكمها .

ويتذكرون به ، الأحكام القدرية ، والشرعية ، والجزائية .

---

(١) قوله « من انقلاب الحقائق » الصواب أن يقال « من قلب الحقائق » حتى يكون نصا على معاندة المعاندين وتحريفهم .

وأما كلمة « انقلاب » فلا تؤدى هذا المعنى بل تدل على التأثر بفعل آخر لأنها من أفعال المطاوعة والمطاوع ، يدل على أثر فاعل فعل آخر فكلمة « انقلاب » مطاوع لكلمة « قلب » .

لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

وبالجملة ، يتذكرون به مصالح الدارين ، وينالون بالعمل به السعادتين.

[لمن شاء منكم أن يستقيم] بعد ما تبين الرشد من الغى ، والهدى من الضلال .

[وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين] أى : فمشيئته نافذة ، لا يمكن أن تعارض أو تمانع .

وفى هذه الآية وأمثالها، رَدٌّ على فِرْقَتَيِ القدرية النفاة ، والقدرية المجبرة كما تقدم من أمثالها . والله أعلم ، والحمد لله .

تم تفسير سورة التكوير

تفســـير

سورة الانفطار

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾

---

* أى : إذا انشقت السماء وانفطرت ، وتناثرت نجومها ، وزال جمالها .

وفجرت البحار ، فصارت بحرا واحدا .

وبعثرت القبور ، بأن أخرج ما فيها من الأموات ، وحشروا للموقف ، بين يدى الله ، للجزاء على الأعمال .

فحينئذ ينكشف الغطاء ، ويزول ما كان خفيا .

وتعلم كل نفس ، ما معها من الأرباح والخسران .

هنالك يعض الظالم على يديه ، إذا رأى ما قدمت يداه ، وأيقن بالشقاء الأبدى ، والعذاب السرمدى .

وهنا لك يفوز المتقون ، المقدمون لصالح الأعمال ، بالفوز العظيم ، والنعيم المقيم ، والسلامة من عذاب الجحيم .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَـٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَـٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾

---

* يقول تعالى ، معاتبا للإنسان المقصر فى حقه ، المتجرىء على معاصيه : [ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم] أتهاونا منك فى حقوقه ؟أم احتقارا منك لعذابه ؟ أم عدم إيمان منك بجزائه ؟

أليس هو [الذى خلقك فسواك] فى أحسن تقويم ؟

[فعدلك] وركبك تركيبا قويما معتدلا ، فى أحسن الأشكال ، وأجمل الهيئات ؟

فهل يليق بك ، أن تكفر نعمة المنعم ، أو تجحد إحسان المحسن ؟

إن هذا إلا من جهلك وظلمك ، وعنادك ، وغشمك .

فاحمد الله ، إذ لم يجعل صورتك ، صورة كلب ، أو حمار أو نحوهما ، من الحيوانات .

ولهذا قال تعالى : [فى أى صورة ما شاء ركبك]

وقوله [كلا بل تكذبون بالدين] أى : مع هذا الوعظ والتذكير ، لا تزالون مستمرين على التكذيب بالجزاء .

وأنتم لا بد أن تحاسبوا على ما عملتم ، وقد أقام الله عليكم ملائكة

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ

كراما ، يكتبون أقوالكم وأفعالكم ، ويعلمونها . فدخل فى هذا ، أفعال القلوب ، وأفعال الجوارح .

فاللائق بكم ، أن تكرموهم وتجلوهم .

* المراد بالأبرار ، هم القائمون بحقوق الله ، وحقوق عباده ، الملازمون للبر ، فى أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح .

فهؤلاء جزاؤهم ، النعيم فى القلب ، والروح والبدن ، فى دار الدنيا ، وفى دار البرزخ ، وفى دار القرار .

[وإن الفجار] الذين قصروا فى حقوق الله ، وحقوق عباده ، الذين فجرت قلوبهم ففجرت أعمالهم [لفى جحيم] أى : عذاب أليم ، فى دار الدنيا ، ودار البرزخ ، وفى دار القرار .

[يصلونها] ويعذبون بها أشد العذاب [يوم الدين] أى : يوم الجزاء على الأعمال .

[وما هم عنها بغائبين] أى : بل هم ملازمون لها ، لا يخرجون منها .

[وما أدراك ما يوم الدين * ثم ما أدراك ما يوم الدين] فى هذا تهويل لذلك اليوم الشديد ، الذى يحير الأذهان .

نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

[يوم لا تملك نفس لنفس شيئا] ولو كانت قريبة أو حبيبة مصافية فكل مشتغل بنفسه ، لا يطلب الفكاك لغيرها .

[والأمر يومئذ لله] فهو الذى يفصل بين العباد ، ويأخذ للمظلوم حقه من ظالمه والله أعلم .

تم تفسير سورة الانفطار

تفسير

سورة المطففين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ

---

* [ويل] كلمة عذاب وعقاب [للمطففين] وفسر الله المطففين ، بأنهم [الذين إذا اكتالوا على الناس] أى : أخذوا منهم ، وفاء لهم عما قبلهم [يستوفون] كاملا من غير نقص .

[وإذا كالوهم أو وزنوهم] أى : إذا أعطوا الناس حقهم ، الذى لهم عليهم ، بكيل أو وزن [يخسرون] أى : ينقصونهم ذلك ، إما بمكيال وميزان ناقصين ، أو بعدم ملء المكيال والميزان ، أو بغير ذلك .

فهذا سرقة لأموال الناس ، وعدم إنصاف لهم منهم .

وإذا كان هذا وعيدا على الذين يبخسون الناس ، بالمكيال والميزان ، فالذي يأخذ أموالهم قهرا وسرقة ، أولى بهذا الوعيد من المطففين .

ودلت الآية الكريمة ، على أن الإنسان كما يأخذ من الناس ، الذى له ، يجب أن يعطيهم كل مالهم من الأموال والمعاملات .

أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٥﴾ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾

بل يدخل فى عموم هذا ، الحجج والمقالات ، فإنه كما أن المتناظرين . قد جرت العادة أن كل واحد منهما ، يحرص على ماله من الحجج .

فيجب عليه أيضاً ، أن يبين ماخصمه من الحجة ، التى لا يعلمها ، وأن ينظر فى أدلة خصمه ، كما ينظر فى أدلته هو .

وفى هذا الموضع ، يعرف إنصاف الإنسان ، من تعصبه واعتسافه ، وتواضعه من كبره ، وعقله من سفهه .

نسأل الله التوفيق ، لكل خير .

ثم توعد تعالى المطففين ، وتعجب من حالهم وإقامتهم على ما هم عليه فقال :

[ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون * ليوم عظيم * يوم يقوم الناس لرب العالمين] .

فالذى جرأهم على التطفيف ، عدم إيمانهم باليوم الآخر .

وإلا ، فلو آمنوا به ، وعرفوا أنهم سيقومون بين يدى الله ، فيحاسبهم على القليل والكثير ، لأقلعوا عن ذلك ، وتابوا منه .

كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِۦٓ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا

---

* يقول تعالى : [كلا إن كتاب الفجار] وهذا شامل لكل فاجر، من أنواع الكفرة والمنافقين ، والفاسقين [لفى سجين] ثم فسر ذلك بقوله :

[وما أدراك ما سجين * كتاب مرقوم] أى : كتاب مذكور فيه أعمالهم الخبيثة .

والسجين : المحل الضيق الضنك ، و « سجين » ضد « عليين » الذى هو محل كتاب الأبرار ، كما سيأتى .

وقد قيل : إن « سجين » هو أسفل الأرض السابعة ، مأوى الفجار ، ومستقرهم فى معادهم .

[ويل يومئذ للمكذبين] ثم بينهم بقوله : [الذين يكذبون بيوم الدين] أى : يوم الجزاء ، يوم يدين الله الناس فيه بأعمالهم .

[وما يكذب به إلا كل معتد] على محارم الله ، متعد الحلال إلى الحرام .

[أثيم] أى كثير الإثم ، فهذا يحمله عدوانه على التكذيب ، ويوجب له كبره ، رد الحق ، ولهذا قال :

[إذا تتلى عليه آياتنا] الدالة على الحق ، وعلى صدق ماجاءت به الرسل ،

بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُواْ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾

كذبها وعاندها [وقال] : هذه [أساطير الأولين] أى : من ترهات المتقدمين ، وأخبار الأمم الغابرين ، ليست من عند الله ، تكبرا وعنادا .

وأما من أنصف ، وكان مقصوده الحق المبين ، فإنه لا يكذب بيوم الدين ، لأن الله قد أقام عليه من الأدلة القاطعة ، والبراهين ، ما يجعله حق اليقين ، وصار لبصائرهم ، بمنزلة الشمس للأبصار .

بخلاف من ران على قلبه كسبه ، وغطته معاصيه ، فإنه محجوب عن الحق .

ولهذا جوزى على ذلك ، بأن حجب عن الله ، كما حجب قلبه عن آيات الله .

[ثم إنهم] مع هذه العقوبة البليغة [لصالو الجحيم(١)] .

ثم يقال لهم توبيخا وتقريعا [هذا الذى كنتم به تكذبون] .

فذكر لهم ثلاثة أنواع من العذاب :

عذاب الجحيم ، وعذاب التوبيخ واللوم .

---

(١) أي : إنهم لداخلون النار المحرقة . وكلمة (ثم) لتراخى الرتبة ، فإن صَلْيَ الجحيم أشد من الإهانة والحرمان من الرحمة والكرامة ، ولا شك أن « الصلى » وهو الاحتراق بالجحيم ، متراخى التأخر عن الحرمان من رحمة الله وكرامته . اهـ . أبو السعود بتصرف .

﴿ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ

وعذاب الحجاب عن رب العالمين ، المتضمن لسخطه وغضبه عليهم ، وهو أعظم عليهم ، من عذاب النار .

ودل مفهوم الآية ، على أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة ، فى الجنة ويتلذذون بالنظر إليه أعظم من سائر اللذات ، ويبتهجون بخطابه ، ويفرحون بقربه ، كما ذكر الله ذلك فى عدة آيات من القرآن ، وتواتر فيه النقل عن رسول الله .

وفى هذه الآيات ، التحذير من الذنوب ، فإنها ترين على القلب وتغطيه ، شيئا فشيئا ، حتى ينطمس نوره ، وتموت بصيرته ، فتنقلب عليه الحقائق ، فيرى الباطل حقا ، والحق باطلا ، وهذا من أعظم عقوبات الذنوب .

* لما ذكر أن كتاب الفجار فى أسفل الأمكنة وأضيقها ، ذكر أن كتاب الأبرار في أعلاها ، وأوسعها ، وأفسحها .

وأن كتابهم [كتاب مرقوم ، يشهده المقربون] من الملائكة الكرام ، وأرواح الأنبياء ، والصديقين والشهداء ، وينوه الله بذكرهم فى الملأ الأعلى .

و « عليون » اسم لأعلى الجنة .

فلما ذكر كتابهم ، ذكر أنهم فى نعيم ، وهو : اسم جامع لنعيم القلب ، والروح ، والبدن .

يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ

[على الأرائك] أى : على السرر المزينة بالفرش الحسان .

[ينظرون] إلى ما أعد الله لهم من النعيم ، وينظرون إلى وجه ربهم الكريم .

[تعرف] أيها الناظر [فى وجوههم نضرة النعيم] أى : بهاءه ونضارته ، ورونقه .

فإن توالى اللذات ، والمسرات والأفراح ، يكسب الوجه ، نوراً وحسنا ، وبهجة .

[يسقون من رحيق] وهو من أطيب ما يكون ، من الأشربة وألذها .

[مختوم] ذلك الشراب [ختامه مسك] .

يحتمل أن المراد مختوم عن أن يداخله شىء ينقص لذته ، أو يفسد طعمه ، وذلك الختام ، الذى ختم به ، مسك .

ويحتمل أن المراد ، أنه الذى يكون فى آخر الإناء ، الذى يشربون منه الرحيق حثالة وهى المسك الأذفر .

فهذا الكدر منه ، الذى جرت العادة فى الدنيا ، أنه يراق ، يكون فى الجنة بهذه المثابة .

[وفى ذلك] النعيم المقيم ، الذى لا يعلم حسنه ومقداره إلا الله .

ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ

[فليتنافس المتنافسون] أى : فليتسابقوا فى المبادرة إليه بالأعمال الموصلة إليه .

فهذا أولى ما بذلت فيه نفائس الأنفاس ، وأحرى ما تزاحمت الوصول إليه ، فحول الرجال .

[و] هذا الشراب [مزاجه من تسنيم * عينا يشرب بها المقربون] صِرْفاً وهى أعلى أشربة الجنة على الإطلاق ، فلذلك كانت خالصة للمقربين ، الذين هم أعلى الخلق منزلة ، وممزوجة لأصحاب اليمين ، أى : مخلوطة بالرحيق وغيره ، من الأشربة اللذيذة .

* لما ذكر تعالى جزاء المجرمين ، وجزاء المحسنين ، وذكر ما بينهما من التفاوت العظيم .

أخبر أن المجرمين كانوا فى الدنيا ، يسخرون بالمؤمنين ، ويستهزئون بهم ، ويضحكون منهم .

فيتغامزون بهم ، عند مرورهم عليهم ، احتقارا لهم وازدراء .

ومع هذا تراهم مطمئنين ، لا يخطر الخوف على بالهم .

إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾

[وإذا انقلبوا إلى أهلهم] صباحا ومساء [انقلبوا فكهين]. أى : مسرورين مغتبطين .

وهذا أشد ما يكون من الاغترار ، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة ، مع الأمن فى الدنيا ، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب وعهد من الله ، أنهم من أهل السعادة ، وقد حكموا لأنفسهم ، أنهم أهل الهدى ، وأن المؤمنين ضالون ، افتراء على الله ، وتجرأوا على القول عليه بلا علم .

قال تعالى : [وما أرسلوا عليهم حافظين] أى : وما أرسلوا وكلاء على المؤمنين ، ملزمين بحفظ أعمالهم ، حتى يحرصوا على رميهم بالضلال

وما هذا منهم ، إلا تعنت وعناد وتلاعب ، ليس له مستند ولا برهان، ولهذا كان جزاؤهم في الآخرة ، من جنس عملهم .

قال تعالى : [فاليوم] أى يوم القيامة [الذين آمنوا من الكفار يضحكون] حين يرونهم فى غمرات العذاب يتقلبون ، وقد ذهب عنهم ما كانوا يفترون .

والمؤمنون في غاية الراحة والطمأنينة [على الأرائك] وهى السرر المزينة.

[ينظرون] إلى ما أعد الله لهم من النعيم ، وينظرون إلى وجه

هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

ربهم الكريم .

[هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون] أى : هل جوزوا من جنس عملهم ؟

فكما ضحكوا فى الدنيا من المؤمنين ، ورموهم بالضلال ، ضحك المؤمنون منهم فى الآخرة ، حين رأوهم فى العذاب والنكال ، الذى هو عقوبة الغى والضلال .

نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون ، عدلا من الله ، وحكمة ، والله عليم حكيم .

تم تفسير سورة المطففين ـــ ولله الحمد

تفســـير

سورة الانشقاق

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ

---

* يقول تعالى: مبينا لما يكون فى يوم القيامة من تغير الأجرام العظام.

[إذا السماء انشقت] أى: انفطرت وتمايز بعضها من بعض، وانتثرت نجومها، وخسف شمسها وقمرها.

[وأذنت لربها] أى: استمعت لأمره، وألقت سمعها، وأصاخت لخطابه.

[وحقت] أى: حق لها ذلك فإنها مسخرة، مدبرة، تحت مسخر ملك عظيم لا يعصى أمره، ولا يخالف حكمه.

[وإذا الأرض مدت] أى: رجفت وارتجت، ونسفت عليها جبالها، ودك ما عليها من بناء ومعلم، فسويت، ومدها الله مد الأديم، حتى صارت واسعة جدا، تسع أهل الموقف على كثرتهم، فتصير قاعا صفصفا، لا ترى فيها عوجا، ولا أمتا.

[وألقت ما فيها] من الأموات والكنوز.

[وتخلت] منهم فإنه ينفخ فى الصور فتخرج الأموات من الأجداث

لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَـٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَـٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ

إلى وجه الأرض ، وتخرج الأرض كنوزها ، حتى تكون كالأسطوان العظيم ، يشاهده الخلق ويتحسرون على ما هم فيه يتنافسون .

[وأذنت لربها وحقت * يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه] أى : إنك ساع إلى الله ، وعامل بأوامره ، ونواهيه ، ومتقرب إليه إما بالخير وإما بالشر ، ثم تلاقى الله يوم القيامة فلا تعدم منه جزاء بالفضل أو العدل .

بالفضل إن كنت سعيدا ، وبالعقوبة العادلة إن كنت شقيا .

ولهذا ذكر تفضيل الجزاء فقال : [فأما من أوتى كتابه بيمينه] وهم أهل السعادة .

[فسوف يحاسب حسابا يسيرا] وهو العرض اليسير على الله فيقرره الله بذنوبه حتى إذا ظن العبد أنه قد هلك ، قال الله تعالى إنى قد سترتها عليك فى الدنيا وأنا أسترها لك اليوم .

[وينقلب إلى أهله] فى الجنة .

[مسرورا] لأنه قد نجا من العذاب وفاز بالثواب .

[وأما من أوتى كتابه وراء ظهره] أى بشماله من وراء ظهره .

سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِيٓ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ

[فسوف يدعو ثبورا] من الخزي والفضيحة ، وما يجد فى كتابه من الأعمال التى قدمها ولم يتب منها .

[ويصلى سعيرا] أى : تحيط به السعير من كل جانب ويقلب على عذابها ، وذلك [إنه كان فى أهله مسرورا] لا يخطر البعث على باله ، وقد أساء ، ولا يظن أنه راجع إلى ربه وموقوف بين يديه .

[بلى إن ربه كان به بصيرا] فلا يحسن أن يتركه سدى لا يؤمر ولا ينهى ولا يثاب ولا يعاقب .

* أقسم فى هذا الموضع بآيات الليل ، فأقسم بالشفق الذى هو بقية نور الشمس ، الذى هو مفتتح الليل .

[والليل وما وسق] أى : احتوى عليه من حيوانات وغيرها .

[والقمر إذا اتسق] أى : امتلأ نورا بإبداره ، وذلك أحسن ما يكون وأكثر منافع ، والمقسم عليه قوله [لتركبن] أى : أيها الناس [طبقا عن طبق] أي : أطوارا متعددة وأحوالا متباينة من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى نفخ الروح .

لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾
بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾

ثم يكون وليدا وطفلا ومميزا ، ثم يجرى عليه قلم التكليف ، والأمر والنهى .

ثم يموت بعد ذلك .

ثم يبعث ويجازي بأعماله .

فهذه الطبقات المختلفة الجارية على العبد ، دالة على أن الله وحده هو المعبود ، الموحد ، المدبر لعباده ، بحكمته ورحمته ، وأن العبد فقير ، عاجز ، تحت تدبير العزيز الرحيم .

ومع هذا فكثير من الناس لا يؤمنون [وإذا قرىء عليهم القرآن لا يسجدون] أي : لا يخضعون للقرآن ، ولا ينقادون لأوامره ، ونواهيه .

[بل الذين كفروا يكذبون] أى : يعاندون الحق بعد ما تبين ، فلا يستغرب عدم إيمانهم وانقيادهم للقرآن .

فإن المكذب بالحق عنادا ، لا حيلة فيه .

[والله أعلم بما يوعون] أى : بما يعملونه وينوونه سرا ، فالله يعلم سرهم وجهرهم وسيجازيهم بأعمالهم ، ولهذا قال [فبشرهم بعذاب أليم] وسميت البشارة بشارة لأنها تؤثر فى البشرة سرورا أو غما .

فهذه حال أكثر الناس ، التكذيب بالقرآن ، وعدم الإيمان به .

فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾

ومن الناس فريق هداهم الله ، فآمنوا بالله ، وقبلوا ماجاءتهم به الرسل ، فآمنوا وعملوا الصالحات .

فهؤلاء لهم أجر غير ممنون أى غير مقطوع ، بل هو أجر دائم مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . والحمد لله .

تم تفسير سورة الانشقاق

تفســـير

سُورَةِ البُرُوج

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ النَّارِ ذَاتِ

---

* [والسماء ذات البروج] أى : ذات المنازل ، المشتملة على منازل الشمس والقمر ، والكواكب المنتظمة فى سيرها ، على أكمل ترتيب ، ونظام دال ، على كمال قدرة الله ورحمته ، وسعة علمه وحكمته .

[واليوم الموعود] وهو يوم القيامة ، الذى وعد الله الخلق أن يجمعهم فيه ، ويضم فيه أولهم وآخرهم ، وقاصيهم ودانيهم ، الذى لا يمكن أن يتغير ، ولا يخلف الله الميعاد .

[وشاهد ومشهود] وشمل هذا ، كل من اتصف بهذا الوصف ، أى مُبْصَر ومُبصَر ، وحاضر ومحضور ، وراء ومرئى .

والمقسم عليه ، ما تضمنه هذا القسم ، من آيات الله الباهرة ، وحكمه الظاهرة ، ورحمته الواسعة .

وقيل : إن المقسم قوله [قتل أصحاب الأخدود] وهذا دعاء عليهم بالهلاك .

و « الأخدود » الحفر التى تحفر فى الأرض .

ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾

وكان أصحاب الأخدود هؤلاء ، قوما كافرين ، ولديهم قوم مؤمنون.

فراودوهم على الدخول فى دينهم ، فامتنع المؤمنون من ذلك .

فشق الكافرون أخدودا فى الأرض ، وقذفوا فيها النار ، وقعدوا حولها ، وفتنوا المؤمنين ، وعرضوهم عليها .

فمن استجاب لهم أطلقوه ، ومن استمر على الإيمان ، قذفوه فى النار .

وهذا غاية المحاربة لله ولحزبه المؤمنين ، ولهذا لعنهم الله ، وأهلكهم ، وتوعدهم فقال : [قتل أصحاب الأخدود] .

ثم فسر الأخدود بقوله : [النار ذات الوقود * إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود] .

وهذا من أعظم ما يكون من التجبر وقساوة القلب ، لأنهم جمعوا بين الكفر بآيات الله ومعاندتها ، ومحاربة أهلها ، وتعذيبهم بهذا العذاب، الذى تنفطر منه القلوب .

وحضورهم إياهم عند إلقائهم فيها ، والحال أنهم ما نقموا من المؤمنين إلا حالة يمدحون عليها ، وبها سعادتهم ، وهى : أنهم كانوا يؤمنون بالله العزيز الحميد ، أى : الذى له العزة ، التى قهر بها كل شىء ، وهو حميد فى أقواله ، وأفعاله ، وأوصافه .

ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

[الذى له ملك السموات والأرض] خلقا وعبيدا ، يتصرف فيهم بما يشاء .

[والله على كل شىء شهيد] علما وسمعا ، وبصرا .

فهلا خاف هؤلاء المتمردون عليه ، أن يأخذهم العزيز المقتدر .

أو ما علموا كلهم ، أنهم مماليك لله ، ليس لأحد على أحد سلطة ، من دون إذن المالك ؟ .

أو خفى عليهم أن الله محيط بأعمالهم ، مجازيهم عليها ؟ .

كلا إن الكافر فى غرور ، والجاهل فى عمى وضلال عن سواء السبيل.

ثم أوعدهم ، ووعدهم ، وعرض عليهم التوبة فقال :

[إن الذين فتنوا المؤمنين والمؤمنات ثم لم يتوبوا فلهم عذاب جهنم ولهم عذاب الحريق] أى : العذاب الشديد المحرق .

قال الحسن رحمه الله : انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قتلوا أولياءه وأهل طاعته ، وهو يدعوهم إلى التوبة .

ولما ذكر عقوبة الظالمين ، ذكر ثواب المؤمنين ، فقال :

[إن الذين آمنوا] بقلوبهم [وعملوا الصالحات] بجوارحهم [لهم

لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾

جنات تجرى من تحتها الأنهار ذلك الفوز الكبير] الذى حصل لهم الفوز ، برضا الله ، ودار كرامته .

[إن بطش ربك لشديد] أي : إن عقوبته لأهل الجرائم والذنوب العظام ، لقوية شديدة ، وهو للظالمين بالمرصاد .

قال الله تعالى : « وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شديد » .

[إنه هو يبدىء ويعيد] أى : هو المنفرد بإبداء الخلق وإعادته ، فلا يشاركه فى ذلك مشارك .

[وهو الغفور] الذى يغفر الذنوب جميعها ، لمن تاب ، ويعفو عن السيئات ، لمن استغفره وأناب .

[الودود] الذى يحبه أحبابه ، محبة لا يشبهها شىء .

فكما أنه لايشابهه شىء فى صفات الجلال والجمال ، والمعانى ، والأفعال ، فمحبته فى قلوب خواص خلقه ، التابعة لذلك ، لا يشبهها شىء من أنواع المحاب .

ولهذا كانت محبته أصل العبودية ، وهى المحبة ، التى تتقدم جميع المحاب وتغلبها ، وإن لم يكن غيرها تبعا لها ، كانت عذابا على أهلها .

. . . .

وهو تعالى الودود ، الوَادُّ لأحبابه ، كما قال تعالى: « يحبهم ويحبونه » والمودة هى : المحبة الصافية .

وفى هذا سر لطيف ، حيث قرن « الودود » بالغفور ، ليدل ذلك ، على أن أهل الذنوب ، إذا تابوا إلى الله وأنابوا ، غفر لهم ذنوبهم ، وأحبهم.

فلا يقال تغفر ذنوبهم ، ولا يرجع إليهم الود ، كما قال بعض الظالمين .

بل الله أفرح بتوبة عبده حين يتوب ، من رجل على راحلته ، عليها طعامه وشرابه ، وما يصلحه ، فأضلها فى أرض فلاة مهلكة ، فأيس منها ، فاضطجع في ظل شجرة ينتظر الموت .

فبينما هو على تلك الحال ، إذا راحلته على رأسه ، فأخذ بخطامها .

فالله أعظم فرحا ، بتوبة العبد ، من هذا براحلته ، وهذا أعظم فرح يقدر .

فلله الحمد والثناء ، وصفو الوداد ، ما أعظم بره وأكثر خيره ،وأغزر إحسانه ، وأوسع امتنانه !!

[ذو العرش المجيد] أى : صاحب العرش العظيم ، الذى من عظمته ، أنه وسع السموات والأرض ، والكرسى .

فهى بالنسبة إلى العرش ، كحلقة ملقاة فى فلاة ، بالنسبة لسائر الأرض .

وخص الله العرش بالذكر ، لعظمته ، ولأنه أخص المخلوقات بالقرب منه .

وهذا على قراءة الجر ، يكون « المجيد » نعتا للعرش .

هَل أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ

وأما على قراءة الرفع ، فإنه يكون نعتا لله ، والمجد سعة الأوصاف وعظمتها .

[فعال لما يريد] أى : مهما أراد شيئا فعله ، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون ، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله .

فإن المخلوقات ، ولو أرادت شيئا ، فإنه لابد لإرادتها من معاون ومانع . والله لا معاون لإرادته ، ولا ممانع له ، مما أراد .

ثم ذكر من أفعاله الدالة على صدق ما جاءت به رسله فقال :

[هل أتاك حديث الجنود * فرعون وثمود] وكيف كذبوا المرسلين ، فجعلهم من المهلكين .

[بل الذين كفروا فى تكذيب] أى : لا يزالون مستمرين على التكذيب والعناد ، لا تنفع فيهم الآيات ، ولا تُجْدِى لديهم العظات .

[والله من ورائهم محيط] قد أحاط بهم علما ، وقدرة ، كقوله : « إن ربك لبالمرصاد » .

ففيه ، الوعيد الشديد للكافرين ، من عقوبة من هم فى قبضته ، وتحت تدبيره .

[بل هو قرآن مجيد] أى : وسيع المعانى عظيمها كثير الخير والعلم .

قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾

[فى لوح محفوظ] من التغيير والزيادة والنقص ، ومحفوظ من الشياطين .

وهو : اللوح المحفوظ ، الذى قد أثبت الله فيه كل شيء .

وهذا يدل على جلالة القرآن وجزالته ، ورفعة قدره عند الله تعالى .

والله أعلم .

تم تفسير سورة البروج ـ والحمد لله

تفســـير

سورة الطارق

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِن بَيْنِ

---

* يقول الله تعالى : [والسماء والطارق] .

ثم فسر الطارق بقوله : [النجم الثاقب] أى : المضيء ، الذي يثقب نوره ، فيخرق السموات ، فينفذ ، حتى يرى فى الأرض .

والصحيح ، أنه اسم جنس ، يشمل سائر النجوم الثواقب .

وقد قيل : إنه « زحل » الذى يخرق السموات السبع وينفذها ، فيرى منها .

وسمى طارقا ، لأنه يطرق ليلا . والمقسم عليه قوله :

[إن كل نفس لما عليها حافظ] يحفظ عليها أعمالها الصالحة والسيئة ، وستجازى بعملها المحفوظ عليها .

[فلينظر الإنسان مما خلق] أى : فليتدبر خلقته ومبدأه ، فإنه [خلق

ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾

من ماء دافق] وهو : المنى الذى [يخرج من بين الصلب والترائب] .

يحتمل أنه من بين صلب الرجل وترائب المرأة ، وهى ثدياها .

ويحتمل أن المراد : المنى الدافق ، وهو منى الرجل ، وأن محله الذى يخرج منه ، ما بين صلبه وترائبه .

ولعل هذا أولى ، فإنه إنما وصف بهالماء الدافق ، الذى يحس بهويشاهد دفقه ، وهو منى الرجل .

وكذلك لفظ الترائب ، فإنها تستعمل للرجل ، فإن الترائب للرجل ، بمنزلة الثديين للأنثى .

فلو أريد الأنثى ، لقيل « من الصلب والثديين ، ونحو ذلك ، والله أعلم .

فالذى أوجد الإنسان من ماء دافق ، يخرج من هذا الموضع الصعب ، قادر على رجعه فى الآخرة ، وإعادته للبعث ، والنشور ، والجزاء .

وقد قيل : إن معناه ، أن الله على رجع الماء المدفوق فى الصلب،لقادر .

وهذا المعنى ، وإن كان صحيحا ، فليس هو المراد من الآية ، ولهذا قال بعده :

[يوم تبلى السرائر] أى : تختبر سرائر الصدور ، ويظهر ما كان فى القلوب ، من خيروشر ، على صفحات الوجوه كما قال تعالى : «يوم تبيض وجوه وتسود وجوه » .

وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾

فنى الدنيا ، ينكتم كثير من الأشياء ، ولا يظهر عيانا للناس .

وأما يوم القيامة ، فيظهر بِرُّ الأبرار ، وفجور الفجار ، وتصير الأمور علانية .

وقوله : [فما له من قوة] أى : من نفسه يدفع بها [ولا ناصر] من خارج ، ينتصر به ، فهذا القَسَمُ على العاملين، وقت عملهم ، وعندجزائهم .

ثم أقسم قسما ثانياً ، على صحة القرآن فقال : [والسماء ذات الرجع ، والأرض ذات الصدع] أى : ترجع السماء بالمطر كل عام ، وتنصدع الأرض للنبات ، فيعيش بذلك الآدميون والبهائم ، وترجع السماء أيضا بالأقدار والشئون الإلهية ، كل وقت ، وتنصدع الأرض عن الأموات .

[إنه] أى : القرآن [لقول فصل] أى : حق وصدق ، بَيِّنٌ واضح .

[وما هو بالهزل] أى : جد ، ليس بالهزل ، وهو : القول الذى يفصل بين الطوائف والمقالات ، وتنفصل به الخصومات .

[إنهم] أى : المكذبين للرسول صلى الله عليه وسلم ، وللقرآن [يكيدون كيدا] ليدفعوا بكيدهم الحق ، ويؤيدوا الباطل .

فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾

[وأكيد كيدا] لإظهار الحق ، ولو كره الكافرون ، ولدفع ما جاءوا به من الباطل ، ويعلم بهذا ، مَنِ الغالب ، فإن الآدمى أضعف وأحقر ، من أن يغالب القوى العليم فى كيده .

[فمهل الكافرين أمهلم رويدا] أى: قليلا ، فسيعلمون عاقبة أمرهم ، حين ينزل بهم العقاب .

تم تفسير سورة الطارق ـ والحمد لله رب العالمين

تفســير

سُورَةُ الأَعلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غُثَاءً

---

* يأمر تعالى ، بتسبيحه المتضمن لذكره ، وعبادته ، والخضوع لجلاله ، والاستكانة لعظمته .

وأن يكون تسبيحا ، يليق بعظمة الله تعالى ، بأن تذكر أسماؤه الحسنى العالية ، على كل اسم ، بمعناها العظيم الجليل .

وتذكر أفعاله ، التي منها ، أنه خلق المخلوقات ، فسواها أي : أتقن وأحسن خلقها .

[الذى قدر] تقديرا ، تتبعه جميع المقدرات [فهدى] إلى ذلك جميع المخلوقات .

وهذه هي الهداية العامة ، التي مضمونها ، أنه هدى كل مخلوق لمصلحته ، وتذكر فيها نعمه الدنيوية ، ولهذا قال :

[والذى أخرج المرعى] أي : أنزل من السماء ماء ، فأنبت به أصناف النبات ، والعشب الكثير ، فرتع فيه الناس والبهائم ، وجميع الحيوانات .

أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾

ثم بعد أن استكمل ما قدر له من الشباب ، ألوى نباته، وصوّح عشبه .

[فجعله غثاء أحوى] أي: أسود. أي : جعله هشيما رميا، ويذكر فيها نعمه الدينية .

ولهذا امتن الله بأصلها ومادتها ، وهو القرآن فقال :

[سنقرئك فلا تنسى] أي . سنحفظ ما أوحيناه إليك من الكتاب ، ونوعيه قلبك ، فلا تنسى منه شيئا .

وهذه بشارة من الله كبيرة ، لعبده ، ورسوله ، محمد صلى الله عليه وسلم ، أن الله سيعلمه علما لا ينساه .

[إلا ما شاء الله] مما اقتضت حكمته أن ينسيكه ، لمصلحة ، وحكمة بالغة .

[إنه يعلم الجهر وما يخفى] ومن ذلك ، أنه يعلم ما يصلح عباده .

أي : فلذلك ، يشرع ما أراد ، ويحكم بما يريد .

[ونيسرك لليسرى] وهذه أيضا بشارة أخرى ، أن الله ييسر رسوله صلى الله عليه وسلم ، لليسرى فى جميع أموره ، ويجعل شرعه ودينه ، يسيرا .

[فذكر] بشرع الله وآياته [إن نفعت الذكرى] أى : ما دامت الذكرى مقبولة ، والموعظة مسموعة ، سواء حصل من الذكرى ، جميع المقصود ، أو بعضه .

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ

ومفهوم الآية ، أنه ، إن لم تنفع الذكرى ، بأن كان الذكير يزيد فى الشر ، أو ينقص من الخير ، لم تكن مأمورا بها ، بل هى منهى عنها .

فالذكرى ينقسم الناس فيها قسمين : منتفعون ، وغير منتفعين .

فأما المنتفعون ، فقد ذكرهم بقوله [سيذكر من يخشى] الله ، فإن خشية الله تعالى ، والعلم بمجازاته على الأعمال ، توجب للعبد ، الانكفاف عما يكرهه الله ، والسعى فى الخيرات .

وأما غير المنتفعين ، فذكرهم بقوله [ويتجنبها الأشقى ٭ الذى يصلى النار الكبرى] وهى : النار الموقدة ، التى تطلع على الأفئدة .

[ثم لا يموت فيها ولا يحيى] أى : يعذب عذابا أليما ، من غير راحة ولا استراحة ، حتى إنهم يتمنون الموت ، فلا يحصل لهم ، كما قال تعالى « لا يقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها » .

[قد أفلح من تزكى] أى قد فاز وربح ، من طهر نفسه ، ونقاها من الشرك والظلم ، ومساوىء الأخلاق .

[وذكر اسم ربه فصلى] أى : اتصف بذكر الله ، وانصبغ به قلبه ، فأوجب له ذلك ، العمل بما يرضى الله ، خصوصا ، الصلاة ، التى هى ميزان الإيمان : هذا معنى الآية .

وأما من فسر قوله « تزكى » يعنى أخرج زكاة الفطر ، وذكر اسم

تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

ربه فصلى ، أنه صلاة العيد ، فإنه وإن كان داخلا فى اللفظ ، وبعض جزئياته، فليس هو المعنى وحده .

[بل تؤثرون الحياة الدنيا] أى : تقدمونها على الآخرة ، وتختارون نعيمها المنغص المكدر الزائل ، على الآخرة .

[والآخرة خير وأبقى] : خير من الدنيا ، فى كل وصف مطلوب ، وأبقى، لكونها دار خلد وبقاء ، والدنيا دار فناء .

فالمؤمن العاقل ، لا يختار الأردأ ، على الأجود ، ولا يبيع لذة ساعة ، بترحة الأبد .

فحب الدنيا وإيثارها على الآخرة ، رأس كل خطيئة .

[إن هذا] المذكور لكم فى هذه السورة المباركة ، من الأوامر الحسنة، والأخبار المستحسنة [لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى] اللذين هما أشرف المرسلين ، بعد محمد صلى الله وسلم عليه وعليهم أجمعين .

فهذه أوامر فى كل شريعة ، لكونها عائدة إلى مصالح الدارين ، وهى مصالح فى كل زمان ومكان ولله الحمد .

تم تفسير سورة الأعلى

تفسير

سُورَة الغاشية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ

---

* يذكر تعالى أحوال يوم القيامة ومافيها من الأهوال الطامّة ، وأنها تغشى الخلائق بشدائدها ، فيجازون بأعمالهم ، ويتميزون إلى فريقين :فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير .

فأخبر عن وصف كلا الفريقين ، فقال فى وصف أهل النار .

[وجوه يومئذ] أى : يوم القيامة [خاشعة] من الذل ، والفضيحة ، والخزى .

[عاملة ناصبة] أى : تاعبة فى العذاب ، تُجَرُّ على وجوهها ، وتغشى وجوههم النار .

ويحتمل أن المراد بقوله [وجوه يومئذ خاشعة * عاملة ناصبة] فى الدنيا لكونهم فى الدنيا أهل عبادات وعمل .

ولكنه لما عدم شرطه ، وهو الإيمان ، صار يوم القيامة ، هباء منثورا .

ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَنَّةٍ

وهذا الاحتمال وإن كان صحيحا ، من حيث المعنى ، فلا يدل عليه سياق الكلام .

بل الصواب المقطوع به،هو الاحتمال الأول ، لأنه قيده بالظرف ، وهو يوم القيامة ، ولأن المقصود هنا،بيان ذكر أهل النار عموما،وذلك الاحتمال جزء قليل بالنسبة إلى أهل النار .

ولأن الكلام ، فى بيان حال الناس عند غشيان الغاشية ، فليس فيه تعرض لأحوالهم فى الدنيا .

وقوله [تصلى نارا حامية] أى:شديدا حرها،تحيط بهم من كل مكان [تسقى من عين آنية] أى : شديدة الحرارة « وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوى الوجوه » فهذا شرابهم .

وأما طعامهم ، فإنهم [ليس لهم طعام إلا من ضريع*لا يسمن ولا يغنى من جوع] وذلك لأن المقصود من الطعام ، أحد أمرين .

إما أن يسد جوع صاحبه ويزيل عنه ألمه .

وإما أن يسمن بدنه من الهزال .

وهذا الطعام ليس فيه شىء من هذين الأمرين ، بل هو طعام فى غاية المرارة ، والنتن ، والخسة ، نسأل الله العافية .

وأما أهل الخير ، فوجوههم يوم القيامة [ناعمة] أى:قد جرت عليهم

عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا

نضرة النعيم ، فنضرت أبدانهم ، واستنارت وجوههم ، وسروا غاية السرور .

[لسعيها] الذى قدمته فى الدنيا من الأعمال الصالحة والإحسان إلى عباد الله .

[راضية] إذ وجدت ثوابه ، مدخرا مضاعفا ، فحمدت عقباه ،وحصل لها كل ما تتمناه .

وذلك أنها [فى جنة] جامعة لأنواع النعيم كلها [عالية] فى محلها ومنازلها ، فمحلها فى أعلى عليين ، ومنازلها ، مساكن عالية ، لها غرف ، ومن فوق الغرف ، غرف مبنية ، يشرفون منها ، على ما أعد الله لهم من الكرامة .

[قطوفها دانية] أى : كثيرة الفواكه اللذيذة ، المثمرة بالثمار الحسنة، السهلة التناول ، بحيث ينالونها على أى حال كانوا،لا يحتاجون أن يصعدوا شجرة ، أو يستعصى عليهم منها ثمرة .

[لا تسمع فيها] أى : فى الجنة [لاغية] أى : كلمة لغو وباطل فضلا عن الكلام المحرم ، بل كلامهم ، كلام حسن نافع ، مشتمل على ذكر الله ، وذكر نعمه المتواترة عليهم ، وعلى الآداب الحسنة بين المتعاشرين ، الذى يسر القلوب ، ويشرح الصدور .

[فيها عين جارية] وهذا اسم جنس ، أى : فيها العيون الجارية ،التى يفجرونها ، ويصرفونها كيف شاءوا ، وأنى أرادوا .

سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾

أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى

[فيها سرر مرفوعة] و « السرر » جمع « سرير » وهى : المجالس المرتفعة فى ذاتها ، وبما عليها من الفرش اللينة الوطيئة .

[وأكواب موضوعة] أى : أوانٍ ممتلئة من أنواع الأشربة اللذيذة قد وضعت بين أيديهم ، وأعدت لهم ، وصاوت تحت طلبهم واختيارهم ، يطوف بها عليهم ، الولدان المخلدون .

[ونمارق مصفوفة] أى : وسائد من الحرير والإستبرق وغيرها ، مما لا يعلمه إلا الله .

قد صفت للجلوس والاتكاء عليها ، وقد أريحوا ، عن أن يصنعوها ، أو يَصُفُّوها بأنفسهم .

[وزرابى مبثوثة] والزرابى هى : البسط الحسان ، مبثوثة ، أى: مملوءة بها مجالسهم من كل جانب .

* يقول تعالى ـ حَثًّا للذين لا يصدقون الرسول صل الله عليه وسلم ، ولغيرهم من الناس ، أن يتفكروا فى مخلوقات الله الدالة على توحيده :

[أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت] أى : آلا ينظرون إلى خلقها البديع ، وكيف سخرها الله للعباد ، وذللها لمنافعهم الكثيرة ، التى يضطرون إليها .

ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾

[وإلى الجبال كيف نصبت] بهيئة باهرة ، حصل بها الاستقرار للأرض ، وثباتها من الاضطراب ، وأودع فيها من المنافع الجليلة ، ما أودع .

[وإلى الأرض كيف سطحت] أى : مدت مدا واسعا ، وسهلت غاية التسهيل ، ليستقر العباد على ظهرها ، ويتمكنوا من حرثها وغراسها ، والبنيان فيها ، وسلوك طرقها .

واعلم أن تسطيحها ، لا ينافى أنها كرة مستديرة ،قد أحاطت الأفلاك فيها من جميع جوانبها ، كما دل على ذلك النقل والعقل ، والحس ،والمشاهدة كما هو مذكور معروف عند كثير من الناس ، خصوصا فى هذه الأزمنة ، التى وقف فيها الناس على أكثر أرجائها ، بما أعطاهم الله من الأسباب المقربة للبعيد .

فإن التسطيح ، إنما ينافى كروية الجسم الصغير جدا ، الذى لو سطح ، لم يبق له استدارة تذكر .

وأما جسم الأرض ، الذى هو كبير جدا ، وواسع ، فيكون كرويا مسطحا ، ولا يتنافى الأمران ، كما يعرف ذلك أرباب الخبرة .

[فذكر إنما أنت مذكر] أى : ذكر الناس ، وعظهم ، وأنذرهم ، وبشرهم ، فإنك مبعوث لدعوة الخلق إلى الله وتذكيرهم ،ولم تبعث مسيطرا عليهم ، مسلطا ، ولا موكلا بأعمالهم .

لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

فإذا قمت بما عليك ، فلا عليك بعد ذلك لوم ، كقوله تعالى : « وما أنت عليهم بجبار ، فذكر بالقرآن من يخاف وعيد » .

وقوله:[إلا من تولى وكفر] أى : لكن من تولى عن الطاعة وكفر بالله [فيعذبه الله العذاب الأكبر] أى:الشديد الدائم ، [إن إلينا إيابهم] أى : رجوع الخلائق وجمعهم فى يوم القيامة .

[ثم إن علينا حسابهم] على ما عملوا ، من خير وشر .

تم تفسير سورة الغاشية ـ والحمد لله

تفسـير

سُورَةُ الفَجْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ ﴾

---

* الظاهر ، أن المقسم عليه ، هو المقسم به ، وذلك جائز مستعمل ، إذا كان أمرا ظاهراً مهماً ، وهو كذلك فى هذا الموضع .

فأقسم تعالى بالفجر ، الذى هو آخر الليل ، ومقدمة النهار ، لما فى إدبار الليل ، وإقبال النهار ، من الآيات الدالة على كمال قدرة الله تعالى ، وأنه تعالى ، هو المدبر لجميع الأمور ، الذى لا تنبغى العبادة إلا له .

ويقع فى الفجر ، صلاة فاضلة معظمة ، يحسن أن يقسم الله بها .

ولهذا أقسم بعده ، بالليالى العشر ، وهى على الصحيح : ليالى عشر رمضان ، أو عشر ذى الحجة

فإنها ليال مشتملة ، على أيام فاضلة ، ويقع فيها من العبادات والقربات ، مالا يقع بغيرها .

وفى ليالى عشر رمضان ، ليلة القدر ، التى هى خير من ألف شهر .

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ ﴿٤﴾ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ قَسَمٞ لِّذِي حِجۡرٍ ﴿٥﴾ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ

وفى نهارها ، صيام آخر رمضان الذى هو أحد أركان الإسلام العظام .

وفى أيام عشر ذى الحجة ، الوقوف بعرفة ، الذى يغفر الله فيه لعباده مغفرة ، يحزن لها الشيطان ، فإنه ما رُئِىَ الشيطان أحقر ولا أدحر منه فى يوم عرفة ، لما يرى من تَنَزُّلِ الأملاك والرحمة من الله ، على عباده .

ويقع فيها ، كثير من أفعال الحج والعمرة .

وهذه أشياء معظمة ، مستحقة أن يقسم الله بها .

[والليل إذا يسر] أى : وقت سريانه ، وإرخائه ظلامه على العباد ، فيسكنون ويستريحون ، ويطمئنون ، رحمة منه تعالى وحكمة .

[هل فى ذلك] المذكور [قسم لذى حجر] أى : لذى عقل ؟

نعم ، بعض ذلك يكفى ، لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد .

* يقول تعالى : [ألم تر] بقلبك وبصيرتك [كيف فعل ربك بعاد] هذه الأمة الطاغية وهى [إرم] القبيلة المعروفة فى اليمن [ذات العماد] .

أى : القوة الشديدة ، والعتو والتجبر .

[التى لم يخلق مثلها فى البلاد] أى : فى جميع البلدان،فى القوة والشدة .

كما قال لهم نبيهم هود عليه السلام : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من

بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِى الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾

بعدم قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون».

[وثمود الذين جابوا الصخر بالواد] أى وادى القرى ، نحتوا بقوتهم الصخور ، فاتخذوها مساكن .

[وفرعون ذى الأوتاد] أى : ذى الجنود ، الذين ثبتوا ملكه ، كما تثبت الأوتاد ما يراد إمساكه بها .

[الذين طغوا فى البلاد] هذا الوصف عائد ، إلى عاد وثمود وفرعون ، ومن تبعهم .

فإنهم طغوا فى بلاد الله ، وآذوا عباد الله ، فى دينهم ودنياهم ، ولهذا قال :

[فأكثروا فيها الفساد] وهو العمل بالكفر وشُعَبِهِ ، من جميع أجناس المعاصى .

وسعوا فى محاربة الرسل ، وصد الناس عن سبيل الله .

فلما بلغوا من العتو ، ما هو موجب لهلاكهم ، أرسل الله عليهم من عذابه ، ذنوبا ، وسوط عذاب .

[إن ربك لبالمرصاد] لمن يعصيه ، يمهله قليلا ، ثم يأخذه أخذ عزيز مقتدر .

﴿ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾

---

* يخبر تعالى عن طبيعة الإنسان ، من حيث هو ، وأنه جاهل ظالم ، لا علم له بالعواقب .

يظن الحالة ، التى تقع فيه ، تستمر ولا تزول .

ويظن أن إكرام الله فى الدنيا وإنعامه عليه ، يدل على كرامته وقربه منه .

وأنه [إذا قدر عليه رزقه] أى : ضيقه ، فصار يقدر قوته لا يفضل عنه ، أن هذا إهانة من الله له ، فرد الله عليه هذا الحسبان ، فقال :

[كلا] أى : ليس كل من نعَّمْتُهُ فى الدنيا ، فهو كريم علَىَّ .

ولا كل من قدرت عليه رزقه ، فهو مهان لدىّ .

وإنما الغنى والفقر ، والسعة والضيق ، ابتلاء من الله ، وامتحان يمتحن به العباد ، ليرى من يقوم له بالشكر والصبر ، فيثيبه على ذلك ، الثواب الجزيل ومن ليس كذلك ، فينقله إلى العذاب الوبيل .

وأيضا ، فإن وقوف همة العبد عند مراد نفسه فقط ، من ضعف الهمة .

ولهذا لامهم الله على عدم اهتمامهم بأحوال الخلق المحتاجين فقال :

[كلا بل لا تكرمون اليتيم] الذى فقد أباه وكاسبه ، واحتاج إلى جبر خاطره والإحسان إليه .

وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾

كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِاْىٓءَ يَوْمَئِذٍۭ بِجَهَنَّمَ ۚ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ

فأنتم لا تكرمونه بل تهينونه ، وهذا يدل على عدم الرحمة فى قلوبكم، وعدم الرغبة فى الخير .

[ولا تحاضون على طعام المسكين] أى : لا يحض بعضكم بعضا ، على إطعام المحاويج ، من الفقراء والمساكين ، وذلك ، لأجل الشح على الدنيا ، ومحبتها الشديدة المتمكنة من القلوب ، ولهذا قال :

[وتأكلون التراث] أى : المال المخلف [أكلا لما] أى : ذريعا ، لا تبقون على شىء منه .

[وتحبون المال حبا جما] أى : شديدا ، وهذا كقوله : « بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى * كلا بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة » .

* [كلا] أى : ليس كل ما أحببتم من الأموال ، وتنافستم فيه من اللذات ، بباق لكم .

بل أمامكم يوم عظيم ، وهول جسيم ، تدك فيه الأرض والجبال وما عليها حتى تجعل قاعا صفصا ، لا عوج فيه ولا أمت .

ويجىء الله لفصل القضاء بين عباده ، فى ظلل من الغمام .

ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾

وتجىء الملائكة الكرام ، أهل السموات كلهم ، صفا صفا ، أى: صفا بعد صف ، كل سماء يجىء ملائكتها صفا ، يحيطون بمن دونهم من الخلق .

وهذه الصفوف ، صفوف خضوع ، وذل للملك الجبار .

[وجىء يومئذ بجهنم] تقودها الملائكة بالسلاسل .

فإذا وقعت هذه الأمور [يومئذ يتذكر الإنسان] ما قدمه من خير ومن شر .

[وأنى له الذكرى] فقد فات أوانها ، وذهب زمانها .

[يقول] متحسرا على ما فرط فى جنب الله .

[يا ليتنى قدمت لحياتى] الباقية الدائمة ، عملا صالحا ، كما قال تعالى : « يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا * يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانا خليلا » .

وفى هذا ، دليل على أن الحياة ، التى ينبغى السعى فى كمالها ، وتحصيلها وكمالها ، وفى تتميم لذاتها ، هى الحياة فى دار القرار ، فإنها دار الخلد والبقاء .

[فيومئذ لا يعذب عذابه أحد] لمن أهمل ذلك اليوم ، ونسى العمل له .

[ولا يوثق وثاقه أحد] فإنهم يوثقون بسلاسل من نار ، ويسحبون على وجوههم فى الحميم ، ثم فى النار يسجرون ، فهذا جزاء المجرمين .

وأما من آمن بالله ، واطمأن به ، وصدق رسله فيقال له :

يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

[يا أيتها النفس المطمئنة] إلى ذكر الله ، الساكنة إلى حبه ، التى قرت عينها بالله .

[ارجعى إلى ربك] الذى رباك بنعمته [راضية مرضية] أي : راضية عن الله ، وعن ما أكرمها به من الثواب ، والله قد رضى عنها .

[فادخلى فى عبادى وادخلى جنتى] وهذا تخاطب به الروح يوم القيامة وتخاطب به وقت السياق والموت .

تم تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

تفسـير

سورة البلد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن

---

* يقسم تعالى [بهذا البلد] الأمين ، وهو : مكة المكرمة،أفضل البلدان على الإطلاق ، خصوصا وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم، فيها .

[ووالد وما ولد] أى : آدم وذريته .

والمقسم عليه قوله : [لقد خلقنا الإنسان فى كبد] يحتمل أن المراد بذلك ما يكابده الإنسان ويقاسيه ، من الشدائد فى الدنيا ، وفى البرزخ ، ويوم يقوم الأشهاد .

وأنه ينبغى له ، أن يسعى فى عمل يريحه من هذه الشدائد ، ويوجب له الفرح والسرور الدائم .

وإن لم يفعل ، فإنه لا يزال يكابد العذاب الشديد ، أبد الآباد .

ويحتمل أن المعنى : لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ، وأقوم خلقة ، يقدر على التصرف والأعمال الشديدة .

يَقدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

ومع ذلك ، فإنه لم يشكر الله على هذه النعمة العظيمة ، بل بطر بالعافية وتجبر على خالقه ، فحسب بجهله وظلمه ، أن هذه الحال ستدوم له، وأن سلطان تصرفه لا ينعزل ، ولهذا قال :

[أيحسب أن لن يقدر عليه أحد] ويطغى ويفتخر بما أنفق من الأموال على شهوات نفسه ، حيث [يقول أهلكت مالا لبدا] أى : كثيرا ، بعضه فوق بعض .

وسمى الله الإنفاق فى الشهوات والمعاصى ، إهلاكا ، لأنه لا ينتفع المنفق بما أنفق ، ولا يعود إليه من إنفاقه ، إلا الندم والخسارة ، والتعب والقلة .

لا كمن أنفق في مرضاة الله ، في سبيل الخير ، فإن هذا ، قد تاجر مع الله ، وربح أضعاف ما أنفق .

قال الله متوعدا هذا الذى افتخر بما أنفق فى الشهوات :

[أيحسب أن لم يره أحد] أى : أيظن فى فعله هذا ، أن الله لا يراه ولا يحاسبه على الصغير والكبير ؟ .

بل قد رآه الله ، وحفظ عليه أعماله ، ووكل به الكرام الكاتبين ، لكل ما عمله من خير وشر .

ثم قرره بنعمه فقال : [ألم نجعل له عينين * ولسانا وشفتين] للجمال والبصر ، والنطق ، وغير ذلك من المنافع الضرورية فيها ، فهذه نعم الدنيا.

وَهَدَيْنَـٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَـٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ

ثم قال فى نعم الدين : [وهديناه النجدين] أى : طريقى الخير والشر، بينا له الهدى من الضلال ، والرشد من الغى .

فهذه المنن الجزيلة ، تقتضى من العبد ، أن يقوم بحقوق الله ، ويشكره على نعمه ، وأن لا يستعين بها على معاصى الله ، ولكن هذا الإنسان لم يفعل ذلك .

[فلا اقتحم العقبة] أى : لم يقتحمها ويعبر عليها ، لأنه متبع لهواه .

وهذه العقبة ، شديدة عليه ، ثم فسر هذه العقبة بقوله :

[وما أدراك ما العقبة * فك رقبة] أى : فكها من الرق ، بعتقها ، أو مساعدتها على أداء كتابتها ، ومن باب أولى ، فكاك الأسير المسلم عند الكفار .

[أو إطعام فى يوم ذى مسغبة] أى : مجاعة شديدة ، بأن يطعم وقت الحاجة ، أشد الناس حاجة .

[يتيما ذا مقربة] جامعا بين كونه يتيما ، وفقيرا ذا قرابة .

[أو مسكينا ذا متربة] أى : قد لزق بالتراب ، من الحاجة والضرورة .

[ثم كان من الذين آمنوا] وعملوا الصالحات ، أى : آمنوا بقلوبهم

ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُوْلَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا هُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ ﴿٢٠﴾

بما يجب الإيمان به ، وعملوا الصالحات بجوارحهم .

فدخل فى هذا ، كل قول ، وفعل واجب ، أو مستحب .

[وتواصوا بالصبر] على طاعة الله ، وعن معصيته ، وعلى أقداره المؤلمة بأن يحث بعضهم بعضا ، على الانقياد لذلك ، والإتيان به ، كاملا ، منشرحا به الصدر ، مطمئنة به النفس .

[وتواصوا بالمرحمة] للخلق ، من إعطاء محتاجهم ، وتعليم جاهلهم ، والقيام بما يحتاجون إليه ، من جميع الوجوه ، ومساعدتهم على المصالح الدينية والدنيوية ، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويكره لهم ما يكره لنفسه

أولئك قاموا بهذه الأوصاف ، والذين وفقهم الله لاقتحام العقبة [أولئك أصحاب الميمنة] لأنهم أدوا ، ما أمر الله به ، من حقوقه ، وحقوق عباده ، وتركوا ما نهوا عنه ، وهذا عنوان السعادة وعلامتها .

[والذين كفروا بآياتنا] بأن نبذوا هذه الأمور وراء ظهورهم ، فلم يصدقوا بالله ، ولا آمنوا به ، ولا عملوا صالحا ، ولا رحموا عباد الله .

[أولئك هم أصحاب المشئمة * عليهم نار مؤصدة] أى : مغلقة ، فى عمد ممددة ، قد مدت من ورائها ، لئلا تنفتح أبوابها ، حتى يكونوا فى ضيق ، وهم ، وشدة .

تم تفسير سورة البلد ـ والحمد لله

تفسير

سورة الشمس

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة فقال :

[والشمس وضحاها] أي : نورها ، ونفعها الصادر منها .

[والقمر إذا تلاها] أي : تبعها فى المنازل والنور .

[والنهار إذا جلاها] أي : جلّى ما على وجه الأرض ، وأوضحه .

[والليل إذا يغشاها] أى : يغشى وجه الأرض ، فيكون ماعليها مظلما.

فتعاقب الظلمة والضياء ، والشمس والقمر ، على هذا العالم ، بانتظام وإتقان ، وقيام لمصالح العباد ، أكبر دليل على أن الله بكل شىء عليم ، وعلى كل شىء قدير ، وأنه المعبود وحده ، الذى كل معبود سواه ، باطل .

[والسماء وما بناها] يحتمل أن « ما » موصولة ، فيكون الإقسام بالسماء وبانيها ، وهو الله تعالى .

وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

ويحتمل أنها مصدرية ، فيكون الإقسام بالسماء وبنيانها ، الذى هو غاية ما يقدر من الإحكام والإتقان والإحسان .

ونحو هذا قوله : [والأرض وما طحاها] أى : مدهاووسعها، فتمكن الخلق حينئذ ، من الانتفاع بها ، بجميع أوجه الانتفاع .

[ونفس وماسواها] يحتمل أن المراد، ونفس سائر المخلوقات الحيوانية، كما يؤيد هذا ، العموم .

ويحتمل أن الإقسام بنفس الإنسان المكلف ، بدليل ما يأتى بعده .

وعلى كُلٍّ ، فالنفس آية كبيرة من آياته ، التى يحق الإقسام بها ، فإنها فى غاية اللطف والخفة ، سريعة التنقل والحركة ، والتغير ، والتأثر، والانفعالات النفسية ، من الهم ، والإرادة ، والقصد ، والحب ، والبغض .

وهى التى ، لولاها ، لكان البدن مجرد تمثال ، لا فائدة فيه

وتسويتها على ما هى عليه ، آية من آيات الله العظيمة .

وقوله : [قد أفلح من زكاها] أى : طهر نفسه من الذنوب ، ونقاها من العيوب ، ورقَّاها بطاعة الله ، وعلَّاها بالعلم النافع ، والعمل الصالح .

[وقد خاب من دساها[1]] أى : أخفى نفسه الكريمة ، التى ليست

---

(١) أى : أخفاها فى مزابل المعاصى، وأمات استعدادها للخير بالمداومة على اتباع طرق الشيطان وفعل الفجور .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنبَعَثَ أَشْقَاهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَاهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ

حقيقة بقمعها وإخفائها ، بالتدنس بالرذائل ، والدنو من العيوب والذنوب ، وترك ما يكملها وينميها ، واستعمال ما يشينها ويدسيها .

[كذبت ثمود بطغواها] أى : بسبب طغيانها ، وترفعها عن الحق ، وعتوها على رسولهم .

[إذ انبعث أشقاها] أى : أشقى القبيلة ، وهو « قدار بن سالف » لعقرها ، حين اتفقوا على ذلك ، وأمروه ، فأتمر لهم .

[فقال لهم رسول الله] صالح عليه السلام محذرا :

[ناقة الله وسقياها] أى : احذروا عقر ناقة الله ، التى جعلها لكم آية عظيمة ، ولا تقابلوا نعمة الله عليكم ، بِسَقْىِ لبنها ، أن تعقروها .

فكذبوا نبيهم صالحا [فعقروها ، فدمدم عليهم[1] ربهم بذنبهم]

---

(١) دمدم عليهم . أى : أطبق العذاب عليهم . وهو من تكرير قولهم : ناقة مدمدمة : إذا لبسها الشحم . اهـ أبو السعود وفى مفردات الراغب « فدمدم عليهم ربهم » أى : أهلكهم وأزعجهم .

وقيل : الدمدمة : حكاية صوت الهرة ، ومنه دمدم فلان فى كلامه .

ودمدمت الثوب : طليته بصبغ مّا ، والدمام ، ما يطلى به ، وبعير مدمدم بالشحم .

والدَّامَّاء والدممة : جحر اليربوع ، والدَّامَّاء بالتخفيف ، والديمومة : المفازة . اهـ .

عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ﴿١٥﴾

أى : دمر عليهم ، وعمهم بعقابه ، وأرسل عليهم الصيحة من فوقهم ، والرجفة من تحتهم ، فأصبحوا جاثمين على ركبهم ، لا تجد منهم داعيا ولا مجيبا .

[فسواها] عليهم أى : سوى بينهم فى العقوبة [ولا يخاف عقباها] أى : تَبِعَتَهَا .

وكيف يخاف من هو قاهر ، لايخرج عن قهره وتصرفه ، مخلوق ، حكيم فى كل ما قضاه وشرعه ؟

تم تفسير سورة الشمس بحمد الله وعونه

تفســـــير

سُورَةُ اللَّيـْـلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيْـلِ إِذَا يَغْشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنْ

---

* هذا قسم من الله ، بالزمان الذى تقع فيه أفعال العباد ، على تفاوت أحوالهم فقال :

[والليل إذا يغشى] أى : يعم الخلق بظلامه ، فيسكن إلى مأواه ومسكنه ، ويستريح العباد من الكد والتعب .

[والنهار إذا تجلى]للخلق ، فاستضاءوا بنوره ،وانتشروافى مصالحهم .

[وما خلق الذكر والأنثى] إن كانت « ما » موصولة ، كان إقساما بنفسه الكريمة الموصوفة ، بكونه خالق الذكور والإناث .

وإن كانت مصدرية ، كان قسما بخلقه ، للذكر والأنثى .

وكمال حكمته فى ذلك ، أن خلق من كل صنف من الحيوانات ، التى يريد إبقاءها ، ذكرا وأنثى ، ليبقى النوع ، ولا يضمحل ، وقاد كلا منهما إلى الآخر ، بسلسلة الشهوة .

وجعل كل منهما ، مناسبا للآخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾

وقوله [إن سعيكم لشتى] هذا هو المقسم عليه ، أى : إن سعيكم ، أيها المكلفون ، لَمُتَفَاوِتٌ تفاوتا كثيراً ، وذلك بحسب تفاوت نفس الأعمال ومقدارها ، والنشاط فيها ، وبحسب الغاية المقصودة بتلك الأعمال ، هل هو وجه الله الأعلى الباقى ؟ فيبقى العمل له ببقائه ، وينتفع به صاحبه .

أم هى غاية مضمحلة فانية ، فيبطل السعى ببطلانها ويضمحل باضمحلالها؟

وهذا كل عمل يقصد به غير وجه الله ، بهذا الوصف .

ولهذا فضل الله العاملين ، ووصف أعمالهم فقال : [فأما من أعطى] أى : ما أمر به من العبادات المالية ، كالزكوات ، والنفقات ، والكفارات ، والصدقات ، والإنفاق فى وجوه الخير .

والعبادات البدنية ، كالصلاة ، والصوم ، وغيرهما .

والمركبة من ذلك ، كالحج ، والعمرة ، ونحوهما .

[واتقى] ما نهى عنه ، من المحرمات والمعاصى ، على اختلاف أجناسها .

[وصدق بالحسنى] أى: صدق بـ« لا إله إلا الله » وما دلت عليه ، من العقائد الدينية ، وما ترتب عليها ، من الجزاء .

[فسنيسره لليسرى] أى : نيسر له أمره ، ونجعله مسهلا عليه كل خير ، ميسرا له ترك كل شر ، لأنه أتى بأسباب التيسير ، فيسر الله له ذلك .

وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا

[وأما من بخل] بما أمر به ، فترك الإنفاق الواجب والمستحب ، ولم تسمح نفسه بأداء ماأَوجب لله.

[واستغنى] عن الله ، فترك عبوديته جانبا ، ولم ير نفسه مفتقرة غاية الافتقار إلى ربها ، الذى لا نجاة لها ، ولا فوز ، ولا فلاح ، إلا بأن يكون هو محبوبها ومعبودها ، الذى تقصده وتتوجه إليه .

[وكذب بالحسنى] أى : بما أوجب الله على العباد ، التصديق به من العقائد الحسنة .

[فسنيسره للعسرى] أى : للحالة العسرة ، والخصال الذميمة ، بأن يكون ميسرا للشر ، أينما كان ، ومقيضا له أفعال المعاصى ، نسأل الله العافية .

[وما يغنى عنه ماله] الذى أطغاه ، واستغنى به ، وبخل به .

[إذا تردى] أى : هلك ومات ، فإنه لا يصحب الإنسان ، إلا عمله الصالح .

وأما ماله ، الذى لم يخرج منه الواجب ، فإنه يكون وبالا عليه ، إذ لم يقدم منه لآخرته شيئا .

[إن علينا للهدى] أى : إن الهدى المستقيم طريقه ، يوصل إلى الله ، ويدنى من رضاه .

لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ

وأما الضلال ، فطرقه مسدودة عن الله ، لا توصل صاحبها ، إلا للعذاب الشديد .

[وإن لنا للآخرة والأولى] ملكا وتصرفا ، ليس له فيهما مشارك .

فليرغب الراغبون إليه فى الطلب ، ولينقطع رجاؤهم عن المخلوقين .

[فأنذرتكم نارا تلظى] أى : تستعر وتتوقد .

[لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب] بالخبر [وتولى] عن الأمر .

[وسيجنبها الأتقى* الذى يؤتى ماله يتزكى] بأن يكون قصده به تزكية نفسه ، وتطهيرها من الذنوب والأدناس ، قاصدا به وجه الله تعالى .

فدل هذا ، على أنه إذا تضمن الإنفاق المستحب ، ترك واجب ، كدين ، ونفقة ونحوها ، فإنه غير مشروع ، بل تكون عطيته مردودة ، عند كثير من العلماء ، لأنه يتزكى بفعل مستحب ، يفوت عليه الواجب .

[وما لأحد عنده من نعمة تجزى] أى : ليس لأحد من الخلق على هذا الأتقى نعمة تجزى ، إلا وقد كافأه عليها ، وربما بقى له الفضل والمنة على الناس فتمحض عبداً لله ، لأنه رقيق إحسانه وحده .

وأما من بقيت عليه نعمة الناس ، فلم يجزها ويكافئها ، فإنه لابد أن يترك الناس ، ويفعل لهم ، ما ينقص إخلاصه .

عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾
وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

وهذه الآية وإن كانت متناولة لأبى بكر الصديق رضى الله عنه ، بل قد قيل : إنها نزلت بسببه ، فإنه ـ رضى الله عنه ـ ما لأحد عنده من نعمة تجزى ، حتى ولا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلا نعمة الرسول التى لا يمكن جزاؤها ، وهى نعمة الدعوة إلى دين الإسلام ، وتعليم الهدى ، ودين الحق ، فإن لله ورسوله ، المنة على كل أحد .

منة لا يمكن لها جزاء ولا مقابلة ، فإنها متناولة لكل من اتصف بهذا الوصف الفاضل .

فلم يبق لأحد عليه من الخلق نعمة تجزى ، فبقيت أعماله خالصة لوجه الله تعالى .

ولهذا قال [إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى] هذا الأتقى بما يعطيه الله ، من أنواع الكرامات ، والمثوبات .

تم تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الضحى

بسم الله الرحمن الرحيم

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ

---

* أقسم تعالى، بالنهار إذا انتشر ضياؤه بالضحى، وبالليل إذا، سجى وادلهمت ظلمته، على اعتناء الله برسوله صلى الله عليه وسلم، فقال :

[ما ودعك ربك] أي : ما تركك منذ اعتنى بك، ولا أهملك، منذ رباك ورعاك.

بل لم يزل يربيك أكمل تربية، ويعليك درجة بعد درجة.

[وما قلا]ك الله أي : ما أبغضك، منذ أحبك، فإن نفي الضد، دليل على ثبوت ضده، والنفي المحض، لا يكون مدحا، إلا إذا تضمن ثبوت كمال.

فهذه حال الرسول صلى الله عليه وسلم، الماضية والحاضرة، أكمل حال وأتمها، محبة الله له، واستمرارها، وترقيته في درجات الكمال، ودوام اعتناء الله به.

وأما حاله المستقبلة فقال : [وللآخرة خير لك من الأولى] أي : كل

يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا ٱلْيَتِيمَ

حالة متأخرة من أحوالك ، فإن لها الفضل على الحالة السابقة .

فلم يزل صلى الله عليه وسلم ، يصعد فى درجات المعالى ، ويمكن الله له دينه ، وينصره على أعدائه ، ويسدده فى أحواله ، حتى مات ، وقد وصل إلى حال ، ماوصل إليها الأولون والآخرون ، من الفضائل ، والنعم ، وقرة العين ، وسرور القلب .

ثم بعد هذا ، لا تسأل عن حاله فى الآخرة ، من تفاصيل الإكرام ، وأنواع الإنعام .

ولهذا قال : [ولسوف يعطيك ربك فترضى] وهذا أمر لايمكن التعبير عنه ، إلا بهذه العبارة الجامعة الشاملة .

ثم امتن عليه بما يعلمه من أحواله الخاصة فقال :

[ألم يجدك يتيما فآوى] أى : وجدك لا أم لك ، ولا أب .

بل قد مات أبوه ، وهو لا يدبر نفسه ، فآواه الله ، وكفله جده عبد المطلب .

ثم لما مات جده ، كفله الله عمه أبا طالب ، حتى أيده بنصره وبالمؤمنين .

[ووجدك ضالا فهدى] أى : وجدك لا تدرى ، ما الكتاب ، ولا الإيمان .

فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا ٱلسَّآئِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

فعلمك ما لم تكن تعلم ، ووفقك لأحسن الأعمال ، والأخلاق .

[ووجدك عائلا] أى : فقيرا [فأغنا]ك الله ، بما فتح عليك من البلدان ، التى جبيت لك أموالها وخراجها .

فالذى أزال عنك هذه النقائص ، سيزيل عنك كل نقص .

والذى أوصلك إلى الغنى ، وآواك ، ونصرك ، وهداك ، قَابِلْ نعمته بالشكران .

ولهذا قال : [فأما اليتيم فلا تقهر] أى : لا تسىء معاملة اليتيم ، ولا يضق صدرك عليه ، ولا تنهره ، بل أكرمه ، وأعطه ما تيسر ، واصنع به كما تحب أن يصنع بولدك من بعدك .

[وأما السائل فلا تنهر] أى : لا يصدر منك كلام للسائل ، يقتضى رده عن مطلوبه ، بنهر ، وشراسة خلق ، بل أعطه ، ما تيسر عندك ، أو ردّه بمعروف وإحسان .

ويدخل فى هذا ، السائل للمال ، والسائل للعلم ، ولهذا كان المعلم ، مأمورا بحسن الخلق ، مع المتعلم ، ومباشرته بالإكرام ، والتحنن عليه ، فإن فى ذلك ، معونة له على مقصده ، وإكراما لمن كان يسعى فى نفع العباد والبلاد .

[وأما بنعمة ربك فحدث] وهذا يشمل النعم الدينية والدنيوية .

فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

أى : أثنِ على الله بها ، وخصها بالذكر ، إن كان هناك مصلحة .

وإلا فحدث بنعم الله على الإطلاق ، فإن التحدث بنعمة الله ، داع لشكرها ، وموجب لتحبيب القلوب إلى من أنعم بها ، فإن القلوب ، مجبولة على محبة المحسن .

تم تفسير سورة الضحى ـ بحمد الله وعونه

تفسير

سورة الشرح «الانشراح»

بسم الله الرحمن الرحيم

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ

---

* يقول تعالى ـ ممتناً على رسوله : [ألم نشرح لك صدرك] أى : نوسعه لشرائع الدين والدعوة إلى الله ، والاتصاف بمكارم الأخلاق ، والإقبال على الآخرة ، وتسهيل الخيرات .

فلم يكن ضيقاً حرجاً ، حتى لا يكاد ينقاد لخير ، ولا تكاد تجده منبسطاً .

[ووضعنا عنك وزرك] أى : ذنبك [الذى أنقض] أى : أثقل [ظهرك] كما قال تعالى : « ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » .

[ورفعنا لك ذكرك] أى : أعلينا قدرك ، وجعلنا لك الثناء الحسن العالى ، الذى لم يصل إليه أحد من الخلق .

فلا يذكر الله ، إلا ذكر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما فى الدخول فى الإسلام ، وفى الأذان ، والإقامة ، والخطب ، وغير ذلك ، من الأمور التى أعلى الله بها ، ذكر رسوله محمد صلى الله عليه وسلم .

يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ

وله فى قلوب أمته ، من المحبة ، والإجلال ، والتعظيم ، ما ليس لأحد غيره ، بعد الله تعالى .

فجزاه الله عن أمته ، أفضل ما جزى نبياً عن أمته .

وقوله : [فإن مع العسر يسراً * إن مع العسر يسراً] بشارة عظيمة ، أنه كلما وجد عسر وصعوبة ، فإن اليسر يقارنه ويصاحبه ، حتى لو دخل العسر جحر ضب ، لدخل عليه اليسر ، فأخرجه كما قال تعالى : « سيجعل الله بعد عسر يسراً ».

وكما قال النبي صلى الله عليه وسلم « وإن الفرج مع الكرب ، وإن مع العسر يسراً » .

وتعريف « العسر » فى الآيتين ، يدل على أنه واحد ، وتنكير « اليسر » يدل على تكراره ، فلن يغلب عسر يسرين .

وفي تعريفه بالألف واللام ، الدال على الاستغراق والعموم ، دلالة على أن كل عسر ، وإن بلغ من الصعوبة ما بلغ ، فإنه في آخره التيسير ، ملازم له .

ثم أمر رسوله أصلا ، والمؤمنين تبعاً ، بشكره ، والقيام بواجب نعمه فقال :

[فإذا فرغت فانصب] أى : إذا تفرغت من أشغالك ، ولم يبق فى قلبك ما يعوقه ، فاجتهد فى العبادة والدعاء .

رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴿٨﴾

[وإلى ربك] وحده [فارغب] أى : أعظم الرغبة ، فى إجابة دعائك ، وقبول دعواتك .

ولا تكن ، ممن إذا فرغوا ، لعبوا ، وأعرضوا عن ربهم ، وعن ذكره ، فتكون من الخاسرين .

وقد قيل : إن معنى هذا : فإذا فرغت من الصلاة وأكملتها ، فانصب فى الدعاء .

وإلى ربك فارغب فى سؤال مطالبك .

واستدل من قال هذا القول ، على مشروعية الدعاء والذكر ، عقب الصلوات المكتوبات . والله أعلم .

تم تفسير سورة الشرح « الإنشراح »

تفســـير

سُورَةُ التِّينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ

---

* [التين] هو التين المعروف ، وكذلك [الزيتون] .

أقسم بهاتين الشجرتين ، لكثرة منافع شجرهما وثمرهما ، ولأن سلطانهما فى أرض الشام ، محل نبوة عيسى بن مريم عليه السلام .

[وطور سينين] أى : طور سيناء ، محل نبوة موسى عليه السلام .

[وهذا البلد الأمين] وهو : مكة المكرمة ، محل نبوة محمد صلى الله عليه وسلم .

فأقسم تعالى بهذه المواضع المقدسة ، التى اختارها ، وابتعث منها أفضل الأنبياء وأشرفهم .

والمقسم عليه قوله : [لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم] أى : تام الخلق ، متناسب الأعضاء ، منتصب القامة ، لم يفقد مما يحتاج إليه ظاهراً وباطناً ، شيئاً .

أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

ومع هذه النعم العظيمة ، التى ينبغى له القيام بشكرها ، فأكثر الخلق منحرفون عن شكر المنعم ، مشتغلون باللهو واللعب ، قد رضوا لأنفسهم بأسافل الأمر ، وسفساف الأخلاق .

فردهم الله فى أسفل سافلين ، أى : أسفل النار ، موضع العصاة المتمردين على ربهم ، إلا من منّ الله عليه بالإيمان ، والعمل الصالح ، والأخلاق الفاضلة العالية .

[فلهم] بذلك المنازل العالية ، و [أجر غير ممنون] أى : غير مقطوع . بل لذات متوافرة ، وأفراح متواترة ، ونعم متكاثرة ، فى أبد ، لا يزول ، ونعيم ، لا يحول ، أكلها دائم وظلها .

[فما يكذبك بعد بالدين] أى : أى شىء يكذبك أيها الإنسان ، بيوم الجزاء على الأعمال ، وقد رأيت من آيات الله الكثيرة ما يحصل لك به اليقين ، ومن نعمه ، ما يوجب عليك أن لا تكفر بشىء منها ؟

[أليس الله بأحكم الحاكمين] فهل تقتضى حكمته ، أن يترك الخلق سدى ، لا يؤمرون ، ولا ينهون ، ولا يثابون ، ولا يعاقبون ؟

أم الذى خلق بنى الإنسان أطواراً ، بعد أطوار ، وأوصل إليهم من النعم ، والخير ، والبر ، ما لا يحصونه ، ورباهم التربية الحسنة ، لا بد أن يعيدهم إلى دار ، هى مستقرهم ، وغايتهم التى إليها يقصدون ، ونحوها يؤمون .

تم تفسير سورة التين ـ والحمد لله

تفسير

سورة العلق

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾

---

* هذه السورة أول السور القرآنية ، نزولا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فإنها نزلت فى مبادىء النبوة ، إذ كان لا يدرى ، ما الكتاب ولا الإيمان .

فجاءه جبريل عليه السلام بالرسالة ، وأمره أن يقرأ ، فاعتذر وقال : « ما أنا بقارىء » فلم يزل به حتى قرأ .

فأنزل الله [اقرأ باسم ربك الذى خلق] عموم الخلق .

ثم خص الإنسان ، وذكر ابتداء خلقه [من علق] .

فالذى خلق الإنسان ، واعتنى بتدبيره ، لا بد أن يدبر بالأمر والنهى ، وذلك بإرسال الرسل ، وإنزال الكتب .

ولهذا أتى بعد الأمر بالقراءة ، بخلقه للإنسان .

عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَأَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ

ثم قال : [اقرأ وربك الأكرم] أي : كثير الصفات واسعها ، كثير الكرم والإحسان ، واسع الجود ، الذى من كرمه ، أن علم أنواع العلوم .

و [علم بالقلم علم الإنسان * ما لم يعلم] فإنه تعالى أخرجه من بطن أمه ، لا يعلم شيئاً ، وجعل له السمع ، والبصر ، والفؤاد ، ويسر له أسباب العلم .

فعلمه القرآن ، وعلمه الحكمة ، وعلمه بالقلم ، الذى به تحفظ به العلوم ، وتضبط الحقوق وتكون رسلا للناس ، تنوب مناب خطابهم .

فلله الحمد والمنة ، الذى أنعم على عباده ، بهذه النعم ، التى لا يقدرون لها ، على جزاء ولا شكور .

ثم منّ عليهم بالغنى ، وسعة الرزق .

ولكن الإنسان - لجهله وظلمه - إذا رأى نفسه غنياً ، طغى وبغى ، وتجبر عن الهدى ، ونسى أن لربه الرجعى ، ولم يخف الجزاء .

بل بما وصلت به الحال ، أنه يترك الهدى بنفسه ، ويدعو غيره إلى تركه .

فينهى عن الصلاة ، التى هى أفضل أعمال الإيمان ، يقول الله لهذا المتمرد العاتى :

[أرأيت] أيها الناهى للعبد إذا صلى [إن كان] العبد المصلى [على الهدى] العلم بالحق ، والعمل به [أو أمر] غيره [بالتقوى] .

بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ﴿١٦﴾ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا

فهل يحسن أن ينهى ، من هذا وصفه ؟ أليس نهيه ، من أعظم المحادّة لله ، والمحاربة للحق ؟

فإن النهى ، لا يتوجه إلا ممن هو فى نفسه على غير الهدى ، أو كان يأمر غيره بخلاف التقوى .

[أرأيت إن كذب] الناهى بالحق [وتولى] عن الأمر ، أما يخاف الله ، ويخشى عقابه ؟ [ألم يعلم بأن الله يرى] ما يعمل ويفعل ؟ .

ثم توعده إن استمر على حاله فقال : [كلا لئن لم ينته] عما يقول ويفعل [لنسفعن بالناصية] أى : لنأخذن بناصيته ، أخذاً عنيفاً ، وهى حقيقة بذلك ، فإنها [ناصية كاذبة خاطئة] أى : كاذبة فى قولها ، خاطئة فى فعلها .

[فليدع] هذا الذى حق عليه العذاب [ناديه] أى : أهل مجلسه وأصحابه ، ومن حوله ، ليعينوه على ما نزله به .

[سندعو الزبانية] أى : خزنة جهنم ، لأخذه ، وعقوبته .

فلينظر ، أى الفريقين أقوى وأقدر ؟

فهذه حالة الناهى ، وما توعد به من العقوبة .

وأما حالة المنهى ، فأمره الله ، أن لا يصغى إلى هذا الناهى ، ولا ينقاد لنهيه فقال :

لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴿١٩﴾

[كلا لا تطعه] أى : فإنه لا يأمر إلا بما فيه الخسار .

[واسجد] لربك [واقترب] منه فى السجود وغيره من أنواع الطاعات والقربات ، فإنها كلها تُدْنِى من رضاه ، وتقرب منه .

وهذا عام ، لكل ناهٍ عن الخير ، ولكل منهى عنه .

وإن كانت نازلة فى شأن أبى جهل ، حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة ،وعذبه وأذاه .

تم تفسير سورة العلق ـ والحمد لله رب العالمين

تفسـير

سُورَة القَدر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

---

* يقول تعالى مبيناً لفضل القرآن وعلو قدره : [إنا أنزلناه فى ليلة القدر] وذلك أن الله تعالى ، ابتدأ بإنزال القرآن فى رمضان فى ليلة القدر، ورحم الله بها العباد رحمة عامة ، لا يقدر العباد لها شكراً .

وسميت ليلة القدر ، لعظم قدرها ، وفضلها عند الله ، ولأنه يقدر فيها ، ما يكون فى العام من الأجل والأرزاق ، والمقادير القدرية .

ثم فخم شأنها ، وعظم مقدارها فقال : [وما أدراك ما ليلة القدر] أى : فإن شأنها جليل ، وخطرها عظيم .

[ليلة القدر خير من ألف شهر] أى : تعادل فى فضلها ألف شهر .

فالعمل الذى يقع فيها ، خير من العمل فى ألف شهر ، خالية منها .

وهذا مما تتحير فيها الألباب ، وتندهش له العقول ، حيث منَّ تعالى على هذه الأمة الضعيفة القوة والقوى ، بليلة يكون العمل فيها يقابل ويزيد على ألف شهر ، عمر رجل معمر عمراً طويلاً ، نيفاً وثمانين سنة .

وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

[تنزل الملائكة والروح فيها] أى : يكثر نزولهم فيها [من كل أمر سلام هى] أى : سالمة من كل آفة وشر ، وذلك لكثرة خيرها .

[حتى مطلع الفجر] أى : مبتداها من غروب الشمس ، ومنتهاها طلوع الفجر .

وقد تواترت الأحاديث فى فضلها ، وأنها فى رمضان ، وفى العشر الأواخر منه ، خصوصاً فى أوتاره ، وهى باقية فى كل سنة إلى قيام الساعة .

ولهذا كان النبى صلى الله عليه وسلم ، يعتكف ، ويكثر من التعبد فى العشر الأواخر من رمضان ، رجاء ليلة القدر . والله أعلم .

تم تفسير سورة القدر ــ بعون الله

تفسـير

سورة البينة

بسم الله الرحمن الرحيم

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ

يقول تعالى : [لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب] أى : من اليهود والنصارى [والمشركين] من سائر أصناف الأمم] .

[منفكين] عن كفرهم وضلالهم ، الذى هم عليه ، أى : لا يزالون فى غيهم وضلالهم ، لا يزيدهم مرور الأوقات إلا كفراً .

[حتى تأتيهم البينة] الواضحة ، والبرهان الساطع ، ثم فسر تلك البينة فقال :

[رسول من الله] أى : أرسله الله ، يدعو الناس إلى الحق ، وأنزل عليه كتاباً يتلوه ، ليعلم الناس الحكمة ، ويزكيهم ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ولهذا قال :

[يتلو صحفاً مطهرة] أى : محفوظة من قربان الشياطين ، لا يمسها إلا المطهرون ، لأنها أعلى ما يكون من الكلام .

أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ

ولهذا قال عنها : [فيها] أى : فى تلك الصحف [كتب قيمة] أى : أخبار صادقة ، وأوامر عادلة تهدى إلى الحق ، وإلى صراط مستقيم .

فإذا جاءتهم هذه البينة ، فحينئذ يتبين طالب الحق ، ممن ليس له مقصد فى طلبه .

فيهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىَّ عن بينة .

وإذا لم يؤمن أهل الكتاب بهذا الرسول ، وينقادوا له ، فليس ذلك ببدع من ضلالهم وعنادهم ، فإنهم ما تفرقوا واختلفوا ، وصاروا أحزاباً [إلا من بعد ما جاءتهم البينة] ، التى توجب لأهلها الاجتماع والاتفاق .

ولكنهم لرداءتهم ونذالتهم ، لم يزدهم الهدى إلا ضلالا ، ولا البصيرة إلا عمى .

مع أن الكتب كلها ، جاءت بأصل واحد ، ودين واحد .

[وما أمروا] فى سائر الشرائع [إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين] أى : قاصدين بجميع عباداتهم ، الظاهرة والباطنة ، وجه الله ، وطلب الزلفى لديه .

[حنفاء] أى : معرضين مائلين عن سائر الأديان ، المخالفة لدين التوحيد .

أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِى نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن

وخص الصلاة والزكاة بالذكر ، مع أنهما داخلان فى قوله [ليعبدوا الله مخلصين له الدين] لفضلهما وشرفهما ، وكونهما العبادتين اللتين ، من قام بهما ، قام بجميع شرائع الدين .

[وذلك] أن التوحيد والإخلاص فى الدين ، هما [دين القيمة] أى : الدين المستقيم ، الموصل إلى جنات النعيم ، وما سواه ، فطرق موصلة إلى الجحيم .

ثم ذكر جزاء الكافرين ، بعد ما جاءتهم البينة فقال :

[إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين فى نار جهنم] قد أحاط بهم عذابها ، واشتد عليهم عقابها .

[خالدين فيها] لا يفتر عنهم العذاب ، وهم فيها مبلسون .

[أولئك هم شر البرية] لأنهم عرفوا الحق وتركوه ، وخسروا الدنيا والآخرة .

[إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية] لأنهم عبدوا الله وعرفوه ، وفازوا بنعيم الدنيا والآخرة .

[جزاؤهم عند ربهم جنات عدن] أى : جنات إقامة ، لا ظعن فيها ولا رحيل ، ولا طلب لغاية فوقها .

تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

[تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ، رضى الله عنهم ورضوا عنه] فرضى عنهم بما قاموا به من مراضيه ، ورضوا عنه ، بما أعد لهم من أنواع الكرامات .

[ذلك] الجزاء الحسن [لمن خشى ربه] أى : لمن خاف الله ، فأحجم عن معاصيه ، وقام بما أوجب عليه .

تم تفسير سورة البينة ـ بفضل الله وتوفيقه

تفســـير

سُورَة الزّلزلة

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلۡزِلَتِ ٱلۡأَرۡضُ زِلۡزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخۡرَجَتِ ٱلۡأَرۡضُ أَثۡقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلۡإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوۡمَئِذٖ تُحَدِّثُ أَخۡبَارَهَا ﴿٤﴾

---

* يخبر تعالى ، عما يكون يوم القيامة وأن الأرض تتزلزل وترجف ، وترتج ، حتى يسقط ما عليها من بناء ومعلم .

فتندك جبالها ، وتُسَوَّى تلالها ، وتكون قاعاً صفصفاً ، لا عوج فيه ولا أمت .

[وأخرجت الأرض أثقالها] أى : ما فى بطنها ، من الأموات والكنوز .

[وقال الإنسان] إذا رأى ما عراها ، من الأمر العظيم : [مالها] ؟ أى : أى شىء عرض لها ؟.

[يومئذ تحدث] الأرض [أخبارها] أى : تشهد على العاملين ، بما عملوا على ظهرها ، من خير وشر ، فإن الأرض ، من جملة الشهود ، الذين يشهدون على العباد ، بأعمالهم .

إِنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴿٨﴾

ذلك [بأن ربك أوحى لها] أى : أمرها أن تخبر بما عمل عليها ، فلا تعصى لأمره .

[يومئذ يصدر الناس] من موقف القيامة [أشتاتاً] أى : فرقاً متفاوتين .

[ليروا أعمالهم] أي : ليريهم الله ما عملوا من السيئات ، والحسنات ، ويريهم جزاءه موفراً .

[فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره] وهذا شامل عام ، للخير والشر كله ، لأنه إذا رأى مثقال الذرة ، التي هى أحقر الأشياء وجوزى عليها ، فما فوق ذلك ، من باب أولى وأحرى ، كما قال تعالى :

« يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً »*(ووجدوا ما عملوا حاضراً » .

وهذا ، فيه الترغيب فى فعل الخير ولو قليلا ، والترهيب من فعل الشر ، ولو حقيراً .

تم تفسير سورة الزلزلة ــ والحمد لله

تفســـير

سُورَةُ العَادِيَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ﴿٥﴾

---

* أقسم تعالى بالخيل ، لما فيها من آياته الباهرة ، ونعمه الظاهرة ، ما هو معلوم للخلق .

وأقسم تعالى بها ، فى الحال التى ، لا يشاركها فيه غيرها ، من أنواع الحيوانات فقال :

[والعاديات ضبحا] أي : العاديات عدواً بليغاً قوياً ، يصدر عنه الضبح ، وهو صوت نفسها فى صدرها ، عند اشتداد عَدْوِها .

[فالموريات] بحوافرهن مايطأن عليه من الأحجار [قدحاً] أى : تنقدح النار من صلابة حوافرهن وقوتهن ، إذا عدون .

[فالمغيرات] على الأعداء [صبحاً] وهذا أمر أغلبى ، أن الغارة تكون صباحاً .

[فأثرن به] أى : بعدوهن ، وغارتهن [نقعاً] أى : غباراً .

إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ

[فوسطن به] أى : براكبهن [جمعاً] أى : توسطن به جموع الأعداء ، الذين أغار عليهم .

والمقسم عليه ، قوله : [إن الإنسان لربه لكنود] أى : منوع للخير ، الذى لله عليه .

فطبيعة الإنسان وجبلته ، أن نفسه لا تسمح بما عليه من الحقوق ، فتؤديها كاملة موفرة .

بل طبيعتها ، الكسل والمنع ، لما عليها ، من الحقوق المالية والبدنية ، إلا من هداه الله وخرج عن هذا الوصف ، إلى وصف السماح ، بأداء الحقوق .

[وإنه على ذلك لشهيد] أى : إن الإنسان ، على ما يعرف من نفسه من المنع والكند ، لشاهد بذلك ، لا يجحده ولا ينكره ، لأن ذلك ، بيِّنٌ واضح .

ويحتمل أن الضمير عائد إلى الله ، أى : إن العبد لربه لكنود ، والله شهيد على ذلك .

ففيه الوعيد ، والتهديد الشديد ، لمن هو لربه كنود ، بأن الله عليه شهيد .

[وإنه] أى : الإنسان [لحب الخير] أى : المال [لشديد] أى : كثير الحب للمال .

مَا فِي ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴿١١﴾

وحبه لذلك ، هو الذى أوجب له ترك الحقوق الواجبة عليه .

قدم شهوة نفسه على رضا ربه .

وكلُّ هذا لأنه قصر نظره على هذه الدار ، وغفل عن الآخرة .

ولهذا قال ـ حاثاً له على خوف يوم الوعيد ـ :

[أفلا يعلم] أى : هلَّا يعلم هذا المغتر [إذا بعثر ما فى القبور] أى : أخرج الله الأموات من قبورهم ، لحشرهم ونشرهم .

[وحصل ما فى الصدور] أى : ظهر وبان ما فيها ، وما استتر فى الصدور من كائن الخير والشر ، فصار السر علانية ، والباطن ظاهراً ، وبان على وجوه الخلق ، نتيجة أعمالهم .

[إن ربهم بهم يومئذ لخبير] بأعمالهم الظاهرة والباطنة ، الخفية والجلية ، ومجازيهم عليها .

وخص خبرهم بذلك اليوم ، مع أنه خبير بهم فى كل وقت ، لأن المراد بهذا ، الجزاء على الأعمال ، الناشىء عن علم الله ، واطلاعه

تم تفسير سورة العاديات ، ولله الحمد والمنة

تفسير

سورة القارعة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾

---

* [القارعة] من أسماء يوم القيامة .

سميت بذلك ، لأنها تقرع الناس وتزعجهم بأهوالها .

ولهذا عظم أمرها ، وفخمه بقوله :

[القارعة ما القارعة * وما أدراك ما القارعة * يوم يكون الناس] من شدة الفزع والهول .

[كالفراش المبثوث] أى : كالجراد المنتشر ، الذى يموج بعضه فى بعض .

والفراش هى : الحيوانات ، التى تكون فى الليل ، يموج بعضها ببعض لا تدرى أين توجه .

فإذا أوقد لها نار ، تهافتت إليها ، لضعف إدراكها .

فهذه حال الناس ، أهل العقول .

وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

وأما الجبال الصم الصلاب ، فتكون [كالعهن المنفوش] أى : كالصوف المنفوش ، الذى بقى ضعيفاً جداً ، تطير به ، أدنى ريح .

قال تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهى تمر مر السحاب » .

ثم بعد ذلك ، تكون هباء منثوراً ، فتضمحل ، ولا يبقى منها شىء يشاهد .

فحينئذ تنصب الموازين ، وينقسم الناس قسمين : سعداء وأشقياء .

[فأما من ثقلت موازينه] أى : رجحت حسناته على سيئاته [فهو فى عيشة راضية] فى جنات النعيم .

[وأما من خفت موازينه] بأن لم تكن له حسنات تقاوم سيئاته .

[فأمه هاوية] أى : مأواه ومسكنه ، النار التى من أسمائها الهاوية ، تكون له بمنزلة الأم الملازمة كما قال تعالى : « إن عذابها كان غراماً » .

وقيل : إن معنى ذلك ، فأم دماغه هاوية فى النار ، أى : يلقى فى النار على رأسه .

[وما أدراك ماهيه] وهذا تعظيم لأمرها ، ثم فسرها بقوله : [نارحامية] أى : شديدة الحرارة ، قد زادت حرارتها ، على حرارة نار الدنيا بسبعين ضعفاً . نستجير بالله منها .

تم تفسير سورة القارعة ـ بحمد الله وفضله

تفســـير

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا

---

* يقول تعالى موبخاً عباده عن اشتغالهم عما خلقوا له ، من عبادته وحده لا شريك له ، ومعرفته ، والإنابة إليه ، وتقديم محبته على كل شيء .

[ألهاكم] عن ذلك المذكور [التكاثر] ، ولم يذكر المتكاثر به ، ليشمل ذلك كل ما يتكاثر به المتكاثرون ، ويفتخر به المفتخرون ، من الأموال ، والأولاد ، والأنصار ، والجنود ، والخدم ، والجاه ، وغير ذلك مما يقصد منه مكاثرة كل واحد للآخر ، وليس المقصود منه وجه الله .

فاستمرت غفلتكم ، ولهوتكم ، وتشاغلكم [حتى زرتم المقابر] فانكشف حينئذ لكم ، الغطاء ، ولكن بعد ما تعذر عليكم استئنافه .

ودل قوله [حتى زرتم المقابر] أن البرزخ دار ، المقصود منها ، النفوذ إلى الدار الآخرة ، لأن الله سماهم زائرين ، ولم يسمهم مقيمين .

فدل ذلك على البعث ، والجزاء على الأعمال ، فى دار باقية غير فانية .

لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

ولهذا توعدهم بقوله : [كلا سوف تعلمون * ثم كلا سوف تعلمون * كلا لو تعلمون علم اليقين] أى : لو تعلمون ما أمامكم ، علماً يصل إلى القلوب ، لما ألها كم التكاثر ، ولبادرتم إلى الأعمال الصالحة .

ولـكن عدم العلم الحقيقى ، صيَّركم إلى ما ترون .

[لترون الجحيم] أى : لترون القيامة ، فلترون الجحيم ، التى أعدها الله للـكافرين .

[ثم لترونها عين اليقين] أى : رؤية بصرية ، كما قال تعالى : « ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها ولم يجدوا عنها مصرفاً » .

[ثم لتسألن يومئذ عن النعيم] الذى تنعمتم به في دار الدنيا ، هل قمتم بشكره ، وأديتم حق الله فيه ، ولم تستعينوا به ، على معاصيه ، فينعمكم نعيماً ، أعلى منه وأفضل .

أم اغتررتم به ، ولم تقوموا بشكره ؟ بل ربما استعنتم به على المعاصى ، فيعاقبكم على ذلك ، قال تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون » الآية .

تم تفسير سورة التكاثر ـ ولله الحمد والفضل

تفسـير

سورة العصر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا

---

* أقسم تعالى بالعصر، الذى هو الليل والنهار، محل أفعال العباد وأعمالهم أن كل إنسان خاسر، والخاسر ضد الرابح .

والخسار مراتب متعددة متفاوتة :

قد يكون خسارا مطلقا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق الجحيم .

وقد يكون خاسرا من بعض الوجوه، دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات :

الإيمان بما أمر الله بالإيمان به ، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه، لا يتم إلا به .

والعمل الصالح، وهذا شامل، لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحقوق الله، وحقوق عباده، الواجبة والمستحبة .

﴿ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾

والتواصى بالحق ، الذى هو الإيمان والعمل الصالح ، أى : يوصى بعضهم بعضا بذلك ، ويحثه عليه ، ويرغبه فيه .

والتواصى بالصبر على طاعة الله ، وعن معصية الله ، وعلى أقدار الله المؤلمة .

فبالأمرين الأولين ، يكمل العبد نفسه .

وبالأمرين الأخيرين ، يكمل غيره .

وبتكميل الأمور الأربعة ، يكون العبد ، قد سلم من الخسار ، وفاز بالربح العظيم .

تم تفسير سورة العصر ـ بحمد الله وفضله

تفســـير

سُورَةُ الهُمَزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ﴿٤﴾

[ويل] أى : وعيد ، ووبال ، وشدة عذاب [لكل همزة لمزة] .

أى : الذى يهمز الناس بفعله ، ويلمزهم بقوله .

فالهماز : الذى يعيب الناس ، ويطعن عليهم بالإشارة والفعل .

واللماز : الذى يعيبهم بقوله .

ومن صفة هذا الهماز ، أنه لا همّ له ، سوى جمع المال وتعديده ، والغبطة به ، وليس له رغبة فى إنفاقه ، فى طرق الخيرات ، وصلة الأرحام ونحو ذلك .

[يحسب] بجهله [أن ماله أخلده] فى الدنيا ، فلذلك كان كده وسعيه ، فى تنمية ماله ، الذى يظن أنه ينمى عمره .

ولم يدر أن البخل ، يقصف الأعمال ، ويخرب الديار ، وأن البر ، يزيد فى العمر .

وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ ﴿٩﴾

[كلا لينبذن] أى : ليطرحن [فى الحطمة * وما أدراك ما الحطمة] تعظيم لها ، وتهويل لشأنها . ثم فسرها بقوله :

[نار الله الموقدة] التى وقودها الناس والحجارة ، و [التى] من شدتها [تطلع على الأفئدة] أى : تنفذ من الأجسام إلى القلوب .

ومع هذه الحرارة البليغة هم محبوسون فيها ، قد أيسوا من الخروج منها .

ولهذا قال : [إنها عليهم مؤصدة] أي : مغلقة [فى عمد] من خلف الأبواب [ممددة] لئلا يخرجوا منها .

« كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها » .

نعوذ بالله من ذلك ، ونسأله العفو والعافية .

تم تفسير سورة الهمزة ـ ولله الحمد والشكر

تفسير

سورة الفيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾

---

* أى : أما رأيت من قدرة الله ، وعظيم شأنه ، ورحمته بعباده ، وأدلة توحيده ، وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم ، ما فعله الله بأصحاب الفيل ، الذين كادوا بيته الحرام ، وأرادوا إخرابه .

فتجهزوا لأجل ذلك ، واستصحبوا معهم ، الفيلة ، لهدمه ، وجاءوا بجمع لا قِبَلَ للعرب به ، من الحبشة واليمن .

فلما انتهوا إلى قرب مكة ، ولم يكن بالعرب مدافعة ، وخرج أهل مكة ، خوفا منهم ، أرسل الله عليهم طيرا أبابيل ، أى : متفرقة ، تحمل أحجارا محماة ، من سجيل .

فرمتهم بها ، وتتبعت قاصيهم ودانيهم .

فخمدوا ، وهمدوا ، وصاروا كعصف مأكول .

تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

وكفى الله شرهم ، ورد كيدهم فى نحورهم .

وقصتهم معروفة مشهورة ، وكانت تلك السنة ، التى ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فصارت من جملة إرهاصات دعوته ، وأدلة رسالته . فلله الحمد والشكر .

تم تفسير سورة الفيل - بحمد الله وفضله

تفسير

سورة قريش

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن

---

* قال كثير من المفسرين : إن الجار والمجرور متعلق بالسورة ، التى قبلها .

أى : فعلنا مافعلنا بأصحاب الفيل ، لأجل قريش ، وأمنهم ، واستقامة مصالحهم ، وانتظام رحلتهم فى الشتاء لليمن ، وفى الصيف للشام ، لأجل التجارة والمكاسب .

فأهلك الله من أرادهم بسوء ، وعظم أمر الحرم وأهله ، فى قلوب العرب ، حتى احترموهم ، ولم يعترضوا لهم ، فى أى سفر أرادوا .

ولهذا أمرهم الله بالشكر فقال : [فليعبدوا رب هذا البيت] أى : ليوحدوه ، ويخلصوا له العبادة .

جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

[الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف] فرغد الرزق والأمن من الخوف ، من أكبر النعم الدنيوية ، الموجبة لشكر الله تعالى .

فلك اللهم الحمد والشكر ، على نعمك الظاهرة والباطنة .

وخص الله الربوبية بالبيت ، لفضله وشرفه ، وإلا فهو رب كل شيء .

تم تفسير سورة قريش - بعون الله وتيسيره

تفســـير

سُورَةِ الماعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ الَّذِى يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾

---

* [أرأيت الذى يكذب بالدين] أى : بالبعث والجزاء ، فلا يؤمن بما جاءت به الرسل .

[فذلك الذى يدع اليتيم] أى : يدفعه بعنف وشدة ، ولا يرحمه لقساوة قلبه .

ولأنه لا يرجو ثواباً ، ولا يخاف عقاباً .

[ولا يحض] غيره [على طعام المسكين] ومن باب أولى ، أنه بنفسه ، لا يطعم المسكين .

[فويل للمصلين] أى : الملتزمين لإقامة الصلاة ، ولكنهم [عن صلاتهم ساهون] أى : مضيعون لها ، تاركون لوقتها ، مخلون بأركانها .

وهذا لعدم اهتمامهم ، بأمر الله حيث ضيعوا الصلاة ، التى هى أهم الطاعات .

ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

والسهو عن الصلاة ، هو الذى يستحق صاحبه الذم واللوم .

وأما السهو فى الصلاة ، فهذا يقع من كل أحد ، حتى من النبى صلى الله عليه وسلم .

ولهذا وصف الله هؤلاء ، بالرياء والقسوة ، وعدم الرحمة فقال :

[الذين هم يراءون] أى يعملون الأعمال ، لأجل رئاء الناس .

[ويمنعون الماعون] أى : يمنعون إعطاء الشىء ، الذى لا يضر إعطاؤه ، على وجه العارية ، أو الهبة ، كالإناء ، والدلو ، والفأس ، ونحو ذلك ، مما جرت العادة ببذله ، والسماح به .

فهؤلاء ـ لشدة حرصهم ـ يمنعون الماعون ، فكيف بما هو أكثر منه.

وفى هذه السورة ، الحث على إطعام اليتيم ، والمساكين ، والتحضيض على ذلك ، ومراعاة الصلاة ، والمحافظة عليها ، وعلى الإخلاص فيها ، وفى سائر الأعمال .

والحث على فعل المعروف ، وبذل الأموال الخفيفة ، كعارية الإناء ، والدلو ، والكتاب ، ونحو ذلك ، لأن الله ، ذم من لم يفعل ذلك . والله سبحانه أعلم .

تم تفسير سورة الماعون ـ بحول الله ومعونته

تفسير

سورة الكوثر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ ﴾

---

* يقول الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم [إنا أعطيناك الكوثر] أى : الخير الكثير ، والفضل الغزير ، الذى من جملته ، ما يعطيه الله لنبيه صلى الله عليه وسلم ، من النهر الذى يقال له « الكوثر » .

ومن الحوض ، طوله شهر ، وعرضه شهر ، ماؤه أشد بياضا من اللبن ، وأحلى من العسل .

آنيته عدد نجوم السماء ، فى كثرتها ، واستنارتها ، من شرب منه شربة ، لم يظمأ بعدها أبداً .

ولما ذكر منته عليه ، أمره بشكرها فقال :

[فصل لربك وانحر] خص هاتين العبادتين بالذكر ، لأنهما أفضل العبادات ، وأجل القربات .

ولأن الصلاة تتضمن الخضوع فى القلب والجوارح لله ، وتنقله فى أنواع العبودية .

إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

وفى النحر ، تقرب إلى الله ، بأفضل ما عند العبد ، من الأضاحى ، وإخراج للمال الذى جبلت النفوس ، على محبته ، والشح به .

[إن شانئك] أى : مبغضك وذامك ، ومنتقصك [هو الأبتر] أى : المقطوع من كل خير ، مقطوع العمل ، مقطوع الذكر .

وأما محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الكامل حقا ، الذى له الكمال الممكن للمخلوق ، من رفع الذكر ، وكثرة الأنصار ، والأتباع ، صلى الله عليه وسلم .

تم تفسير سورة الكوثر ـ فلله الحمد والشكر

تفســـير

سُورَة الكافِرونَ

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ﴿٢﴾
وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴿٤﴾
وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾

---

* أى : قل للكافرين معلنا ومصرحا [لا أعبد ما تعبدون] أى : تبرَّأْ مما كانوا يعبدون ، من دون الله ، ظاهراً وباطناً .

[ولا أنتم عابدون ما أعبد] لعدم إخلاصكم فى عبادتكم لله .

فعبادتكم له ، المقترنة بالشرك ، لا تسمى عبادة .

وكرر ذلك ، ليدل الأول على عدم وجود الفعل .

والثانى ، على أن ذلك قد صار وصفا لازما .

ولهذا ميز بين الفريقين ، وفصل بين الطائفتين فقال :

[لكم دينكم ولى دين] كما قال تعالى : « قل كل يعمل على شاكلته * أنتم بريئون مما أعمل وأنا برىء مما تعملون » .

تم تفسير سورة الكافرين ـ بفضل الله وتيسيره

تفســـير

سورة النصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ

---

* في هذه السورة الكريمة ، بشارة وأمر لرسوله ، عند حصولها، وإشارة، وتنبيه ، على ما يترتب على ذلك .

فالبشارة هي : البشارة بنصر الله لرسوله ، وفتحه مكة ، ودخول الناس في دين الله أفواجا ، بحيث يكون كثير منهم ، من أهله وأنصاره ، بعد أن كانوا من أعدائه . وقد وقع هذا المبشر به .

وأما الأمر بعد حصول النصر والفتح ، فأمر رسوله ، أن يشكره على ذلك ، ويسبح بحمده ويستغفره .

وأما الإشارة ، فإن في ذلك إشارتين :

إشارة أن النصر يستمر للدين ، ويزداد عند حصول التسبيح بحمد الله واستغفاره ، من رسوله ، فإن هذا ، من الشكر ، والله يقول : « لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وقد وجد ذلك فى زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم فى هذه الأمة .

لم يزل نصر الله مستمرا ، حتى وصل الإسلام إلى ما لم يصل إليه، دين من الأديان ، ودخل فيه ، من لم يدخل فى غيره .

حتى حدث من الأمة ، من مخالفة أمر الله ما حدث ، فابتلوا بتفرق الكلمة ، وتشتت الأمر ، فحصل ما حصل .

ومع هذا ، فلهذه الأمة ، وهذا الدين ، من رحمة الله ولطفه ،مالا يخطر بالبال ، ويدور فى الخيال .

وأما الإشارة الثانية ، فهى إلى أن أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قد قرب ودنا .

ووجه ذلك ، أن عمره ، عمر فاضل ، أقسم الله به .

وقد عهد أن الأمور الفاضلة ، تختم بالاستغفار ، كالصلاة ، والحج ، وغير ذلك .

فَأَمْرُ الله لرسوله بالحمد والاستغفار في هذه الحال ، إشارة إلى أن أجله قد انتهى .

فليستعد ويتهيأ للقاء ربه ، ويختم عمره ، بأفضل ما يجده ، صلوات الله وسلامه عليه .

فكان يتأول القرآن ، ويقول ذلك فى صلاته يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده .

« سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى » .

تم تفسير سورة النصر - بتيسير الله ومعونته

تفسير

سورة المسد

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ

---

* أبو لهب ، هو : عم النبي صلى الله عليه وسلم .

وكان شديد العداوة والأذية له ، فلا دين له ، ولا حمية للقرابة ، قبحه الله .

فذمه الله بهذا الذم العظيم ، الذى هو خزى عليه إلى يوم القيامة فقال:

[تبت يد أبى لهب] أى . خسرت يداه ، وشقى [وتب] فلم يربح .

[ما أغنى عنه ماله] الذى كان عنده ، فأطغاه .

[وما كسب] لم يرد عنه شيئا من عذاب الله ، إذا نزل به .

[سيصلى نارا ذات لهب] أى : ستحيط به النار من كل جانب ، هو [وامرأته حمالة الحطب] .

وكانت أيضا شديدة الأذية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، تتعاون

ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾

هى وزوجها على الإثم والعدوان ، وتلقى الشر وتسعى غاية ما تقدر عليه فى أذية الرسول صلى الله عليه وسلم ، وتجمع على ظهرها الأوزار ، بمنزلة من يجمع حطبا ، قد أعد له فى عنقه حبلا [من مسد] أى : من ليف .

أو أنها ، تحمل فى النار الحطب ، على زوجها ، متقلدة فى عنقها ، حبلا من مسد .

وعلى كل ، ففى هذه السورة ، آية باهرة من آيات الله .

فإن الله أنزل هذه السورة ، وأبو لهب وامرأته ، لم يهلكا .

وأخبر أنهما سيعذبان في النار ، ولا بد ، ومن لازم ذلك ، أنهما لا يسلمان .

فوقع كما أخبر ، عالم الغيب والشهادة .

تم تفسير سورة المسد ـ بعون الله وتيسيره

تفسير

سورة الإخلاص

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾ ﴾

---

* أي [قل] قولا جازما به ، معتقدا له عارفا بمعناه :

[هو الله أحد] أي : قد انحصرت فيه الأحدية ، فهو الأحد المنفرد بالكمال ، الذى له الأسماء الحسنى ، والصفات الكاملة العليا ، والأفعال المقدسة ، الذي لا نظير له ولا مثيل .

[الله الصمد] أى : المقصود فى جميع الحوائج .

فأهل العالم العلوى والسفلى . مفتقرون إليه غاية الافتقار ، يسألونه حوائجهم ، ويرغبون إليه فى مهماتهم ، لأنه الكامل فى أوصافه ، العليم الذى قد كمل فى علمه .

الحليم الذى كمل فى حلمه ، الرحيم الذى وسعت رحمته كل شىء . وهكذا سائر أوصافه .

ومن كماله ، أنه [لم يلد ولم يولد] لكمال غناه[ولم يكن له كفوا أحد] لا فى أسمائه ، ولا فى صفاته ، ولا فى أفعاله ، تبارك وتعالى .

فهذه السورة ، مشتملة ، على توحيد الأسماء والصفات .

تم تفسير الإخلاص ـ ولله الحمد والشكر

تفســــير

سُورَة الفَلَق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾

---

* أى : [قل متعوذا [أعوذ] أى : ألجأ ، وألوذ ، وأعتصم [برب الفلق] أى : فالق الحب والنوى ، وفالق الإصباح .

[من شر ما خلق] وهذا يشمل جميع ما خلق الله ، من إنس ،وجن ، وحيوانات ، فيستعاذ بخالقها ، من الشر ، الذى فيها .

ثم خص بعد ما عم ، فقال :

[ومن شر غاسق إذا وقب] أى : من شر ما يكون فى الليل ، حين يغشى النعاس ، وينتشر فيه كثيرمن الأرواح الشريرة، والحيوانات المؤذية .

[ومن شر النفاثات فِي العقد] أى: ومن شر السواحر ، اللاتى يستعن على سحرهن بالنفث فى العقد ، التى يعقدنها على السحر .

وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

[ومن شر حاسد إذا حسد] والحاسد ، هو الذى يحب زوال النعمة عن المحسود فيسعى فى زوالها ، بما يقدر عليه من الأسباب .

فاحتيج إلى الاستعاذة بالله ، من شره ، وإبطال كيده .

ويدخل فى الحاسد ، العاين ، لأنه لا تصدر العين ، إلا من حاسد شرير الطبع ، خبيث النفس .

فهذه السورة ، تضمنت الاستعاذة ، من جميع أنواع الشرور ، عموما وخصوصا .

ودلت على أن السحر ، له حقيقة ، يخشى من ضرره ، ويستعاذ بالله منه ، ومن أهله .

تم تفسير سورة الفلق ـ ولله الحمد والشكر

تفسير

سورة الناس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ

وهذه السورة ، مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم ، وإلههم ، من الشيطان ، الذى هو أصل الشرور كلها ، ومادّتها ، الذى من فتنته وشره ، أنه يوسوس فى صدور الناس ، فيحسن لهم الشر ، ويريهم إياه فى صورة حسنة ، وينشط إرادتهم لفعله .

ويثبطهم عن الخير ، ويريهم إياه فى صورة غير صورته .

وهو دائماً ، بهذه الحال ، يوسوس ، ثم يخنس ، أى : يتأخر عن الوسوسة ، إذا ذكر العبد ربه ، واستعان على دفعه .

فينبغى له أن يستعين ، ويستعيذ ، ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم .

وأن الخلق كلهم ، داخلون تحت الربوبية والملك ، فكل دابة ، هو آخذ بناصيتها .

وبألوهيته ، التى خلقهم لأجلها .

فِي صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

فلا تتم لهم، إلا بدفع شر عدوهم، الذى يريد أن يقتطعهم عنها، ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه، ليكونوا من أصحاب السعير.

والوسواس كما يكون من الجن، يكون من الإنس.

ولهذا قال: [من الجنة والناس].

والحمد لله رب العالمين أولا وآخراً وظاهراً وباطناً.

ونسأله تعالى أن يتم نعمته، وأن يغفر لنا ذنوبنا، التى حالت بيننا وبين كثير من بركاته، وخطايا وشهوات ذهبت بقلوبنا، عن تدبر آياته.

ونرجوه، ونأمل منه، أن لا يحرمنا خير ما عنده، بشر ما عندنا، فإنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، ولا يقنط من رحمته إلا الضالون.

وصلى الله وسلم على رسوله محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، صلاة وسلاماً دائمين متواصلين أبد الأوقات. والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات.

تم تفسير كتاب الله بعونه، وحسن توفيقه، على يد جامعه، وكاتبه «عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله» المعروف بـ «ابن سعدى».

وقع النقل فى ٧ شعبان سنة ١٣٥٤ هـ.

ربنا تقبل منا، واعف عنا، إنك أنت الغفور الرحيم.

فهرس

الجزء السابع

تم بحمد الله وعونه تفسير الجزء السابع

وبه تم كتاب تيسير الكريم الرحمن

فى تفسير كلام المنان

رقم الإيداع ٣٨٥٠/١٩٧٧

